

التَّهَامِيُّ نَقْرَةٌ

سَبْكُ وَجْهِ الْقَصِيَّةِ

فِي الْقُرْآنِ

رَسَالَةُ دَكْتَرَاه

الْحَلْفَةُ الثَّلَاثَةُ

جَامِعَةُ الْجَزَائِرِ 1961

مَكْتَبَةُ كِتَابِ كَوْنِيَّةِ التَّوْرِيَّةِ

الفهرس

5	مقدمة
29	البحوث السابقة وطرقها
23	موضوع البحث ومنهجه

الباب الاول قسم البحث النظري :

(305 - 47)

الفصل الأول : مصدر القصة القرآنية

(84 - 49)

51	الوحي والنبوة
59	أثر الوحي السماوى
61	من آراء المستشرقين فى القرآن وقصصه
77	الذات المحمدية والوحي القرآنى

الفصل الثانى : المنهج القصصى للقرآن

(110 - 85)

87	الأسلوب
91	الإجمال والتفصيل
93	إبراز العناصر
99	بين القرآن والكتاب المقدس

الفصل الثالث : التكرار في قصص القرآن

(155 - III)

III	أسبابه
II7	مواطنه
I28	أغراضه
I38	طريقته
I42	هل في التكرار تعارض

الفصل الرابع : أنواع القصص القرآني

(256 - I56)

I59	انتفاء الأسطورة والرمزية
I76	القصص التاريخي
I77	تفسير القرآن للتاريخ
I83	عرض القرآن للتاريخ
I90	السنن والظواهر العامة
2I9	الصدق في أخبار القرآن
245	القصص التمثيلي

الفصل الخامس : جوانب المعرفة في قصص القرآن

(274 - 257)

260	الكون
264	النفس
27I	التاريخ

الفصل السادس : عرض ونقد لمنازع المفسرين

(305 - 275)

275	الاسرائيليات والقصص
278	آفات القصص
280	منشأ اختلاف المفسرين
29I	من أمثلة الاختلاف

الباب الثانى

قسم البحث التحليلى

(597 - 309)

الفصل الأول : تحليل القصة القرآنية

(420 - 348)

312	جوانب التحليل العامة
312	شخصية صاحب الدعوة
316	البيئة التى نزل فيها القصص
324	الانسان
327	قصة صالح وتمود
328	المضمون
329	المحور العام
329	الغرض العام
331	عناصر التحليل
334	القصص والرسول

الفصل الثانى : عناصر القصة القرآنية

(420 - 348)

349	الأحداث
360	الشخصية
399	شخصية المرأة
410	الحوار

الفصل الثالث : عوامل التأثير فى قصص القرآن

(508 - 421)

421	اختلاف المؤثرات فى الناس
-----	--------------------------

425	التأثير النفسى
436	الحضور الالهى
439	القدر
444	الترهيب والترغيب
456	معرفة السياق والمناسبة
460	الجانب الانفعالى والعاطفى
463	الاىحاء
466	الاقتران
469	الاقتناع
488	الابداع الفنى

الفصل الرابع : نظرات فى قصة يوسف

(542 - 509)

512	سير الأحداث فى القصة
514	الجانب النفسى فى القصة
518	الأحلام فى القصة
521	بين القرآن والعهد العتيق

الفصل الخامس : الجانب التربوى فى قصص القرآن

(597 - 543)

543	أثر القصص فى العقيدة والسلوك
553	تربية الأنبياء
571	مسالك التربية فى قصص القرآن
589	علاج الذنب بالتوبة

الفهارس

599	فهرس الآيات
617	فهرس الأحاديث
619	فهرس أسماء الأنبياء
623	فهرس الأعلام
629	فهرس الأماكن
631	المصادر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

بدأت حياة الانسان على الأرض بقصة عُرِضت فيها تجربته الأولى متمثلة في شعوره بنفسه ، وفي يقظة القوى الكامنة في طبيعته المزدوجة من الخير والشر .

إنها قصة هذا الكائن البشري الذي شاءت إرادة الخالق العليا أن تُكرمه ، فتستخلفه في الأرض وتمكّنه فيها ، وتكل إليه أمر اكتشاف الحقيقة بعد أن أودعته سر القدرة على المعرفة بارشاد الرسل وهدى العقل ، معرفة النواميس التي تحكم هذا الوجود ، ووهبته حرية الارادة، إرادة الفكر والفعل ليوجّه سلوكه ، ويختار طريقه في الحياة

ويتجلّى هذا الصراع في قصة ابني آدم : « إِذْ قَرَّبْنَا قُورْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ ، قَالَ : لأَفْتُلِسْكَ ! قَالَ : إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لِأَفْتُلِكَ ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ . فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ، فَفَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ » (1) .

فهذه القصة رسمت معالم شخصيتين متباينتين بالحوار الذي أظهر نفسيّة الإيمان ونفسية الكفر ، وشرح ما يعتمل في نفس الشّرير . فهاييل وقابيل شقيقان ، ولكنهما نموذجان من البشر مختلفان . أحدهما يمثل نزعة الشرّ ببيغيه وعدوانه ، وثانيهما يمثل نزعة الخير باستقامة طبعه وجهه للسلام .

وبمرور الزمن يتّسع نطاق الصّراع بتوسّع التجربة في الإنسان ، فيتجاوز شعوره بنفسه ، وشعوره نحو أخيه الإنسان ، إلى الكون الرّهيب ، فيأقّي فيه بحواسّه مستكنها أسرارها . وتأخذ الدهشة ويتملكه الخوف من الظواهر الكونية المفزعة ، كالعواصف والصواعق والزلازل والبراكين ، فلا يجد حيلة لالتقائها إلا أن يستسلم إلى الاعتقاد بأن وراء تلك الظواهر أرواحا جبّارة تتصرّف في الكون كما تشاء . فيتخذ منها آلهة تُعبّد ، وتكذبه التجربة ، فيلتجئ إلى قوة كونيّة أخرى يراها أقوى ممّا كان يعبد
وتتعدّد الافتراضات ، فتتعدّد الالهة وتتنوّع .

وهكذا كان الإنسان متديّنا بفطرته ، وكانت طفولة الإنسان قسوة مشيرة ، مليئة بالمخاوف وبالميثولوجيا التي من أخصّ مميّزاتها دخول الأساطير الدنيّة في تفسير العلاقة التي تربط الإنسان بالوجود ، وتعليل ما يجري فيه من ظواهر .

فكان معظم الأساطير القديمة ينبع من شعور ديني أنشأته غريزة الخوف . وعنصر الدّين في "التراجيديا" القديمة هو الذي حفظ لها حرارتها على مدى العصور . فهي — بالرغم مما تشتمل عليه من خرافات تبدو للنظرة السطّيحة سخيفة — لا تخلو من روعة

الفن ، وذلك باستبطانها للانفعالات والأحاسيس التي انتابت الإنسانية وهي تصارع الحياة ، وبتصويرها لمأساة الإنسان في حيرته وخوفه ، وفي تردده بين الألوهية والحيوانية .

وبالرجوع إلى تاريخ الفن ندرك كيف تفجّر عن الشعور الديني ، إذا كنا نعني بالدين : محاولة الإنسان أن يجد الجواب على معضلة وجوده ومصيره ! فما استلهم الإنسان روائع الفن إلا في جلال الكون ، وهيبة الهياكل والمعابد .

قال تولستوي (Tolstoi) : « إن تقييم المشاعر الإنسانية يقوم على الأديان وحدها وهذا التصور الديني هو الذي يقرّر المشاعر التي يعبر عنها » (1) .

والحق أن الأديان السماوية التي رفعت منزلة الإنسان في الكون ، وعلمته كيف يسمو فوق ذاته ، كان لها النصيب الأوفر في دفع عجلة الزمن للخروج بالإنسانية من البدائية اللاهوتية التي كان من أبرز آثارها في الإنسان سيطرة الأوهام عليه ، فأصبح بفضل ما غرست هذه الأديان في قلبه من اطمئنان ، وفي نفسه من ثقة ، باحثا عن حقيقة وجوده ، وعمّا يمكنه من فرض سيادته على هذا الكون الذي أنس إليه بعد الوحشة ، معتقدا أن هذه القوى الكونية الهائلة التي تنشر الدمار والخراب ، هي في الوقت نفسه تحفظ الحياة ، وتزيدها قوة ونماء ، لأنها لا تتصرف فيها إرادة عمياء ، بل إرادة مبدعة حسب سنن ونواميس ، ممّا جعل الحياة الإنسانية في اتصالها بالحقائق أعمق تفاؤلا وأكثر أمنا .

(1) مجلة الآداب : 1954 ، ع : II ، ص : 41 .

قال برناردشو (Bernard Shaw) : « إن دراسة تاريخ الأديان تصف لنا تطوّر نظرية الوجود ، من العبادة الوحشية الخشنة إلى العبادة المعنوية المهدّبة . ولقد كانت كلّ مرحلة من مراحل التطوّر الديني تمضي بالإنسان خطوة إلى تصوّر الطبيعة في صورة أنبل وأعمق » (1) فالأديان السماوية بدعوته الإنسان إلى الملاحظة التأملية في نفسه وفي الكون ، هي التي أعدته إلى هذا اللّون الجديد من المعرفة :
ففي القرآن :

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » (2) .

في الإنجيل :

« مَا يَسْتَفْعُ الْإِنْسَانَ لَوْ ربح الْعَالَمَ كُلَّهُ وَخسر نفسه ، وماذا يُعْطَى عن نفسه » (3)

وفي التوراة :

« وقال الله نضع إنسانا بتصويرنا إياه ، مسلّطا ، يستولي على سمك البحر ، وطيّر السماء ، والبهائم ، وجميع الأرض » (4) . فهذا التحوّل الجذري من حتمية آليّة إلى تحرّر واع من قيود الخوف بلا مبرر ، يظهر في « المأساة » على الخصوص .

(1) بنت الشاطيء : مقال في الانسان : 173 .

(2) فصلت : 55 .

(3) انجيل متى : اصحاح : 16 / 26 .

(4) سفر الخليفة : فصل : I .

فقد كانت في العهد الإغريقي تتسم بجبرية رتيبة يخضع فيها أبطال القصة أو الرواية إلى سلطة خارجية مُبْهَمَة ، هي التي تقودهم ، وتجعل أدوارهم ثانوية ، وتُرْجِع كل مصيبة تقع لهم إلى ذنب اقترف في حق تلك القوى أو المعبودات ، كما في أسطورة «أوديب» .

وبانتشار الأديان السماوية وتطور الحياة ، قَوِيَ الجانب النفسي في الإنسان . فصارت مواقف الأشخاص في القصة أو الرواية صادرة عن إرادتهم ، نابعة من ذواتهم . فهم يتحملون مسؤولية أخطائهم ، ويتمتعون بحقهم في الاختيار ، وفي حرية القبول والرفض

ولئن كان للتقدم البشري الذي حققه العلم في شتى مجالات الحياة شأن في هذا الاعتداد وهذه الثقة بالنفس ، فقد بينت التجربة أن الحقيقة التي يكشفها العقل المحض ، ليس لها من القدرة ما للدين على إشعال جذوة الإيمان الصادق ، « وهذا هو السبب في أن التفكير المجرد لم يؤثر في الناس إلا قليلا ، في حين أن الدين استطاع أن يغير مجرى الحياة ، كما استطاع أن ينهض بالأفراد ، ويبدل الجماعات ، ويغيرهم من حال إلى حال » (1) .

فكيف إذا عُرِض الدين على القلب والعقل معا في سياق قصصي مثير ؟

ذلك أن الأسلوب القصصي يُعتبر من أنجح الأساليب للتقويم والهداية . وقد روى القرآن أخبار الأمم السالفة ، فقدّمها إلى القلب والشعور بطرق مثيرة لعواطف الخير ، صارفة عن نوازع الشر ، تحمل في طياتها بذور الإيمان .

(1) محمد اقبال . تجديد التفكير الديني في الاسلام : 207 .

ومن ناحية أخرى فإن القصة - على اختلاف أنواعها - كانت ولم تنزل رفيقة الإنسان في جميع المراحل التاريخية التي مرّ بها ، معبرة عن آماله وآلامه ، كاشفة عن نظراته للحياة وفلسفته فيها .

وقد استطاعت أن تحلّل النفس بما لها من أبعاد متشعبة تحليلا عميقا ، وتبيّن نزعاتها الطارئة في إطار عواطفها ، وتحت تأثير الظروف الخارجية ، وتصوّر واقعها في حيرتها واهتدائها ، وفرحها وحزنها ، وغضبها وهدوئها ، وضعفها وقوتها ، وحبها وبغضها ، وتفائلها وتشاؤمها ؛ وتصوّر الحقيقة التي تقوم عليها الحياة من خير وشر ، وظلام ونور ، وسعادة وشقاء ! فهي تربة خصبة في حقل فسيح لإنتاج التجارب الإنسانية التي ينصهر فيها القاصّ ويعانيها ، فيقدمها صادقة في الإحساس ، نابضة بالحياة ، زاخرة بالفن .

قال قسيون (Guyan) :

« إننا لم نخلق لنحسب في ذواتنا ، لأن دموعنا أكثر مما نحتاج إليه آلامنا ، وأفراحنا أعظم مما تقتضيه سعادتنا » (1)

وإنما يكون تأثير القصة بحسب ما يملك القاصّ من قدرة على إخراج القارئ من حدود نفسه إلى جوّها ، وعلى إدماجه في حوادثها ليعيش مع الأشخاص حياتهم وتجاربهم .

وقد انتشرت القصة في عصرنا انتشارا فاقت به أنواع الأدب الأخرى في إثارة مختلف المشاعر والأفكار . فعرضت مكتوبة ومسموعة

(I) الاخلاق بدون فريضة ولا جزاء : Esquisse d'une L'Irreligion de l'avenir : morale sans obligation ni sanction.

ومشاهدة ، وأقبل الناس عليها في شغف وشوق ، لأن فهمها لا يستدعي جهدا كالشعر ، ولا إرهاقا كالبحث ، بل إن الفكر والوجدان يتلقفان ما حملته من آراء وعواطف واتجاهات في نشوة الجمال الفني الذي تُعرض فيه .

لذلك استُخدمت لبثّ العقائد الدينية . فقد كان الكهنة ورجال الدين يتخذونها وسيلة لنشر العقيدة ، وحمل الناس على الإيمان بها منذ عشرات القرون ، كما تشهد بذلك الآثار التي خلفها قدماء المصريين والأشوريين والبابليين والكلدانيين . كما استُخدمت لنشر المذاهب الاجتماعية ، والنظريات الفلسفية . فكان تأثيرها في كل ذلك عميقا . لأنها تعترف من معين الحياة ، وترتاد مجالات الفكر والعاطفة والواقع والخيال والتاريخ والدين

لكن من القصص ما ينير سبيل الحقّ والإيمان والخير . ومنها ما يثير الشكّ والحيرة ، ويدعو إلى التمرد على كلّ القيم ، والثورة على كل القيود . ومنها ما تمايه بواعث التسلية وعلالات البطالة والأهواء والغرائز الجنسية لتزجية الفراغ وقتل الوقت ، فتعرض المواقف وتسوق الأحداث بطريقة تُسوِّغ الخطيئة ، وتبرّر الأسباب الدافعة إليها ، وتهوّن أمر التوقّي منها ، حتى يكون القارئ أحيانا في صفّ الجريمة ومرتكبها .

وكثيرا ما تحفّ بالقصة مسالك يشوبها النزق والطيش ، ولكن عناصر المغامرة والمرح التي تتخللها في براعة وحنق تجعل هذه المسالك كأنّها نداء الطبيعة الذي لا بدّ منه (1) .

(I) محمد الغزالي : نظرات في القرآن : II9 .

واعتبارا لما لها من دور خطير في التوجيه الخفي المؤثر ،
ألح علماء التربية على حسن اختيار ما يعرض أو يُقدّم للناشئة من
قصص ، حتى لا ينقلب عاملا سيّء الأثر في تربيتهم وتكوينهم
الفكري والخلقي ، وهم لم يبلغوا بعدُ درجة من النضج تؤهلهم للتمييز ،
وتمكنهم من الحكم الصحيح على المواقف والتصرفات .

وفي القرآن الكريم يخاطب الله نبيه صلى الله عليه وسلم :
« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ (1) » ، « فَأَقْصِصْ
الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (2) » .

وفي العصر الحديث تغلغت القصة في أعماق الدين ، فتناولت
مشاكل القدر ، والحظوظ الإنسانية ، دون أن تعالج هذه القضايا معالجة
موضوعيّة ، أو تجد لها حلولها ، بل زرعت في القارئ أشواك
القلق والحيرة . والتشكك في العدالة الإلهية ، وفي كثير من القيم
الروحيّة . وكان لهذا القصص الوجودي صداه في نفوس بعض الشباب ،
لأن له أبعادا فلسفية ، إذ هو يمثل وجهة نظر الكاتب في الحياة ،
وتفسيره لها بطريقة مزجت بين الفكر والعاطفة ، والفلسفة والفن ،
فكان له تجاوب مع النفوس القلقة الحائرة .

ومن القصص الفلسفي الذي يجعل من الإنسان وحيرته محورا
ما يعتمد على منطق العقل وحده . ولخلوّه من النزعة الروحية والنظرة
المتطلّعة إلى ما وراء الطبيعة جاء جافا قاحلا ضيق الأفق . ليس فيه
رؤاء الفن الذي قيمته في تأثيره ، وفيما يحمل من مشاعر دينيّة ،

(I) يوسف : 3 •

(2) الاعراف : 176 •

وليس فيه صدى للحياة التي هي حركة مستمرة ، ونأى عن المنطق
المألوف في كثير من الأحيان .

وأرى من المفيد أن أتبسّط قليلا في عرض بعض القصص الفلسفي
عرضا سريعا كمدخل للقصص القرآني الذي لا يخلو من فلسفة في الدين
والحياة والتاريخ وما وراء عالم المادة ، حتى يتجلّى الفرق في الغايات
والأهداف بين القصص الفلسفي الوجودي ، والقصص القرآني ، وهما
متقابلان في كثير من الأحيان شكّا و يقينا ، وإيمانا وإلحادا ، وتحرّرا
والتزاما ، وبناء وهدما .

ولكن لا يصح تعميم هذه الأحكام على كل ما ظهر من قصص
فلسفي . فقد ظهرت قديما قصة (حي بن يقظان) لا بن طفيل ، التي
تبيّن كيف يستطيع الإنسان أن يتوصل إلى معرفة العالم العلوي
ويتهدي إلى معرفة الله وخلود النفس دون معونة من الخارج .

كما ظهرت حديثا عدّة قصص وروايات تمثل هذا اللون
الفلسفي الميتافيزيقي الذي يستهدف كشف الذات وتوضيح الشعور
نحو ما يحيط بالإنسان من هذا الوجود الذي لا حدود له ، ومدى
قدرته على استكناه أسراره . ومن ذلك مثلا :

قصة "السّد" التي يمثّل فيها « غيلان » إرادة الصّراع
العنيف بين الواقع المقيت والغيب المسدود في ثورة عارمة على الزيف
والعجز و الموت ، وعلى الاستسلام في أحضان الدّعة الجامدة ،
ثائقا إلى المطلق ، مؤمنا أن « ليس في الحدود والعراقيل حدّ واحد
ولا عقال واحد يعجز عن كسره العزم » (1) .

(I) محمود السعدى : السد : 97 .

ورواية « شهرزاد » التي تتعمّد فيها مشكلة المعرفة عندما يشتدّ ظمأ « شهريار » لها . ولكنه يصطدم بانغلاق سرّها عليه بقدر ما يزداد تطلّعه إلى الحقيقة (1) .

و« الإخوة كارامازوف » و« حذاء الشيطان » لدوستويفسكي « Dostoievski » وهما تمثّلان مأساة الشرّ والخير على ضوء التعاليم المسيحية ، باعتبار أنهما لا يُدرّكان إلا فيما يقوم به النّاس من أفعال .

ومن هذا القبيل مسرحيات كلودال « Claudel » ، في صدق تعبيرها عن الروح الكاثولوكية .

ومسرحيات ميترلنك « Materlink » ، في محاولة وصفها للغموض الرهيب الذي يكتنف الحياة ، والضيق الذي يرهق الروح .

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّه كلّما اتّجهت القصة نحو الذات الإنسانية للبحث عن دورها ومصدر حيرتها وقيمتها في الوجود التجأ القاص إلى التجربة الميتافيزيقية ، واشتدّ تَوَقُّه إلى ما وراء الحسّ . وكلّ إنسان يمرّ حتماً بهذه التجربة ، ولو في فترة عابرة من حياته خلال أفراحه ومتاعبه ، وهدوئه وثورته ، ومخاوفه وآماله .

ولكنّ بعض القاصّين الوجوديين تاهوا في متاهات الشك والتشاؤم ، فأنتوا باسم العقل والواقع على جذور الإيمان فاقتلعوها بمعول الإلحاد . ثمّ جعلوا من مواجهة القدر في هذه الحياة التي ليست في نظرهم سوى رحلة قصيرة بين الرّحيم والقبر بطولة

(I) توفيق الحكيم : شهرزاد : 82 .

مأساوية لإنسان القرن العشرين الذي أضجرتة تفاهة الحياة وسيرها إلى غير وجهة .

وهذا ما نجده في أكثر القصص المتأثر بالفلسفة الوجودية الملحدة ، أو فلسفة العبث ؛ مثل : « يأس الإنسان تجاه لا معقولة الوجود » ، لكافكا « Kafka » ، و « الجدار » ، لسارتر « Sartre » و « سوء تفاهم » لكامو « Camus » ، ونحو ذلك من القصص الحديث الذي يحاول علاج وضع الإنسان التّمس كوجود بدون ماهية ، على اعتبار أن كل ما يجري خارج تيار الزمن ، وكل ما يوسم بالثبات هو مزيف .

ولكن موقف القاص هنا سلبي ، لأنه لا يفترض حلا ، ولا يمدّ ضياء . بل هو يعرض الحيرة والشك والخوف ، ويكتفي بالتشاؤم والرفض .

فقصة الغريب مثلا : للكاتب الأنكليزي ، كولين ولسون « Wilson Colin » التي طبعت سنة 1956 سبع مرات ، والتي تبحث عن كنه مرض الإنسانية في هذا القرن ، محاولة تشخيص المرض الذي تعانيه ، تُعتبر مثلا حيا لهذه الأزمة النفسية التي تتخط فيها .

وتتمثل هذه الغربة في إحساس « الغريب » بأن العالم غير حقيقي . ويظل غريبا حين يعجز عن معرفة نفسه معرفة تمكّنه من إدراك كنه القوة الدافعة وراء أحاسيسه .

وبجانب مشكلة انعدام المعنى للحياة ، يهتم الكاتب بمشكلة أخرى وثيقة الصلة بها ، وهي مشكلة الحرية . فيرى أنها تفتري

حرية الإرادة . ولكن لا توجد الإرادة إلا إذا وجدت الدوافع أولاً . فلا إرادة بدون دوافع . والدوافع أمور متعلقة بالإيمان . فلا يرغب المرء في عملٍ ما إلا إذا آمن بأنه ذو معنى . والإيمان بدوره معناه : إيمان بوجود شيء ، أي إيمان مرتبط بما هو حقيقي .

وهكذا تتركز الحرية في نهاية الأمر إلى ما هو حقيقي . ولذلك نجد إحساس « الغريب » بعدم توفر الحقيقة في الحياة يقتلع حريته من جذورها ، إذ يستحيل على المرء أن يكون حرّاً في عالم غير حقيقي ، كما يستحيل عليه أن يقفز وهو ساقط (1) .

وهذا الكاتب الفرنسي جيد « Gide » ينحو منحى سوفوكل « Sophocle » في قصة « اوديب » ولكنه يجعل من إيمانه بالإنسان مادة خشوع تحلّ في النفس محلّ ذلك الخشوع للقوى الخفية العليا . إنه يلخص لنا ما يؤمن به الفكر الأوروبي المعاصر : وهو أن لا شيء في الكون غير الإنسان ، ولا قيمة في الكون لغير الإنسان (2) .

ثم هذا الكاتب الأيرلندي بيكيت « Beckett » في روايته الشهيرة « في انتظار قودو » التي أثارت من الاهتمام ما لم تنله رواية معاصرة ، كانت فيها تجربة « بيكيت » نابعة من روح يائسة .

فبينما يُلقى الوهم ظلّاته الكثيرة على أبطال الرواية ، منتظرين خلاص « قودو » أي خلاص المسيح لإنقاذ العالم ، يرى « بيكيت » أنهم ينتظرون الفراغ ، لأنه لا يشاركهم هذا الاعتقاد ، بل يعتبره عبثاً . إنه لا يؤمن بغير هذا الشعار : « لا شيء أكثر حقيقة من اللا شيء » .

(1) مصطفى بدوي : دراسات في الشعر والمسرح : 229 - 254

(2) توفيق الحكيم : أوديب : المقدمة .

والقول بأن الإنسان عاجز عن إدراك العدالة الالهية - رغم وجودها - هو في رأيه عقيدة سخيفة ، لا تزيده إلا مأساة وشعورا بالغرابة .

فما الزمن إلا خدعة . وما وجودنا اليومي سوى لُعبة تهريجية بدون نتائج حقيقية . لعبة تنبثق من الأمل الكاذب .

وتتضح مأساة الإنسان - حسب زعم الكاتب - بإحساسه بفراغ الكون ، وهجرة الله ، وانعدام الأمن والعدالة في هذه الرحلة التي تهدد الإنسان فيها ذئاب شرسة خلف كل منعطف (1) . وأي تشاؤم أشد من عرض صورة رمزية تجعل كل شخصيّة في الرواية تعيش في ظلمات الأوهام بلا أمل ولا هدف ؟

لقد قصدتُ أن أسهب قليلا في عرض نماذج لهذا اللون من القصص الذي طغى في عصرنا ، حتى كاد يقضي على القيم الروحية والأخلاقية التي كانت تقوم عند الشعوب الكاثوليكية قرونا طويلة على أساس الدين . وهو أن في الكون إلهها قويا قد أعدّ الثواب لمن أطاعه ، والعقاب لمن عصاه .

ولمّا تزعرع الدين وضعف سلطانه ، فقدت الأخلاق أساسها المتين ، وفقد الانسان كل اطمئنان في الحياة (2) . في حين أن القصص السماوي عامة والقصص القرآني خاصة ، جعل لحياة الإنسان معنى لا يزول ، وجعله متصلا بحياة الكون في أوسع مداه .

(1) مجلة المعرفة : 1969 - ع : 83 - ص : 46 - 75 .

(2) ق : لوبون « G. le Bon » . روح التربية (ت) طه حسين : III .

وبصلاح العقيدة تصلح الأخلاق ، ويستقيم النظر للحياة . إذ أن العقيدة الدينية قوة عظيمة تحرك السلوك وتوجهه ، ويستمد منها الإنسان في شتى ظروف الحياة ما تتخاذه دونه النزوات والأهواء ، وما يكون له عوناً على البت في ما يعرض له من قضايا يغشاها الصراع النفسي بين الدوافع المختلفة (1) .

قال يونغ « Yung » : يمكن القول بأن سيّد العناصر والآلات لم تجعل منه كلّ وسائل التقدّم العلمي إنساناً أكبر من حقيقته ، وإنّما على العكس من ذلك ، صغرت من هذه الحقيقة ، بل كادت تسحقها . ويعلّل هذا الصدام بين الدين والعلم أن معتقدات الكنيسة موغلة في القِدَم . فهي مليئة بالرموز الميثولوجية التي لا بدّ أن تصبح يوماً ما في حالة صراع مع المعرفة (2) .

ومن يتعمق في درس الفكر الاسلامي يدرك أن طبيعة الاسلام ومرورته ، ووضوح منهجه العلمي والعملية ، ممّا يحوّل دون أيّ صدام أو صراع مهما تطوّرت الحياة .

وإذا كانت الأديان السماوية حفظت للإنسان منزلة رفيعة في الأرض والسماء إذا هو عرف حقيقة وجوده ، واحتفظ بهذا المستوى الرفيع لمنزلته ، فإنّ العلم جعل له سلطاناً على قوى الطبيعة ، ولكنّه في نفس الوقت حبسه في بوتقة المادة ، وصرفه عن التأمّل في الجانب المقابل لكيانه الإنساني ، وهو الجانب الروحي ، وقطع صلته بأعماق

(1) احمد عزت راجح : اصول علم النفس : 140 - 141 •

(2) المعرفة 1964 : ع : 32 - ص : 117 - 118 •

وجوده ، وسلبه نعمة الإيمان بمُبدع الكون ، وإيمانه في مصيره هو ، وأفقده الثقة بكل شيء .

يقول آداموف « Adamov » معبراً عن معاناته المريرة :
« أعرف قبل كل شيء أنني موجود . لكن من أنا ؟ أعرف أنني أتألم .
وإذا كنت أتألم فلأنّ في أعماقي انفصاما وانقساماً . إنني منفصم . هذا
صحيح . ولكن ما هذا الذي انفصمت عنه ؟ إنني لا أستطيع أن
أعرفه أو أسمّيه » (1) .

إنّ التحرر من سلطان الدين مصدر القيم الروحية والمثل العليا
هو في الحقيقة عبوديّة النفس للنزوات والأهواء ، وانحرافها
عن مصدر النور والهداية .

ذلك أنّ الدين هو الذي حمى الإنسان من فكرة العدم المدمرة
لإرادة الحياة ، ومنحه الأمل في أنّ كفاحه في رحلته ليس عبثاً
ينتهي بضجعة القبر . « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ
إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ » (2) .

ومن هنا كان من أهمّ أهداف القصص القرآني إثبات عقيدة البعث
ودفع الشك عنها ، بما ضرب لذلك من أمثلة واقعية تؤيد هذه الحقيقة
وتقرّها ، وتثبت أنّ أنفسنا روحية تمتاز جوهرياً عن نفس الحيوان .

وكم في هذا القصص من آيات الله في الكون وفي عالم النفس ،
وفي وقائع التاريخ ما ينهض دليلاً على وجوده وقدرته !!

(I) المسرح والسينما : ع 57 - ص : 34 .

(2) المؤمنون : II5 .

إنّ إنسان العصر الذي فجر الذّرة ، وتحكّم في موجات الأثير ، واقتحم مجاهل الفضاء ، وغزا القمر ، لا سبيل له الى طمأنينة تريحه من عناء الحيرة والخوف والتشاؤم إلاّ إيمانه بما وراء عالم المادّة المحسوس ، على أساس ألاّ تعارض بين الإيمان بالعلم، والإيمان بالدين (1).

إذ أنّ استغلال الدّين ضدّ طبيعته لعرقلة التقدم ، كاستغلال العلم ضد طبيعته لتدمير الحضارة . وربط الإلحاد بالرقى الفكري والتقدّم العلمي لا يقلّ سداجة عن ربط الدين بالتخلف الحضاري والجمود العقلي (2) .

وما زال علماء الاجتماع يعدّون من أسباب نهوض المجتمعات وانحلالها حالة الدين والعقيدة . وقد شهد القرآن بذلك ونّبّه إليه على لسان سليمان في قصته مع بلقيس :

« وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ . وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ » (3)

فقد كانت عبادتها للشمس ممّا صدّها عن حصول العلم النافع ، لئذ أنّها بذلك الاعتقاد الباطل منصرفه عن الرشد الفكري ، واستكمال الحضارة الصحيحة ، لأنّ أعمال الناس تكيّف بحسب ما يصدر عن معتقداتهم من أفكار وسلوك (4) .

(I) مقال في الانسان : 156

(2) المصدر السابق : 169

(3) النمل : 42

(4) محمد الطاهر ابن عاشور : أصول النظام الاجتماعي والولوى فى

الإسلام : 9

وقد أبان بعض أحداث القصص القرآني أن الفكر في الإنسان ليس كل شيء ، بل هو نافذة من نوافذ النفس الكثيرة التي تُطلّ على هذا الوجود ، رغم ما يزعمه الماديّون والطبيعيّون بأنّ الأديان حوادث تاريخية اقتضتها ظروف خاصة ، وقد أدّت وظيفتها وأخذت في الاضمحلال ، ولن يقوم لها في عصر العلم قائمة .

وهكذا كان القصص القرآني وسيلة طريفة لتقرير جوهر العقيدة ، وتوجيه النفس إلى الله ، حتى تظهر آثار التوحيد في المشاعر والتصوّرات ، ظهورها في السلوك والتصرفات . كما كان أداة لتربية النفوس ، وغرس الشعور بالسلطان الالهي الأعلى منشأ التعظيم والخضوع ، وروح العبادة والخشوع ، لأنه يستمدّ قدسيّته من قدسيّة الله .

وقد حاول النضر بن الحارث من مشركي قريش المناهضين للدعوة مقاومة الرسول بقصص ينافس به قصص القرآن فلم يفلح .
« روي انه كان يتجر إلى فارس ، فيشتري كتب الأعاجم ، فيحدث بها قريشا ويقول :

« إذا كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود ، فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة » ، فأنزل الله فيه (1) :
« وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذُهُمَا هُزُؤًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ .
وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَوَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » (2) .

(1) الزمخشري : **الكشاف** : ج : 2 / 193 .

(2) لقمان : 5 - 6 .

موضوع البحث ومنهجه

إن دراسة القصة القرآنية وتحليلها من حيث عوامل التأثير فيها ، ومن حيث منهجها القصصي ، ومصادر المعرفة فيها ، ودورها في التوجيه والتربية وغرس الإيمان ، وتحليل عناصرها من حوار وأحداث وأشخاص ، لَمَمًا يَمَكِّن من الوقوف على ما فيها من إبداع فني يكشف عن أسرار إعجازها البياني ، وإقناع عقلي يُلزم بالحجة ويهدي إلى الحق ، وتأثير وجداني يغذّي المشاعر ويسمو بالنفس . ذلك هو موضوع هذا البحث .

ولعلّ الجديد فيه يتمثل في محاولة استخدام بعض القواعد والأصول المقررة عند علماء النفس والتربية والاجتماع ، وفي استعمال المنهج التحليلي إلى جانب البحث النظري كوسيلة لدراسة القصة القرآنية بأكثر شمول وعمق ، وربط الجانب الفني فيها بالجانب النفسي لأنها يلتقيان في الهدف ، وهو التأثير الديني ؛ ولأن صلة الفنّ بالدين عريقة ومثينة .

ولعلّ من المفيد أن نشير بإيجاز إلى تفسير عنوان البحث ووجه اختياره . فكلمة بـسيكولوجية « Psychologie » عبارة يونانية الأصل مركّبة من كلمتين كما هو معروف . وهما « Psukhé » ومعناها : النفس ، و« Logos » ومعناها : العلم ، فصيرها الاصطلاح كلمة واحدة

وانتشر استعمال هذا الاصطلاح في المشرق العربي في شتى الدراسات النفسية ، حتى صارت كلمة « سيكولوجية » من أشهر المصطلحات العلمية التي ذاعت في الاستعمال العربي الحديث مثل : « سيكولوجية المجتمع ، وسيكولوجية الضمير ، وسيكولوجية التعليم ، وسيكولوجية الاطفال ، وسيكولوجية الأشخاص في القصص والروايات » .

وقد انفصل علم النفس عن الفلسفة منذ القرن التاسع عشر ، فأصبح علما مستقلا بذاته لما دخل المجال التجريبي والتحليلي ، وارتبط بالاحصاء وبالطب والرياضيات ، بعد أن كان مقتصرًا على نظريات مجردة .

وكان من دواعي الاختيار لهذا العنوان « سيكولوجية القصة في القرآن » اعتبار ما للمنهج التحليلي من أهمية في كل ما يتصل بالمؤثرات النفسية في هذا القصص ، واعتبار أن المبادئ والقيم الروحية التي يحتوي عليها ، هي في ذاتها موضوعات هامة جديرة بالبحث والتحليل . ولاني - إذ توخيت هذا الجانب النفسي لمعرفة عوامل التأثير في أسلوب القصص القرآني ، واستهوائه الوجداني ، وتوجيهاته التربوية ، وحججه المنطقية - لمأدرِك دقة الموضوع وتشمعه .

قال ق . لوبون « G. Le Bon » : للأسلحة النفسية قدرة أعظم من المدافع . غير أن استعمال مفتاح العوامل النفسية صعب لا يتسنى إلا بكثير من المهارة والحدق (1) .

(I) فلسفة التاريخ (ت) عادل زعيتر : 262 .

والقصة القرآنية سلاح نفسي في الدعوة المحمدية إلى عقيدة التوحيد ، وفي إقناع المخالفين عن طريق الجدل والحوار بسمو هذه العقيدة ، ونُبيل أهدافها .

فهي إذْ تعرض صوراً من الحياة ، ولقطاتٍ منتخبة من التاريخ تسمعنا أصداً النفوس في جهرها ونجواها ، وحين ترتفع في معارج الخير ، أو تتردى في مهاوي الشر ، وتُشعرنا بما في قرارة الجنس البشري من تجانس وتقابل عبر التاريخ .

كما أنها تُخرجنا بسرعة من حدود أنفسنا إلى جو أحداثها لنعيش مع أشخاصها حياتهم ، ونُحكّم عقولنا وعواطفنا في ما توحى به تصرفاتهم .

والسرعة التي تمتاز بها في العرض هي طابع العصر الحديث . فهدف هذا البحث - حيثُذ - هو معرفة منهج القرآن في قصصه الذي يختلف عن القصص البشري شكلاً ومضموناً ، كما هو يختلف عن قصص الكتاب المقدس .

وإذا علمنا أن أكثر القصص القرآني نزل في العهد المكّي ، وكان موجّهاً لبناء العقيدة الإسلامية ، أدركنا أن الجانب النفسي فيه من أهم الجوانب الجديرة بالدرس ، لِمَا له من دور في التأثير على قوم حياتهم النفسية متعلقةً بالبيئة القبلية ، وما يتبعها من عصبية متعددة ، تمزق الوحدة الاجتماعية ، وتقف في وجه أي دعوة دينية ، أو إصلاح اجتماعي .

وهذا التحوّل العقائدي ليس حادثاً بسيطاً كاهتداء عقليّ مفاجيء ، وإنما هو تحوّل جذري في الشخصية ومقوماتها ، نتيجة لعوامل مؤثرة ،

وتوجيه حكيم . وللقصص القرآني دور عظيم في هذا التوجيه والتأثير .
فما هي العوامل المؤثرة فيه ؟ أهى فنية ، أم دينية ، أم نفسية ؟ وما سر
هذا التأثير ؟

أهو الحضور الالهي في القصة ، والحياة مع الله في الكون وفي
النفس ، والشعور باللامتناهي في روعة الغيب ، ومفاجأة الخوارق ،
وهول الأحداث ، وتصرفات القدر ؟

أهو الترهيب من قوة خفية قاهرة ، أم الترغيب في حمى الإيمان ،
مصدر الأمن وينبوع الخير ؟

أهو الإبداع الفني ، أم الإقناع العقلي ، أم الإيحاء النفسي ؟

وهل جاءت القصة القرآنية تعليمية لمعرفة التاريخ ، أو تربوية لتهديب
السلوك ، وتقويم العقيدة ، أو بيانية للاعجاز البياني ؟ أو جاءت لكل ذلك .

إننا لنجد في القصة القرآنية ما يثير ويؤثر ، فكان لا بدّ من
كشف مواطن الإثارة والتأثير فيها . والمسلمون اليوم لم يكن لأكثرهم
ذلك الذوق الفطري السليم ، وتلك السليقة التي كانت تهزّ مشاعر
العربي حين نزول القرآن بروعة بيانه وبديع نظمته .

ولئن تعذّر على المسلمين اليوم أن يدركوا أسرار الإعجاز البياني
في قصص القرآن بالذوق الفطري ، فليدركوه بطريقة التحليل الفني
والنفسى ، سيما وقد أضحت دراسة القصة وتحليلها طريقة شائعة
لإبراز قيمتها في الأسلوب والمحتوى ، والكشف عن موحياتها
النفسية ، وأبعادها الفكرية ، وتسليط الأضواء عليها ، لتنبه الناس إليها ،
وترغيبهم في قراءتها قراءةً ممعنة .

وهنا لابد من فهم أسلوب القرآن في إيجازه ومجازه ،
وكنائاته وإشاراته . لذلك ينبغي لمن رام تحليل القصة القرآنية
تحليلاً منهجياً موضوعياً :

(1) أن يتخلص مبدئياً من التأثير بتحكّمات أهل الرأي في
تحليلهم لهذا القصص ، ومواجيد الصوفية ، وتصوّرات الرّمزيين ،
وآراء اصحاب المذاهب والفرق المختلفة ، ووجهات عشاق المأثور
للسرويات الغربية ، والإسرائيليات الموضوعية ، والخرافات الشائعة .
(2) أن يتجنب التبسّط في تفصيل ما أجمته القصة من أخبار ،
والاستقصاء لما أعرضت عنه قصداً من جزئيات ، إلا إذا ورد في
شأنها ما يفصلها من حديث صحيح ، كقصة أصحاب الاخدود ؛
وذلك حتى لا يخرج بها عن الهدف الذي سيقت من أجله ، وحتى
لا يجعل منها نقطة انطلاق لسرد أخبار تملأ ما فيها من فجوات ،
أو تؤدي إلى ألوان متشعبة من الحديث ، أو تصوّرات خيالية
تبعد بها عن سير الفكرة الرئيسية فيها ، والمغزى العام لها .

ولكن ذلك لا ينافي جمع ما تفرّق في القرآن من أطراف
القصة وحلقاتها للإحاطة بمضمونها ومغزاها ، أو للمقارنة والاستنتاج ،
ولاسيما في دراسة الشخصية التي يتعدّد ذكرها في كثير من
المناسبات ،

وأملّي أن أوفّق إلى السير في خطوط هذا المنهج ، وأن
يكون في هذا البحث ما يلفت النظر إلى أهمّ ما ينبغي اعتباره
في تحليل القصة القرآنية لإدراك مراميها ، ورؤية أبعادها ؛ وخاصة
ما يتصل بموضوع البحث اتصالاً جذرياً وهو الجانب النفسي ، وماله
من تأثير بعيد المدى .

البحوث السابقة وطرقها

لقد تناول قصص القرآن بالشرح والتحليل والدرس كثير من المفسرين والمؤرخين والباحثين قديما وحديثا ، سواء في كتب التفسير ومقدماته ، أو في كتب التاريخ ، أو من كتب مفردة ، أو فصولا خاصة . ومنهم من أفرد كتابا لقصة واحدة من هذا القصص ، أو موضوعا واحدا فيه ، ولكنهم كانوا مختلفين في طرقهم اختلافا يمكن تصنيفه وتقسيمه إلى أربع طرق :

1) طريقة التبسيط والتفصيل : وذلك باستقصاء ظروف القصة وجزئياتها وكل ما يتصل بها من مواقف وأحداث مع تحديد زمانها ومكانها وتعيين أشخاصها .

وجل من سلك هذا المسلك من المؤرخين والمفسرين كان همه الاستقصاء والإحاطة ، لإشباع رغبات المتطلعين إلى هذا القصص الديني ، وخاصة ما يتعلق منه بتاريخ بدء الخليفة والأنبياء والأمم الغابرة ، دون أن يتحرى فيما يروي من أخبار ، ويجمع من نقول امتزجت في أكثر الأحيان بالخرافات والأساطير والاسرائيليات .

فمن كتب التفسير :

جامع البيان في تفسير القرآن : لمحمد بن جرير الطبري
الكشف والبيان عن تفسير القرآن : لأحمد بن إبراهيم الثعلبي

لباب التأويل في معاني التنزيل : لعلاء الدين علي بن محمد الشيعي
المعروف بالخازن .

السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم
الخير : لشمس الدين محمد الشريبي

ومن كتب التاريخ :

تاريخ الامم والملوك : لمحمد بن جرير الطبري . ج : 1 -
(م . الاستقامة . القاهرة : 1939)

الكامل في التاريخ لابن الحسن علي الشيباني المعروف بابن
الاثير - ج : 1 (م . المنيرية مصر : 1943) .

نهاية الأرب في فنون الأدب : لشهاب الدين أحمد النويري - ج .
13 و 14 - (م . دار الكتب المصرية : 1943) .

ومن الكتب المفردة :

بدء الخلق وقصص الأنبياء : لأبي رفاعه عمارة الفارسي (مخطوط) (1)
المبتدأ في قصص الانبياء : لعلي بن حمزة الكسائي (مخطوط) (2)
عرائس المجالس في قصص الأنبياء : لأبي اسحاق بن محمد النيسابوري
قصص الانبياء : لمحمد بن عبدالله الكسائي

(I) يوجد الجزء الاخير منه بالفاتيكان : 3 : 165 - انظر تاريخ الادب .

العربي لبروكلمان ذ : 217 / I .

(2) المكتبة الوطنية بتونس : 806 .

نفائس المرجان في جمع قصص القرآن : لاحمد بن أبي بكر الموصلي
(مخطوط) (1)

قصة أهل الكهف : لعبدالله بن عباس : (مخطوط) (2)

(2) طريقة التحليل في حدود النص القرآني : وذلك بتوضيح

ما في القصة من إشارات وعبر ، والإجابة على ما أثير فيها من مشكلات وشبهات ، وإجلاء عوامل التأثير في أسلوبها البياني ، أو حججها العقلية ، أو لمساتها الوجدانية . وأصحاب هذا المنهج يعتمدون غالباً طريقة تفسير القرآن بالقرآن والسنة والأثر الصحيح . وإذا أوردوا بعض الأخبار في القصة عن أصحاب السيرة ، فإمّا لأنها متواترة مشهورة ، ثلاثم حقائق القرآن والسنة ، وتلقى الأضواء على ما يحتاج إلى الإيضاح والبيان ؛ وإمّا لأنها مزيفة تحتاج إلى الرد والتنبيه .

وتمتاز أكثر التفاسير والكتب الحديثة بعرض القصة في أسلوب أدبي شيق .

فمن كتب التفسير القديمة والحديثة :

تفسير القرآن العظيم : لإسماعيل بن كثير

مفاتيح الغيب : لمحمد فخرالدين الرازي

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقويل في وجوه التأويل :

: لابي القاسم محمود الزمخشري

(1) المكتبة الوطنية بتونس : ج : I / 522 •

(2) المكتبة الوطنية بتونس : 895 •

أنوار التنزيل وأسرار التأويل : لناصر الدين بن عبدالله البيضاوي
تفسير المنار : لمحمد عبده
في ظلال القرآن : لسيد قطب
التحرير والتنوير : لمحمد الطاهر ابن عاشور

ومن كتب التاريخ القديمة والحديثة :

كتاب البداية والنهاية : لأبي الفداء إسماعيل بن كثير

ويحتوي قسم منه على « قصص الانبياء » . أفرده محققه (مصطفى عبدالواحد) في جزئين مستقلين ، نشر سنة 1968 بعنوان ذلك القسم
قصص القرآن : لمحمد أحمد جاد المولى وزملائه

وقد جاء في مقدمة مؤلفيه : « ولِمَا رأينا من إقبال الناس على قراءة القصص ، ولما شاهدناه من انصرافهم عن قصص القرآن - على ما فيه من شريف المقاصد والأغراض - وضعنا بهذا الكتاب قصصا شتى في ضوء القرآن وهديه ، وعلى طريقته الحكيمة ، من الاقتصار على بسط موضوع العبرة ، إلا أن يكون موضعا يحتاج إلى بيان ، أو إشارة يعوز فيها القارئ التوضيح ، وجلواناه في ثوب أدبي وأسلوب سائغ . ولم نخرج فيما كتبناه عن آراء انتحلناها من كتب التفسير المشهورة ، وأخبار رويناه عن ثقات المؤرخين » .

قصص الانبياء : لعبدالوهاب النجار

أورد مؤلفه في الطبعة الثانية والثالثة آراء معارضييه من اللجنة العلمية التي ألفتها عميد كلية أصول الدين الشيخ عبدالمجيد اللبان

للنظر في هذا الكتاب ، وإبداء رأيها فيه ، ثم رده عليهم في كل اعتراضاتهم . وكان مما أبدته تلك اللجنة في تقريرها : « أنها لا ترى تداوله بين طلاب المعاهد الدينية وغيرهم لأسباب ، أهمها : أن مؤلفه تعسف في التأويل ، وأخرج الآيات القرآنية تخريجا بعيدا إن لم يكن باطلا . فخالف بذلك إجماع المفسرين ، ولم يكلّف نفسه استقصاء البحث حتى يكون حكمه صحيحا . وهو مع ذلك يتصرف فيما ينقل من أقوال ، وينكر بعض الأحاديث الصحيحة ليحكّم عقله ، ويجعل التوراة والانجيل مهينين على القرآن » .

ومن الكتب الحديثة لقصة واحدة :

يوسف عليه السلام : لإبراهيم علي أبو الخشب
 قصة موسى عليه السلام : لأحمد الجبالي

ومن الكتب الحديثة لموضوع واحد :

دعوة الرسل إلى الله تعالى : لمحمد أحمد العدوي

بيّن في مقدّمة كتابه أنه سيعنى فيه بتحليل كلمات كل رسول وردت قصته في القرآن ، ويقارن بينها وبين كلمات خصومه . وعُدّته في ذلك التدبّر العميق فيما تضمّنه القرآن من عبّر ، والإمعان فيما عليه الناس من أخلاق وطباع « وإذا كان من الواجب على الزعماء السياسيين وقادة الشعوب أن يدرسوا تاريخ الرسل ، وسيرة أوّل المصلحين في الأرض فليدرسوها من مصدرها الصحيح ، وينبوعها الصافي ، وهو القرآن الكريم » (1) .

« كما قصدت أن يكون شرحي بعيدا عن الإسرائيليات التي تعود المفسرون أن يشحنوا بها الكتب ، متمشيا مع سياق الآية ، متفقا والأصول العامة للدين ، مسائرا لما ينبغي لرسول الله من عصمة ، لائقا بما أعدّه الله لهم من زعامة » (1) .

(3) طريقة التبسيط والتيسير : وذلك بعرض القصة القرآنية

في أسلوب بسيط ، ولغة سهلة لا يحتاج إلى جهد من الفهم ، حتى تكون في متناول الأطفال ومن لم ينل حظا كبيرا من الثقافة .

وكثيرا ما يعنى أصحاب هذه الطريقة بإبراز الجوانب الأخلاقية والتربوية من القصة ، والقضايا البسيطة فيها ، وما يغرس الشعور الديني .

فمن الكتب الحديثة :

سلسلة من القصص القرآني : لسيد قطب ، وعبد الحميد جودة السحار

وتشتمل الحلقة الأولى من هذه السلسلة على ثمانية عشر جزءا ، انفرد كل جزء منها بقصة .

مجموعة قصص الأنبياء : بإشراف محمد أحمد برانق

وتحتوي هذه المجموعة على عشرين جزءا انفرد كل واحد منها بقصة .

(I) المقدمة (م) .

مجموعة القصص الدينية : بإشراف : محمد أحمد برانق

وتحتوي على عشرين جزءا أكثر قصصها من القرآن . وقد
انفرد كل جزء منها بقصة أيضا .

(4) طريقة الدراسة للقصص القرآني : وذلك بتحليل

منهجه ، وإبراز خصائصه ، والبحث عما أثير فيه من قضايا وشبهات ، وما
قدمه بعض المستشرقين وغيرهم من تساؤلات واعتراضات : كمصدر
القصص القرآني ، ومطابقته للتاريخ ، وما يبدو فيه من تعارض .

وهذه الطريقة هي أشد الطرق اتصلا بموضوع هذا البحث .
لذلك نرى من المفيد أن نشير بإيجاز إلى أهم القضايا والجوانب
التي درستها في هذا القصص كتب مفردة أو فصول خاصة .

فمن الكتب المفردة :

الفن القصصي في القرآن الكريم : لمحمد أحمد خلف الله .

وهو عنوان لرسالة جامعية كان قدمها صاحبها سنة 1927 .
فلم تقبلها اللجنة ، بل إن من أعضائها من طالب يومئذ
بتطبيق أحكام الردة على مؤلفها . وقد شنت جبهة العلماء حملات
عنيفة في الرد على ما رأيت فيها من زيغ وضلال (1) .

(I) انظر : مجلة الرسالة - مجلد : 2 / 15 : صفحات : 1067 - 1102 -

• 1106 - 1121 - 1192 - 1205 - 1221 - 1275 - 1294 - 1335

والمنهج الذي سلكه المؤلف في هذه الدراسة هو منهج المدرسة
البيانية ، أو مدرسة الأماناء (1) التي جعلت "فن القول" مسرحا
لآرائها ومذاهبها في البيان العربي (2) .

ومن هنا جعل المؤلف الفن الأدبي في القصة القرآنية أساسا
لدراسته ، وبنى على ذلك أن القرآن لا يلتزم الحقيقة التاريخية ،
إذ هو يلغي المقومات التاريخية في تصويره للحادثة ، ويعرضها على
الوجه الذي يراه أشد تأثيرا ، وأكثر استجابة لدواعي الفن .

وقد بين أن هذه الدراسة تنتهي إلى هدفين رئيسيين :
أولهما درس أدبي في القصة القرآنية يكشف عن بعض أسرار
الإعجاز فيها ، وعن مذهب القرآن في بنائها ، والألوان القصصية
فيها من تاريخية وتمثيلية "أسطورية" .

وثانيهما تقرير قاعدة أو نظرية تحلّ المشكلات وتنفي المطاعن
على القرآن بأن في قصصه أخطاء تاريخية ، وتعارضاً في القصة
التي تكررت . وهذه المطاعن وغيرها إنما كانت لأن العقل الإسلامي
أقام فهمه لقصص القرآن على أساس من التاريخ . ولو أنه حاول
فهمه على أساس الفن الأدبي « لأدرك أن القرآن لم يقصد في قصصه
التاريخ ، وأن الاختلاف في هذا القصص إنما هو نتيجة لا اختلاف
المقاصد الذي يدفع إلى اختلاف الصور الأدبية ، وعندئذ يغلق
هذا الباب الذي جاءت منه الريح » (3) .

(1) هي مدرسة أدبية تنسب إلى رئيسها أمين الخولي .

(2) انظر : القصص القرآني في منطوقه ومفهومه : لعبد الكريم الخطيب :

• 291

(3) الفن القصصي في القرآن الكريم : 338 - 339 .

القصص القرآني في منطوقه ومفهومه : لعبد الكريم الخطيب
قدم المؤلف هذا الكتاب بالحديث عن نشأة القصة في تاريخ
الإنسانية عامة ، والحياة العربية خاصة ، مستخلصا من ذلك أن قصص
القرآن هو على سمت القصص العربي الذي عرفه العرب في جاهليتهم
والذي هو في طبيعته صور متزعة من الواقع ، بعيدة عن الخيال
والتهويل والمبالغة (1) .

ولئن كانت دراسته لقصص القرآن "إنما هي محاولة للكشف
عن أسلوب من أساليب القرآن في تبليغ الرسالات السماوية" (2)
فقد انتقد طريقة "خلف الله" في أخذه هذا القصص بمعايير القصص
الأدبي ، بما فيه من تلفيقات الوهم والخيال ، والتصرف في أحداث
القصة التاريخية ، استجابة لمقتضيات الفن في عرضها .

أما المنهج الذي ترسمه هو في بحثه ، فذكر أنه يقوم على
التزام النص القرآني ومدلول اللغة له ، دون أن يتجاوزه أو يلقي عليه
من مشاعره الذاتية ونوازعه الشخصية دلالات ومفاهيم هي في
الواقع غريبة عنه ، دخيلة عليه . لأن ذلك في نظره تبديل لكلمات
الله ، وتحريف لها عن مواضعها (3)

وتوضيحا لهذا المنهج قدم له نموذجا في : (وقفة مع قصة
آدم) . وأما البحوث التي تعرض لها فتشمل : مفهوم القصة القرآنية ،
وعناصرها ، وما تتضمنه من قوى غيبية ، ومن صراع ، ونفس
التكرار والرمزية عنها الخ »

(1) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه : 39 •

(2) المصدر السابق : 54 •

(3) المصدر السابق : 373 •

ومن الفصول والمقالات :

القصة في القرآن : من كتاب : (التصوير الفني في القرآن) لسيد قطب .

بيّن في هذا الفصل خضوع القصة القرآنية في موضوعها ، وفي طريقة عرضها ، وإدارة حوادثها لمقتضى أحد الأغراض الدينية التي جمعها في عشرة .

كما بيّن ظهور آثار ذلك الخضوع في سمات معينة ؛ كتكرار القصة الواحدة في مواضيع شتى ، وعرضها بالقدر الذي يكفي لأداء هذا الغرض ، وما يتبع ذلك من خصائص تتشمل خاصة في تنوع طريقة العرض ، والمفاجأة ، وفي الفجوات بين المشهد والمشهد ، وإبداع التصوير في المشاهد ، وفي رسم الشخصيات .

قصص القرآن :

المقدمة السابعة في الجزء الأول من تفسير (التحرير والتنوير) للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور .

في هذه المقدمة عرض المؤلف تحقيقات عن القصة القرآنية . فبيّن في تعريفها أنها خبر عن حادثة غائبة عن المخبر بها . فليس ما في القرآن من ذكر الأحوال الحاضرة زمن نزوله قصصاً ، مثل ذكر وقائع المسلمين مع عدوهم (1) . كما بيّن الغرض من سَوق القصة القرآنية وأسلوبها ، واستخلص من درسه لها عشر فوائد فصلّ القول فيها .

(I) التحرير والتنوير : 58 .

وختتم هذه التحقيقات التي ربما كانت بعض معانيها غير صريحة في كلام السابقين بتوضيح فوائد التكرار للقصة أو لبعض حلقاتها في سور كثيرة ، وما في هذا التكرار من تنويع هو من آيات الإعجاز البياني في القرآن .

(1) قصص القرآن من الناحية البيانية ،

(2) قصص القرآن : لون من تصريف بيانه

من كتاب : المعجزة الكبرى : القرآن : لمحمد أبوزهرة

بيّن في الفصل الأول وجوه البلاغة فيما تكرّر من قصص القرآن باعتبار أن هذا القصص كان لأمر واقع، سيق للعبر واعطاء المثّلات ، وبيان مكان الضالين ومنزلة المهتدين، وعاقبة الضلال وعاقبة الهداية « ولكي يتبين القاريء الكريم ان التكرار بسبب تعدد العبر التي هي المقصد الأول من القصص نذكر قصة ابراهيم وقصة موسى عليهما السلام فإنهما ذكرتا كثيرا في القرآن الكريم (1) .

وذكر في الفصل الثاني أن البيان القرآني فيه تصريف القول على ألوان متعددة متباينة في حقيقتها ، متلاقية في غايتها . والقصص القرآني لون من هذا التصريف البياني زيادة على أنه في ذاته إعجاز لأن التالي للقرآن يتساءل : من أين جاء محمد بهذا القصص الحق ، وهو لم يشاهد وقائعه ، ولم يقرأها لأنه لم يكن قارئاً ؟ انه من عند الله . وبذلك كان هذا القصص من التحدّي (2) فهو لم يكن عبرة

(1) المعجزة الكبرى القرآن : 175 - 176

(2) المصدر السابق : 205

فقط ، بل كان بياناً لحقائق الاسلام . فنجد فيه بياناً لعقيدة التوحيد والبرهان عليهما ، وفيه الحث على المعاملة الطيبة ، وفيه ميزان العدالة في الحكم ، وفيه بيان لبعض الاحكام . وقد مثل لكل حقيقة بأمثلة من القصص القرآني . وختم هذا الفصل بالحديث عن أساليب القصص في القرآن وما فيه من تصوير ؛ وذلك من خلال قصص موسى في مدين ، ونوح مع قومه ومع ابنه في حادثة الطوفان ، وأهل الكهف .

اليهود في القرآن : لعنيف عبدالفتاح طيارة .

عرض المؤلف في هذا الكتاب بعض ما ورد في القرآن من آيات في شأن اليهود ، تصور طباعهم ونفوسهم ، ثم رأى أن بحثه عن اليهودية لا تتم فصوله الا اذا أردفه ببعض دراسات لها علاقة وثيقة به . فاختار قصص ثلاثة أنبياء ، وهم : إبراهيم وموسى ويوسف عليهم السلام .

فإبراهيم هو أبو الانبياء ، وجدّ اليهود والنصارى والمسلمين وهو الصلة الروحية التي تجمع بين هذه الأديان الثلاثة . أما يوسف فسيرته مليئة بالأحداث المثيرة ، والعظات الباهرة . وقصته لا تخلو من تصوير بعض الجوانب في البيئة اليهودية .

وأما موسى فهو نبي اليهود الأكبر ومخلصهم من الاضطهاد الفرعوني ، وهو الذي أنزلت عليه التوراة (1) .

القرآن والقصص للشيخ : محمد البشير النيفر وهو عنوان رسالة مطبوعة ضمنها خلاصة درس ألقاه ، استهلته بتقسيم قصص القرآن إلى ما يتعلق بالتاريخ الماضي ، وإلى

ما يتعلق بالتاريخ الحاضر زمن التزويل . ثم شرح طريقة القرآن في ذكر القصص ، والفوائد المشتركة من عرض الأخبار الماضية والمحاضرة ، والفوائد الخاصة بكل قسم .

القصص القرآني : القسم الثاني من كتاب "القرآن والكتاب" للاستاذ الحداد .

وهو كتاب جمعت فيه "دروس قرآنية" لهذا المؤلف المسيحي تحت ذلك العنوان .

وقد تعرض في هذه الفصول إلى أغراض القصص القرآني وأسلوبه وصلته بالبيئة العربية الكتابية ، وهل القصص القرآني للتاريخ ، أو للتمثيل ؟ وهل من تعارض فيما تكرر منه ؟ وهل هو من المتشابه ؟ وتتلخص هذه الآراء التي بنى عليها بحثه ، في أن أسلوب هذا القصص وموضوعه ظاهرة العهد الثاني بمكة وهو - حسب رأيه - العهد الإسرائيلي في القرآن ، لاعتماد ما جاء في قصصه على علماء بني اسرائيل (1) بمعنى أن القرآن ناقل عن القصص التوراتي الذي كان شائعاً في بيئته العربية الكتابية (2) . وهو يرى أن قصص القرآن تاريخ وتمثيل معاً . فلا هو من التاريخ الصرف ، ولا هو من التمثيل الصرف . ويردّ على من يقول بالإعجاز البياني في تكرار القصة الواحدة « بأن القرآن هو كتاب دين ، لا كتاب فن ، وأن ما يهمّ البشرية هو صلاحها في الدنيا ، وصلاحها في الآخرة ، لا الفن الأدبي ، والقول الجميل » (3) ويرى أن في هذا التكرار تعارضاً يجعل القصص القرآني من المتشابه (4) .

(1) القرآن والكتاب : (ق : 2) 440 .

(2) المصدر السابق : 571 .

(3) المصدر السابق : 567 .

(4) المصدر السابق : 576 .

من معاني القرآن : لعبد الرحيم فودة

احتوى هذا الكتاب فيما احتوى على بعض القصص القرآني .
كقصة آدم ، وقصص موسى مع بني إسرائيل وفرعون . وقد سلك
المؤلف منهج التحليل المتبسط للمعاني انطلاقا من الدلالات اللغوية
للألفاظ ، كما يدل على ذلك عنوان الكتاب

القصة ومنهجها في القرآن : للتهامي نقرة .

وهو بحث في حلقات متتابعة ، نشرت تحت هذا العنوان في
مجلة "جوهر الاسلام" سنة 1968 في اعداد : 5 و 6 و 7 و 8
و 9 و 10 و 11 و 12 .

وقد تضمن هذا البحث : منهج القرآن في أسلوب قصصه ،
وأوجه الاختلاف في ذلك بينه وبين الكتاب المقدس ، ومناقشة
بعض الباحثين في مصدره وخاصة المستشرقين ، وأسباب
دخول الإسرائيليات في تفسيره ، واتجاهات المفسرين فيه بحسب
منازعتهم .

(1) الخطة المثلى لفهم القرآن وتفسيره - (2) تعليقات المفسرين
على القصص :

من كتاب "القرآن المجيد" لمحمد عزة دروزة :

شرح في الفصل الأول ما يهدف إليه القصص القرآني ، وأقام
بعض الأدلة على أن ماورد فيه من أخبار الأنبياء والأمم السابقة

كان مما يعرفه العرب جزئيا أو كليًا . وعلل تكرار بعض القصص بتنوع المواقف النبوية في الدعوة ، وتساءل عما اذا كان محتوى قصص القرآن صحيحا من الوجهة التاريخية في جزئيات وقائعه ، وحقائق حدوثه ؟ (1) .

وانتقد في الفصل الثاني ولوع بعض المفسرين بالتخمين والتكلف والمبالغة ، واختلافهم الشديد في مثل قصص ذي القرنين وموسى وفرعون وبنى اسرائيل وسليمان ، ميينا أن الطريقة المثلى في تفسيره ان يتفق مع أهدافه ، وأن تقتضيه عباراته ، حتى لا يضيع القصد الجوهرى منه (2) .

التربية بالقصة : من كتاب : (منهج التربية الاسلامية) لمحمد قطب
بين في هذا الفصل كيف استخدم القرآن قصة آدم ، لتكون وسيلة من وسائل التربية والتقويم ، وهي من أهم القصص التوجيهية في القرآن ، لأنها « قصة البشر كلهم على مدار التاريخ » (3) . كما بين كيف كان استخدام القصص للتربية جزءا من منهج التربية الإسلامية ، وكيف يختار القرآن من مواقف بطل القصة اللقطة المترفعة التي تغري بالقدوة والسمو ، واللقطة السوداء التي تنفر من سلوك المنحرفين (4) .

(1) القرآن المجيد : 166 - 191 .

(2) المصدر السابق : 233 - 242 .

(3) منهج التربية الاسلامية : 239 .

(4) المصدر السابق : 241 .

قصص القرآن : من كتاب « نظرات في القرآن » لمحمد الغزالي
وضَّح بالأمثلة في هذا الفصل كيف كان قصص القرآن تاريخاً
للدعوات الدينية ، ومواقف البشر منها منذ فجر الخليفة ، وكيف
احتوى على جملة من سنن الله الكونية في قيام الأمم وفنائها ،
وأن ما جاء فيه من أخبار ، هو حق لا ريب فيه . لأن القرآن لا يلجأ إلى
الأساطير وتلفيق الحكايات لغرس معنى معين ، كما يزعم بعضهم (1).

القطيعة الوطنية : من كتاب معضلة محمد : لبلاشار
R. Blachere : " Le probleme du Mahomet." Rupture avec le paganisme"

تعرض في هذا الفصل للحديث عن مصدر القصص القرآني ، ذاكراً
بالخصوص أن ممّا لفت انتباه المستشرقين هو التشابه الحاصل بين
هذا القصص ، وبين القصص اليهودي المسيحي . وقد كان التأثير المسيحي
واضحاً في السور المكية الأولى ، إذ كثيراً ما تكشف مقارنة القرآن
بالنصوص غير الرسمية - « كإنجيل الطفولة » الذي كان سائداً في
ذلك العهد - عن شبه قوي . ويعرض في هذا الصدد آراء بعض
الباحثين من الساميين ، مبيّناً رأيه فيما يستنتج من العلاقات المستمرة
التي كانت تربط بين مؤسس الإسلام والفقراء المسيحيين بمكة (2) .

مناهج الناس في فهم القصص : من كتاب (تفسير القرآن الكريم)
للشيخ : محمود شلتوت

في هذا الفصل تحدث عن مناهج الناس في فهم القصص القرآني
كرأي الشيخين محمد عبده ، ورشيد رضا في تخريج قصة بني

(1) نظرات في القرآن : 124 - 114 .

Le Problème du Mahomet : 60 (2)

إسرائيل تخريجا لا تساعد عليه اللغة ولا السياق . كما تعرّض إلى نقد منهج المؤلّين للقصص كالصوفية والباطنية وأهل الوهم والتخييل الذين يقولون بأن من قصص القرآن ما هو شبيه بما يوضع من حكايات بين أشخاص مفروضين ، أو على ألسنة الطيور والحيوان ، للإيحاء فقط بمغزى الحكاية من الإرشاد إلى فضيلة ، والحث عليها ، أو التحذير من رذيلة ، والتنفير منها (1) .

كما عرض المؤلف إلى منهج المفسرين في قبول الروايات على علاقتها ناقدا إياه ، وموضّحا رأيه في المنهج الذي يختاره . وهو الوقوف على ما ورد في القرآن ، مع الاحتفاظ بدلالة الألفاظ اللغوية على معانيها ، وترك ما اتصل بها من روايات ليس لها سند صحيح .
المنهج السماوي في الدعوة إلى الله : من الكتاب الأول (قضية الألوهية بين الفلسفة والدين) لعبد الكريم الخطيب .

وقد تعرّض في هذا الفصل إلى المنهج السماوي في الدعوة إلى الله ، وأسلوب القرآن في ذلك كدعوة نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وموسى . مشيرا إلى وجوه الحكمة في إطلاق وقائع تلك الدعوات من قيود الزمان والمكان . وما مرت به من مراحل عبر تاريخ الانسانية مسيطرة لتطورها ورشدها ، وملائمة لوعيتها وإدراكها . ومن دور تلقيني ، يلزم الناس بالإيمان بالله ، من غير أن تكون لهم مشاركة عقلية أو قلبية في البحث عنه ، والاستدلال عليه ، إلى دور استدلالى يعتمد على المنطق الوجداني ، والبراهين العقلية (2) .

(1) تفسير القرآن الكريم : 54 .

(2) قضية الألوهية ... ج (I) / 317 .

الباب الأول

قسم البحث النظري

الصفحة	الموضوع	الفصل
84 — 49	مصدر القصة القرآنية	الفصل الأول
110 — 85	المنهج القصصي للقرآن	الفصل الثاني
155 — 111	التكرار في قصص القرآن	الفصل الثالث
256 — 156	أنواع القصص القرآني	الفصل الرابع
274 — 257	جوانب المعرفة في قصص القرآن	الفصل الخامس
305 — 275	عرض ونقد لمنازع المفسرين	الفصل السادس

الفصل الأول

مصدر القصة القرآنية

ليس البحث عن مصدر القصة القرآنية سوى البحث عن مصدر القرآن كله باعتبار أن قصصه جزء لا يتجزأ منه . (*)

والبحث في هذا الموضوع قد يبدو غريبا . لأنه ما كان يوما محل جدال بين العلماء المسلمين ، ولا محور بحث عندهم ، لولا ما أشاره بعض الباحثين من المستشرقين وغيرهم ، وبنوا على آرائهم في هذه القضية نتائج وأحكاما خاطئة ، لا تتفق وحقيقة القرآن . فمنهم من يرى في قصص القرآن عامة ، وفيما تكرر منه خاصة تناقضا مع نفسه ، أو مع حقائق التاريخ . وهذا التناقض المزعوم أرجعه بعضهم إلى جهل الرسول بالتاريخ ، وبعضهم الآخر إلى اختلاف الظروف النفسية التي كان يعيشها في مراحل التبليغ . فلم تكن تلك الأحداث التي يقصتها - وقد أغرقت في القدم - إلا تصويرا لواقعه النفسي .

(*) رأيت من المفيد إضافة هذا الفصل الى الرسالة لما له من علاقة متينة بموضوع « القصة القرآنية » واقتبست معظمه من دراسة لي نشرت في العدد الاول من النشرة العلمية للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين (1972) بعنوان « القرآن والرسول » .

وطائفة تقول : إنَّ عمل الفنان لا يعنيه الواقع التاريخي بقدر ما يعنيه التصوير الفني في الابتكار والتغيير ، كما يتَّجه الأديب الى تصوير الحادثة تصويراً فنياً من غير التزام بصدق التاريخ .

وطائفة تزعم أن الأبناء التاريخية إنَّما سيبلها التقل . فهو قد تلقاها عمّن لا يوثق بأخبارهم ورواياتهم من أهل الكتاب الشعبيين.... إلى غير ذلك من الادّعاءات والافتراضات الوهمية .

ورد في كتاب تاريخ الأديان (Manuel de L'histoire des religions) « كان أسلوب النبيء في القرآن أولَ عهدِه بالدعوة مفعماً بالعواطف قصير العبارات ، فخم الصورة ، يقدم أوصاف العقاب والثواب في ألوان صارخة . وكثيراً ما يكرر الآيات تكرر مملاً ، حتى تنقلب معانيها إلى الضدّ . فلما تقدم الزمن بالنبيء ، فقدّ الأسلوب منهجه الأول ، وأخذ يقص في نعمات هائلة بديعة قصص الأنبياء مثلما تراه في قصة حب يوسف وزوجة "بوتيفار" . وكانت هذه الصورة مثيرة لخيال كثير من شعراء الفرس والترك . وفي آخر عهد النبيء فقدّ الأسلوب كل حرارة وكل فن ، وأغرم بالجدل الديني مع اليهود والنصارى » (1) .

فهي إذن قضية أساسية . بل نقطة انطلاق في فهم القصص القرآني وتحليله ، بل فهم القرآن كله . ومنها تفترق طرق دراسته عند من يؤمنون بأنه من عند الله وحده ، وعند من يرون أنه من إنتاج محمد وإنشائه .

(I) انظر : عن القرآن : محمد صبيح : I44 - I47 •

ومما حال دون إدراكهم لحقيقة القرآن ومصدره أنهم لا يقبلون على دراسته إلا كما يقبل عالم النبات بمشرطه ومجهره . فوفق بعضهم في بحث المسائل القرآنية التي لا تخضع إلا لحكم العقل ، وأخفق جلهم في سرّ إعجاز القرآن وروعة أسلوبه . فكانت أحكامهم - كما رأيت - مشوبة بالأخطاء .

كما حال دون إقرارهم بقداسة القرآن عدم تصورهم الصحيح لقضية جوهرية أخرى يتوقف عليها إدراك حقيقته وهي :

الوحي والنسوة :

فإن من لا يدرك طبيعة الوحي ولا خصائص النسوة استهدفت دراسته للقرآن إلى الخروج عن المنهج القويم لهذا اللون من المعرفة .

ومن هنا كان خطأ بعض الباحثين عند تحليلهم لنفسيات الأنبياء ، وفي تفسيرهم لظاهرة الوحي خطأ جوهريا حاد بهم عن الوجهة السديدة في معالجة هذا الموضوع .

فويلز (G. Wells) مثلا يتخيّل محمدا صلى الله عليه وسلم رجلا دفعته وساوسه في سنّ الكهولة إلى تأسيس دين ليُعدّ في زمرة القدّيسين . فألّف مجموعة من عقائد خرافية ، وآداب سطحية ، وقام بنشرها في قومه فاتبعه رجال منهم (1) .

والمستشرق الألماني هوبرت قريمي (H. Grimme) يرى في كتابه "محمد" (2) أنه لم يكن في بادئ الأمر يبشّر بدين جديد ، بل

(1) انور الجندی : الاسلام والثقافة العربية ٠٠٠ 239 .

Hubert Grimme : Mohamed (2)

كان يدعو إلى نوع من الاشتراكية كمحاولة للإصلاح الاجتماعي وإزالة الفروق الصارخة بين الأغنياء الجشعين والفقراء المضطهدين.... لذلك نراه يفرض ضريبة معينة لمساعدة المحتاجين . وهو إنمّا يستخدم فكرة الحساب في اليوم الآخر كوسيلة للضغط المعنوي ، وتأييد دعوته (1) .

ويرى المستشرق النمساوي السويس شبرنجر (Alois Sprenger) في كتابه "حياة محمد وتعاليمه" (2) أن الإسلام لم ينبثق عن إرادة رجل ، بل عن حاجات العصر . وهو لم يتورّع عن أن يستنبط من مدائح أنصار الرسول الجوانب التي يراها مظلمة في شخصيته . وفي النهاية ينسب إليه مرض الهستيريا . .

وأما قول دلتز بهر المستشرق المجري فإنه لا يؤمن بأن مصدر وحي الأنبياء هو الله ، بل إن أمر الأنبياء في رأيه مسألة نفسية ترجع إلى تشبّع المرء بحالة خاصة من فرط استغراقه فيها . ويحاول تطبيق ذلك على محمد صلّى الله عليه وسلم ، ولكن في منطلق يتجافى عن الواقع والحصافة . فهو ينسب المعرفة الدينية التي تلقاها من الوحي إلى عنصرين : أحدهما خارجي يرجع - حسب زعمه - إلى ما استقاه من معرفة دينية بسبب اتصاله باليهود والنصارى وأخذهم عنهم ، وثانيهما داخلي نفساني يرجع إلى تأملات الخلوة التي أثارت نفسه ، والأحلام والرؤى التي فرضت نفسها على مخيلته . فهو يقول : (فتبشير النبيء العربي ليس إلا مزيجاً منتخبا من معارف وآراء دينية عرفها واستقاه بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية التي تأثر بها تأثراً عميقاً ، والتي رآها

(1) محمد كامل عياد : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق . ج 4 / 2 / 44 -

• 7903

(2) Alois Sprenger : Das Leben und die Lehre des Mohamed (2)

جديرة بأن توظف عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه . وهذه التعاليم التي أخذها من تلك العناصر الأجنبية كانت في رأيه كذلك ضرورية لتثبيت ضرب من الحياة في الاتجاه الذي تريده الإرادة الالهية ...

لقد تأثر بهذه الأفكار تأثراً وصل إلى أعماق نفسه ، وأدركها بإبحاء قوة التأثيرات الخارجية ، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه ، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحيًا إلهيًا (1)

ويقول في موطن آخر : « لقد كان مسقط رأس محمد مركزاً من المراكز الهامة الخطيرة لعبادة الأوثان والأصنام ، كما كان مقراً للكعبة المقدسة والحجر الأسود ، ومع هذا كانت المادية ، وكبرياء الجاهلية ، وتحكم الأغنياء في الفقراء ، هي المميزات السائدة عند أشرف مكة » .

«رأى محمد هذا ، فأخذ يشكو من اضطهاد الفقراء ، وطمع الاغنياء وسوء المعاملة ، وعدم المبالاة بالصالح العام ، وواجبات الحياة الإنسانية ... وعندئذ قابل بين هذه الأمور التي أثارت نفسه ، والأثر الذي كان باقياً وحيّاً فيه ، وهو الأثر المدين به للتعليّم التي سبق أن تلقّاها ، وتفتّحت لها نفسه ، وأشربها قلبه (2) » .

أمّا الوحي كعلم أضافه الله على روح محمد وقلبه بطريقة غير الطرق الكسبية للعلم ، وفوق الإلهامات النفسية المأثورة عن بعض

(1) قول تزيهر : العقيدة والشريعة في الاسلام : ت : محمد يوسف موسى

• وزميله - I2

(2) المصدر السابق : I3

الخاصة ، وخلاف ما هو مقرر في علم النفس والفلسفة وسيّر الحكماء والعلماء - فإن (قولد ترهير) لا يتصوره الا أعراضا (باتولوجية) يصاب بها أفذاذ من الرجال . فهو يقول :

(لا نريد أن نتبّع خطوة فخطوة المراحل (الباتولوجية) التي نشأ فيها الشعور بهذا الوحي واعتقاده وتثبيتته في نفسه . ومن أجل هذا علينا أن نتذكّر كلمة ذات معنى قالها (هارناك) عن الأمراض التي تصيب الرجال الذين هم فوق البشر دون سواهم ، والتي يستقون منها حياة جديدة كانت قبل ذلك مجهولة ، كما يتخذون منها قوة تهدم جميع العقبات . ومن ذلك حمية النبيء أو الحوارى) (1) .

وقوستاف لوبون لم يفتأ أن جعل الحالة التي تعترى النبيء صلّى الله عليه وسلم عند تلقّي الوحي أشبه بالنوبة التي تعترى المهوسين من ذوي الحسّ المرهف ، والمزاج الحارّ ، والشعور الحادّ ، رغم إقراره بحصافة رأيه ، وسلامة فكره . فهو يقول :

« قيل إن محمدا كان مصابا بالصرع ، ولم أجد في تواريخ العرب ما يبيح القطع في هذا الرأي . وكلّ ما في الأمر ما رواه معاصرو محمد وعائشة منهم ، من أنه كان إذا نزل الوحي عليه اعتراه احتقان وجهي ، فغطيط فغشيان . وإذا عدوت هوس محمد ككل مفتون وجدته حصيفا سليمان . »

ثمّ يقول :

« ويجب عدّ محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كأكثر مؤسسي الديانات . ولا كبير أهمية لذلك . فلم يكن ذوو

(1) المصدر السابق : 12 .

المزاج البارد من المفكرين هم الذين ينشؤون الديانات ويقودون الناس ، وانما أولوا الهوس هم الذين مثلوا هذا الدور..... وهم الذين أقاموا الأديان وهدموا الدول ، وأثاروا الجموع ، وقادوا البشر . ولو كان العقل لا الهوس هو الذي يسود العالم لكان للتاريخ مجرى آخر « (1) .

إن الأعراض النفسية والفيزيولوجية التي أشار إليها قولدنزهر ، ولوبون في حديثهما عن محمد صلى الله عليه وسلم وسائر مؤسسي الديانات من الأنبياء ، لا تعدو أن تكون إصابات وأمراض « عصابية ناجمة عن مجموعة من الانحرافات النفسية ، كالتوتر النفسي ، والكتابة والقلق ، والوساوس ، والأفعال البشرية اللاإرادية ، والشعور بوهن العزيمة ، والعجز عن تحقيق الأهداف ، والمخاوف ، والأفكار السوداء التي تحاصر الفرد في يقظته ، فتدعه مشتت البال ، وفي النوم ، فلا تدع للسببات إلى جفينة سبيلا » (2) .

إن من التحكّم والمجازفة أن يعدّ (لوبون) محمدا صلى الله عليه وسلم من فصيلة المتهوسين ، ولم يثبت تاريخيا قبل البعثة ولا بعدها ، أنه كان من ذوي الوسواس أو السلوك الشاذ والتصرف الغريب ، أو نحو ذلك من الانحرافات النفسية التي لا بدّ لها من انعكاسات وردود فعل .

ألم تشهد خديجة وتعرفه بحقيقته لما جاءه الحق وهو في غار حراء ، لتدفع عنه الخوف مما رأى وسمع ؟

(1) ق لوبون (G. : Le Bon) حضارة العرب : I41 - I45 .

(2) مصطفى فهمي : الدوافع النفسية : I75 .

« كَلَّا وَاللَّهِ مَا يَخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا . إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحْمَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتُقَرِّي الضَّيْفَ ، وَتَعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ » (1)

فما أبعد هذا الكمال الانساني عن الهوس الذي قد يملئ على صاحبه مواقف غريبة وأفعالا ينبو عنها ما نسب إليه ربه في قوله :
« وَإِنَّكَ لَعَلَّتِي خُلِقَ عَظِيمٌ » (2) .

«ولو انحطت فطرتهم عن فطرة أهل زمانهم، أو نضأت أرواحهم لسلطان نفوس أخرى ، أو مسَّ عقولهم شيء من الضعف، لَمَا كانوا أهلاً لهذا الاختصاص ، اختصاصهم بوحيه ، والكشف عن أسرار علمه » (3) .

إن الوحي الإلهي لا يفهم حقيقته إلا من أوتي نصيباً من علم الاجتماع ، وحكمة الوجود وسننه وأصول العقائد .

والعلماء المسيحيون فيه ما بين إفراط وتفریط .

فالمُتَدَبِّتُونَ منهم يفسِّرونه بأنه حلول روح الله في روح المُلْهَمِّ .
ومن حلَّ فيه روح الله صار إليها . فالمسيح لم يكن عندهم إليها إلا بهذا الحلول .

فهو في اعتقادهم طبيعة مركبة من طبيعتين امتزجتا وصارتا واحدة . هو مركَّب من الناسوت والآهوت .

والمادِّيُّون يصوِّرون الوحي بالصورة التي يقبلها عقل لا يؤمن صاحبه بما وراء الطبيعة من عالم الغيب . بيد أن العقل ليس

(1) رواه البخاري .

(2) سورة القلم : 4 .

(3) محمد عبده : رسالة التوحيد : 86 - 87 .

مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفا للغطاء عن جميع المعضلات (1) ، إذ أن الموجودات أكبر وأبعد مدى من ظواهرها التي يزعم العلم التجريبي أنه يستطيع هضمها ، ولكن قدرة العقل على تحصيل المحسوس هي التي تيسر له الانتقال إلى غير المحسوس لأن من المدركات العقلية ما ليس بحسّي .

ومن ناحية أخرى فإن البحوث الخاصة بالأديان وبتطور العقائد عبر التاريخ ، قد زوّدت علم النفس بالعناصر الأولى التي قام عليها علم النفس الديني . غير أنها لم تكشف إلا عن الظواهر الخارجية للدين كما يحيها المجتمع ، ولا شأن لها بالدين من حيث هو حياة نفسية يحيها الفرد العادي ، فضلا عن النبيء ، لاتصاله الروحي بما هو إلهي .

يقول فلورنوا "Flournoy" : لنكن على يقين أن علم النفس مهما كانت درجة الكمال التي بلغها ، سيبقى عاجزا عن حلّ الألغاز المحيرة التي يُلقيها الكون والحياة علينا، ولن يستهك في يوم ما حقّ النفوس الدينية في أن تصوغ عقائدها بشأن القول الفصل في الحقيقة والمصير . ويعترض «فلورنوا» على المتحمسين للنزعة العلمية تحمّسا يجعلهم يترّون الدين وما يتصلُ به من غيبّيات ، لا ينبغي أن يُضيع فيه العالم وقتَه ، ولا ينبغي أن يكون من موضوعات العلم .

فيعتبر أن في القطع سلفا بذلك مجافاة للروح العلمية الأصيلة التي تتطلب من الباحث النزيه ألاّ يتصدّى لإنكار قضية أو إثباتها إلا بعد فحص تجريبي ، ما دام ذلك القطع يجب أن يستند إلى تحقيق تجريبي (2) «

(I) الفزالي : المنقذ من الضلال : 86 .

Les principes de la psychologie religieuse : T. 2, n° 9 (2)

« ومن البين أن العلوم التجريبية بمعناها الإصطلاحى الدقيق قد نشأت في عصر النهضة حين قرر غاليليو (Galilée) وليوناردى فانسى (L. de Vinci) : أنه من الممكن تعليل أحداث الطبيعة وظواهرها دون أدنى تدخل لأية قوة غير طبيعية . ولم تلبث هذه العلوم الجديدة التي لا تعتمد إلا على التجربة والرياضيات أن اعتقدتها عدد من المفكرين ، وكان بعضهم جدّياً ، والبعض الآخر مستهترا . ولكن كلا الفريقين لم يتردد في أن يعلن على الملأ : أن هذه العلوم الحديثة لا تلتئم ألته مع الروحانية التي أتى بها الوحي . ثم جعلوا يستعينون بتلك العلوم في تأييد مذاهب الماديين ، وفي نشر الريبة والإلحاد (1) » .

وهكذا فإن تفسير ظاهرة الوحي الالهي - وما كان يعتري النبيء عند تلقيه من حالات خاصة ناشئة عن انسلاخه من البشرية الجسمانية، واتصاله بالملكوتية الروحانية - بالهوس أو الصرع أو نحو ذلك من الانحرافات الفسيولوجية أو النفسية على ضوء هذه العلوم التجريبية أو التحليل النفسى ، ضربٌ من التحكّم وجهل لحقيقة النبوة .

وهل يكفي لصنف من أصناف العلوم أن يصل إلى حدّ كبير من الدقّة والتطور حتى تُفرض طريقته في البحث على الميادين الأخرى ، ويتصب رائداً ومعيّاراً ؟

إن تطور منهج من المناهج العلمية لا يُعطى كمعيار خارج ميدانه (2)

(1) محمد غلاب : المعرفة عند مفكرى المسلمين - 101 - 102 •

(2) محمد عزيز الحبابى : الشخصانية الاسلامبة : 69 •

وأعنى من ذلك في الخطأ ، الاعتقادُ بأن المنهج الذي يعتمد الملاحظة والتجربة والبرهان ، هو المنهج العلمي الوحيد لكل شيء ، وأن كل شيء في الوجود يُحَلَّ بالعلم ، وبمنهج العلم. وفات الذين يعتقدون ذلك ، أنهم بمنهجهم العلمي ، قد اتجهوا اتجاها صحيحا نحو عجلة العالم يفحصونها ويجربونها ، ولكنهم لم يتجهوا نحو مُحَرِّك العجلة . وقد لا يستطيع العلم بمنهجه أن يبحث المحرك . ولكن الباحث الدقيق الناظر ، الواسع الفكر ، لا يقف في بحثه عند العجلة ودورانها ، بل يبحث ما وراءها . لا يقف عند المادة ، ولكن يبحث ما وراء المادة (1) .

وهكذا فإن الباحثين العلميين الذين يستعملون منهج النقد العلمي في موضوع الدين يضعون أنفسهم تمثيلا مع موقفهم العلمي خارج الدين ، لأنهم تعوزهم في الغالب المعرفة بفلسفة الدين (2)

اثر الوحي السماوي

وفي نظري أن البحث في ماهية الوحي الالهي كالبحث في ماهية النفس ، لا ينتهي إلى نتيجة حاسمة يثقت بها الذين لا يؤمنون بالنبوة ولا بخصائصها، ولا يحكمون في مثل هذه القضية سوى العلوم التجريبية التي يعالجون بها المسائل الروحية خارج بيئتها ، كما يعالجون سائر القضايا .

ولعل البحث في الوحي السماوي يكون أجدى وأقوى موضوعية لو صُرِف إلى مضمونه ومحتواه ، وماله من أثر عميق في الأفراد والجماعات .

(1) أحمد أمين : فيض الخاطر ج : 152/4

(2) دي بور (T. J. de Boer) تاريخ الفلسفة في الاسلام (ت) بوريدة : 84

وإذا طلبنا الدليل على نبوة محمد بعدما أتى بما أتى به ،
كنا كمن يطلب ورقة من الباني العظيم تنص على علمه ومعرفته ،
بعد أن انتهى من إقامة الصروح (1) .

أي أمي في التاريخ غير محمد صلى الله عليه وسلم ، يقطع
مرحلة الشباب وديعا هادئا لم يؤثر عنه علم ولا حكمة ، ولا
شعر ولا خطابة ، ولا إبداع العباقرة ، ولا وثبات الأبطال والزعماء ،
ثم يفتح في الأربعين على عالم حيث الله يدبر النظام ، ويهيمن على
أسراره ، فيصلح أديان البشر : عقائدها وآدابها وشرائعها ،
ويحدث ثورة روحية اجتماعية لا مثيل لها في تاريخ الإنسانية ،
في سن لا يتأتى لمن بلغ مثلها « أن يتدىء أو يتدع فيها علما أو فنا ،
أو يسن فيها شرعا ، أو ينهض في العالم بانقلاب عظيم ، ما لم يكن
قد ظهر استعداد له ، وأخذ مقدماته في ريعان الشباب ؟ » (2)

لم يكن هذا الذي سما بنفسه وهمته ، وحمله على أن يدفع
بالبطاقات البشرية إلى الإنشاء والانطلاق والسمو غير الوحي السماوي
يضيء له السبيل .

إنه القرآن الذي أبدع الله فيه من فنون القول ما أعجز مقارعيه
من أهل البيان عن معارضته ، وأودع فيه من بليغ المعاني الحكيمية ،
وسامي التشريع ، وروعة الإشارات العقلية والعلمية ما لم تبلغ إليه
عقول البشر في عصر نزوله ، وفي عصور بعده متفاوتة . فكان

(1) محمود جواد مغنية : معالم الفلسفة الإسلامية - 159 - 160 •

(2) محمد رشيد رضا : الوحي المحمدي : 302 •

الوحي نفس المعجزة ، والمعجزة نفس الوحي . وهي دعوة برهانها منها ودليلها متصل بها ، يؤكد المعنى الذي أصله حديث الصحيح عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبي إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليته البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » (1) .

أفيكون هذا القرآن الذي لو نزل في هذا العصر لما اختلف نظرتة للكون ، ولا وصاياه للانسان - وقد حوى من كنوز المعرفة ما لم يحوه سفر - نابعا من استعداد محمد الشخصي ، أو ممّا اقتبس في بيته وأسفاره من أهل الكتاب ، أو بعض الأعراب ؟

من آراء المستشرقين في القرآن وقصصه :

إن كثيرا من المستشرقين ممن عُنوا بالدراسات الإسلامية يكادون يتفقون في الحكم على القرآن بأنه ليس من عند الله ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم استقى مادته ولا سيما قصصه من الأخبار والرهبان الذين كان يلقاهم في أسفاره ، أو يتصل بهم في مكة .

ويستدلون على ذلك بأن دراسة القصص القرآني على ضوء ما كشفت عنه الوثائق التاريخية من العهدين وغيرهما من كتب التاريخ والأخبار ، أبانت عن مفارقات تشكك في صحته ، لأنه كان يتلقى هذه الأخبار عن الأرقاء المسيحيين الذين كانوا يخدمون السادة من قریش ، وكانوا يروون ما تناقلوه من قصص ديني محرف .

(I) أخرجه عياض في الشفاء : ج : 334/13 .

يقول درمنقام « E. Dermanghame » متحدّثاً عن كفالة أبي طالب لمحمّد بعد وفاة جدّه : « إنه لم يكن غنياً ، فلم يُتَّسَح له تعليم الصبيّ الذي بقي أمياً طول حياته ، ولكنه يستصحبه في التجارة ، فيسير والقوافل خلال الصحراء يقطع هذه الأبعاد النائية ، وتحقق عيناه الجميلتان بمديّين ، ووادي القرى ، وديار ثمود ، وتستمع أذناه المرهفتان إلى حديث العرب والبادية عن هذه المنازل ، وماضي نبيّها ويقال : إنه في إحدى هذه الرحلات إلى الشّام التقى بالراهب (بحيرى) في جوار مدينة بصرى ، وأنّ الراهب رأى فيه علامات النبوة على ما تدلّ عليه أنباء كتبه » (1) .

ولا شك أنّ من يعمد إلى مخالفة الناس فيما تواتر عندهم ، ويأتي على ما يرون ويعتقدون ، ينبغي أن يكون لديه من الحجج والبراهين ما يقوى على نقض ذلك ودحضه .

فكيف إن كان حكمه لا يستند إلى دليل نقليّ يثبتته التاريخ ، أو برهان عقليّ صحيح ؟

فكتب التاريخ التي أفاضت القول في سيرته صلى الله عليه وسلم لم تذكر أنه سافر قبل البعثة أكثر من مرتين . وكان سفره في تجارة إلى الشام : مرة في طفولته مع عمه أبي طالب ، وأخرى في شبابه مع (ميسرة) غلام خديجة . ولم يتجاوز في المرتين سوق بصرى . (والقوافل التي تذهب إلى الشام لم تكن تمرّ بمديّين وهنّ في أرض سيناء) (2)

(1) الوحي المحمدي : 86 .

(2) المصدر السابق : 86 .

ثمّ من أين (لدرمنقام) أن محمداً كان أثناء رحلاته يستمع إلى حديث العرب عن ديار ثمود ونبيّهم ؟

ويقول قولدتزهر : « لقد أفاد محمّد من تاريخ العهد القديم - وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء - ليذكر على سبيل الإنذار والتمثيل بمصير الأمم السالفة الذين سخروا من رسلهم ووقفوا في طريقهم » (1)

ويقول : « إن محمداً أخذ يجمع ما وجدته في اتصاله السطحي أثناء رحلاته التجارية مما كانت طبيعة هذا الذي وجدته ، ثم أفاد من دون أيّ تنظيم . (2) .

ويقول في (مذاهب التفسير الاسلامي) : « كان هناك ما ورد في الكتب السابقة من مختلف القصص التي أجملها محمّد وقدّمها في منتهى الإيجاز وأحياناً على وجه متداخل » (3) .

فما هي الرحلات التجارية التي كان يعيها قولدتزهر ؟

وهل كان محمّد وتجار مكّة من رواد العلم والتاريخ بالمعنى الحديث فيشتغلوا بالبحث عن الأمم والأديان ؟ ثم أيّ خلل أو تداخل رآه في القصص القرآني حتى يحكم عليه به ؟ إنه قول مجرد عن الدليل . فهو لم يذكر ولو على سبيل المثال قصة واحدة من القرآن ، فيقارنها بما يثق به من أخبار القصص الديني . إنه لا يصح التنبؤ بما ستسفر عنه هذه المقارنة . لذلك فكل حكم مسبق لا تؤدي إليه نتيجة البحث لا يُعتدّ به .

(1) العقيدة والشريعة في الاسلام : 15 .

(2) المصدر السابق : 25 .

(3) مذاهب التفسير الاسلامي : 75 .

وقد كان مشركو مكة يزعمون أن القصص التي جاء بها القرآن إنما تعلمها محمد من نصراني أعجمي اللسان كان بمكة ، وكان ردّ القرآن على زعمهم : « وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ » (1) .

وذكر الطبري عند تفسيره لهذه الآية أسماء بعض الأشخاص الذين يزعم المشركون أن محمدا كان يتصل بهم ، ويأخذ عنهم هذه الأخبار .

وقال الباقلاني : « إن ما انطوى عليه القرآن من قصص الأولين وسيّر الماضين وأحاديث المتقدمين وذكر ما شجر بينهم ، مما لا يجوز علمه إلا لمن كثر لقاءه لأهل السيّر ، ودرسه لها ، وعنايته بها ، ومجالسته لأهلها ، وكان ممن يتلو الكتب ويستخرجها ، مع العلم بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يتلو كتابا ولا يخطه بيمينه ، وأنه لم يكن ممن يُعرف بدراسة الكتب ، ومجالسة أهل السيّر والأخذ عنهم ، ولا لقي إلا من لقوه ، ولا عرف إلا من عرفوه ، وأنهم يعرفون منشأه وتصرفه في إقامته بينهم ، وطمعنه عنهم . فدلّ ذلك على أن المخبر له عن هذه الأمور هو الله سبحانه وتعالى علام الغيوب » (2)

وقد سار الحدّاد في هذا الاتجاه ، ولكنه سلك طريقا ملتويا ، إذ حاول أن يسخرج بالنصوص القرآنية عن مدلولها وتأويلها وفقا

(1) النحل 103 •

(2) إعجاز القرآن : 51 •

لهواه ، واخضاعها إلى آرائه الشّخصية ، ليجعل منها دليلا على ما ذهب إليه ، مع تناقض واضح وخلط ملحوظ .

فهو يقول : « يظهر أن اتّصال محمّد كان بالكتب المنحولة المفسّرة للعهد العتيق والجديد عند اليهود والنصارى ، أكثر منه بالكتاب المقدّس الرسمي بسبب شعبيّتها . وكان اتّصاله غالبا بواسطة البيّنة وعن طريق السّماع (1)

وكان العهد الثاني من الدعوة القرآنية إسرائيليّا بعد هجرة جماعته الصّغيرة إلى الحبشة المسيحيّة . في هذا العهد يدعو النّبيء إلى التوحيد الخالص بأسلوب القصص القرآني ، حيث يصبّور موقف الحاضرين بأحوال الغابرين (2)....

والسرّ الكبير في حياة محمّد وثقافته الكتابيّة والإنجيليّة هو وجود العالم المسيحي ورقّة بن نوفل من بني أسد ، ابن عمّ السيدة خديجة في جوار النّبيء . وهو الذي زوّجه ابنة عمّه . فقد أجمعت الآثار على أن ورقّة تنصّر . وكان يترجم التّوراة والإنجيل إلى العربيّة . فهو إذن عالم مسيحي كبير ، يدعو بالترجمة إلى المسيحيّة . وقد عاش محمّد في جواره خمسة عشر عاما قبل بيعته . ألا تكفي هذه المدّة لنا بغيّة العرب محمّد بن عبد الله لكي يأخذ عن نسيبه شيئا من علوم التّوراة والإنجيل ؟ وينصّ صحيح البخاري أيضا أن ورقّة هو الذي ثبتّ محمّدا في دعوته وبعثته لمّا عاد خائفا من غار

(1) القرآن والكتاب : ق : 2 : اطوار الدعوة القرآنية : I062 •

(2) المصدر السابق : I063 •

حراء . وينصّ أخيراً على أنّ الوحي القرآني فتر لما توفي ورقة ، وحاول محمد الانتحار مرارا لفقده ولفطور الوحي . ونجد في المدينة في معيّة النبيء حاشية مسيحية ويهودية قد أسلمت ، أو سايرت الإسلام : نجد بلال الحبشي مؤذن النبيء ، وصهيب الرومي المسيحي الثري ، وسلمان الفارسي المسيحي الأصل ، وعبدالله بن سلام اليهودي الوحيد الذي أسلم في المدينة مع كعب الأخبار . وهل كان حديث هذه الحاشية الكريمة الدائم سوى التوراة والإنجيل ؟ »

«فوجود العالم المسيحي مترجم الكتاب إلى العربية ورقة بن نوفل في جوار محمد خمسة عشر عاما قبل البعثة ، وأعواما بعدها في أوائل الدعوة ، ووجود هذه الحاشية الكريمة في المدينة مع النبيء في كل زمان ومكان ، حجة قاطعة على أن بيئة النبيء والقرآن كانت كتابية من كل نواحيها ، وأن ثقافة محمد والقرآن كتابية في كل مظاهرها ، وذلك في معزل عن الوحي والتزييل (1)....»

«والقرآن يصرّح بأن محمدا يلتقي بالكتاب بدون شك :

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ
وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ » (2)

فالكتاب موجود بالعربية ، ومحمد يلتقي به ويتصل بأهله» (3).

أما ما يراه الحدّاد من اتّصال محمد بالكتب المنحولة للعهدين فليس إلاّ صدق لما قاله قولدتزيهر ، وكذلك بلاشير في كتابه

(1) المصدر السابق : ق : 2 اطوار الدعوة القرآنية : 1059 - 1060 .

(2) السجدة : 23 .

(3) القرآن والكتاب : ق : 3 ، اطوار الدعوة القرآنية : 1056 .

”معضلة محمد“ إذ يقول : إن مقارنة النصوص القرآنية بالنصوص الإنجيلية غير الرسمية كإنجيل الطفولة توضّح ما كان بينهما من وثيق الصلات ، وليس هذا بالأمر الغريب ، متى أدركنا القيمة التي كانت تكتسيها الأناجيل غير الرسمية في عصورنا الوسطى (1) .

فهو يعتبر أن ما ورد في المرحلة المكية الأولى من القصص القرآني يشبه لا محالة القصص اليهودي والمسيحي . ولكنه يتساءل عن وجود اتصالات مستمرة بين محمد والفقراء المسيحيين بمكة . فلا ينفي هذه الاتصالات، بل يؤكد ثبوتها ، ولكنه يحترز في إثبات أن يكونوا هم المخيرين له بذلك القصص . ويعلل هذا الاحتراز تعليلا منطقيا فيقول : « وها أنا نشعر أن النقاش سيحتد . فالمجادلون المعارضون للإسلام اكتشفوا مادة ثرية جدا في تشابه القصص القرآني والقصص اليهودي المسيحي . فهل كانت لمؤسس المذهب الإسلامي علاقات مستمرة ومثينة بالفقراء المسيحيين بمكة ؟

يمكن لنا أن نسلّم بوجود هذه العلاقات بدليل ما رده القرآن على تهم المشركين « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ، فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا : أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اِكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » (2) وفي هذا الصدد يدلي الطبري في تفسيره بأسماء بعض العبيد المسيحيين الذين عملوا كمخيرين لمحمد في مكة ، غير أنه يجب ألا نثق في هذا الخبر أكثر مما يجب . فهو لا يفسر أبدا المكانة الممتازة

R. Blachère : Le problème de Mahomet. p. 59 (1)

(2) الفرقان : 4 - 5

التي يتمتع بها موسى والحواريّون في النصوص القرآنية التي ندرسها (1) .

ولابد هنا من الإشارة إلى أنّ الأسفار الخمسة التي يسمونها "التوراة" لا دليل على أن موسى هو الذي كتبها ، ولا هي محفوظة عنه بدليل ما فيها من بعض الأخبار التاريخية ، مثل ذكر كتابة موسى للتوراة ووضعها في جانب من التابوت ، وذكر موته ، وعدم مجيء مثله من الأنبياء إلى عهد كتابتها . وقد قامت الأدلّة عند الباحثين الأوروبيين وغيرهم على أنها كتبت بعده بزمن طويل (2) بغير لغة العصر والبيئة التي ترجع إليها أخبار الوحي ؛ وهي العبرانية القديمة ؛ وإنّما كتبت باللغة الآرامية التي لم تكن موجودة في عصر موسى عليه السلام .

وأما الأناجيل الأربعة الرسميّة ؛ وهي كتبٌ في سيرة المسيح عليه السلام وشيء من تاريخه وتعاليمه ، فليس لها سند متصل عند أهلها ، ولم تكتب بالآرامية (اللغة العبرانية الحديثة) التي كانت سائدة في عصر نزول الوحي على عيسى عليه السلام ، وإنّما كتبت باليونانية والسريانية باختلاف الأناجيل . وكذلك يقال في سائر الكتب المنسوبة إلى الأنبياء في مجموع (الكتاب المقدس) (3) الذي اعتاد المسيحيون أن ينظروا إليه كوثيقة إنسانية يمكن بحثها بنفس الطرق التي تُبحث بها الوثائق التاريخية . وبالرغم من أنّهم يدركون قيمته كتنزيل إلهي في الأمور الدينية البحتة . فهُم

Le problème de Mahomet P, 60 (I)

(2) محمد رشيد رضا : تفسير المنار - ج : 3 / 158 .

(3) محمد الفاضل ابن عاشور : نشرية جمعية المحافظة على القرآن

يعتبرونه نتاجا خاصا بوقته فقط ، وأنه متأثر ببعض نواحي النقص
البشري لِمَا فيه من أخطاء علمية وتاريخية .

قال "هنري مارو" « علينا أن نُثبت بادئ ذي بدء أن تعاليم
الكتاب تُكوّن وحدة منسجمة ، ولكن انقصاص التوراتي لن تتعدى
منزلة الخرافة ، ما لم نتوصل إلى تزيين وقائعهما ضمن نطاق التاريخ
العام ، ونجد لها مكانا في التواريخ المقارنة لأمبراطوريات الأرض » (1)

ومن ناحية أخرى فإن فكرة الشعب التي تحكي عنها التوراة
تخالف عقيدة مصنفي التوراة ، وكذلك النقوش التي تفسر فكرة
الشعب تخالف فكرة التوحيد..... ولكن العبرانيين أنفسهم لم
يَبْقُوا على فكرة التوحيد كما علمهم الأنبياء ، بل كلما بعدوا
عن عصر النبي ابتعدوا عن تعاليمه .

وفي روايات التوراة نرى أن الله الذي خلق الأرض والسموات
أصبح إله بني إسرائيل فقط ، وذلك لأن موسى لما ذهب إلى فرعون
قال له : « هكذا يقول الربّ إله إسرائيل : أطلق شعبي ليعبدوا
إِلَهِيَّ في البرية » (2) .

فهذا الإله المحصور في شعب بني إسرائيل هو كأيّ صنم
آخر كانت القبائل تعبده . وبمرور الزمن أخذ بنو إسرائيل
يشخصون الإله وينسبون إليه عواطف الإنسان وأعماله . فذكروا :
أنه كان يتمشى في الجنة ، وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب ويخشى
مركبات الجبال ، وأنه دفن موسى حين مات في موآب . ولم

(I) جوزاف هورس : قيمة التاريخ : 3I *

(2) سفر الخروج : الاصحاح الخامس : I *

تذكر التوراة أي شيء عن خلود الروح ولا عن البعث والجزاء ،
بينما نجد في القرآن ما يدل على دعوة موسى إلى الإيمان بذلك (1) .

ثم إن من يدرس القصص الذي اشترك في عرضه القرآن والكتاب
المقدس يتجلى له الفرق واضحة بينهما : سواء في المحتوى أو
في الغرض المستخلص من القصة ، كما سنبين ذلك في الفصل الثاني
عند الحديث عن منهج القصة القرآنية . فقد وصف اليهود الخالق بما
لا يجوز في حقّه ، ووصفوا الأنبياء بما هم معصومون منه .

كما نسب المسيحيون إلى الله ما نفاه عنه القرآن وهو
الأبوة . فذكروا من وصايا عيسى عليه السلام : (أحبّوا أعداءكم ،
أحسنوا إلى مبغضيكُم ، صلّوا للذين يسيئون اليكُم ويطردونكُم
كي تكونوا أبناء أبيكُم الذي في السماوات) (2) .

ثم اختلف اليهود والنصارى : (وقالت اليهود : عزيرُ
ابنُ الله ، وقالت النصارى : المسيحُ ابنُ الله) (3) .

وكل ذلك يدل على أن التوحيد الخالص الذي كان يدعو
إليه محمد صلى الله عليه وسلم ليس إسرائيليا كما يزعم الحدّاد
الذي يقول : لقد آمن القرآن ونبيّه الإيمان كلّهُ بنبوة المسيح
ورسالة الإنجيل ، ولكن النبيّ العربي لم يعترف بنبوة المسيح ،
لأن لم يعرفها حق معرفتها . فقد ظنّ أنّ كل نبوة تخضع حكما
وضرورة لناموس الجسد ، ولا تكون إلا بامرأة وزوج . ويستدل إثر

(1) انظر : سورة غافر : 27 وسورة النجم : 36 - 42 .

(2) انجيل متى : اصحاح : 6 .

(3) آل عمران : 68 .

ذلك بآيات من القرآن تُنسزُه الخالق عن أن يكون له ولد ، وكان
القرآن من تأليف محمد ومن وحي أفكاره !..

وغريب أمر هذا التحكُّم منه ، إذ تحمله عقيدته على الاستدلال بالقرآن
لإثبات ما يريد إثباته من علوِّ منزلة المسيح عليه السلام ، وصدق ما جاء به ،
ومن وحدة الأديان في أصول العقيدة ، ثم هو يُعرض عن ذكر
الآيات التي تؤكد أن مصدر القرآن هو الله ، صنيع من يؤمن
ببعض الكتاب ويكفر ببعض - والقرآن وحدة متكاملة في قصصه
وأخباره ، وأحكامه وتشريعاته ومنهجه العقائدي وسننه الأخلاقية ،
رغم اختلاف نزول آية في الزمان والمكان - وهو مع ذلك لا
يعتبره في مستوى الكتب السماوية التي أنزلها الله على الرسل ،
رغم إقراره بأنّ (ما حفظ القرآن عن المسيح والإنجيل والنصارى
هو مفخرة للمسلمين إذا همّ تجردوا عن تفاسير الشحاء والبغضاء) (1) .
وينفي أن يكون لصاحب الدعوة الاسلامية صلى الله عليه وسلم ما
يؤيده من مثل معجزات الأنبياء الذين سبقوه (2) . وبالتالي ينفي ان
يكون اسم (أحمد) ترجمة (البارقليط) الذي بشر به المسيح في
الإنجيل ، هو محمد صلى الله عليه وسلم (3) . ويُرجع سبب فتور
الوحي في الفترة الاولى من البعثة إلى موت ورقة بن نوفل مستدلاً بما
ورد في البخاري : (ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفسر الوحي) .

والبخاري لم يقصد أبداً أن تكون الجملة الثانية نتيجة للأولى .
ولوقصد ذلك لاستعمل الفاء بدل الواو ، إذ الواو لاتفيد الترتيب .

(1) الانجيل في القرآن : 420 - 421 .

(2) المصدر السابق : 718 - 720 .

(3) القرآن والكتاب : اطوار الدعوة : 672 .

(4) المصدر السابق : 994 .

ثمّ إنّ ما يدّعيه من استفادة الرسول من حاشيته اليهودية والمسيحية الذين أسلموا أو كانوا في معيته ، فإنّ إسلامهم حجة قائمة على صدق ما جاء به من السوحي الإلهي . ولو تبين لهم أنه كان يتلمذ بهم في خفاء ليتلقّى عنهم ما كان يدعو إليه لانفضوا من حوله ، وعادوا إلى ملتهم ، ولم تكن لهم تلك المنزلة الرفيعة في الدعوة إلى الإسلام ، والذود عن حماه ، والإخلاص للرسول . ومن ناحية أخرى فإنّ ما أمكن جمعه واعتماده من وثائق تاريخية تتعلق بالعصر الجاهلي ، لا تفيد أنه يوجد أي تأثير يهودي مسيحي في تلك البيئة .

وقد نفى بشر فارس في دراسة كتبها بالفرنسية (الشرف عند العرب قبل الإسلام) أن يكون الإسلام من صنع اليهودية والمسيحية .

وبحث شدياق (A. P. Chadiac) عن المصادر الإنجيلية التي اعتمدها الغزالي في (الردّ على ألودية المسيح بصريح الإنجيل) فاكشف أنه لم تكن توجد ترجمة عربية للإنجيل في عصر الغزالي ، وأنّ أول نص مسيحي تُرجم إلى العربية كان مخطوطاً بمكتبة القديس (بطرس) كتب حوالي سنة 452 هـ (1060)م بيد رجل يدعى (ابن العسال) (1) .

كما أثبت بعض المؤرخين أن كتاب (التاج) ترجمة عربية كاملة لأسفار العهد القديم قام بها في القرن الرابع للهجرة عالم يهودي شهير يدعى (سعديا الفيومي) . وبعض اليهود ذكر أن هذه أول ترجمة للتوراة إلى العربية .

(1) مالك ابن نبي : الظاهرة القرآنية : (ت) عبد الصبور شاهين : 299

وذكر ابن النديم نقلا عن محمد بن اسحق أن أحمد بن عبدالله بن سلام مولى هارون الرشيد ترجم الصحف والتوراة والإنجيل وكتب الأنبياء والتلاميذ من اللغة العبرانية واليونانية والصابئة إلى اللغة العربية (1) .

ويبدو أن ابن النديم اطلع على هذه الترجمة وأفاد منها .
وأما استدلال الحدّاد بالآية السابقة على أن محمدا كان ياتقى بأهل الكتاب ، فهو تفسير بالهوى لا بالمنطق ، إن صحّ التعبير .
وقد اتفق الجلالان وابن عباس والنسفي وغيرهم من أعلام المفسرين على أن الضمير في «لقائه» يعود على موسى عليه السلام . والمعنى : فلا تكن في شك من لقائك موسى ليلة الإسراء أو يوم القيامة ، أو من لقاء موسى ربه في الآخرة .

وهذا شبيه بما ذهب إليه الحدّاد نفسه من تفسير الكتاب بالإنجيل في مثل قوله تعالى : « واذكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ » (2) .

وبعد هذه الجولات الكبيرة التي قام بها الحدّاد في كتبه عن القرآن ، وما أثار من شُبُهات ، وأوّل من آيات ، ونفسي من معجزات ، يتساءل : (هل للقرآن من مصادر؟) ثم يجيب : (المصدر الأول للقرآن هو الله ، وهذه قضية إيمانية لا تُمسّ) (3) .

فأي تناقض أبعد عن الروح العلمية والنظرة الموضوعية من مثل هذا؟

(1) ابن النديم : الفهرست : 39 .

(2) القرآن والكتاب : ق : 2 : اطوار الدعوة : 1060 .

(3) القرآن والكتاب : ق : 2 - 298 .

ويضيق نطاق البحث عن مناقشة آراء الكثيرين من المستشرقين وغيرهم ممن ذهبوا إلى أن أهل الكتاب هم مصدر القصص القرآني مثل لامنس (Lamance) الذي قال : (حيث التفكير القرآني مسيحي يكون التعبير يهوديًا) (1) .

وحتّاز كريا (H. Zakarias) الذي قال : (الاسلام محاولة يهودية قام بها ربّان مكة لتهوديد العرب بواسطة محمد) (2) .

ولكن لا بد من الإشارة في هذا المجال إلى عنصر جديد أضافه إلى المصدر السابق المستشرق كليمان هوّار (C. Hugar) فقد زعم في فصل نشر في المجلة الآسيوية سنة 1904 أنه اكتشف مصدرا جديدا من مصادر القرآن هو شعر أمية بن أبي الصلت (3) وقارن بينه وبين آيات من القرآن ؛ فاستنتج صحة هذا الشعر بما يلاحظ من فروق بين ما ورد فيه ، وما ورد في القرآن من تفصيل لبعض قصصه كأخبار ثمود وصالح ، مستدلا على ذلك بأنه لو كان هذا الشعر منحولا لكانت المطابقة تامة بينه وبين القرآن . ثم يزعم أن استعانة النبيء به في نظم القرآن ، حملت المسلمين على مقاومته ومحوه ، ليستأثر القرآن بالجدّة ، وليصح أن النبيء قد انفرد بتلقّي الوحي من السماء . وكان مما ردّ به الدكتور

— Une adaptation Arabe du monothéisme : Biblique dans recherches (1) des sciences religieuses : 161-186.

— Entreprise juive. (2)

(3) شاعر عاش في الجاهلية والاسلام . وكان يخبر أن نبيا يبعث قد أطل زمانه ، ويؤمل أن يكون هو ذلك النبيء . فلما بلغه خروج رسول الله (ص) وقصته كفر حسدا له ، وكان رغب عن عبادة الأوثان . ولا أنشد رسول الله شعره قال : آمن لسانه وكفر قلبه . وكان يحكى في شعره قصص الانبياء (ابن قتيبة : الشعر والشعراء : 429)

طه حسين على ذلك ، قوله : (والغريب من أمر المستشرقين في هذا الموضوع وأمثاله أنهم يشكّون في صحة "السيرة" نفسها ويتجاوز بعضهم الشك الى الجحود ، فلا يرون فيها مصدرا تاريخيا صحيحا ، وإنما هي عندهم كما ينبغي أن تكون عند العلماء جميعا طائفة" من الأخبار والأحاديث تحتاج إلى التحقّيق والبحث العلمي الدقيق ليمتاز صحيحها من منحولها . هم يقفون هذا الموقف العلمي من السيرة ، ويغفلون في هذا الموقف ، ولكنهم يقفون من أميّة وشعره موقف المستيقن المطمئن ، مع أن أخبار أميّة ليست أدنى إلى الصدق ولا أبلغ في الصحة من أخبار السيرة . فما سرّ هذا الإطمئنان الغريب إلى نحوٍ من الأخبار دون الآخر ؟

أبكون المستشرقون أنفسهم لم يبرءوا من هذا التعصّب الذي يرمون به الباحثين من أصحاب الديانات) ؟ (1)

ومن الكتاب المسيحيّين من تتحوّل ألسنتهم وأقلامهم - عندما يتحدّثون عن القرآن والرسول والإسلام - إلى حراب ومعاول مثل : فيليب ايرلنجي (Philippe Erlanger) الذي كتب مقالا طويلا في مجلة تصدر بباريس (2) نسب فيه إلى الرسول من المفتريات والأباطيل قصد النيل من مثاليّته ، ما يتبرأ منه كل باحث نزيه ، وما لا يصدر إلا عمّن أغلق فكره التعصّب والحقد (3) . وكان ممّا ادّعاه في هذا المقال : كثرة اتصال محمد صلّى الله

(1) في الادب الجاهلي : 143 .

(2) Historia : Avril 1969-N° 269

(3) انظر مقاله : 75 : qui était Mohamet

عليه وسلم باليهود في مكة - ونحن نعلم أن جلّ يهود الحجاز كانوا بالمدينة ، لابلكة - وأنه كان يسأل خادمه زيدا - وهو مملوك للمسيحيين - عن الديانة المسيحية واليهودية ليأخذ عنهما ، وكان حاذقا فطنا أكثر ذكاء وأدق فهما من خادمه .

ويقول في موطن آخر من نفس المقال (1) : « لقد كان محمد عندما هاجر إلى المدينة تلميذا لليهود وهم الذين كوّنوه وأنشأوه.... وقد بدأ جبريل يمدّه ببعض الأساطير التي يعرفها اليهود والمسيحيون » وغنّي عن البيان هذا التناقص الملحوظ في أقواله التي يقذف بها بلا سند من تاريخ ، أو حجة من عقل .

وهكذا يمكن القول بأن أكثر المستشرقين وأمثالهم لم يتوصلوا إلى تكوين فكرة صحيحة عن مصدر القرآن وقصصه ، وعن شخصية الرسول والوحي الذي أنزل عليه .

ويرجع ذلك إلى إدراكهم لحقيقة الوحي القرآني ، أو إلى تعصّبهم الديني ، أو إلى تغاليهم في النظرة التاريخية ، ومحاولة إرجاع كل شيء في القرآن وبخاصة قصصه إلى نموذج قديم في كتب العهدين أو في الشعر الجاهلي .

وقد عارض المستشرق السويدي تور اندريه (Tor Andrac) صاحب كتاب : « محمد : حياته وعقيدته » هذه الطريقة العقيمة في البحث ، مبيّنا أن جوهر النبوة لا يمكن تحليله إلى مجموعة من آلاف العناصر الجزئية . ومهمّة الباحث في رأيه أن يدرك في

نظرة موضوعية : كيف تتألف من العناصر والمؤثرات المختلفة وحدة جديدة أصيلة تنبض بالحياة . فالإسلام لا ينكر صلاته بالديانة اليهودية والمسيحية ، وعقائد الحنيفية ، وتقاليد العرب القدماء ، ولكن ذلك لا يعني أنه مجرد مجموعة من هذه العناصر « (1)

الذات المحمدية والوحي القرآني

ولو كان القرآن والحديث صادرين عن نبع واحد ففيم هذا البون الشاسع بينهما في أسلوب العرض وطريقة التعبير ؟ وكيف يستطيع شخص واحد أن ينطق بكلام فيقول : إنه قرآن من عند الله ثم ينطق بكلام آخر يختلف عنه اختلافا لا يتهيأ لمصدر واحد مهما كان المتكلم صناعا أو حذورا ، فيقول : إنه من كلامه ؟ وكيف يمكن التمييز والتفريق في نفس واحدة وعقل واحد وإدراك واحد بين نوعين من الكلام البليغ (2) ، لكل منهما طابعه وصياغته الخاصة ؟ وماذا كان يصدّ الرسول عن نسبة شرف القرآن العظيم إليه ، لو كان من إنشائه وتأليفه ؟

وبالرجوع إلى ما جُمع من شعر ابن أبي الصلت في كتب تاريخ الأدب العربي ، لا حظنا أن المسيحيين من العرب والمستشرقين مثل الأب (شيخو) قد عُنوا بجمع هذا اللون من الشعر الديني أكثر من سواهم

(1) محمد كامل عياد : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق - ج : 4 م : 44 -

1969 ص : 797 .

(2) محمد لطفى جمعة : ثورة الاسلام وبطل الانبياء : 587 .

ولمزيد الإيضاح نُورد على سبيل المثال هذه الآيات ، وما يتفق معها من شعره :

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُو الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ نَكُرٍ خُشَعًا
أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ » (1)
« إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ
أَحْسَنُ عَمَلًا . وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا » (2)
« كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهُمَا : أَلَمْ يَأْتِكُمْ
نَذِيرٌ ؟ - قَالُوا بَلَى » (3)

ويوم موعدهم أن يُحشروا زمراً	يوم التغابن إذ لا ينفع الحذر
مُستوسقين مع الداعي كأنهم	رجلُ الجراد زفته الريح منتشر
وأبرزوا بصعيد مُستوي جرز	وأُنزلَ العرش والميزان والزبر
فمنهم فَرِحَ راضٍ بِمَبْعَثِهِ	وآخرون عصوا مأواهم سقر
يقول خزانتها ما كان عندكم ؟	ألم يكن جاءكم من ربكم نذراً ؟
قالو : بلى فتبعنا فتيةً بطروا	وغرنا طول هذا العيش والعمر (4)

وإذا ثبت أن هذا الشعر لابن أبي الصلت - ولو أنه لا ينسجم ومواقف أمية من الرسول موقف الخصومة ، بهجاء أصحابه ، وتأيد مخالفيه ، ورتاء أهل بدر من المشركين - (فلم يكن النبيء هو

(1) القمر : 6 - 7 .

(2) الكهف : 7 - 8 .

(3) الملك : 8 - 9 .

(4) البستاني : الجاني الحديثة . ج : I / 367 .

الذي اخذ عن أمية ، ولا يكون أمية هو الذي أخذ عن النبي ؟

ثم من ذا الذي يستطيع أن يقول : إن من ينحل الشعر ليحاكي القرآن ملزم أن يلائم بين شعره وبين نصوص القرآن ؟ أليس المعقول أن يخالف بينهما ما استطاع ليخفي النحل ويوهم أن شعره صحيح لا تكلف فيه ولا تعمل ؟ (1) .

كما أورد توسدال (C. Tisdal) شبهات الناقدين للقرآن الكريم ، ومنها هذه الأبيات التي نسبوها إلى امرئ القيس ، والتي لا تخلو من بعض التراكيب القرآنية :

دنت الساعة وانشقت القمـر
عن غزال صاد قلبي ونفر
أحور قد حرت في أوصافه
ناعس الطرف بعينه حور
مرّ يوم العيد في زينتـه
فرماني فتعاطى فعقر
بسهم من لحاظ فاتك
فتركني كهشيم المحتظر

« وأيسر ما يبدو من جهل هؤلاء الخاطبين في أمر اللغة العربية قبل الإسلام وعلاقتها بلغة القرآن الكريم ، انهم يحسبون أن العلماء المسلمين يجدون في بحث تلك الأبيات وصبا واصبا لينكروا نسبتها إلى الجاهلية ، ولا يلهيهم الذوق الأدبي أن نظرة واحدة كافيته لليقين بإدحاض نسبتها إلى امرئ القيس أو غيره من شعراء الجاهلية » (2) .

(1) طه حسين : في الادب الجاهلي : I42 - I45 .

(2) العقاد : اسلاميات : 51 - 53 .

ثم منذ بدء الوحي القرآني إلى نهايته نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتحدث مع الذات الإلهية حين تخاطبه بالوحي ، ولم يقف منها موقف المناجاة والحوار ، كما كان موسى وعيسى عليهما السلام ، وأن شخصه لا يرد في القرآن إلا في واحد من موضعين : إما موضع المخاطب : (عَمَّا اللهُ عَنكَ) ، « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » ، « وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » . وإما موضع المتحدث عنه : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ » .

بينما نرى أن أشخاص أنبياء العهد القديم ، أو شخص عيسى في العهد الجديد ، إنما يكون كل منهم حاضرا حضور المتكلم لا المخاطب ، لأنه هو الذي ينشئ الكلام ويتوجه به إلى الناس باعتبار كونهم شعبه ، كما يقول موسى ؛ أو إخوانه كما يقول عيسى .

وأما الله تعالى فنجد حضور ذاته العلية من خلال نصوص التوراة والانجيل حضور المخاطب المتوجه إليه بالدعاء أو بالمناجاة ، أو حضور المتحدث عنه بطريق الحكاية والتبليغ لتعريف الناس به ، ودعوتهم إليه .

فكان للقرآن دون غيره من الكتب السماوية هذه الميزة الفريدة السامية باعتبار أنه (كلمة الله) . أعني أن الله تعالى بذاته الجليلية هو المتكلم نفسه بالكلمة القرآنية (1) ، كما يدل عليه ضمير المتكلم :

(I) الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور : فلسفة القرآن وشموله ، الملحق الثقافي للعمل عدد 57 س 2 - 24 / 4 / 1970 تونس .

« نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ، وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا
أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا » (سورة الانسان 28)

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ » (سورة البقرة 86) .

ولا أدلّ على أنّ الوحي القرآني خارج عن الذات المحمدية ،
من نزوله - رغم تباعد الأزمان - على نسق فكري موحد بعيد عن
حدود الفكر البشري في ذلك العصر .

(ولو افترضنا ان التفكير يمكن أن يحدث لا شعوريا ولا إراديا
لدى فرد ما ، فإن النبيء رغم هذا لم يكن لديه الزمان المادي
كبي يتصور وينظّم تعاليمه في البرهة الخاطفة للوحي) (1) التي كان
يعاني فيها حالة خاصة ، والتي ينزل فيها ما يتجاوز في الكم والكيف
تلك الومضة السريعة من الزمان . ولقد ألمع القرآن في كثير من إشارات
البارعة إلى هذه الحقيقة بما فيه مقنع لرسول نفسه بضرورة الفصل بين ما هو
نابع عن شعوره الخاص ، ومعلوماته الشخصية ، وبين الوحي القرآني
حتى يعرف عن بيئته مدى فضل الله عليه في تعليمه ما لم يكن يعلم .
قال تعالى : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ
تَدْرِي مَا الْكِتَابُ ، وَلَا الْإِيمَانُ » (2) .

ولا ريب ان هذه الآية وأمثالها قد مرّت بشعوره صلّى الله
عليه وسلم ، ومارس حقيقة هذا الفصل وحتميّته التاريخيّة والنفسيّة ،
مما تجلّى أثره في أصحابه بكتابهم ما ينزل عليه من القرآن ،

(1) مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية : 213 .

(2) الشورى : 52 .

ونهيهم عن كتابة أحاديثه .

وفي هذه الآية : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ . مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ » (1) .
يمضي الوحي القرآني ليس أبعد من الفكرة المحمدية فحسب ، ولكن أبعد مما قد أوحى بالفعل (2) . وهل أدل نفسياً على انفصال شخصية الوحي عن شخصية الرسول من مخالفة القرآن لطبعه ، وعتابه الشديد له في مثل هذه الآية ؟ « مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونُ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَشْخِنَ فِي الْأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » . لولا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » (3) .
فلو أنك تأملت فيما عوتب عليه ، وهو قبول الفداء من أسرى بدر ، لكان أقرب إلى نفسه الكريمة ، وطبعه الرحيم . وهو خير ما يختاره من عُرف برحمة أهله وهداية قومه ، وتأليف خصمه . وإنما نبهه القرآن إلى ما هو أرجح في ميزان الحكمة الإلهية . فهل ترى في ذلك ذنباً يستوجب عند العقل هذا التأنيب والتشريب ؟ أم هو مقام الربوبية ، ومقام العبودية ، وسنة العروج بالحبيب في معارج التعليم والتأديب ؟ (4) . وكل هذا مما يفند المزاعم القائلة : بأن القرآن من آيات العبقريّة المحمديّة . بل يجب ان ننفي عنه صلى الله عليه

(1) القصص : 78 .

(2) الظاهرة القرآنية : 200 .

(3) الأنفال : 67 - 68 .

(4) محمد عبد الله الدراز - النبا العظيم : 19 .

وسلم هذه الصفة إطلاقاً إن كانت العبقرية كما قال كرتشمير (Kretsch- hemer) أحد علماء النفس : تقتضي العبقرية لزوم عنصر المرض النفسي كعامل جوهري في شخصية العبقرية ، بحيث لو فرضنا أن صاحبه يستطيع التخلص منه ، لكانت النتيجة المحتومة أن يفقد عبقرته . وقد دعم رأيه هذا بما دلّت عليه تراجم العباقرة ، وما أسفر عنه التحليل النفسي لشخصياتهم من خلال إنتاجهم الفكري والفني ، والتشابه الملحوظ في الظواهر السلوكية لدى كل من العبقرية والعصابية (1) ومن ناحية أخرى ، فإنّ الناس يلدّ لهم التوهّم بأن الأفراد الذين يختلفون عنهم لا بدّ أنهم مصابون بعلّة ما .

والحقّ أنه لم تكن للرسول هذه القدرة العجيبة على قيادة الجماهير ، والتأثير في نفوسهم إلا بمقدار ما أثّر فيه الوحي الإلهي « وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا » (2) .

وهكذا يتبين عند تحليل تلك المفارقات بين ماضي الحياة المحمدية وحاضرها أنّ القرآن لم يكن إلا وليد تعليم جديد . وبذلك يصير البحث عن مصدر القرآن غير ذي موضوع ، سيما وقد تظافرت الأدلة العقلية والنقلية والنفسية على أن القرآن كتاب سماوي ، مصدره هو مصدر الكتب السماوية . فهو يوصي بما أوصت به ، ويدعو إلى ما دعت إليه من عقيدة صحيحة وخالس قويم ، ويصدّق بما جاء به موسى وعيسى والأنبياء قبلهما من الوحي الإلهي ، على

(1) مصطفى سوييف : الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر : I29-I31

(2) النساء : II3 .

أساس أن جميع الأديان السماوية تستمد من نبع واحد ، وتتفق فيما تدعو إليه من حبّ ورحمة واستقامة وإخلاص .

قال عيسى عليه السلام (ما جئت لأنقض الناموس ، بل لأكمّله) (1).

وقال محمد صلى الله عليه وسلم : إنما بعثت لأنتمم مكارم الأخلاق (2)

وقال تعالى : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » (3) .

ولكن ذلك لا ينبغي أن يحمل على الاعتقاد بأن الأديان السماوية

— وان اتفقت في الأصول والأهداف — هي صور مكررة في تشريعها وطرق هدايتها إلى الحق ، لأن ذلك يقتضينا أن نلغي التاريخ ، وألا نقيس وزنا لسنة التطور البشري ، ونتجاهل ما يحيط بكل بيئة وعصر من ظروف خاصة : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ، فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً » (4) .

(I) انجيل متى • الاصحاح الخامس : 17

(2) رواه مسلم •

(3) الشورى : 111

(4) المائدة : 48

الفصل الثاني

المنهج القصصي في القرآن

تُعَدّ القصة القرآنية أول قصة ملتزمة عرفها الأدب العربي وذلك بما تهدف إليه من دعوة إلى التوحيد ، وتحث عليه من خلق قويم ، وتنهى عنه من فساد وشرك ، وتثبتته من أدلة على صدق ما جاء به الرسول .

وفي القرآن إشارات تحدّد دورها الأخلاقي الديني كقوله تعالى :

« فَأَقْصُصِ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » (1)

وإذا تأملنا في الأسلوب الذي قُدّمت به ، وماله من تأثير نفسي وفنّي ، اتّضح وجه تسميتها "بالقصة" لاستنادا إلى مدلولها اللغوي فقط ، باعتبار أن أصل الاشتقاق المفظ (قصة) يلتقي في المعنى مع المدلول الذي انبنى عليه أصل التسمية القرآنية ، وهو : الإعلام بالنبأ ، « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ » (2)

أو تتبّع الأثر وتفصّيه (3)

« وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ » (4)

(1) الاعراف : 176 •

(2) الكهف : 13 •

(3) انظر : القاموس المحيط : فصل القاف : باب الصاد • ج 2 / 313 •

(4) القصص : II •

بل واعتمادا على ما في عرضها من طرق فنية ، رغم أن شروط القصة بمعناها الإصطلاحي لا تنطبق عليها غالبا ، لأنها إلى الأقصوصة أقرب ؛ وذلك لقصرها ، واقتصار القرآن في أكثر الأحيان على ذكر حلقة منها أو أكثر ، وعدم استيفائها كل عناصر القصة مجتمعة ، من حوار وأشخاص وزمان ومكان وعقدة ، كما شاع ذلك في معظم القصص الفني .

فلا يؤخذ على القرآن أنه لا يتناول القصة من جميع أطرافها ، أو أنه يلمح إليها تلميحا ، اعتمادا على شهرتها « رأيت الخطيب حين يستشهد بقصة من القصص ؟ أتراه يعمد إلى القصة كلها فيسردها ، أم إنه يعمد أحيانا إلى جزء من القصة يسرده في خطبته . وأحيانا يكتفي بالإيماء إلى القصة ، والإشارة إليها ، من غير أن يكون في مثل هذا العرض نقص في الخطبة ، أو اعتراض على الخطيب ؟ » (1)

لذلك لم يسمها القرآن (أخبارا) ، لأنه لم يقدمها كما تقدم الأخبار المجردة خالية من التصوير الفني ، والإثارة النفسية ، ولم يسمها (حكايات) ، لأنه لم يسردها كما تسرد الحكايات التاريخية في كتب التاريخ مجردة مما يأخذ الأسماع والقلوب من غوص على مكان الشعور ، وتشخيص للحادثة ، وتنسيق في العرض ، وإيقاع في الموسيقى اللفظية .

ولكنها أخبار تخيرها من التاريخ على أساس أنها أوثق صلة بالإنسان ، وأوضح دلالة على الفكرة ، وأعمق مغزى للغرض .

(I) انظر : اليهود في القرآن : لطبارة : 256 .

الأسلوب :

فأسلوب القرآن في القصة أن يختار لقطات حيّة من الوقائع التاريخية ، ولا يثقلها بما هو تافه من الجزئيات والتفاصيل التي تصرف الفكر عن التدبّر والاعتبار ، كما يختار الرسّام للمشاهد من الأشكال والألوان ما يحقق له الانسجام. وإلاّ فحسبه الصورة الفوتوغرافية الآليّة .

إنه يروي بعض أحداث القصة بأسلوب يبعث فيها الحياة ، فتخطّسى القرون ، ويجعلها كأنها ماثلة، كما في قصة قوم لوط :

« وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ، وَقَالَ : هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ . وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ . قَالَ : يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي . أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ؟ قَالُوا : لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ . وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ . قَالَ : لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ . قَالُوا : يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ . فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ . إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ . أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ؟ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ مُسْوَمَةٍ عِنْدَ رَبِّكَ . وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ » (1)

لقد أصاب قومَ لوط انحرافٌ فظيع ، فكان ما حكاه القرآن على لسانهم حين قالوا : « لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ » كاشفا عن نفسية اجتماعية منحرفة تحلل أصحابها من قيود الفضيلة . فلم يصدّهم حياء أو إيمان عن كبت مشاعرهم الجنسية الشاذة ، بل أعلنوا عنها في صفاقة ، وكأنهم لا يأتون منكرا . ذلك أن الفرد يكتسب من وجوده وسط الجمع قوة تشجعه على الاسترسال في ما كان يُحجم عنه منفردا من الميول والأهواء . وهو لا يتكبح جماح نفسه ، لأن الجماعة لا تُسأل عن أفعالها كما يُسأل الفرد ، ولا سيما إذا شاعت تلك الأفعال بين جميع الأفراد (1) : كقوم لوط . فإن الواحد منهم لا يشعر بما قد يجره العمل عليه من تبعية وخزي . وهذا الشعور هو الزاجر للنفوس عمّا لا ينبغي .

فإذا انعدم هذا الشعور حكيم المجتمع على نفسه بأنه غير صالح للبقاء . وهكذا نلاحظ كيف اختار القرآن ممّا دار من حوار وجدال بين لوط وقومه عبارة موجزة ، ولكنها بعيدة الأغوار ، فسيحة الآفاق ، تلقي الأضواء على نفسية مجتمع مريض .

كما أن في ما حكاه القرآن في هذه القصة القصيرة على لسان الملائكة :

« يَا لُوطُ : إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ »

(I) ق • لوبون (G. Le Bon) : روح الاجتماع (ت) أحمد فتحي زغلول :

ألم يكن هذا التعبير تجسيما لمعنى الأمن من الخوف أمام نفس حزينه حائرة كنفس لوط عليه السلام ، وقد ضاقت به السبل ، واشتدّ عليه الكرب ، وهو الغريب في قوم منحرفين عن فطرة الله ، ضالّين عن هداة ، نزح إليهم من بعيد ، ولا عشيرة له تأويه ، أو قوّة ماديّة تحميه ؟

فكان أصدق ما عبّر به عن يأسه وألمه قوله :

« لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ »

الآية يحسّ المؤمنون وهم يتلون هذه الآية مشفقين على لوط من مكر قومه به ، وكيدهم له ، ممّا أحسّ به لوط نفسه عندما علم بأنّه بات في حماية رسل الله من الملائكة الذين جاءوا لتنفيذ أمر الله في قومه ؟

« إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ » ؟

ويأتي أمر الله ويحلّ العذاب بقوم لوط فتصبح قريتهم أثرا بعد عين .

« فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا..... »

فأيّ تعبير يبلغ في تقريب الموعد وتأكيده ، وتصوير القضاء النازل ، والتدمير الكامل ، وإنذار مشرّكي قريش عذابا كهذا ، ممّا بلغه ذلك التعبير القرآني الذي يلقي روعته في النفس ، وظلاله في الحسّ ؟ .

وكم يُبدع القرآن في تصوير المشاهد حتى يكاد يجعلها شاخصّة كأننا نراها ! ومن ذلك مثلا : هذا الوصف الدقيق لأهل الكهف الذي نقتل فيه بالكلمات هيئة الفتية في مشهد تصويري أظفت عليه صيغة المضارع معنى الإحضرار والتجدّد .

« وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ . وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ... »

« وَتَحْسَبُهُمْ آيْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ . وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ . وَكَلِّبُهُمْ بِسَاطِ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ، لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتْ مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلَّمَلْتْ مِنْهُمْ رُعبًا » (1) .

ومن القصص القرآني ما تمرّ فيه المشاهد قصيرة وبسرعة خاطفة . ومنها ما تمرّ فيه طويلة وفي تُوْدَة ، وذلك بالقدْر الذي يتفق والغرض الديني منها ، وبتناسق مع السياق الذي عرّضت فيه . ولكنها في الحالين تظلمع الألفاظ المعبرة فيها عن مختلف العواطف والانفعالات ، ويقوم تصوير المشاهد والشخصيات بدور الإحياء والتشخيص والحركة . فإذا المعنى المجرد هيئة ماثلة ، وإذا الحالة النفسية لوحة شاخصة ، وإذا الحادثة المعروضة مشهد يجري .

وهكذا فإن التصوير هو الأداة المفضّلة في أسلوب القرآن . فهو يعبر بالصورة المحسوسة المتخيّلة عن المعنى الذّهني ، والحالة النفسية.... ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها ، فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجدّدة..... فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو . وهذه سمات الانفعالات بشتي الوجدانات المنبعثة من

المواقف ، تتسق مع الحوادث . وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة ،
فتنم عن الأحاسيس المضمرة . إنها الحياة ، وليست حكاية الحياة ! (1) .

الإجمال والتفصيل .

وتجدر الإشارة إلى أن ما نزل من القصص القرآني في
أوائل الدعوة كان جلّه يمتاز بعرض أحداث القصة في منتهى
الإيجاز ، وبالفواصل القصيرة ، والجرس اللفظي ، والافتصار على
ذكر من نزل عليهم العذاب ، دون التعرض ذالبا إلى أسماء
أنبيائهم ، وما دار بينهم من حوار . لأن الغرض الأول في هذه المرحلة
يتمثل في تحذير مشركي مكة من العناد والتكذيب والإصرار على
الباطل ، وتخويفهم أن يصيبهم ما أصاب من سبقهم من المكذبين :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ
الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ . وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ
بِالنُّوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ .
فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ .
إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » (2) .

فمن يتلومثل هذه الآيات القصيرة السريعة المتسقة الفواصل ،
ذات الرنين الصوتي المنغم ، يحس ما لها من تأثير ، ومن قوة
وعنف ، لأنها تتجه إلى الإرهاب والإثارة .

(1) سيد قطب : التصوير الفني في القرآن : 34 .

(2) الفجر : 6 - 14 .

إذ لا نكاد نفرغ من قصة حتى تأتي إثرها قصة أخرى في سرعة خاطفة وفي نفس الاتجاه .

وهي طريقة من طرق قص القرآن تأخذ السامعين من جميع أقطارهم ، كما تأخذهم من كل مكان ربيع عاصفة ، فلا يجدون منها مهربا ، ولا يرون لأنفسهم عنها مَصْرَفا . وتُصَبَّ عليهم العظات والمثُلات ، حتى تقطع عليهم طريق الجدال والحِجاج ، فلا يجدون من الوقت ولا من القوة ما يتيح لهم رجوع الجواب .

وحين تتطوّر الدعوة ، ويدخل الناس في دين الله ، ويحتدّ الخصام ويشتدّ الصّراع ، يبرز عنصر الحوار في موضوعات الدعوة : كالوحدانية ورسالات الانبياء والبعث ، فتظهر أسماء الرسل وهم يحاورون أقوامهم . وتمضي القصة في أنأة ومهّسل تصوّر الحياة ، وتعبّر عن الشخصية ، فتكون أكثر تبسّطا وتفصيلا ، وتأتي آياتها أكثر طولا ، لأنها تتّجه إلى إثارة التفكير والتأمّل والثروة فيما جرى على الأمم من قبل (1) : كقصة موسى وفرعون في سورة طه التي نزلت بعد سورة مريم فيما بين الهجرة إلى الحبشة وحادثة الإسراء ، والتي كان محورها حدث النبي صلّى الله عليه وسلم على الصّبر ، وتحمل ما يلقاه من إغراض قومه عن دعوته تأسيا بما كان من ثبات موسى وصبره أمام فرعون وملئه .

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ اتَّبِعْ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ،
قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ . قَالَ : رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ .

(I) طه حسين : مرآة الاسلام : 150 - 151 .

وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي . فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ،
وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ . قَالَ : كَلَّا . فَاذْهَبَا
بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ . فَآتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا :
إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
قَالَ : أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ، وَلَكَبِثْتَ فِينَا مِنْ عَمْرٍكَ
سِنِينَ ، وَفَعَلْتَ فِعْلَكَ الْبِئْسَ الَّذِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ؟ قَالَ :
فَعَلْتُهَا إِذْ أُنذِرْتُ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ . فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ
فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ . وَتِلْكَ
نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ . قَالَ فِرْعَوْنُ :
وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ : رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ . قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ : أَلَا تَسْتَمِعُونَ ؟
قَالَ : رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (1) .

إبراز العناصر

ومن سمات القصص القرآني أن العناصر المألوفة للقصّة
من أحداث وأشخاص وحوار وارتباط مكاني وترتيب زمني
وعقدة لا نجد لها مجتمعة في القصّة القرآنية ، ولا موزعة
توزيعاً يجعل لكل منها دوراً يختلّ بانعدامه توازن القصّة ،
لأن المقاصد التي يوحى بها السياق هي التي توجه أسلوب العرض ،
وتتحكم في ترتيب الأحداث ، وتسلط الأضواء على العنصر المراد إبرازه .

فقد يكون القصد الإنذار والترهيب مثلاً ، فيبرز عنصر الأحداث :
 « كَذَبَتْ ثَمُودٌ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ . فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا
 بِالطَّاغِيَةِ . وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ .
 سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا . فَتَرَى
 الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ
 تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ؟ (1) .

فقد كان الغرض من عرض ما حلّ بالمكذّبين من قوم
 عاد وثمود تذكير أهل مكة وتخويفهم من عاقبة تكذيبهم
 وإنذارهم بعذاب من سبقهم .

وقد يكون القصد تثبيت الرسول والمؤمنين على الحق الذي
 يدعون إليه رغم ما يلقون في سبيله من أهوال ، فيبرز عنصر
 الأشخاص تمييزهم الأحداث التي ألمت بهم ، وما كانت لهم
 من عاقبة يطمئن إليها المجاهدون .

« وَلُوطًا أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ
 الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ . إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ،
 وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » (2) .

فقد ورد في معرض ما منّ الله به على أصفياؤه من نصر وتأييد
 أنّ لوطاً نجاه من القرية التي كان أهلها يرتكبون المنكرات ،

(1) الحاقة : 4 - 8 .

(2) الانبياء : 74 - 75 .

وآتاه الحكمة والنبوة ، فجابه برحمته جزاء صلاحه واستقامته ، وأهلك قومه جزاء فسادهم وانحرافهم . فكان في إبراز شخصية لوط تسليية وتثبيت لقلب الرسول وأصحابه ، وتفصيل لما أُجمل قبل ذلك بهذه السورة « وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ، فَحَاقَ بِالذِّينِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » (1)

وقد يكون القصد إقامة الحجة والإقناع بحكاية أقوال الخصم ، أو التعريف بشخصية ما ، والتعقيب عليها ، فيبرز عنصر الحوار على طريقة الزواية للأقوال . فمن التعقيب على أقوال الخصم ومحاجتهم هذا الحوار الذي جرى بين نوح وقومه مثلاً :

« وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ، وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا . اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ . إِنِّي إِذْنًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا : يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ، فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ : إِنَّمَا يَأْتِيَكُمُ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ . وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (2)

فقد أشارت هذه الآيات إلى محاجة نوح لقومه بما يعرفهم بالله الذي بيده كل شيء ، وما كان من عنت قومه وإعراضهم عن الحق .

(1) الانبياء : 41

(2) هود : 31 - 34

ومن تعريف الحوار بالشخصية ما جرى بين موسى وأخيه هارون :

«وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ : بِشَسْمَا
خَلَفْتُمْ سُونِي مِنْ بَعْدِي . أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ؟ وَالنَّفْسِ
الْأَوَّاحِ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ . قَالَ : ابْنَ
أُمَّ . إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي . فَلَا تُشْمِتْ
بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . قَالَ : رَبِّ
اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (1)
فقد دلّت هذه الآيات على سرعة غضب موسى وسرعة رضاه
شأن صاحب المزاح الحارّ والطبع الحادّ .

وقد يأتي الحدث والشخصية متساويين في الأهمية فيكمّل
كلامها الآخر ويتناوبان على مركز الإهتمام ، كما في قصة مولد موسى :

«وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ . فَلِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ
فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي . إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ
وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ . فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَمَكُونَهُ
لَهُمْ عَمَدٌ وَعِدْوَةٌ وَحِزْنًا . إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمْ
كَانُوا خَاطِئِينَ . وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ : قَسْرَةٌ عَيْسَى لِي
وَلَا تَقْتُلُوهُ ، عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » (2) .

(1) الأعراف : 150 - 151 •

(2) القصص : 6 - 8 •

أما المكان والزمان - وإن كانا عنصرين هامّين في القصة الكلاسيكية بإلباسها صورة من الواقع ، وتشخيصها للأحداث في جوّ البيئة التي جرت فيها ، وكلّ ما يتصل بهذه البيئة من ظروف وعادات لها تأثيرها في أخلاق الأشخاص وتصرفاتهم - فإن القصة القرآنيّة لا يعينها من ذكر المكان إلا ما جعلت منه جملة الأحداث الهامّة مسرحاً لها : كمصر في قصة يوسف مع امرأة العزيز ومع فرعون الملك، وفي غياهب السجن ، وعلى عرش الحكم.

« وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ : أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » (1)

كما لا يعينها من ذكر الزمان تحديد تاريخ الحادثة ، ولا مدتها ، إلا اذا كان في تعيينها أبعاداً لقيمة الحادثة نفسها : مثل المدة التي نامها أهل الكهف

« وَكَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا » (2).

والمدة التي أمات الله فيها الرجل الذي مرّ على قرية :

« أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا . قَالَ : أُنْتِي بُحَيِّبِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِيهَا ؟ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ » (3).

أما الترتيب الزمني للأحداث وما يتبعه من مراعاة الترتيب في الذكر للوقائع التاريخيّة فإنّ القرآن لم يلتزمه . ومن ذلك مثلاً :

• (1) يوسف : 21

• (2) الكهف : 25

• (3) البقرة : 259

« وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ، فَكَلُّوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ .
 رَغَدًا ، وادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ يَغْفِرَ لَكُمْ .
 خَطَايَاكُمْ ، وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ . فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا
 غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ، فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا
 مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ . وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ
 فَقُلْنَا : اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا
 عَشْرَةَ عَيْنًا » (1) .

فإن أمر بني إسرائيل بدخول قرية بيت المقدس كان بعد خروجهم
 من التيه ، وإن استسقاء موسى وضرب الحجر بعصاه حدثا أثناء
 زمن التيه ، ولكن القرآن لم يهتم بالزمن حتى يرتب عليه الأحداث ،
 لأن غرضه من عرض هذه الأنباء ، إنما هو إثارة الاعتبار ببيان
 النعم متصلة بأسبابها لتطلب بها ، وبيان النقم متصلة بعلمها
 لتتقى من وجهتها .

فكان غرض السياق يقتضي تذكير بني إسرائيل بما من
 الله عليهم من نعم ، وموقفهم منها موقف الجحود ، ونقض العهود .
 لذلك جاء ترتيب الوقائع في الذكر على الوجه الذي يكون أبلغ
 في التذكير ، وأدعى إلى التأثير (2)

ولا شك أن هذا الأسلوب في التذكير بالعقاب الإلهي العاجل
 كنتيجة حتمية لمعصية الله والكفر بنعمه في حادثة تاريخية معينة
 لَمَا يخلق الشعور بالخوف من الله وتجنب أسباب غضبه وعقابه ،

(1) البقرة : 58 - 60 .

(2) المنار : ج : 1 / 327 .

ويقوى في النفوس القدرة على ضبط الذات ، وتنظيم الدوافع التي توجه السلوك ، فتنه و الشخصية ، ويعيش المجتمع في سلام وأمن .

وهكذا فإن القرآن لم يلتزم في عرضه لأحداث القصة ترتيبها في الذكر بحسب ترتيبها في الوقوع ، إلا إذا كان الزمن هو المحور الذي يربط الأحداث في تسلسل وتتابع يُفضيان إلى نتائج معينة كما جاء في قصة لوط : أن الملائكة الذين أرسلوا إليه دخلوا على إبراهيم أولاً ، ثم عليه ثانيا . فراعى القرآن في الذكر هذا الترتيب في جميع السور التي عُرِضت فيها القصة (1) .

وأما العقدة فإنها لم تعد في القصة المعاصرة عنصرا أصليا . وفي قصص القرآن من عوامل الإثارة والتشويق ما أغناه عنها ثم إن في تلميحات القرآن وإشاراته ما يجنبه الإطالة والسير في المنعرجات التي تقتضيها العقدة أحيانا . وبذلك استطاع أن يترك في النفس وبسرعة فائقة أثرا عميقا ، لأنه لم يمزج بالسامع أو القارئ في متاهات الخيال ، ولم يخرج به عن الغرض الديني المرسوم .

بين القرآن والكتاب المقدس :

ثم إن ما يطويه القرآن في قصصه من مراحل ، وما يُعرض عنه من جزئيات ، وما يتركه من فجوات ، هو أخص ما يمتاز به منهجه القصصي الذي يختلف شكلا ومضمونا عن منهج التوراة والإنجيل .

(1) مثل سورة هود : 69 - 83 . وسورة الحجر : 51 - 77 .

فقد عُنِيَت التوراة كما تدلّ على ذلك فاتحتها بتدوين التاريخ .
وكان أول سِفر من أسفارها في تاريخ الخلق منذ بدء الخليقة
إلى موت يوسف عليه السلام .

وكذلك جاءت الأناجيل الرسمية (1) تؤذن فواتحها بأن الغرض
منها تدوين تاريخ المسيح عليه السلام ، وذلك ممّا شاهدوا من
أفعاله ، وسمعوا من أقواله ، وعرفوا من سيرته .

أمّا فاتحة القرآن فقد أشارت إلى أنّ القصد منه الهداية
إلى دين قويم ، والإرشاد إلى صراطه المستقيم .

ومن هنا كانت الأحاديث النبويّة المبيّنة لقصص القرآن نادرة
بالنسبة إلى الأحاديث المبيّنة لآيات العبادات والمعاملات ، بل تكاد
تنحصر في أحاديث معدودة كقصة موسى والخضر . وقصة أصحاب
الأخدود .

وإذا قارنا بين ما ورد في الكتاب المقدّس ، وما ورد في القرآن
من قصص، ظهر الفرق جلياً في الأسلوب وفي المحتوى .

فقصة هبوط آدم من الجنّة مثلاً تكتسي في التوراة صبغة
تشاؤميّة (من المرجح أنها نشأت عن رغبة الإنسان البدائي في أن
يفسرّ لنفسه تعاسته البالغة، وسوء حاله في بيئة غير مواتية له ،
تفويض بالمرض والموت من كل ناحية في سعيه لاستبقاء حياته ،
إذ لم يكن له أيّ سلطان على قوى الطبيعة . فكانت نظرته إلى الحياة

(I) وهي أربعة : إنجيل لوقا - وإنجيل يوحنا - وإنجيل متى - وإنجيل
• مرقس •

نظرة متشائمة أمرا طبيعيا) (1) . فقد جعلت هبوط الإنسان إلى الأرض كمن نزل إلى الجحيم ، في حين أن القرآن جعل الأرض مستقرا ومتاعا للإنسان ينبغي أن يشكر الله عليه : « وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » (2) لأنه ليس غريبا عنها « وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا » (3) ورغم ما سيلقى في الأرض من عناء وكفاح وصراع فإنها لم تلعن من أجل خطيئته كما جاء في التوراة : « ومن هنا حاقت اللعنة بالإنسان فكان قضاء مبرما على نوع الإنسان كله بعد آدم » .

ولم يجعل القرآن هذه الأرض ساحة عذاب سُجنت فيها إنسانية شريرة العنصر ، ولم يجعل المرأة شقيّة بكثرة أتعابها في الحمل وغيره ، وباستعباد زوجها لها كعقاب لها على إغرائه ، لأنهما في القرآن شريكان في المعصية بدون ميز .

بل إنا لنجد في القرآن ما يفيد أن الذي اغترّ بوسوسة الشيطان أولاً هو آدم : « فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ؟ » (4)

ولم يرد فيه - كالتوراة - ذكر الثعبان والدور الذي لعبه لغواية المرأة . وليس فيه ما يشير إلى أن خطيئة آدم تنتقل إلى جميع أبنائه بالوراثة .

(1) إقبال : تجديد التفكير الديني في الاسلام : 96 - 97 .

(2) الأعراف : 10 .

(3) نوح : 17 .

(4) طه : 120 .

كما أصبح يعتقد المسيحيون أن التعميد عندهم محو للذنوب التي ارتكبتها الإنسان ، ومحو للخطيئة الموروثة . بحيث لو مات طفل من غير أن يعمد لكانت الخطيئة الكبرى التي ورثها عن أبيه كافية في منعه من دخول مملكة السماء . ولكن القرآن ينفي ذلك نفيًا قاطعًا ، ويجعل مناط التبعية الفردية كل تكليف من تكاليف الدين ، وكل فضيلة من فضائل الأخلاق .

« وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » (1) .

ومبعث الخطيئة الكبرى - كما يستفاد من نص التوراة - هي طموح الإنسان إلى العلم والخلود اللذين استأثر الله بهما . فهو على هذه الصورة مآلِكٌ يكره من رعاياه ان ينفسوا عليه أسرار الحكم والبقاء ، أو يتساموا إلى منازحته في المعرفة والخلود والسلطان ، فيبتليهم بالعجز والحرمان ، ويحدّ حظوظهم في النعمة والحياة (2) ، أو نحو ذلك ممّا يتنافى مع الكمال الإلهي الذي بيّنه القرآن . لذلك يجب القطع بأن هذه النقطة محرّفة في التوراة كتحرّيف نقطة شمول الخطيئة ، لأن القرآن كشف عمّا جاء في التوراة نفسها : وهو أن الخطيئة لا تتعدّى بالوراثة لمن لم يرتكبها : « أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » (3)

ثمّ إننا لنجد في التوراة التي بين أيدينا تناقضا في عدة مواطن . منها : أن الأبناء تؤخذ بذنوب الآباء إلى ثلاثة أجيال .

(1) الانعام : 164 .

(2) ع . م . العقاد : الفلسفة القرآنية : 142 - 143 .

(3) النجم : 36 - 39 .

وفي الفقرة العشرين من الباب الثامن عشر من كتاب (حزقيال) :
 « النفس التي تخطيء فهي تموت . والابن لا يحمل إثم الأب .
 والأب لا يحمل إثم الابن . وعدل العادل يكون له . ونفاق المنافق
 يكون عليه » .

التوراة

سفر التكوين : فصل : 3

(1) والثعبان صار حكيما من جميع
 حيوان الصحراء الذي خلقه الله
 تعالى . فقال للمرأة : أيقيناً قال الله
 لا تأكلا من جميع شجر الجنان ؟

(2) قالت المرأة للثعبان : من ثمر

شجر الجنان نأكل

(3) لكن من ثمر الشجرة التي في
 وسطه قال الله : لا تأكلا منه
 ولا تدنوا كي لا تموتا .

(4) قال لها : لستما تموتان

(5) إن الله عالم أنكما في يوم
 أكلكما منه تفتح عيونكما
 وتصيران كالملائكة تعرفان الخير
 والشر أكثر .

القرآن

البقرة 35 - 39

(35) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ
 أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا
 مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا .
 وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ
 فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ .

(36) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا
 فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ .
 وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
 عَدُوٌّ . وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ
 مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ .

(37) فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ
 كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ . إِنَّهُ
 هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

38) قُلْنَا : اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى . فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

6) فلما رأت المرأة أن الشجرة طيبة المأكل ، شهية المنظر ، أخذت ثمرها فأكلت وأعطت بعلها فأكل معها .

39) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

....13) قال الله للثعبان : لما فعلت هذا بعلم فأنت معلوم من جميع البهائم وجميع وحش الصحراء وعلى صدرك تسلك ، وترابًا تأكل طول أيام حياتك .

14) وأحمل عداوة بينك وبين المرأة وبين نفسك ونسلها وهو يشدخ منك الرأس ، وانت تلدغه في العقب .

15) وقال للمرأة : لأكثرن مشقتك وحملك ، وبمشقة تلديــــن الأولاد ، وإلى بعلك يكون قيادك وهو يتسلط عليك .

16) وقال لآدم : لما قبلت قول زوجتك ، فأكلت من الشجرة التي نهيتك عنها فمأعونته الأرض بسببك . بمشقة تأكل منها طول حياتك الخ) .

فالقرآن يختتم هذه القصة بهبوط آدم وزوجه والشيطان إلى الأرض ولا يزيد على ذلك - كما تزيد التوراة - سوى استنفسار آدم من ذنبه وقبول توبته ، لأنّ الهدف الدّيني يتمّ بذلك . أمّا الفنّ فيمكنني بهذا الختام لترك المجال مفتوحاً للخيال يتبع آدم وزوجه في الأرض غريبين لم يعرفا أقطارها ، ولم يتعودا حياتها ، وليست لهما خبرة بالمعاش فيها ، إلى آخر ما يتملأه الخيال من مشاهد وفروض قد يقضي على جمالها الفني كلّ إسهاب في القصة بعد هذا الختام (1).

كما يتجلّى الفرق بين أسلوب القرآن والإنجيل في قصة تبشير زكرياء بغلام . وقد وردت هذه القصة في القرآن (2) وفي إنجيل لوقا .

وكلاهما جمع الحديث عن مولد يحيى (يوحنا) بن زكرياء ، وعيسى بن مريم ، إذ لم تكندُ تختم فيها قصة ميلاد يحيى ، حتى تُستهلّ بقصة ميلاد عيسى . ويشتركان في الدلالة على قدرة الله في الخلق . وفي القرآن إشارة تكشف عن سرّ هذا الجمع بين القصتين في مقام واحد وهو : أنّ ما أثار زكرياء ، وحركَ رغبته في إنجاب الولد وامتداد الحياة في عقبه ما رآه من عناية الله بمكفولته مريم ، وما كان يهيئُ الله لها من الرزق « كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا . قَالَ : يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا ؟ قَالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ » (3) .

(1) التصوير الفني في القرآن : I45 •

(2) وردت في آل عمران : 38 - 41 ، وفي مريم : 2 - II •

(3) آل عمران : 37 •

وهذا يوضح كيف أن القصص يجيء في القرآن مرتبًا بالسياق ، متناسقا معه . فيكون الجمع بين قصتين أو جملة قصص على أساس وحدة الموضوع والهدف أكثر من أي اعتبار آخر ، كوحدة الزمان والمكان . والجدير بالملاحظة أن القرآن انفرد في هذه القصة - كما هو شأنه في سائر قصصه - بذكر ما يدعم الإيمان ويجعل الله سبحانه في كل آن قلة القلوب ومنبع الأسرار ومطمح الأنظار . وهو هنا ما توجه به زكرياء الى الله من دعاء يُشيع في القصة أسمى المعاني الروحية

« قَالَ : رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً

طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ » (1) .

« قَالَ : رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا . وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ، وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرْثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا » (2) .

وعناية قصص القرآن بالجانب الروحي هو ما يسميه بعض علماء النفس "تسامي الغرائز" .

ولم يذكر القرآن بعض التفاصيل التي وردت في إنجيل لوقا ، ولا اسم زوجة زكرياء ، ولا عبارات تتصل بالطقوس الدينية القديمة التي لا تماشى وتجديد الاسلام لروح العبادة ، وتطويره لمفهومها ، مثل :

(1) آل عمران : 38 .

(2) مريم : 4 - 7 .

هيكّل الرب ، ومذبح البخور ، والكهّنوت ؛ بل اقتصر في وصفه لهذا المشهد على أن زكرياء كان قائماً يصلي في المحراب ، وأن الله استجاب دعاءه لحينه دون أن يدخّل في شيء من التفاصيل الواردة في الإنجيل ؛ لأن غرضه أن يبيّن بالقصة عناية الله بأنبيائه واستجابته لدعائهم جزاء استجابتهم له ، وأن المُسجِدَ الأعظم قادر على خلق غير العاديّ وإيجاده ، ولا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء . ولاشك أن هذه الأغراض هي في القرآن أبرز منها في الإنجيل كما سيتضح ذلك بالمقارنة .

وقد قصدتُ عرض القصة كما وردت في سورتي آل عمران ومريم لمعرفة أوجه التوزيع في أسلوب العرض ، ولملاحظة أن ما ذكر منها بإيجاز في سورة ذكر في الأخرى بأكثر تفصيل كدعاء زكرياء ، ووصف ابنه يحيى . وذلك من منهج القرآن في التكرار كما سنبينه في الفصل الموالي .

القرآن	انجيل لوقا
سورة آل عمران : 41-38	الفصل الأول : 22-7
(38).....هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَتْ رَبِّهِ قَالَتْ : رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ	(7)....ولم يكن لهما ولد لأن "إليصابات" كانت عاقراً وكان كلاهما قد طعنا في أيامهما .
(39) فَسَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ	(8) فبينما هو يركع في أيام ترتيب خدمته أمام الله

(9) كعادة الكهنوت إذ بلغته نوبة
وضع البخور فدخل هيكل الرب ،

(10) وكان جميع الشعب يصلون
خارجا وقت البخور .

(11) فظهر له ملاك الرب قائما
عن يمين مذبح البخور .

(12) فلما رآه زكرياء اضطرب
وغشيه خوف عظيم

(13) فقال له الملاك : لا تخف
يا زكرياء . فقد سمعت طلبتك .
وامرئتك "إليصابات" تلد لك ابنا
وتسميه "يوحنا"

(14) ويكون الفرح والابتهاج ، لك
كثيرون سيفرحون بولادته لأنه
يكون عظيما أمام الرب ، لا يشرب

أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا
بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا
وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِمَّنْ
الصَّالِحِينَ .

(40) قَالَ : رَبُّ أُنْتَى يَكُونُ
لِي غُلَامٌ ، وَقَدْ بَلَغَنِي
الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ . قَالَ :
كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ .

(41) قَالَ : رَبُّ اجْعَلْ لِي
آيَةً . قَالَ : آيَتُكَ إِلَّا تَكَلَّمُ
النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا ،
وَإِذْ كُرِّرَ رَبُّكَ كَثِيرًا ، وَسَبِّحْ
بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ

سورة مريم : (11-4)

(4) قَالَ : رَبُّ إِنِّي وَهَنَ
الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ
شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ
رَبِّ شَقِيًّا .

خمرا ولا مسكرا ويمتليء من روح
القدس وهو في بطن أمه .

(15) ويعيد كثيرا من بني إسرائيل
إلى الرب إلههم

(16) وهو يتقدم أمامه بالروح
وبقوة إلباء ويقبل بقلوب
الآباء على الأبناء والذين لا يطيعون
إلى علم الأبرار، ويعد للرب
شعبا مستقيما .

(17) فقال زكرياء للملاك : كيف
أعلم هذا وأنا شيخ وامرأتي قد
طعنت في أيامها ؟

(18) فأجابه الملاك قائلا : أنا
هو جبريل الواقف قدّام الله، أرسلتُ
لأكلمك بهذا وأبشرك .

(19) ومن الآن تكون صامتا لا
تستطيع أن تتكلم إلى اليوم الذي
فيه يكون هذا، لأنك لم تؤمن
بكلامي الذي يتم في أوانه

(20) وكان الشعب منتظرين زكرياء
متعجبين من بطنه في الهيكل .

(5) ولأني خفتُ الموالِي من
ورائِي ، وكانتِ امرأتِي
عاقرا فتهب لي من لدنك
وكيّا .

(6) يرثني ويرث من آل
يعقوب واجعله رب رضىّا .

(7) يا زكرياءُ إِنَّا نبشركُ
بغلامٍ اسمه يحيى لم
نجد عمل له من قبل سميّا .

(8) قال : ربّ أنى يكون لي
غلامٌ وكانتِ امرأتِي عاقرا
وقدّ بلغتُ من الكبر
عُتيا .

(9) قال : كذلك قال
ربك : هو عليّ هيّنٌ ،
وقدّ خلقتك من قبل ولم
تكن شيئا .

(10) قال : رب اجعل لي
آية قال : آيتك ألا تكلم
الناس ثلاث ليال سويا .

(11) فَخَرَجَ عَلَيَّ قَوْمِهِ مِنْ
الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ
سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا .
(21) فَلَمَّا خَرَجَ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ
يَكْتُمَهُمْ . فَعَلِمُوا أَنَّهُ قَدْ رَأَى
رُؤْيَا فِي الْهَيْكَلِ ، وَكَانَ يُشِيرُ
إِلَيْهِمْ ، وَأَقَامَ صَامِتًا .

(22) فَلَمَّا كَمَلْتَ أَيَّامُ خِدْمَتِهِ
مَضَى إِلَى بَيْتِهِ .

وانتما اقتصرنا هنا على إيراد بعض ما اشترك في عرضه من القصص القرآني والتوراة ، والقرآن والإنجيل دون استقصاء ، لأنني قدّمته كنموذج حتى يتّضح الفرق من حيث المنهج والأسلوب . أمّا الفرق في محتوى هذا القصص فسأوضحه بأكثر تفصيل في الفصل الرابع عند الحديث عن موضوع “الصدق في أخبار القرآن” .

الفصل الثالث

التكرار في قصص القرآن

أسبابه :

نزل القرآن منجماً في ما يقرب من ثلاث وعشرين سنة . وكانت المرحلة الأولى للوحي بمكة أين وُلد الرسول ونشأ وبُعث بالرسالة . وكان جُلّ ما نزل من القرآن في هذه المرحلة يهدف إلى إنشاء عقيدة التوحيد ونشرها في قوم لم يكلّفوا قط بشريعة ، لوجودهم في فترة من الرسل بين جدّهم إسماعيل ومحمد عليهما السلام . وهي مدة تزيد على ثلاثة آلاف سنة (1) .

قال تعالى مخاطباً رسوله صلّى الله عليه وسلم : (لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ) (2) .

وبتعاقب الدهور والوراثة والمحاكاة تأصلت فيهم عقيدة الشرك واستحكمت حتى صار من العجَب أن يقال لهم : الله واحد . « أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ » ؟ (3) . وقد اقتضت حكمة الله ألاّ تبقى الخوارق المادّية هي الدّعاة الأساسية للتصديق بنبوّة محمد صلّى الله عليه وسلم ، وبما يدعو إليه ،

(1) محمود شكري الآلوسی : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب : 109 -

• 110

(2) القصص : 45 •

(3) ص : 4 •

رغم إلحاح الجاحدين في مطالبته بالآيات الحسيّة كما حكى عنهم القرآن ذلك حوالي خمس وعشرين مرة .

ولا شك أن مناقشة القرآن للعقل والحسّ بالنظر في الكون والنفس ، والوقوف على أخبار الماضين لمّا يوضح سرّ انتهاء النبوة ببعثة خاتم المرسلين حتى لا تبقى الخليفة معتمدة إلى الأبد على من يرشدها من الرّسل إلى العقيدة الصحيحة (1) .

ومثل هذا الاعتقاد قوة سيكولوجية تفتح السبيل للعلم والمعرفة ، وتحوّل دون الإذعان إلى أي سلطان روحي في الأرض غير سلطان الله . فكان في النبوة وختمها معا شرف للانسان بإصطفائه لرسالات السماء ، وتكريم له ببلوغه مرحلة الرشد .

ومن هنا ندرك عظمة الرسالة المحمّدية ، وترشيحها للتعميم والخلود ، ومدى الصعوبات التي لاقاها الرسول في الدعوة من قوم استبدّ بهم التعصّب لمّا ألقاه من عادات بلغت من الثبات درجة الجمود ، فتمكّنت من طباعهم ، ومعتقدات اكتست قداسة بمرور الزّمن ، فسيطرت على قلوبهم ، وتمكّن لهم بها نظام قبلي طبقيّ لا يرضون به بديلا ، لأنهم لا يجدون عزّتهم إلا في ظلّه ولا يظفرون بمكانة إلاّ في حماه .

فلقد كانت مكّة منطلق^١ الدعوة المحمّدية هي موطن السادة من قريش الذين قد لا يخفى على ذكاء بعضهم أن ما يدعو إليه القرآن لا يقاس بما في عقيدتهم من سخف وسذاجة ، ولكنهم

(I) تجديد التفكير الديني في الاسلام : 144 .

يدفعونه بكل ما يملكون من قوة ، لأنه يؤول بهم في النهاية إلى القضاء على سيادتهم وفوارقهم واعتزازهم بأنسابهم ومقوماتهم الموروثة .

كانت قريش في الجاهلية تقف في الحجّ بالمزدلفة ، ومنها تفيض . بينما تقف بقية القبائل العربية بعرفات . فجاء محمد صلى الله عليه وسلم وهو من سادة قريش ، فوقف بعرفات مثل سائر القبائل . والقرآن يأمر قريشا فيقول : « ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ » وما ذاك الا تحقيقا لمبدأ المساواة .

فما حول الأثرة إثارا ، والإميازات مساواة ، والقسوة رحمة ، والعصبيّة القبليّة أخوة في الدين ، والعبوديّة للتقاليد والأوثان عبودية لله وحده غير عقيدة التوحيد التي لم يكن لها هذا الأثر العظيم ، إلا لأنها امتزجت بالمشاعر ، ورسخت في الضمائر ، وصارت مصدرا للنظام والتشريع ، وقاعدة للسير والعمل ؟

وذلك أن في الإنسان من العواطف ما ينزع إلى الإبقاء على القديم ، (وروح الإنسان يعوقها في سيرها قداما قسوى يظهر أنها تعمل في الاتجاه المضاد . وما هذا إلا ضرب من القول بأن الحياة تتحرك ، وهي تحمل على عاتقها أثقال ماضيها) (1) .

وقد أثبت علماء النفس أن هناك حياة نفسية مظلمة مؤلفة من النزعات الخفيّة ، والأهواء القديمة ، والأحلام المكبوتة ، والعادات الموروثة .

(I) تجديد التفكير الديني في الاسلام : 191 .

قال باسكال : إنَّ تهيّجاتنا وأهواءنا وميولنا متّصلة بماضينا ومزاجنا . فتارة تمرّ بنا الأيام طافحة بالسّرور ، وأخرى نستقل فيها كل لطيف ، ونستقبح كل جميل (1) .

وما أسرع ما تخبو ومضات الإيمان إن لم يتمكّن ، وتفتقر المشاعر الدينية إن لم تستقرّ ، فتترك القلب في ظلام وحيرة ! وقد قيل : (من السهل جدّا الإيحاء بفكرة وقتية في عقول الجماعات ، لكن من الصعب جدا تمكين معتقد دائم في قلوبها ، أو هدم اعتقاد تمكّن منها) .

« قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ، وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ » (2) . ولم يكن للرّسول من دليل في هذه الطريق الشائكة المتشعبة سوى الوحي القرآني الذي كان يهدف في المرحلة المكيّة الشاقّة إلى أن يُشرب القلوب عقيدة التوحيد ، ويمحو منها العقيدة الوثنيّة ، بما قصّ من أنباء وضرب من أمثال ، وأقام من أدلّة . (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) (3) لأنّ غرضه ليس بيان الحق فقط ، بل تعميق مجراه في القلوب (4) .

(1) جميل صليبا : علم النفس : I51 •

(2) الحجرات : I4 •

(3) الاسراء : 89 •

(4) محمد الغزالي : نظرات في القرآن : I33 •

ولم يكن هذا الحقّ سوى عقيدة تصلّ النَّاس برّبهم من غير واسطة ، فيؤمنون بأنّه هو وحدّه صاحب الحول والطّول ، منه المبدأ وإليه المصير ، فتحرّر قلوبهم ، وتصلح نفوسهم ، وتستقيم حياتهم على نهج قويم .

والاعتقاد هو الحالة النفسيّة التي تعقب الحكم وتقلبه بالتكرار إلى عادة . وهو يغذّي بالعمل والحياة . والإيمان الذي لم يصحبه عمل قد يكون صادقا ، ولكن لا يلبث أن يصاب بالفتور والموت .

قال ابن القيم الجوزية : (إن كلّ آية في القرآن متضمّنة للتوحيد ، شاهدة به ، داعية إليه . فإن القرآن إمّا خبّر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله ؛ فهو التوحيد العلمي الخبري . وإمّا دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له ، وخلع ما يعبد من دونه ؛ فهو التوحيد الإراديّ الطلبي . وإمّا إلزام بطاعته في أمره ونهيه ؛ فهو حقوق التوحيد ومكملّاته ، وإمّا خبر عن كرامة الله لأهل توحيد وطاعته ، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة ؛ فهو جزاء توحيدهم . وإمّا خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكّال ، وما يحلّ بهم في العقبي من العذاب ؛ فهو خبر عمّن خرج عن حكم التوحيد . فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه ، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم (1) .

فكرار القصة في القرآن وثيق الصلة بمنهجه القصصي . إذ هو يخدم غرضين في آن واحد :

غرضاً فنياً يتمثل في تجديد أسلوبها لإيرادا وتصويرا ، والتفنن في عرضها إيجازا وإطنابا ، والتنوع في أدائها لفظا ومعنى .

وغرضاً نفسياً بمآله من تأثير في النفوس . لأن المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ودوافعها كما هو مقرر في علم النفس .

ونحن نلاحظ كيف صار أصحاب المصانع والشركات التجارية يستخدمون وسائل الإشهار لمصنوعاتهم على أوسع مدى ، وذلك بتكرار الدعاية لها في صور متنوعة ومناسبات مختلفة قصد التأثير .

يقول علماء النفس : إنه متى كثر تكرار أمر تولد تيار فكري وعاطفي يتلوه ذلك المؤثر العظيم في الأفراد والجماعات وهو العدوى . إذ لا يكفي لتحويل الانفعال إلى عاطفة أن يحدث مرة واحدة ، ولكن لا بد لحصول ذلك أن يتكرر حدوثه . فالتكرار هو السبيل الوحيدة لربط الانفعال به ، وتركزه حوله ، إلى جانب ما يثيره من انفعالات أخرى تدخل في تركيب العاطفة (1) وإن عاطفة قوية لكافية لتحديد نشاط الفرد واتجاهه في الحياة (2) ولا شك أن تكرار القول لا يقلل تأثيراً في إثارة الانفعال وتكوين العواطف من تكرار الفعل ، بل إن التكرار في القول مما يدفع إلى الفعل .

(1) مصطفى فهمي : الدوافع النفسية : IOI .

(2) المصدر السابق : 97 .

ومن هنا كان التكرار في القرآن موجَّهاً إلى صميم العقيدة أكثر من سواها ، كالمعاملات والأحكام . وكان تأكيده لحقيقة التوحيد بتكريره إياها في صور متنوعة ، وإبرازها في القصص والأمثال على الخصوص ، من أهمِّ العوامل في تقريرها وترسيخها .

ومن أكثر الأنبياء ذِكراً في القرآن بعد موسى لإبراهيم الخليل . قيل : إنه ذكر في خمسة وثلاثين موضعاً . منها خمسة عشر في سورة البقرة (1) .

فهو أبو الأنبياء بعد نوح . « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ (2) .

وهو أفضل أولي العزم من الرسل بعد محمد صلوات الله عليهم أجمعين (3) . لذلك أمر المصلي أن يقول في شهادته : ما ثبت في الصحيحين من حديث كعب بن عجرة وغيره قال :

« قلنا : يا رسول الله ! هذا السلام عليك قد عرفناه . فكيف الصلاة عليك ؟ قال : قولوا : اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم . إنك حميد مجيد » .

(1) ابن كثير : **قصص الأنبياء** . ج : I / 241 .

(2) العنكبوت : 27 .

(3) ابن كثير : **قصص الأنبياء** . ج : I / 245 .

وكانت بعثة محمد صلى الله عليه وسلم استجابة لدعوته كما ورد في القرآن : « رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ . إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (1) فكان هو ومن آمن به أولى الناس باتباعه « مَا كَانَ لِإِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ، وَلَسَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَابِيُّ الْمُؤْمِنِينَ » (2) . وفي هذا ما يشرح أسباب دوران شخصية إبراهيم في القرآن أكثر من سواه من الرسل ، وعرض ما اتصل به من وقائع وأحداث بأكثر تنوع .

وفي نظري أن القرآن لم يكرّر من القصص أو من حلقاتها إلا ما كان أشدّ تجاوبا مع بيئة الدعوة ، وأكثر استجابة لأهدافها ، وخدمة لأغراضها ، مثل قصص آدم ونوح وإبراهيم ولوط وهود وصالح وشعيب وموسى . ومما يؤيد ذلك أننا لا نجد تكرارا في غير قصص الأنبياء قصة أهل الكهف ، وقصة ذي القرنين . كما أنه لم يكرّر بل لم يذكر من قصص الأنبياء إلا ما يقوّي عزيمة الرسول وأصحابه ، ويثبّت قلوبهم ، وينير سبيلهم .

« وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرَّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ » (3) .

(1) البقرة : 124 •

(2) آل عمران : 66 - 67 •

(3) هود : 119 •

فالقُرآن يشير مرارا في مواطن التنديد بمنكرات نبي إسرائيل إلى قتلهم الأنبياء : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، قَالُوا : نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ . وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ . قُلْ : فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » ؟ (1) .

« إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » (2)

رُوي أنهم قتلوا ثلاثة وأربعين نبيا ، فنهاهم الربيبون فقتلوه من يومهم (3) . ولا شك أن مقتل الأنبياء من الأحداث العظيمة في الأرض والسماء . فلكلّ حادثٍ قتلٍ خبّر . ولكل نبي قتل قصة تثير الإهتمام ، وتسترعي الأنظار . ولكن القرآن لم يورد قصة واحدة في مقتل نبيٍّ من الأنبياء ، حتى لا يتسرّب الخوف والوهن إلى حمّاة الدعوة الإسلامية ، سيما وهم يمرّون بفترات عصيبة يحتاجون فيها إلى ما يشدّ أزرهم ، ويربط على قلوبهم ، ويثبت أقدامهم .

وقد يكون في قصّة هذه الأحداث ما يوقظ الفتنة النائمة ويغري السفهاء ويثير مكامن الشرف في النفوس الشريفة ، ويجريء

(1) البقرة : 90 .

(2) آل عمران : 22 .

(3) انظر : تفسير الجلالين والنسفي للآية السابقة .

أعداء الدعوة على الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر مما تجرأوا .
والقرآن يقرّر عالميّة الدعوة الإسلامية وإنسانيّتها من الخطوة
الأولى في العهد المكيّ ، والمسلمون يومئذ قلة مطرودة من كل
حمى إلاّ حمى الله ، محرومة من كل قوّة ، إلاّ قوّة الإيمان .

فيقول في سورة التكوير وهي من أوائل السور المكيّة (إنّ
هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) (1) .

فيإذا أخذنا هذه الحقيقة بعين الاعتبار كان فهمنا أكثر دقة
وعمقا لما ترمي إليه الآية الكريمة : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا
مِّنْ قَبْلِكَ ، مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَّمْ
نَقْصُصْ عَلَيْكَ (2) » بل إنّ ما عرّضه من قصصهم لم يستوعب
فيه سيرّهم ولا أخبارهم ، وإنما اختار منها ما يفى بالغرض .

فذكرىء ويحيى عليهما السلام كلاهما قصّ القرآن من
أخبارهما ، ولكنه لم يُشِرْ إلى نبيّ قتلها ألبتّة .

وإذا تتبّعنا مواطن هذا التكرار في قصص القرآن استخلصنا
مبرراته وأسبابه .

فلقد تكرّرت قصة آدم وإبليس (3) لأنها قصة الإنسانية كلها
في صراعها المتجدّد بين قوى الخير والشر كما سيأتي بيان ذلك .

(1) الآية : 27 .

(2) غافر : 77 .

(3) وردت قصة آدم في : سورة البقرة (29 - 38) والاعراف : (II - 28)

والحجر : (25 - 40) والاسراء . (60 - 65) والكهف : (50)

وطه : (II6 - 123) وص : (67 - 85) .

وتكررت قصة نوح (1) لأنه هو الرائد الأول للرسل ،
 وديانته أقدم الديانات . فكان أول رسول بُعث إلى أهل الأرض .
 وكان قومه يعبدون الأصنام دهرا طويلا كالعرب ، حتى قيل :
 إن هذه الأصنام التي كانوا يعبدونها انتقلت هي أو أسماؤها إلى
 العرب ، كما ورد ذكرها في القرآن (ودّ ، وسُواع ، ويغوث ،
 ويعوق ، ونسر) .

وقد جعل الله ذرية نوح عمارا لهذه الأرض وخلفاء ، وشاء
 أن يُسبقي ذكره في الأجيال إلى آخر الزمان .

« وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي
 الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَيَّ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ » (2) .

وقد أنزل الله فيه سورة كاملة . وهي سورة نوح .

وتكررت قصص عاد وثمود ومدين مع أنبيائهم هود
 وصالح وشعيب ، لأنهم أقوامٌ عرب تربطهم صلة بالحياة والظروف
 والتقاليد التي كانت عليها البيئة النبوية .

ويروى عن أبي ذرّ في صحيح ابن حبان في ذكر الأنبياء
 والرسل : أن النبيء صلى الله عليه وسلم قال : أربعة من العرب :
 ثمود وصالح وشعيب ونيك يا أبا ذرّ .

(1) في سورة الاعراف : (59 - 64) ويونس : (72 - 74) وهود :

(26 - 50) والأنبياء : (27 - 28) والمؤمنون : (24 - 31) والعنكبوت

(106 - 123) والصفافات : (76 - 83) والقمر : (10 - 17) .

(2) الصفافات : 76 - 83 .

أما عاد (1) فيعتبرهم المؤرخون أقدم العرب البائدة. (ويذكر بطليموس أنهم كانوا يسكنون في المناطق الشمالية الغربية من شبه جزيرة العرب) (2) ، وأما ثمود (3) فتقع منازلهم بين الشام والحجاز . ولم تنزل رسومها باقية في طريق الحجيج القادمين من الشام بالقرب من وادي القرى (4) .

وقد مرّ النبيء صلى الله عليه وسلم على ديارهم في غزوة تبوك ، ونهى عن دخولها . وكثيرا ما يقرن القرآن في الذكر بين عاد وثمود «وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ» (5) وأما مدين (6) فكانوا يسكنون قرية قريبة من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز بالقرب من بحيرة لوط ، وكانوا بعدّهم بمادّة قريبة (7) .

(1) وردت قصتهم في : سورة الأعراف : (65 - 72) وهود : (50 - 60) والمؤمنون : (31 - 41) والشعراء : (123 - 140) والسجدة : (15 - 16) والأحقاف : (21 - 25) كما وردت إشارات الى قصصهم في سور الذاريات ، والنجم ، والقمر ، والحاقة ، والفجر .

(2) سيد عبد العزيز سالم : دراسات في تاريخ العرب قبل الاسلام : 92 .
(3) وردت قصتهم في : سورة الأعراف : (73 - 79) وهود : (61 - 68) والحجر : (80 - 84) والشعراء (141 - 159) والنمل : (45 - 53) والقمر : (23 - 32) .

كما وردت إشارات الى قصتهم في سورة الاسراء والسجدة .
(4) المسعودى : مروج الذهب : ج : 2 / 42 .
(5) العنكبوت : 38 .

(6) وردت قصتهم في سورة الأعراف : (85 - 93) وهود : (84 - 95) والشعراء : (176 - 191) كما وردت اشارة الى قصتهم في سورة الحجر .

(7) ابن كثير : قصص الانبياء ج : 1 / 274 - 275 .

وأما قوم لوط (1) فإن قوافل تجّار مكة كانت تمرّ في الغدوّ وفي الرواح بأثار قريتهم (سدوم) من أعمال حلب في بلاد الشام . والله تعالى يقول « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ . أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ » . (2) ولا شك أن مشاهدة آثارهم أبلغ تأثيراً في الاتعاض بهم ، والاعتبار بمصارعهم . فإنّ في أطلال قريتهم الخالية حجة شاهدة بصدق ما روى القرآن من أخبارهم « وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » (3)

وأما قوم موسى (4) فقد أذلّهم طول الاستعباد ، وأفسد طباعهم ، فأعرضوا عن الحق ، ولاقى منهم نبيهم ما لاقى محمّد من سادة قريش . فكلاهما أوتى شريعة دينية دنيوية ، وعمل على تكوين أمّة عظيمة ، لكن الدعوة المحمّدية تمتاز بأنّها إنسانيّة شاملة . وكلاهما كانت مهمّته شاقة في ذلك

-
- (I) وردت قصتهم في سورة الاعراف : (80 - 84) وهود : (69 - 83) والحجر (50 - 77) والشعراء : (160 - 175) والنمل (54 - 85) والعنكبوت (28 - 35) والقمر : (33 - 40) كما وردت اشارات الى قصتهم في سورة الصافات (133 - 138) والذاريات : (38 - 40) .
- (2) الصافات : 138 .
 (3) العنكبوت : 34 .
- (4) وردت قصتهم في سورة الاعراف : (103 - 171) ويونس : (75 - 92) وطه : (9 - 101) والشعراء : (10 - 68) والقصص : (3 - 48) وغافر : (23 - 46) .
- كما وردت بايجاز في سورة هود : (96 - 101) وابراهيم (85) والاسراء : (101 - 104) والمؤمنون : (45 - 48) والنمل : (7 - 14) والزخرف : (46 - 56) والذاريات : (38 - 40) ووردت اخبار بنى اسرائيل في سورة البقرة : (39 - 123) والمائدة : (20 - 26) .

عروش الظلم ، وتحريير الرقاب والقلوب من استعباد الانسان
للانسان ، واستعباد الهوى للنفس . فبنو إسرائيل أذلهم الحكم
الطاغي فأصبحوا لا يملكون من أمر أنفسهم شيئا . والعرب
أخذ سلطان القبيلة بنواصيهم ، واستحوذت العبيّة القبيلة على
نفوسهم ، فخضع الضعفاء للأقوياء ودان العبيد للسادّة :

ثمّ ما أشبه قصة موسى بقصّة محمد عليها السلام في الدعوة !
فقد تآمر على موسى قومه ليقتلوه :

« وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ، قَالَ : يَا
مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي
لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ، فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ
قَالَ : رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » (1) :

كما تآمر على محمد مشركو مكّة .

« وَإِذْ يَمَكُورُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ
أَوْ يُخْرِجُوكَ . وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ . وَاللَّهُ خَيْرٌ
الْمَاكِرِينَ » (2)

وكلاهما عذّب المؤمنون بهما واضطهدوا ، فلم يحفظوا
بما كانوا يلتقون . فقد كان التعذيب مصلتنا على أصحاب الرسول
صلّى الله عليه وسلم ، ورغم ذلك استمرت الدعوة المحمدية
تغزو معاقل الشرك وتثلّ عروش المشركين .

(1) القصص : 20 - 19

(2) الأنفال : 30

روي عن عبدالله بن مسعود قال : أول من أظهر إسلامه من بين الذين يُخفونه سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمار بن ياسر وأمه سُمَيَّة ، وصهيب وبلال والمقداد .

فأمّا رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله بعمه أبي طالب . وأمّا أبو بكر فمنعه الله بقومه . وأمّا سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أذراع الحديد وصهروهم في الشمس (1) .

فما أشبه هذا بقصة السحرة التي تكرّر ذكرها في قصص موسى ، ! (2) فإنّ فرعون حشّر السحرة من كل مكان ليتغلبوا على موسى ، ويُبطلوا سحره حسب زعمه . ولكنّ الحق ملك قلوبهم ، والإيمان ملاً مشاعرهم ، فاستخفّوا بتهديد فرعون لهم أن يُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، ويصلبهم في جذوع النخل : « قَالُوا : لَا ضَيْرَ . إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ . إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَاهَا أَنْ كُنَّا أَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ » (3) .

وهنا تتجلّى قوّة الإيمان إذا سكن القلب واطمأنت به النفس ، وتجلّى الحقيقة بالاستعداد للفداء في سبيلها . ويظهر طغيان فرعون الذي يستعظم أن يكون في بني إسرائيل من يدعن للحقّ قبل أن يَسْأذن له بذلك .

(1) رواه احمد واللفظ له . رواه الترمذى وسنده جيد (الفتح الرباني

ج 20 / 214) .

(2) تكررت في سورة الأعراف : (113 - 126) ويونس (79 - 86) وطه :

(56 - 76) والشعراء : (34 - 51) .

(3) الشعراء : 50 - 51 .

فكانت قصة موسى مع فرعون وبنى إسرائيل قصة حافلة بالعظات التي لا يستغني عنها الرسول صلى الله عليه وسلم في اقتحام العقبات، والتعود على الصبر، والصمود أمام القوى العاشمة، ليجعل من الإسلام طلائع النور في أمة طال عليها الليل، كما طال الأمد على بنى إسرائيل فقسمت قلوبهم. وقد كان يهود المدينة أشد على الدعوة الإسلامية في المكر والغدر واللجاجة من مشركي مكة. فهم الذين حرّضوا المشركين وتآمروا معهم، واحتضنوا المنافقين في المدينة. وهم الذين تولّوا حرب الإشاعات والذس في صفوف المسلمين وتشكيكهم في عقيدتهم. فلم يكن بدّ من كشفهم للجماعة المسلمة لتعرف من هم أعداؤها؟ ما طبيعتهم؟، ما تاريخهم؟ وما وسائلهم؟

ولقد علم الله أنهم سيكونون أعداء هذه الأمة، كما كانوا أعداء هدى الله في ماضيهم الطويل: «أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» (1).

وأشدّ القلوب استعصاء على الهدى والاستقامة قلوب عرفت ثم انحرفت، فاقتضى ذلك أن تُسلم الأمة المسلمة وارثة الرسالات كلها بتاريخ القوم وأخلاقهم وطباعهم وانحرافاتهم حتى تعرف مزالق الطريق، فتضم هذه التجربة في حقل العقيدة والحياة إلى حصيلة تجاربها وتنتفع بها (2).

(1) البقرة: 75

(2) في ظلال القرآن: ج: 6 / 125 - 126

ويذهب الدكتور خلف الله في تعليقه لتكرار قصة موسى في القرآن إلى (أن اليهود كانوا يسيطرون على البيئة العربية من حيث التفكير الديني . وهذه السيطرة جعلتهم يقصون كثيرا أخبار موسى وفرعون . ومن هنا كانت شخصية موسى أكثر دوراناً في القرآن من شخصية أيوب مثلا ، بل أكثر من أي شخصية أخرى) (1).

لكن المعروف عن حياة العرب الدينية قبل الإسلام أنهم كانوا من حيث العقيدة طوائف وفرقا شتى . فعبد بعض اليمنيين الشمس ، وعبدت كنانة القمر ، وعبد قوم من لخم وخزاعة وقريش نجسم الشعري ، وآخرون تحنقوا ، وطائفة أنكروا الأديان كلها ، وقوم من اليمن تهودوا ، وقوم من قضاة تصبروا . وأكثر الأديان انتشارا بين العرب كانت الوثنية .

روى البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال : كنا نعبد الحجر . فإذا وجدنا حجرا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر . فإذا لم نجد حجرا جمعنا حثوة من تراب ، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ، ثم طُفنا به .

وإذن فكيف نتصور سيطرة اليهودية من الوجهة الدينية على بيئة لا تسودها العاطفة الدينية ، ومع ذلك فهي قليلة الانتشار بالنسبة للوثنية السائدة ؟ . ولئن كانت أكثر القبائل اليهودية تُقيم في يثرب بين قبيلتي الأوس والخزرج ، فإن أكثر ماورد من قصة موسى وفرعون كان مكيًا ، كما أن العلاقة بينهم لا تخلو من عداة (2) ومثل هذه العلاقة لا تهيب النفوس للتأثر بها ، وذلك لانعدام التجاوب .

(1) الفن القصصي في القرآن الكريم : 234 .

(2) انظر : المفصل : ل احمد أمين ورفاقه . ج : I / 25 .

وإذا كان القرآن وحده هو النص العربي القديم الذي يستطيع المؤرخ أن يطمئن إلى صحته ، ويعتبره مشخصا للعصر الذي نزل فيه ، كما يقول الدكتور طه حسن (1) فإن من أبرز خصائص الآيات المكّية حملتها المتلاحقة على الشرك والوثنية . وكل ذلك يدل على مدى استفحالهما في البيئة الجاهلية . فقد دخلت هذه الآيات على المشركين والوثنيين من كل باب ، وضربت لهم أبلغ الأمثال . قال تعالى : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم . فادعوهم فليس يستجيبوا لكم . إن كنتم صادقين - ألهم أرجل يمشون بها ؟ أم لهم أيدي يبطشون بها ؟ أم لهم أعين يبصرون بها ؟ أم لهم آذان يسمعون بها ؟ » (2) .

رؤي عن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله رضي الله عنه قال : دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب (3)

أغراضه :

وفي رأيي أن التكرار في القرآن لم يقصد به الإعجاز اليباني بقدر ما قصد به التأثير النفسي ، لِمَا يعلم الله من تفاوت في مدارك البشر وأمزجتهم ، إذ منها ما ينفذ إلى الحقيقة ، ومنها ما يسيطر عليه الوهم تحت سلطان الأفكار الموروثة . ومنها ما يصل به برود العاطفة إلى جمودها رغم المثيرات العاصفة .

- (1) انظر : في الادب الجاهلي : 176 .
 (2) الاعراف : 194 - 195 .
 (3) رواه البخارى .

جاء في رسائل إخوان الصفاء : « إنك تجد من يكون جيداً
التخيل ، دقيق التمييز ، سريع التصوّر ، قويّ الذاكرة . ومنهم
من يكون بطيء الذهن ، أعمى القلب ، ساهي النفس

فاختلاف المدارك وطبائع العقول سبب بلا شك في اختلاف ما
تنتهي إليه هذه العقول . وهل يُتصوّر أن عقلاً شاعرياً تسيطر عليه
العاطفة تتفق عند دراسته لموضوع ما ، مع عقل منطقيّ رياضيّ يربط
الأسباب بالنتائج ربطاً محكماً ؟ » (1)

ولمّا كانت ظاهرة التكرار للمعاني المقرّرة للعقيدة شائعة
في القرآن كله - وان كانت في قصصه أشدّ ظهوراً - فإن بحث
هذه الظاهرة في خصوص القصص القرآني لا يستقيم ولا يتّجه
إلاّ بالنظر إلى هذا القصص في إطاره العامّ ، وهو القرآن ، باعتبار
أنّه صورة للدعوة الإسلاميّة متناسقة الأجزاء ، متكاملة العناصر .

ومن ناحية أخرى فإن التعمّق في تلك الظاهرة يتطلّب معرفة
الظروف النفسية التي كانت تحيط بصاحب الدعوة وأتباعه ممّا
لاقوا من صدود ومقاومة وتنكيل ، وبِمَن يُدعَوْنَ إلى الله ، وما
عُرفوا به من تعصّب وعناد واستخفاف . وكل أولئك وهؤلاء
كان يقصّ عليهم القرآن .

وبهذا يتسنّى لنا أن نعرف ما وراء عرض القصص وتكرارها
أو تكرار بعض حلقاتها من مقاصد .

ومن ذلك ضرب الأمثال للرسول وللمؤمنين بما لاقى الأنبياء
وأتباعهم من أذى أقوامهم ، وثباتهم على الحق ، ومصابرتهم في

(1) انظر : رسائل إخوان الصفاء : ج : 3 / 375 - 382 .

سبيل الله ، حتى كانت العاقبة لهم ، والدائرة على أعدائهم :

« حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ، جَاءَهُمْ نَصْرُنَا . فَنُجِّبِي مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ » (1) .

(فلم يكن التذكير برسالات الأنبياء السابقين بالنسبة لمحمد (عليه السلام) موضوعا ثانويا ، بل على العكس من ذلك كان عبْرَة للجاحدين ومثلاً للمؤمنين) (2)

فكرار القصة في عدة سور بأساليب مختلفة إنمّا يهدف إلى تمكين هذه السنن في النفس ، وتثبيتها في القلب ، حتى تقوى داعية الإصلاح عند المصلح ، فلا يجد اليأس سبيلا إليه . وقد كان من تربية الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن قصّ عليه من سير الأنبياء ما يسليه . لأن نفوس المفسدين في كل زمان متقاربة ، ووسائلهم في محاربة الحق متشابهة .

« مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ » (3) .

والقرآن لم يقتصر في مثل هذه المقامات التي يثبت فيها القلوب ويقوّي العزائم على ذكر قصة واحدة لأحد الأنبياء يستدلّ بها ، بل قدّم طائفة من قصص الأنبياء قصد توكيد هذه الحقيقة وتقرير أنّها من سنن الله التي لا تتخلّف . كما نرى في عرضه لهذه المجموعة من قصصهم :

(1) يوسف : 110

Blachère : *Le Problème de Mahomet* : 61 (2)

(3) فصلت : 43

... « قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ . أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ . وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) .

وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرِيْبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ . وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ . وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) (1)

ومن مقاصد التكرار ترهيب الجاحدين وإنذارهم بما جرت عليه سنة الله في المكذبين لرسله . ولا أدل على صدق السنن الالهية . من حدوثها مرارا في ظروف مماثلة ، وأزمان متباعدة

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ، فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ . فَانجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ

.....«وَاللّٰى مَدِيْنَ اَحَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ : يَا قَوْمِ
اعْبُدُوا اللّٰهَ وَاَرْجُوا اللّٰيْمَ الْاٰخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِى الْاَرْضِ مُفْسِدِيْنَ .
فَكَذَّبُوهُ فَاَخَذْتَهُمْ الرَّجْفَةَ فَاَصْبَحُوْا فِىْ دَارِهِمْ جَاثِمِيْنَ .
وَعَادًا وَّثَمُوْدًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسَاكِنِهِمْ وَّزَيَّنَ
لَهُمُ الشَّيْطٰنُ اَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيْلِ وَكَانُوْا
مُسْتَبْصِرِيْنَ . وَقَارُوْنَ وَفِرْعَوْنَ وَهٰمَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ
مُوسٰى بِالْبَيِّنٰتِ فَاَسْتَكْبَرُوْا فِى الْاَرْضِ وَمَا كَانُوْا سَابِقِيْنَ .
فُكُلًاۗۙ اَخَذْنَا بَدْنِيْهِ . فَمِنْهُمْ مَّنْ اَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حٰصِبًا
وَمِنْهُمْ مَّنْ اَخَذْتَهُ الصَّيْحَةَ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهٖ الْاَرْضَ
وَمِنْهُمْ مَّنْ اَغْرَقْنَا . وَمَا كَانَ اللّٰهُ لِيْظْلِمَهُمْ وَلٰكِنْ
كَانُوْا اَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُوْنَ » (1) .

كما أن من مقاصد تكرار القصة ضمن مجموعة من القصص
بيان وحدة الأديان في أصل العقيدة ، ووحدة الدعوة إليها
من الرسل ، وتشابه أقوامهم في موقفهم منها .

« وَمَا اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُوْلٍ اِلَّا يُوْحٰى اِلَيْهِ
اَنَّهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا اَنَا فَاَعْبُدُوْنَ » (2) .

ويقتضي تقرير هذه الحقيقة أن تعرض طائفة من قصص
الأنبياء متتابعة تروى كل ذلك .

(1) العنكبوت : 35 - 40 .

(2) الأنبياء : 25 .

ولا شك أننا سنلاحظ في العرض التزام القرآن لصيغة واحدة في ما حكاه من دعوة هؤلاء الرسل إلى الله . وقد كان له أن يتصرف في حكاية كلامهم بصيغ متنوعة تؤدي نفس المعنى ، لأنهم كانوا يتكلمون بغير لغة القرآن ، ولكنه قصد هذا التكرار في اللفظ والمعنى معاً ، للاشعار بأن كلامهم إنما صدر عن واحد وهو الله ، واتجه إلى غاية واحدة وهي التوحيد . حتى ليُخَيَّلَ إلينا ونحن نتلو ما نقل القرآن من توجيهاتهم (أنهم خطباء في حفل واحد ، اجتمعوا في أمسية موعودة ، أو ليلة مشهودة ، وليسوا رجالاً توزعتهم أكناف القرون المتطاولة) (1) وهي ناحية نفسية هامة جديرة بالاعتبار .

وهكذا نستخلص أن في تنوع قصص الأنبياء ، وما يجمع بينهم من وحدة المبادئ والأهداف ، أو تشابه العلل والأمراض التي تحول دون انصياع أقوامهم إلى الحق ، من عوامل تأثير الإلحاح على النفس بالموعظة المتكررة ، والضغط عليها بالعبارة المتجددة مما يجعل حقيقة الإيمان أكثر غوصاً واستقراراً في القلوب ؛ لأن ذلك بمثابة الاستقراء الذي يقسم الدليل على ثبات تلك الحقيقة ، واطراد نتائجها إيجاباً وسلباً في كل عصر ، مهما تباعد المكان وتفاوت الزمان . وهي طريقة في بيان سنة الله في الأفراد والأمم عبر التاريخ . فإن حركة التاريخ ليست أفقية امتدادية تسير في خطٍ طويل لا نهائي ، بل إنها حركة دائرية تُربط فيها الأسباب بالمسببات ، والمقدّمات بالنتائج . فالأحداث تتكرر ، والأوضاع تتشابه . وما وقع بالأمس يمكن أن يقع مثله غداً ، إن وجدت الظروف

(I) محمد الغزالي : نظرات في القرآن : II5 .

والملايسات المتماثلة في موضوعها وجوهرها ، وإن اختلفت الأشكال والصُّور (1) ولعلّ هذا مما يوضّح معنى العبارة المشهورة - لوصّحت - (التاريخ يعيد نفسه) .

فأمارات الحق والعدل والاستقامة واحدة لا تتغير في جوهرها على مدى الأزمان . والدّعاة إلى الحق من الأنبياء إنّما يصدرون عن مورد واحد : وهو الله . فجاءت دعواتهم واحدة في جوهرها .

« كَذَبَتْ قَوْمٌ نُّوحٌ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ : أَلَا تَتَّقُونَ ؟ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ . إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ الخ..... »

كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ : أَلَا تَتَّقُونَ ؟ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ . إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ... الخ...

كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ : أَلَا تَتَّقُونَ ؟ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ . إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ الخ..... »

(I) محمد البهي : الدين والدولة • من توجيه القرآن الكريم : 29 •

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ
لُوطٌ : أَلَا تَتَّقُونَ ؟ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ . إِنْ أَجْرِيَ
إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ الخ.....

كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ
شُعَيْبٌ : أَلَا تَتَّقُونَ ؟ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا
اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ . إِنْ أَجْرِيَ
إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ « الخ..... (1)

فهؤلاء الأقوام وُجِّهت لهم دعوة واحدة ، ولكنهم كذبوا
واستكبروا ، فكان مصيرهم واحدا رغم تباعد أزمانهم . وقد أكد
القرآن هذه الحقيقة ، فجعل المكذِّبين برسولهم مكذِّبين بالرسل
جميعهم . « كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ . » مع أنهم لم
يكذبوا إلا رسولهم نوحا عليه السلام ، وكذلك قوم عاد وثمود
ولوط ، لأن الحق تمحى أمامه كل الفروق بما في ذلك فارق الزمن
والجنس .

فالقرآن يخاطب الرسل بصيغة واحدة ، وكان الزمن جمع
بينهم في صعيد واحد : « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَأَعْمَلُوا صَالِحًا . إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . » وأن هذه
أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً . وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ » (2) .

• (1) الشعراء : 105 - 101

• (2) المؤمنون : 51 : 52

وهكذا يتضح مما تقدم عرضه أن تكرار بعض قصص الأنبياء في تلك المجموعات الثلاث مثل قصص نوح ولوط وشعيب ، إنما اقتضاه تنوع الأغراض في كل مجموعة منها وهي : التثبيت ، أو الترهيب ، أو بيان وحدة الأديان .

وفي القرآن قصة وردت سبع مرات ، ولكنها لم تُعرض ضمن مجموعة من القصص ، وإنما عُرِضت منفردة . وهي قصة آدم .

« وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا . وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى . فَقُلْنَا : يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَابْنُ وَجْهِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى . إِنَّ لَكَ أَلًا تَجْسُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ، وَإِنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى . فَوَسَّوْا لِلَّيْلِ الشَّيْطَانُ ، قَالَ : يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ؟ فَآكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لِهَيْمًا سَوَاتِهِمَا وَطَفِقَا يَخْضِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ . وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى . قَالَ : اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ . فَلِمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّْي هُدًى . فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى » (1) .

والمتمامل في المواطن التي عُرِضت فيها هذه القصة ، يلاحظ أنها جاءت موزّعة عليها في المعاني والأسلوب والتصوير . وكل هذه النواحي تتحد على إخراجها قوية تامة ، مع أن كل صورة منها تمثل القصة كلها وتبرز ملامحها . ولعل الغرض العام من تكرارها بهذا القدر - زيادة على الأغراض الخاصة المختلفة التي يفسرها المحور العام للسورة ، وسياق كل موضوع منها عُرِضت فيه القصة - إبراز كمال العناية الالهية بالإنسان الذي كرمه الله واستخلفه وعلمه ، وبث في كيانه من روحه نفحة قدسية علوية ، فكان جديرا بمثل هذه العناية السامية ؛ وأن يقص القرآن مرارا تاريخ خلقه ، وغواية الشيطان له وزلته وهبوطه إلى الأرض وتوبته ، لِمَا تفيده قصته من التوجيهات الحكيمة، والمعاني البعيدة التي لم تجعل للقصة صبغة تاريخية محدودة ، وإنما جعلتها تهدف إلى مغزى عام ، أو مضمون فلسفي ، كإثبات أن العلم والدين نشأا بنشأة الإنسان . فكما تلقى آدم من ربه العلم ، تلقى الدين بما أمره به ونهاه عنه ، وكيان ما أودع فيه من قدرة على الفعل ، وإرادة للطاعة أو المعصية ، يترتب عليهما تكليفه ، وثوابه أو عقابه ، وبما ركّب فيه من طبيعة مزدوجة كُتِب عليه أن يعيش بها في صراع ، وانتحق بمقتضاها أن يوجّه بواسطة الرسل ، وأن يُحذّر فتنه الشيطان . « يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ (1) .

وهكذا فإن قصة الشجرة المحرّمة ووسوسة الشيطان باللذة ونسيان العهد بالمعصية ، والصّحوة من بعد السكر ، والتدم وطلب

(I) الأعراف : 26 .

المغفرة، هي قصة الإنسان في كل زمان ومكان وتجربة البشرية الدائمة المتجددة (1) .

طريقته :

وما تكرر من قصص القرآن ليس من التكرار الآلي الممِلّ الذي يُخلّ بالفنّ ويبيّهُ النقاد . لأنّ الحقيقة الواحدة يطالعنا بها القرآن في مواطن مختلفة ، ولكن في أثواب جديدة ، مع تصرف بارع في صيغ التعبير وطرق الأداء .

وإعادة الكلام في الموضوع الواحد مع التنويع والطفرة والتجديد من بلاغة القرآن وإعجازه .

ومن أخص طرق القرآن في تكرار القصة أن يعيد ذكرها في منتهى الإجمال والإيجاز ، وذلك في مقام الاستدلال على ما يريد إثباته من حقائق بأمثلة من التاريخ كما في قوله تعالى :

« إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً » (2).

« وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا . وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا » (3) .

(1) في ظلال القرآن : ج : 1 / 32 .

(2) المزمّل : 14 .

(3) الاسراء : 59 .

ومعظم التكرار في القصة القرآنية كان في بعض أجزائها .
وكثيرا ما يأتي بعض ما ذُكر منها في موطن متممًا لما ذُكر
منها في موطن آخر ، بحيث كلّمَا تكررت حلقة ذُكرت فيها
معان جديدة . حتى لا تُسمَلّ ألفاظها أو معانيها .

والسياق هو الذي يحدّد القدر الذي يُعرض منها في كلّ
موطن ، كما يحدّد طريقة العرض والأداء بما يحقق التناسق
والجمال الفنّي .

ونادر جدا أن يعرض القرآن باسترسال وفي موضع واحد
قصةً مترابطة الأجزاء ، متسلسلة الحلقات ، مثل قصة يوسف
ومثل قصة موسى في سورة القصص ، لأن القصة لم ترد لذاتها ،
ولم تتناول أخبار الماضين كما تناولها العهد العتيق وكتب التاريخ ،
ولأنّما استُخدمت كوسيلة من وسائل التأثير في غرس العقيدة .
لذلك جاءت القصة الواحدة موزّعة في عدّة سور بحسب المناسبات ،
وكلّمَا تكرّرت المناسبة أعيد ذكر ما يقتضيه الحال منها .

وكلّ ذلك يرجع في الحقيقة إلى ظروف الدعوة المحمّدية
والمراحل التي مرّت بها في مواجهة الفئات والقبائل سنوات طوالا .

وهذه نماذج عُرضت فيها بإيجاز محكم حلقات من مواقف
موسى مع فرعون وملئّه ، وقد تعدّد ذكرها في عدة مواطن
من القرآن ، ولكن بأساليب مختلفة ، وعبارات متنوّعة تجعلنا لا نكاد
نشعر عند قراءتها بتكرارها .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا . فَتَقَلَّبْنَا أَذْهَبًا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَا هُمْ تَدْمِيرًا » (1) .

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ، وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ . يَتَقَدَّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ، وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَسْرُودُ . وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ » (2) .

« وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ : سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ » (3) .

وقد بين الباقلائي كيف أعاد القرآن قصة موسى أو حلقات منها على طرق شتى ، ووجوه مختلفة ، وفواصل متنوعة ، مع اتفاق المعنى ليُعلم عجزهم . ولهذا قال : « فَلَيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ » (4) ليكون أبلغ في تعجيزهم ، وأظهر للحجة عليهم..... وكل كلمة من هذه الكلمات وإن أنبأت عن قصة ، فهي بليغة بنفسها ، تامة في معناها (5) .

(1) الفرقان : 35 - 36 .

(2) هود : 96 - 99 .

(3) الذاريات : 38 - 40 .

(4) الطور : 34 .

(5) اعجاز القرآن : 288 - 290 .

ولمّا كان القصص القرآني يرد ليؤدي وظيفة يقتضيها السياق : كإقامة الحجّة والبرهان بأمثلة من واقع التاريخ ، نرى القصة الواحدة تتكرّر في مواضع مختلفة ، ولكن بأسلوب يتفق والسياق الذي تعرض فيه ، والغرض المسوقة له ، معتبرا فيها ما يناسب كلّ موضوع من حلقات تلك القصة .

ومن هنا نرى أنّ القصة الواحدة تُذكر على وجوه مختلفة في أماكن متعددة . تختلف بين الطول والقصر والإجمال والتفصيل ، والاقتصار والإكمال (1) .

فقصة موسى مع فرعون مثلا وردت مفصّلة في سورة الأعراف (2) ضمن مجموعة من قصص الأنبياء ، لأنّها جاءت في معرض تصوير طبيعة الكفر في نفوس البشر ، وكيف يُحاولُ الرُّسل الكرام بتوجيه الله وتعليمه إنقاذ البشر من هاوية الضلالة والغواية ، كما تشهد بذلك مواقف الصراع بين الهدى والضلال ، وبين الحقّ والباطل . وكل هذه المقاصد تقتضي نوعا من التبسيط والإفاضة .

بينما وردت هذه القصة نفسها في سورة النّازيات (3) ضمن مجموعة من قصص الأنبياء أيضا ، ولكن للتشهير بمصارع المكذّبين لرسولهم ، ولتصديق وعد الله في أول السورة « إنّهمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدّينَ لَوَاقِعٌ » (4) . فكانت تُطوى تفاصيل الأحداث فيها للوصول سريعا إلى النتيجة الحاسمة ؛ وهي سوء عاقبة هؤلاء موطن العبرة من القصة ، ومركز الاهتمام فيها .

(1) تفسير القرآن الكريم : 547 .

(2) الآيات : 103 - 141 .

(3) الآيات : 38 - 40 .

(4) النّازيات : 4 - 5 .

هل في التكرار تعارض ؟

ثم إن في ما تكرر من قصص ظاهرةً يجدر ذكرها هنا . وهي ما يبدو من اختلاف في بعض المواقف والأحداث للقصة الواحدة التي تعرض في عدة سور من القرآن ، مما جعل بعض العلماء مثل الزركشي والسيوطي يعدون قصص القرآن من المتشابهة .

ومن ذلك مثلاً : جاءت في دعوة نوح لقومه ، وردهم عليه :
في سورة الأعراف (1) :

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ، فَقَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

وفي هود (2) :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَأَكْفُرُ بِمَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَمِّ . فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا . وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدَائِنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ، وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ . بَلْ نَنظُرُكُمْ كَمَا ذَرَيْنَا .

• (1) : 58 - 59

• (2) : 25 - 27

وفي سورة المؤمنين (1) :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ، فَقَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ فَقَالَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ . إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ .

وقد أجاب الخطيب الإسكافي على هذا الإشكال بما فيه مَنع ، فقال : « للأنبيا مقامات مع أممهم ، يكون فيها الإعذار والإنذار ، ويرجع فيها عودا على بدء الوعد والوعيد ، ولا يكون دعاؤهم إلى الإيمان بالله ، ورفض عبادة ما سواه في موقف واحد بلفظ واحد لا يتغير ، بل الواعظ يفتن في مقاله ، والجاحد المنكر تختلف أجوبته في مواقفه .

فإذا جاءت المحكيّات على اختلافها لم يطالب باتّفاقها ؛ لأنه قال لهم مرّة باللفظ الذي حكى ، ومرّة بلفظ آخر في معناه كما ذكر .

وكذلك الجواب يردُّ من أقوام يكثُر عددهم ويختلف كلامهم ومقصدُهم . وصدق الخبر يتناول الشيء على ما كان عليه ، فلا وجه إذاً للاعتراض بهذا ونحوه» (1) .

ومثله الاختلاف في وصف عصا موسى لما ألقاها :

فَأَلْقَاهَا فَاذًا دَبِي حَيَّةٌ تَسْعَى (طه 19)
فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلِيٌّ مُدْبِرًا (النمل 10)
فَأَلْقَى عَصَاهُ فَاذًا هَبِي ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (الاعراف 106)

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف ذُكرتْ بألفاظ مختلفة بالحية والجانِّ والثعبان ، قلتُ : أمَّا الحية : فاسم جنس يقع على الذكور والأنثى والصغير والكبير . وأمَّا الثعبان والجان ، فبينهما تناف ، لأن الثعبان العظيم من الحيات ، والجان : الدقيق .

وفي ذلك وجهان : أحدهما أنها كانت وقت انقلابها حية تنقلب حية صفراء دقيقة ، ثم تتورم ويتزايد جرمها حتى تصير ثعباناً فأريد بالجان أول حالها ، وبالثعبان مآلها .

والثاني : أنها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجان (2) .

ومن ذلك أيضاً ما نوّدي به موسى لما أتى النار :

« فَلَمَّا آتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى : إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَسَاخُلِعْ

نَعْلَيْكَ ... الخ ... » (طه 19) .

(1) درة التنزيل وغرة التأويل : 23 - I

(2) الكشاف : ج : 2 / 22 - 23

« فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَّ : أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الخ » (النمل : 8) .

« فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَّ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى : إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » (القصص : 30)

فقد ذكر الرازي : ألا منافاة بين هذه الآيات ، لأنه تعالى ذكر الكل . إلا أنه حكى في كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء (1) .

وفي قصة تبشير الملائكة بإسحاق ، نجد المبشّر إبراهيم غالبا . وفي مرّةٍ امرأته : « وَأَمْرَأَتُهُ قَانِمَةٌ فَضَحِكْتَ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ » (هود : 71) .

وأجاب الشيخ محمد عبده بأنّ بشارتها إنّما كانت بالتبّع لبشارة بعلمها وهو المقصود بالذات ، وصرّح به في سور الحجر والصفات والذّاريات خاصّا به . أي بشرناها بالتبّع لتبشيره بإسحاق (2) . ويؤيد ذلك ما ورد في سورة هود نفسها « فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى » (74)

وليسَ لا تكون البشري لهما معا ؟ هوَ بالأصلية ، باعتبار أنّ الملائكة إنّما أرسلت إليه ، وهي بالتبعية ، لأنّ النّساء أعظم سرورا

(1) مفاتيح الغيب . ج : 24 / 245 .

(2) المنار : ج : 12 / 129 .

بالولد من الرجال ، ولأنه لم يكن لها ولد ، وكان لإبراهيم
إسماعيل ؟

والحقّ أنّنا نجد مثل هذه الأجوبة في كثير من المواطن
الأخرى التي اختلف فيها ظاهرياً معنى ما تكرّر من القصص. وهي
أجوبة مقنعة يرتفع بها كل لبس ، ويزول كل إشكال ، لخلوها
من التمحّل والتكلفّ والتأويل البعيد .

ومن هنا يمكن القول بأنه ليس من متشابه القرآن تكرار
قصصه كما يزعم بعضهم ، وذلك لانتفاء أيّ تضارب أو اختلاف
في القصة الواحدة التي تعدّد ذكرها وتنوع عرضها :

« أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانُوا مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ
لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » (1) .

قال مجاهد وعكرمة : كلّ ما سوى آيات الأحكام والقصص
متشابه ، وعليه القاضي أبو بكر وإمام الحرمين (2)

آراء في التكرار :

ويذهب الدكتور خلف الله إلى أنّ عجز الفكر الإسلامي عن
فهم الأسرار التي من أجلها كان التكرار في قصص القرآن يرجع
إلى اعتماد المذهب التاريخي في فهمه . ولو أنّه أقام هذا الفهم

(1) النساء : 81 .

(2) ابن خلدون : المقدمة : 849 .

على أساس فَنَسِيٍّ أو أدبيٍّ لَمَّا وقف موقف الحيرة ، ولمَّا عدَّ قصص القرآن من المتشابهة (1) .

ويرى أن العمل الفني والأدبي في القصص القرآنيّ يتمثل في تخليص العناصر التاريخية (الأشخاص والأحداث) من معانيها التاريخية ، وفي تحميل هذه العناصر بالعواطف الإنسانية ، أو بالمعاني الدينية والمخلّقية (2) . كما يجعل الأديب الفنان من شخصيّة تاريخية معروفة نقطة الإنطلاق لخياله وأفكاره ، أو محورا لفنّه وابتكاره .

وعنده أن أحداث التاريخ . التي وردت في هذا القصص ، رُتبت ترتيبا عاطفيا ، وبنيت بناء يقصد منه الى استثارة الهمم ، وتحريك النفوس (3) لأن مقصد القرآن - حسب رايه - ليس الا هذه الصور التي يرتبها مصدرا للانفعال والتأثير ، وباعثا للأمن والخوف والرجاء (4) .

فليس يعنيه من عناصر القصّة أن تكون قائمة على أساس الحق والواقع ، بقدر ما يعنيه أن تكون هذه العناصر ممّا يملك القلوب ، ويسيطر عليها (5)

وإذا حصل اختلاف بين بعض عناصر القصة الواحدة فليس من اللازم أن يقوم على أساس الذي وقع فعلا وإنّما يقوم على أساس القصد الذي يرمي إليه القرآن من الصور القصصية .

(1) الفن القصصي في القرآن الكريم : 31 - 34 .

(2) المصدر السابق : 236 .

(3) المصدر السابق : 128 - 129 .

(4) المصدر السابق : 241 .

(5) المصدر السابق : 248 .

(وهنا نحسّ أن الاختلاف القائم على أساس الأحداث أيضا يزول . فكون البشارة بالغلام مرّة لسارة ، وأخرى لإبراهيم عليه السلام لا يعتبر من الاختلاف ، لأن هذه قصة ، وتلك قصة . وكذلك غير هذا المثال من آيات القصص الذي يتغير فيه التعبير .

إن هذا الوجه من الرأي يبطل ذلك القول المخاطيء الذي يتول به المستشرقون من تطوّر الشخصية في القرآن الكريم بتطوّر أغراض التبيء عليه السلام ودوافعه ، والظروف المحيطة به ، والمناسبات التي تدعوه إلى بعض المواقف . ذلك التطوّر الذي يمثّلون له بما حدث في شخصيّة إبراهيم عليه السلام (1) لأنّ أساس هذا القول أنّ الوحدة القصصية تقوم على وحدة الشخصية ، وهو قول باطل يريحنا منه تقرير أنّ هذه الوحدة إنما هي وحدة الغرض والعبارة ، لا وحدة الشخص . ومن هنا تكوّن هذه قصة وتلك قصة ، وتكون أقاصيص متعددة لشخص واحد عن موقف واحد لتعدد الأغراض ، واختلاف صور العرض باختلاف المقصد والغرض (2) .

وغنيّ عن البيان أنّ المقدّمة التي بنى عليها (الدكتور خلف الله) حكمه في عدم التزام القرآن للحق والواقع في قصصه غير صحيحة .

والمقدّمة تتمثّل في إقراره بوجود مفارقات بين ما يكرّر من أحداث القصة الواحدة .

(1) راجع مادة إبراهيم في : دائرة المعارف الاسلامية •

(2) الفن القصصي في القرآن الكريم : 196 - 197

وقد سبق عرض أمثلة لذلك ، وشرحها بما يدفع الشبهة ، وينفي وجود هذه المفارقات التي لا يبررها على افتراض وجودها ما يقتضيه العمل الفني والأدبي من تصرف في عناصر الأحداث أو الشخصية ، لأن هذا - وان جاز في القصص الأدبي التاريخي - لا يجوز بحال في القصص القرآني ؛ والله تعالى يقول :

« لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى » (1) .

والجمال الفني في قصص القرآن لا يعتمد على الخلق والابتكار والخيال ، ولكن على صدق الرواية ، وإبداع العرض ، وجمال الأداء .

ويرى الحدّاد أنّ القصص القرآني من التاريخ الشعبي الذي كان متداولاً في بيئته العربية والكتابية ، ونقله القرآن بحسب العقلية الشعبية والبيئة البدائية التي نزل فيها بأسلوب أدبي ، لا بأسلوب تاريخي (2) .

فهو في هذه النقطة متفق مع الدكتور خلف الله ، ويستدل بما سبق من كلامه .

وفي قضية التكرار يتساءل : هل إن اقتصار الوحي الجديد على عشر روايات مكررة عشرات المرات بأساليب متنوعة ، هو من إعجاز الفن وسحر البيان ؟ فنحن نجد في القصص القرآني وأساليبه إعجازاً . وغيرنا يجد فيه عجزاً . كلٌّ بحسب عقلته

(I) يوسف : III •

(2) القرآن والكتاب (2) / 572 •

وثقافته (1) . ويستدل على ذلك بقول لأحد الغربيين لم يذكر اسمه (2) .

ولكن هذا (الغير) إن لم يكن متمكناً في العربية وأساليبها . وفنون القول فيها ، لا يملك حاسة الذوق ، ولا مآكة النقد في هذا المجال ، فلا يُقْبَلُ أنْ ينتصب حكماً فيما يتجاوزه من أسرار الإعجاز البياني ، بل ليس له أن يحكم على ما تقصر عنه مداركه اللغوية والبلاغية مهما كانت ثقافته .

ويرى (الحداد) أن في ما تكرر من قصص القرآن تعارضا ، فيقول : (ولا ننسى أن هذا يمثل أكثر من ثلثي القرآن . وفي اعتباره من المتشابه ما فيه من شبهة يزيدا مرارة ما فيه من شبهة التعارض) (3) والتعارض عنده نوعان : تعارض بين القرآن والكتاب المقدس ، وتعارض بين آيات القرآن نفسها .

أما الأول فيفسره بأن مصادر القصص القرآني هي البيئة الحجازية ، عربية وكتابية ، وهذا القصص المتداول هو من التاريخ الشعبي الذي يختلف عما في الكتاب المقدس . ويرد على من يعلل هذا التعارض بتحريف التوراة والإنجيل . ويعتبر ذلك من التفسير الرخيص المتهافت ، ويستدل بما يقول أهل الكتاب : ها أن نسخ التوراة والإنجيل باقية هي هي على الرق من قبل القرآن بمئات السنين ،

(1) المصدر السابق 568 .

(2) «Mohamet n'était pas spécialement doué par la spéculation théologique et la monotonie de ses descriptions ne relève un génie littéraire»

(3) المصدر السابق : 574 .

كما يستطيع كل باحث أن يتحقق ذلك في متاحف العالم . ولم يكن جميع أهل الكتاب قَبْلَ القرآن بمئات السنين أنبياء ، حتى يشعروا بظهور النبي الأميِّ في مكّة ، وتنزيل القرآن عليه معارضا لما عندهم في التفصيل حتى يحرقوه سلفا (1) .

وأما النوع الثاني - من التعارض بين قصص القرآن نفسه - حسب زعمه - فقد اعتبّر هذا القصص (من المتشابه في القرآن ، لا من محكم التنزيل) (2) ، ونقل قولاً لدروزة جاء فيه : وقد بقيتْ مسألتان قد تَبَدُّوا مشكلتين :

أولاهما : ما إذا كان ما احتواه القرآن من قصص صحيحا في جزئياته ووقائعه وحقائق حدوده

وثانيهما : ما بين بعض القصص القرآنية المتصلة بنبيّ أو أمة من بعض الخلاف ، مثل ذكر وقت ما كان يقع على بني إسرائيل من فرعون ، من قتل الأبناء واستحياء النساء ، حيث ذكر هذا الوقت في سورة أنسه قبل بعثة موسى ، وفي سورة أنه بعد بعثته . ويُجيب على هذا الإشكال الذي أورده جوابا عاطفياً فيقول :

« ونحن كمسلمين نقول : إن كل ما احتواه القرآن حق وواجب الإيمان ، وإنّا آمنّا به (كُلُّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) ؛ كما أنّنا نقول بوجوب ملاحظة كون القرآن في قصصه إنّما استهدف العظة والتذكير فحسب ، لا التاريخ . وهما لا يتحققان إلا فيما هو معروف ومسلّم به إجمالا من السامع ، وإنّ هذا أيضا من الحق الذي انطوى

(1) المصدر السابق : 575 .

(2) المصدر السابق : 576 .

فيه حكم التنزيل ، وبوجوب الوقوف من هذه القصص عند الحدّ الذي استهدفه القرآن ، وعدم الاستغراق في ماهيتها على غير طائل ولا ضرورة ، لأنّها ليست ممّا يتّصل بالأهداف والأسس» (1) .

ثمّ إنّ نسبة الكمّ التي عيّنها (الحداد) للقصص من القرآن ، فيها إفراط ومبالغة ، إذ هي دون ذلك .

أمّا رأيه في التعارض بين قصص القرآن والكتاب المقدّس ، فهو رأي مغرّض . وأقلّ ما يترتب عليه التشكيك في صحة ما ورد في القرآن ، على أساس أنّ نُسَخ التوراة والإنجيل - كما يدّعي - باقية كما هي ، وكما أنزلها الله ، لم يدخل عليها أي تحريف أو تغيير . وهذا غير صحيح .

ومن الأدلّة التاريخية على هذا التحريف أنّ التوراة وكُتِب الأنبياء تعرضت إلى أحداث جسام نتيجة الحروب والهجمات التي تعرّض لها اليهود أنفسهم . فقد أحرقت اورشليم وهيكلها وما تحويه من أموال وذخائر على يد بنوخذنصر ملك بابل الذي سار إلى بيت المقدس ، وفتحه عنوة ، وقتل بني إسرائيل وسباهم وحملهم إلى أرض بابل ، وأخذ التوراة وما كان في الهيكل من كتب الأنبياء ، فصيّرها في بشر وطرح عليها النار (2) .

وتشير التوراة نفسها إلى هذا الحدث مرات كثيرة وإن كانت لا تشير إلى إحراق التوراة .

(1) محمد عزت دروزة : القرآن المجيد : 184 .

(2) اليعقوبي : تاريخ ج : I / 5049 .

يقول البيروني : إنّ عند كل واحد من اليهود والنصارى نسخة من التوراة تنطق بما يوافق قول أصحابها . فالتى عند اليهود زعموا أنها هي البعيدة عن التخليط ، والتي عند النصارى تسمى توراة السبعين (1).....

وليست للتوراة هاتان النسختان فقط . ولكن لها نسخة ثالثة عند السامرة (2).

فالتوراة إذن لم تسلم من الأحداث التي تعرّض لها اليهود عامة ، وأورشليم خاصة . ولذلك يميل المسلمون إلى الرأي بأن اليهود تعمّدوا تحريف التوراة . ولقد قام البيروني أيضا بمناقشة عبارات من التوراة من (سفر أشعيا) وغيره مستشهدا على ان التوراة قد تنبأت بظهور المسيح ومحمد عليهما السلام . ثم يتهم عناد اليهود وإنكارهم هذا الأمر نتيجة تحريفهم للتوراة (3) .

كما أنّ التعارض المزعوم بين قصص القرآن إنّما هو وهم أوقعت فيه النظرة السطحية والحكم المستجمل .

وأما ما أورده الأستاذ دروزة من شبهة اختلاف الوقت الذي كان فيه فرعون يقتل أبناء بني اسرائيل ، فإنه يقصد بذلك ماورد في سورة القصص من أنّ فرعون كان يرتكب هذا الجرم الفظيع قبل أن يولد موسى عليه السلام كما يدلّ عليه سياق هذه الآيات :

« إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ، يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ

(1) البيروني : الآثار الباقية : 15 .

(2) المصدر السابق : 21 .

(3) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق 1970 : 45 : ج 3 / 638 .

لَإِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً ، وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (1) .

ومرة ثانية بعد بعثته كما تشير هذه الآيات :

« وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ ؟ قَالَ : سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ . وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ » (2) .

وبالتأمل يتبين ألا تعارض بين ما ورد من قصة فرعون في السورتين . فإن إقدامه على تقتيل الأبناء وقع مرتين : قبل ميلاد موسى بدافع الخوف من تحقيق الرؤيا التي عبرها له الكهنة ، ثم تجدد بعد بعثته بدافع الانتقام وإدخال الهلع في نفوس المؤمنين .

ومن يقول بالتعارض في قصص القرآن من المحدثين فإنما يعني تناقضا ، في حين أن التناقض معدوم ، لانعدام شروطه المتفق عليها عند علماء المنطق : وهي الاختلاف بين قضيتين في الكم والكيف والجهة ، والاتفاق بينهما في وحدات ثمانية : الموضوع والمحمول والزمان والمكان والإضافة والشرط والقسوة والفعل والجزء والكل (3) .

(1) القصص : 3 - 5 .

(2) الاعراف : 126 .

(3) انظر : تهذيب المنطق : للتفتزاني : 156 - 160 .

وإذا امعنا النظر فيما يبدولنا من اختلاف بين سورتين
أو أكثر في القصة القرآنية الواحدة على ضوء هذه القاعدة
المنطقيّة ، فلا بدّ أن نهتدي إلى انعدام وحدة فأكثر من تلك
الوحدات التي لا يكون التناقض إلّا بتوفرها معا. وإذن فلا تناقض .

الفصل الرابع

أنواع القصص القرآني

كلُّ ما ورد في القرآن من قصص لا يحدد عن الحقّ ؛ لأنه بُني على الحقائق الثابتة الخالصة من زخرف القول وباطله ، ولا يتجافى الصدق ؛ لأنه لم يكن للخيال أو الوهم أو المبالغة مدخل إليه ، سواء أكان هذا الصدق واقعياً في عرض وقائع التاريخ وتصوير الأشخاص بما هو مطابق للواقع ، أم موضوعياً في عرض نماذج لأصناف من البشر على حقيقتهم ، أو أحداث إن لم تكن وقعت بالفعل ، فإنّها في قوّة الأحداث الواقعة ، لاحتمال أن تقع في كلّ حين ، وذلك للاقتناع الحاصل بإمكان وجود تلك النماذج ، أو وقوع تلك الأحداث في كل عصر .

فمّا يتمثل فيه الصدق الواقعي هو القصص التاريخي .

وما يتمثل فيه الصدق الموضوعي هو القصص التمثيلي .

وقد تكون القصة التاريخية تمثيلية سقت مساق المثل بصريح القرآن كقصّة أصحاب القرية .

« وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ » والقرية هي «أنطاكية» كما حدّدها أكثر المفسرين مثل ابن عباس والنسفي (1).

(I) انظر : تنوير المقباس من تفسير ابن عباس : للفيروزآبادي : 273 .

وتفسير النسفي : ج : 4 / 5 - 6 .

وكان أهلها يعبدون الأوثان ، فأرسل إليهم عيسى عليه السلام ثلاثة من المؤمنين يدعونهم إلى الدين ، وينهونهم عن الإشراك بالله . فسجنوهم وعذبوهم وهددوهم بالقتل إن لم يكفوا . فالتحق بهم مؤمن آخر جاء من أقصى المدينة لمساندتهم وإنقاذهم ، وقد بلغه ما نالهم من أذى ، فقتلوه وصلبوه .

و ها هي القصة كما عرضها القرآن :

« وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ، إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ، فَقَالُوا : إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ . قَالُوا : مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ، وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ، قَالُوا : رَبَّنَا عَلَّمْنَا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ، وَمَا عَلَّمْنَا إِلَّا الْبَلَاغَ الْمُبِينُ . قَالُوا : إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالُوا : طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ . وَجَاءَ مِنَ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى . قَالَ : يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ . وَمَالِيَ لَّا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ؟ إِنْ يُرِدْنِي الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِي

عَنِّي شَقَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِدُونَ . إِنِّي إِذِنَ لِقِيِّ ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ . قِيلَ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ . قَالَ : يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَضَبَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (1)

وهي من نوع قصص الكفاح التي تنتهي باستشهاد البطل في سبيل الحق . فموتُه وإن كان في الظاهر هزيمة ، لكنّه في الحقيقة انتصار للمبادئ التي آمن بها . ودعا إليها ، وعمل على تحقيقها ، وفوزٌ عظيم له بما نال من رضى الله وجنة الخلد .

وفي الانبياء من قُتِلَ كما أخبر الله أن بني إسرائيل يقتلون النبيين بغير حق . وهؤلاء هم كمن يُقْتَل من المؤمنين في الجهاد شهيدا يكون حاله أكمل من حال من يموت حتف أنفه . ثم إنّ الدين الذي قاتل عليه الشهداء يظهر وينتصر بانتصار الله لهم ولأتباعهم ، وإعلاء ذكركم ، ونشر لسان الصدق لهم وبقائه ثناء ودعاء ، وإهلاك أعدائهم ، وإذلال من يحادّهم ويشاققهم ؛ وهذا غاية ما يكون من النصر . وإذا كان الموت لا بدّ منه فالموت على الوجه الذي تحصل به سعادة الدنيا والآخرة أكمل . (2) .

(1) يس : 13 / 27 .

(2) تقى الدين بن تيمية : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح . ج : 4 / 264 - 265 .

« إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » (1)

وقد ضرب الله هذه القصة التاريخية مثلاً لمشركي مكة الذين
كذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم لإيذارهم عذاباً ينزل عليهم كما
نزل على أصحاب هذه القرية لما قتلوا المؤمن الذي دعاهم
إلى طاعة المرسلين . وقد غضب الله له ، فعجل لهم العقوبة :
« وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ
السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ . إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَبْحَةً
وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ » (2)

انتهاء الأسطورة والرمزية

ومن هنا يتضح أن لا مجال للأسطورة في القرآن لأنه كلمة
الله « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ
تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » (3)

وأصل الأسطورة خرافة اخترعها خيال الإنسان لتفسير العلاقة
التي تربطه بالوجود ، وتعليل ما يجري فيه من بعض الظواهر
التي عجز عقله عن معرفة أسبابها الحقيقية ، فانساق مع الأوهام .
لذلك كان أكثر الأساطير مما يثير العجب والدهشة ، لأن
الأحداث فيها لا تسير سيرها الطبيعي وفق سنن الكون ، ولكن

(1) غافر : 51 •

(2) يس : 28 - 29 •

(3) فصلت : 42 •

تسيّرهما قوة جبّارة خفيّة تصنع الخوارق ، وتتهيء الظروف الملائمة لتمضي بها لا في المسلك الطبيعي ، بل في المسلك الذي رسمه القاصّ إلى النهاية . ويُسببه الأساطير من بعض الوجوه ذلك القصص الديني الذي لم يقتصر فيه الرواة والمفسرون على ما أوردته الكتب المقدّسة ، بل جعلوا منه على مرّ العصور مرتعا لتصوراتهم ومسرحا لتخيّلاتهم . والخرافيون هم آفة الأخبار وآفة الأديان في كل زمان . وانباس يروقههم أن يجعلوا من الاستثناء قاعدة ، ومن الشذوذ قانونا . وهنا الطامة التي تعصف بالدين والعلم معا . فكم من قصص ديني لوصحّ لما تماسك للكون نظام ، ولا بقيت لقانون السببية حرمة ! (1)

ويُثبت علماء النفس أن غير المعقول أشدّ فعلا في النفس ، لذلك كانت الجوانب الغريبة في هذا القصص أكبر مؤثّر فيها . وقد يسود الوهمي منها عليّ الحقيقي . ومن هذا النوع ما رواه الكسائي : أن يوسف عليه السلام قال لإخوته لمّا أتوه يكتالون وهم لا يعرفونه :

« يا أولاد يعقوب ! إنّ من العجّب أن يأكل الذئب أخاكم ، وفيكم من يصيح بالأسد فيخترّ ميتا ، وفيكم من يأخذ برجل الذئب فيشقّه نصفين ، وفيكم من إذا صاح وضعت الحامل ما في بطنها ، وفيكم من يقلع الشجرة من أصلها ، وفيكم من يعدو مع الفرس فيسبقها . قالوا : نعم أيها العزيز! وفينا من يفعل أكثر من ذلك ، لكن إذا جاء القضاء عمى البصر ، وضعفت القوّة » (2)

(1) محمد الغزالي : ركائز الايمان بين العقل والقلب : 317 .

(2) قصص الانبياء : 170 .

والقرآن لم يذكر شيئاً من هذه الأوصاف التي كادت تجعل إخوة يوسف خَلْقًا غريباً ، أو من طينة غير آدمية. ولكنها مبالغت الرواة ، وأخيلتهم الغنصة في توليد الصّور.

ولعلّ هذه الملابس التي أدخلوها على القصّة القرآنية فأخرجوها عن منهجها المرسوم إلى ما يشبه الأسطورة . هي التي ازداد بها الالتباس ، وبخاصة عند من لا يفرقون بين ما جاء في بعض القصص القرآني من خوارق هي من آيات قدرة الله الباهرة ، وما اخترعه خيال الإنسان من أحداث غريبة ، فتحصل لهم الشبهة لانعدام التمييز .

ويذهب الدكتور «خلف الله» إلى أن في القرآن أساطير . وليست له في ذلك من الأدلة المقنعة ما يدعم رأيه . فهو لم يعرض بصورة جليّة نماذج من القصص القرآني الذي انتفت عنه الواقعيّة التاريخية ، وثبت له خصائص الأسطورة - إن كان لهذا النوع وجود في القرآن - بل اقتصر على القول بأن القرآن نفسه لم يحرص على أن ينفي وجود الأساطير فيه ، وإنما حرص على أن ينكر أن تكون هذه الأساطير هي الدليل على أنه من عند محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس من عند الله . فهو يقول : (وإذا كان هذا ثابتاً فأننا لا نتحرّج من القول بأن في القرآن أساطير . لأننا في ذلك لا نقول قولاً يعارض نصّاً من نصوص القرآن (1) .

(1) الفن القصصي في القرآن الكريم : 177 .

واستدلّ، على ذلك بما حكاه القرآن عن مشركي مكة أنهم وصفوا قصصه (بأساطير الأولين) . ومن ذلك مثلاً قوله تعالى :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآةَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ، حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) . (1) .

(وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ، إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) (2) .

ولكن رد القرآن على دعوى هؤلاء المشركين ليس إلا تكذيباً لما ادّعوا ، ودحضا لما زعموا .

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ . فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ، وَقَالُوا : أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكَتَتَّبَعَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ : أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) (3) .

(1) الانعام : 26

(2) الانفال : 31

(3) الفرقان : 4 - 6

ولا شك أن في ثبوت نسبة القرآن إلى الله ما ينفي عنه قطعاً أن يكون في قصصه أساطير ، والله تعالى بقول :

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ) (1) .

ومن ناحية أخرى فإنه ينبغي تحديد المعنى المراد من قولهم (أساطير الأولين) . فأساطير : جمع الجمع لسطر وأسطر ، ومفرده : سطر . وهو الخط والكتابة . (2) ومنه قوله تعالى : (كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا) (3) أي مكتوباً . فيكون المعنى : أن القرآن في زعمهم مما كتبه الأولون .

ويؤيد هذا الرأي أن الذين زعموا ذلك هم المشركون من العرب .

والعربي كان يتصور الأشياء كما يتوهم عقله الساذج ، ولكنه لا يخترع الأساطير حولها مهما كانت عنده هذه الأشياء غامضة معقدة . ومن هنا جاء قصصه بعيداً عن الخيالات التي تبدو في أكثر القصص الميثولوجي والأساطير الشعبية لدى الأمم الأخرى : كأساطير اليونان والهنود والفراعنة . فلم يكن العرب يعرفون الأسطورة بهذا المعنى حتى يُسَمَّل عليه ما حكاه القرآن عنهم .

(1) آل عمران : 62 .

(2) انظر : القاموس المحيط ج : 2 / 48 .

(3) الأحزاب : 6 .

ولقد حكى القرآن أقوالاً لِمَا لَا يَبْعَلُ ، كالنملة والهدد في

قصة سليمان :

(وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ
وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ
قَالَتْ نَمْلَةٌ : يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَا كَيْتَكُمُ لَا
يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَتَبَسَّمَتْ
ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا ، وَقَالَ : رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ
صَالِحًا تَرْضَاهُ ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ
الصَّالِحِينَ . وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ : مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ
أَمْ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ ؟ لَأَعَدَّبْنَاهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحْنَاهُ
أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، فَقَالَ :
أَحْطَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَلٍ مَبْتَلًى يَتَّبِعُنِي
وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ، وَأَوْتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ
مِنْ دُونِ اللَّهِ ؛ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ
عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ
الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا
يُعْلِنُونَ) (1) .

(I) النمل : 17 - 25 •

قال الرازي تعليقا على هذه القصة : (إن الملاحدة طعنت في هذه القصة من وجوه :

أحدها أن هذه الآيات اشتملت على أن النملة والهدد تكلما بكلام لا يصدر إلا عن العقلاء ، وذلك يجسر إلى السفسة . فإننا لو جاوزنا ذلك لما أمنا في النملة التي نشاهدها في زماننا هذا أن تكون أعلم بالهندسة من إقليدس ، والنحو من سبويه . وكذلك القول في القملة ، ويجوز أن يكون فيهم الأنبياء والتكالييف والمعجزات ! ومعلوم أن من جاوز ذلك كان إلى الجنون أقرب .

وثانيها : أن سليمان عليه السلام كان بالشام . فكيف طار الهدد في تلك اللحظة اللطيفة من الشام إلى اليمن ثم رجع إليه ؟

وثالثها : كيف خفي على سليمان عليه السلام مثل تلك الملكة العظيمة مع ما يقال : إن الجن والانس كانوا في طاعة سليمان . وأنه عليه السلام كان ملك الدنيا بالكلية . وكان تحت راية بلقيس على ما يقال اثنا عشر ألف ملك ، تحت راية كل واحد منهم مائة ألف ، ومع أنه يقال : من أين حصل للهدد معرفة الله تعالى ، ووجوب السجود له ، وإنكار سجودهم للشمس ، وإضافته إلى الشيطان وتزيينه ؟

والجواب عن الأول : أن ذلك الاحتمال قائم في أول العقل . وإنما يدفع ذلك بالإجماع . وعن البواقى أن الإيمان بافتقار العالم إلى القادر المختار يزيل هذه الشكوك (1) .

والمتمثل في الاعتراضات التي أوردها الرازي ، والتي قد يَطعن بها على القرآن الملاحظة وغيرهم ، يجدها قوياً الأثر ، لا يدانيها في قوة عرضها إجابته عليها بعبارة مقتضبة لا تقى ولا تقنع . ومن يتصدى لإيراد مثل هذه الافتراضات ، ينبغي أن يكون تصديبه الإجابة عليها مماثلاً إن لم يكن أقوى ، حتى لا يبقى مجال للشكوك والشبهات والمطاعن .

ويرى الدكتور خلف الله «أنّ الرازي وغيره من المفسرين لو درسوا المسألة على أساس من الخلق الفني للشخصيات ، وأنها ما وُجدت إلاّ لتودّي أدوارها في القصة لمّا وقعوا في تلك الحيرة ، ولمّا كان دفاعٌ واتهام .

على أنّ المسألة قد تحتاج في نظره الى شيء من الإيضاح ، وهو أنّ بعض الأدوار الرئيسية في القصة الحديث تُسند الى الحيوانات ، ويكون الحيوان في مثل هذا القصة هو الشخصية الرئيسية التي تتوجّه نحوها الأنظار ، وتلتفت إليها القلوب والأسماع . ولعلنا لم ننس بعدُ شخصية (لاسي) ذلك الكلب الذي يضطلع بالبطولة في قصة «لاسي يعود الى منزله» . وهي بطولة تتجلّى فيما يرتسم على وجهه من انفعالات إنسانية ، وفيما يحركه من عواطف بشرية ، إذ يتحرك (لاسي) في القصة كما يتحرك الإنسان النابه الممتاز الذي يملك رقة عواطف البشر ودقة إحساسهم ، ويمتاز بما يمتاز به النابهون من ذكاء .

وهذه المسألة لا تقتصر على الأدب الحديث . ففي الآداب القديمة ألوان وألوان . ويكفينا من الأدب العربي كتاب (كليلة ودمنة) . ففيه المثل الصالحة للدلالة على ما يقوم به الطير والحيوان من عمل ، وما ينطقان به حكيم وأمثال .

ثم يقول : « أعتقد أن السبب في ما وقع فيه هؤلاء المفسرون من حيرة ، هو اضطرابهم بين ما يشاهدون ويلمسون ، وبين ما يذهب إليه بعضهم من حديث عن عقيدة الخوارق والمعجزات » (1)

ورأي الدكتور خلف الله في هذه القصة مردود من وجوه:

(1) أنه يراها كالأسطورة وإن لم يصرح بذلك ، لأن الأساطير القرآنية في رأيه هي القصص التي لم تقع ، وذلك لاستحالة أن يصدق العقل بوقوع مثلها ، « وإذا ما قال المستشرقون أن بعض القصص القرآني كقصة أصحاب الكهف أو قصة موسى في سورة الكهف قد بُنيت على بعض الأساطير ؛ قلنا : ليس في ذلك على القرآن من بأس . فإنما هذه السبيل سبيل الآداب العالمية ، والأديان الكبرى . ويكفينا فخرا أن كتابنا الكريم قد سنّ السنن ، وقعد القواعد ، وسبق غيره في هذه الميادين » (2) .

فاذا كان يعتبر قصة النملة والهدهد أسطورة ، ويعتبر حديثهما من باب الرمز كما يجري على لسان الأسد والثعلب وابن آوى في كتاب "كلىة ودمنة" فإنما هو رمز إلى الواقع ، لا إلى الخيال الأسطوري . وما اتخذ القاص في هذا الكتاب من الحيوانات ستارا لبث أفكاره ومبادئه إلا نتيجة لظروف سياسية أو اجتماعية أو نفسية لا تسمح للمرء أن يصرح بما يريد ، أو يعبر عما يحس . ويكفي أن يتصور القارئ أشخاصا مكان حيوانات لتبدو له القصة واقعية، بل

(1) الفن القصصي في القرآن الكريم : 266 - 267 .

(2) المصدر نفسه : 180 - 182 .

مُغْرِقَةٌ فِي الْوَاقِعِيَّةِ ، فِي حِينِ أَنْ الرَّمْزِيَّةَ فِي الْإِصْطِلَاحِ الْأَدْبِيِّ الْحَدِيثِ جَعَلُ الْكَلِمَةِ كَالصَّدى الْآتِي مِنْ بَعِيدٍ . فَهِيَ لَا تُقْصَدُ لِذَاتِهَا وَلَا تُسْتَعْمَلُ لِلْمَعْنَى الَّتِي وُضِعَتْ لَهَا ، وَلَكِنْ لِعِلَاقَتِهَا بِحَقِيقَةِ أُخْرَى تَشِيرُهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي النَّفْسِ . « وَقَدْ جَعَلَ الرَّمْزِيُّونَ لِكُلِّ ظَاهِرٍ نَفْسِيَّةً أَوْ فَرْيُولُوجِيَّةً عِلَاقَةً بِالْعَالَمِ الْمُثَالِيِّ . فَالْنَهْرُ يَرْمِزُ إِلَى الْقَدَرِ ، وَالشَّمْسُ الْغَارِبَةُ تَرْمِزُ إِلَى الْمَجْدِ الْغَارِقِ وَهَكَذَا ... » (1) فَالرَّمْزِيَّةُ فِي مَفْهُومِهَا الْحَدِيثِ هِيَ إِلَى الْمُثَالِيَّةِ وَالْغَمُوضِ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى الْوَاقِعِيَّةِ وَالْوَضُوحِ . وَهِيَ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ تَتَجَاوَزُ عَقُولَ الَّذِينَ جَاءَ الْقُرْآنَ لِهَدَايَتِهِمْ ، وَخَاطِبِهِمْ بِمَا يَفْهَمُونَ .

وَمِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى فَإِنَّهُ لَا دَاعِيَّ لِأَنْ تَسْتَعَارَ فِي بَعْضِ الْقِصَصِ الْقُرْآنِيِّ كَائِنَاتٌ غَيْرَ إِنْسَانِيَّةٍ ، لِتَحُلَّ مَحَلَّ الْإِنْسَانِ فِي دَوْرِهِ الْقِصَصِيِّ ، كَمَا نَجِدُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ كَلِيلَةِ وَدْمَنَةِ مِثْلًا .

(2) مَا وَرَدَ فِي الْقِصَّةِ مِنْ ضَبْطِ الْأَحْدَاثِ وَمَوَاقِعِهَا ، وَمِنْ دَقَّةِ فِي حِكَايَةِ الْأَقْوَالِ ، ثُمَّ تَوَجُّهُهُ سَلِيمَانَ إِلَى اللَّهِ بِالْإِعْتِزَالِ ، كَيْ يَسْلُمَهُ شُكْرَ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ بِتَعْلِيمِهِ مَنْطِقَ الطَّيْرِ ، وَفَهْمَهُ مَا تَرِيدُ النَّمْلَةُ ، وَانْتِهَاءُ الْقِصَّةِ بِنَتِيجَةِ مَعِينَةٍ ، وَهِيَ إِيمَانُ مَلِكَةِ سَبَأَ بِاللَّهِ ، وَإِسْلَامُهَا مَعَ سَلِيمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، بَعْدَ أَنْ أُعِيَتْهَا كُلُّ الْحِيلِ لِلإِبْقَاءِ عَلَى مُلْكِهَا ، وَلِرَبِّمَا رَأَتْ مِنْ عَجَائِبِ إِحْضَارِ عَرْشِهَا مَا أَدْهَشَهَا . أَفَيْسَ جُوزَ بَعْدَ هَذِهِ الْأَدْوَارِ الْعَظِيمَةِ ، وَالتَّصَرُّفَاتِ الْعَجِيبَةِ ، تَشْبِيهُهَا بِقِصَّةِ الْكَلْبِ (لَاسِي) ، أَوْ بِقِصَصِ « كَلِيلَةِ وَدْمَنَةِ » الَّتِي لَمْ يَكُنْ مِنْ بَيْنِ أَشْخَاصِهَا إِنْسَانٌ ؟

ويزيد هذا التشبيه المفتعل بُعداً عن الحقيقة ما نجد أثناء عرض القصة من تدخّل الخالق سبحانه بذكر ما صدّ هذه المليكة عن عبادته :

«وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ» (1)

قال النّووي في تفسيره لهذه الآية : «وهذا من كلام الله تعالى : أي ومنع بلقيس عن إظهار الإسلام عبادتها القديمة للشمس وأخبر الله تعالى أنها كانت من مجوسٍ يعبدون الشمس (2)» وقال النسفي : «أي قال الله تعالى : وصدّها قبل ذلك عمّا دخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل (3)»

فهل يجوز بعد ذلك أن نحمل بعض المواقف في القصة على التمثيل أو التخيل أو الرمزية ؟ إنّ القول بهذا خروج بالقصة عن هدفها ، وهو : إظهار القدرة الإلهية التي تتحدّى الإنسان مهما بلغ من علم وحكمة «تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ . فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ؟» (4)

وما الذي يحسول دون القول بأنّ أحداث هذه القصة من الخوارق أو المعجزات ؟ سيما وقد أعلن سليمان :

(1) النمل : 43 •

(2) التفسير المنير لمعالم التنزيل : ج : 2 / 128 •

(3) تفسير النسفي : ج : 3 / 214 •

(4) الجاثية : 6 •

«يَأْتِيهَا النَّاسُ عُلْمَنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ» (1) :

وليس هذا الإعلان إلا إشهارا لنعمة الله ، واعترافا بفضلها ، ودعوة الناس الى التصديق بهذه المعجزة .

فعلاقة الارتباط بين هذه القصة القرآنية وما يشبهها من القصص الموضوع ، لا تعني بالضرورة حمل الأول على الثاني على سبيل القياس ، وذلك لعوامل مختلفة تمنع من المقايسة .

والخلط بين هذه العوامل يجعل الاستدلال دائرياً لا يؤدي الى رأي مقنع وتقرير حاسم .

(3) - إنَّ الفنَّ القصصي في الأدب لا يصحّ أن تُحَكَّمَ مقاييسه بصورة آليّة مطلقة في القرآن . فهو ليس كتاب أدب وقد ابتدع فيه الخالق منطقة ، كما ابتدع فنّه . والقصص القرآني قصص ديني قبل شيء . فلا يمكن النظر إليه من زاوية أدبيّة صرف ، وقد جاء لخدمة أغراض متنوّعة ، فلا يمكن تفسيره بالاعتماد على نظرية واحدة .

(4) - ولمَ لا يتصوّر الفكر أنّ الله ألهم هذا الهدهد ليُعرف سليمان فيقول له : «أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ» فيتصاغر إليه علمه ، ويكون ذلك لطفاً به في ترك الإعجاب الذي

هو فتنة العلماء ، ولا يرى غضاضة في أن يأخذ عمّن هو دونه، ولو كان من غير نوعه ؟ فمن الأقرل المشهورة : الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أتى وجدها .

ثم إنّ في هذه الآية دليلا على أنّ الأنبياء تخفى عليهم أمور يعرفها غيرهم ، وعلى بطلان قول الرافضة : (إنّ الإمام لا يخفى عليه شيء ولا يكون في زمانه أحدٌ أعلم منه) (1).

وهكذا كشف الهدهد لسليمان سرّاً نادّ عنه أمره، واختفى خبره ولم يصل إليه علمه .

ومن هنا يصحّ اعتبار قصة سليمان والهدهد من نوع القصص التعليمي : أي إنّ القصة تُعلّم حقيقة أكبر منها : مثل قصة موسى والعبد الصالح (2) .

فقد ورد في شأنها ما رواه أبيّ بن كعب عن رسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إنّ موسى قام خطيبا في بني إسرائيل ، فسُئِل : أيّ الناس أعلم ؟ فقال : أنا . فعتب الله عليه ، إذ لم يردّ العلم إليه . فأوحى الله إليه : إن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : أي ربّ ! فكيف لي به ؟ (3) .

فدلّته على مكانه ، وجعل آية لقائه في عودة الحوت المجفّف إلى الحياة .) ... الخ ...

(1) تفسير النسفي : ج : 3 / 208 .

(2) الكهف : 55 - 81 .

(3) رواه البخاري .

لم يُرض الله جواب موسى ، لأنه يصور غفلته عن سعة فضل الله على سائر خلقه بما يعلمهم ويرشدهم ، ويصور اغتراره بمظاهر من العلم لا تحيط بأسرار الكون ولا بحقائق الأشياء . فلا ينبغي للمرء مهما أوتي من العلم والحكمة ان يغفل لحظة عن سعة علم الله الذي يتجاوز تصورات البشر ومداركهم . وهذا ما أراد الله أن يُعلمه لموسى عندما جمعه بالعبد الصالح .

ومما يلفت النظر في القصة تصميم موسى على لقاء الرجل ليتعلم منه ولو كلفه ذلك جهود السنين

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا » (1) ثم حرصه الشديد على صحبته يصور مدى تقديره للعلم وأهله : « هَلْ أَتَبِعُكَ عَلَيَّ أَنْ تُعَلِّمَنِي ... » (2) .

كما تكشف القصة عن الخلاف بين عالم الظاهر وعالم الباطن . فالنظر إلى الظواهر دون التفرس والتعمق فيما وراءها ، يُبعد عن الحقيقة التي قد يعجز العقل عن رؤية أبعادها ، إمّا لقصور طبيعي ، وإمّا لعوارض داخلية .

فسير الأحداث في القصة يبدو غريبا . بل إنه يصادم منطق العقل ، ويجعله في حيرة . لذلك لم يستطع موسى أن يتمالك « وهو يرى السفينة تُحرق . والغلام يُقتل ، والشحّ يقابل بما يُشبه التبذير ، ثم يراد منه ألاّ يتحرك ، وأن يضع أعصابه في ثلاجة ، كما يقال اليوم » (3) .

(1) الكهف : 60

(2) الكهف : 66

(3) محمد المجذوب : قصص وعبر : 194

فإنه لم يفتأ يعلم أنبياءه ألا يستغنوا عن مدده وعونه، وألا يغتروا بما آتاهم من فضله، فيحسبوا أن ذلك وقف عليهم دون سواهم من مخلوقاته وإن كانت ضعيفة كالهدهد. ولا شك أن ذلك مما يحیی فيهم الشعور بالضعف أمام الله، والحاجة الدائمة إليه. وفي نفس الاتجاه سار الدكتور خلف الله عندما تحدث عن شخص إبليس.

فقد أورد فقرات من تفسير الرازي لقصة آدم في سورة طه: «وَلَقَدْ عَاهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِّنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا.....» (1).

«ثم إن آدم مع كمال عقله وعلمه بأن الله تعالى مولاه وناصره ومربيه، وأعلمه بأن إبليس عدوه، حيث امتنع من السجود له، وعرض نفسه لللعنة بسبب عداوته، كيف قبل في الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول إبليس، مع علمه بشدة عداوته له، وأعرض عن قول الله تعالى، مع علمه بأنه هو الناصر والمربي؟؟ ومن تأمل في هذا الباب طال تعجبه، وعرف آخر الأمر أن هذه القصة كالتنبية على أنه لا دافع لقضاء الله، ولا مانع منه، وأن الدليل وإن كان في غاية الظهور ونهاية القوة

(I) طه : 115 - 127 •

فإنه لا يحصل النفع به إلا إذا قضى الله تعالى ذلك وقدره . « (1)

يقول خلف الله معلقاً : (2)

وكلام الرازي مستقيم في تصويره لموقف آدم من ربه ومن إبليس ، وفي تصويره انتصار إبليس واتباع آدم له ، وإن كنا نختلف وإياه في الفقرة الأخيرة . فنحن نريد أن نفهم المسألة على أنها قصة رمزية تصور النزاع بين من آمن ، ومن استكبر ، وكيف يحاول الثاني أن يغلب الأول على أمره ، فيعده ويؤمنيه ، حتى يُخرجه عن الطاعة والإيمان . وعند ذلك يتخلف عنه ، ويقول له ما قاله الشيطان فيما صوره القرآن الكريم :

« وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ : إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ . وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ ! (3) .

وبأدنى تأمل يظهر أن ما أراده الرازي يتخلف عمّا اعتمده خلف الله من كلامه . فليس له أن يبنى عليه : أن قصة آدم وإبليس قصة رمزية . فهو تخريب لا يقبله العقل ، لتجافيه عن الموضوعية ، ولا يعدر

(1) مفاتيح الغيب : ج : 126/112

(2) الفن القصصي في القرآن الكريم : 272 .

(3) إبراهيم : 22 .

أن يكون رأيا شخصيا يحاول مساحبه دعم ما ذهب اليه وقرره من أن القرآن يتصرف في قصصه تصرفا أدبيا .

وإذا كان في القرآن من الرموز ما قد يعلو على الفهم ، ويتمثل ذلك بوجه خاص فيما افتتحت به بعض السور من حروف ، فلا يدخل ذلك في نطاق الرمزية بمفهومها الحديث ، والتي يثبتها له في مثل قصة آدم وإبليس .

لقد اشتمل القرآن الكريم على صور تمثل الرمزية العربية في الإيجاز والتعبير غير المباشر الذي قد يخفى على غير الأذكياء ، لا الرمزية التي يتحدث عنها المجددون بأنها فيض عن مشاعر ذاتية ، شبيهة بالتهويمات والرؤى والأحلام ، ولغموض هذه المشاعر ؛ كثيرا ما تتحول الى الغغاز أو طلاس ، لا يملك مفاتيحها غير أصحابها . والناس يختلفون في فهم ما تدل عليه الرموز باختلاف مشاعرهم ونوازعهم ، كما يختلفون في فهم ما ترمز اليه لوحة من لوحات (بيكاسو) مثلا ،

«إن القرآن الكريم جمع بين الإيحاء وبين الوضوح ، وخاطب العقل والشعور معا ، وبلغ في ذلك ما لا يستطيع أن يبلغه بشرا . وأما الرمزية في الأدب الغربي على الخصوص فقد نفرت من الوضوح ، لانه لا يحقق الإيحاء ، ولأن الرمزيين طرقتوا مناطق لا يتسنى لهم أن يكونوا واضحين في التعبير عنها ، وخاطبوا الشعور فقط» (1) .

(1) درويش الجندی : الرمزية في الأدب العربي : 193 .

وإذا كان من الآيات القرآنية ما قد يشبهه على الأفهام ، فهو
إنما يجري في ذلك أيضا على سنن العرب الذين كان أدبهم في
الجاهلية يقوم على صفاء الفكرة روضحها ، والقصد الى الهدف
دون التواء أو غموض ، في أوجز لفظ ، ومن أقرب طريق .

القِصص التاريخي

ليست الأحداث التاريخية في القِصص القرآن متسلسلة الحلقات
في السرد ، لأن التاريخ فيه لم يُقصد لذاته ، ولكن لاستخلاص
العبرة منه ، والتفكير في العلاقات السببية بين مقدمات الأحداث
ونتائجها وفق سنن إلهية يصلها بالانسان ما في كيانه من نوازع
الخير والشر .

وعلى هذا الأساس أخضع القرآن في قصصه وقائع التاريخ
إلى حقائق دينية ، ووضع الدين في سجلّ الأحداث الكونية ، إلى
جانب قوانينها الطبيعية أو الاجتماعية ، إذ ليس في مجرى هذه
الأحداث ما يحصل بمحض الصدفة ، أو بتأثير الظروف المادية
وحدها . وعلى المتأمل أن يبحث ، ليتوصل الى معرفة بعض السنن
التي تسير الإرادة الالهية في الثواب والعقاب ، والبقاء والفناء .

فما الظروف المادية إلاّ وسائل تنفيذ . وما الصدفة إلاّ محض
افتراض . فهناك ظواهر تخضع لقوانين تُصدّق دائما بحيث يسكن
النبؤ بحدوثها متى تحققت شروط وجودها .

«ويكاد العلماء يجمعون على أن فكوة الاستثناء أو الصدفة

وليدة الجهل بالقوانين . فلا يلجأ المرء الى تفسير وقوع بعض الحوادث بالصدفة إلا عندما يتبين له جهله وعجزه عن تفسير ما يرى» (1) .

تفسير القرآن للتاريخ

وهكذا فإن القرآن لم يربط بين الدين وأحداث التاريخ في الأفراد والمجتمعات إلا لتقرير أن تلك الأحداث وان ارتبطت بقوانين أخرى غير دينية ، فإنها ترجع كلها إلى السبب الأول ، أو العلة الأولى للوجود ، وهو الله سبحانه . إذ أن إدخال قدرته ومشيئته في تعريفها وتديبرها لا يعني إلغاء البحث عن العلة والأسباب التي يُعنى بها علم الطبيعة ، أو علم الاجتماع . بل القرآن يدعو إلى الاستقراء في البحث ، لمعرفة الظواهر المختلفة التي تنتهي إلى نتائج معينة تفسر سنن الله في الخلق والتدبير . وليس القرآن بحاجة إلى مبادئ تخالف القوانين التجريبية .

فلا تعارض إذن بين الفكر العلمي والفكر الديني كما يزعم (أوقوست كونت) .

فهو يرى استحالة التوفيق بين الطريقة الوضعية (Méthode Positive) : وهي التي يُبحث فيها عن طبيعة الظاهرة وسببها المباشر ، وما تخضع له من قوانين اكتشفتها العلوم الرياضية والطبيعية . والطريقة الميتافيزيقية (Méthode Métaphisique) : وهي التي تُفهم بها الظاهرة على أنها من تأثير قوة مريدة بصرف النظر عن طبيعتها وسببها المباشر ، وما تخضع له من قوانين (2) .

(1) محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث : 610 .

(2) علي عبد الواحد وافي : ابن خلدون منشئ علم الاجتماع : 131 - 134 .

وإذا كان (كونت) يرى في الجمع بين الطريقتين تناقضاً فالأنّ الروح اللاهوتية عند المسيحيين هي التي كانت تسيطر على التاريخ ، وعلى مجرى الأحداث ، فتطبع جميع الآراء بطابع علم اللاهوت .

ومن ذلك مثلاً أن لويس الحادي عشر كان ينفق جلّ ماله محاولاً أن ينال بأثمن ما يقدم حماية العذراء وأبرار الفردوس ، مقتنعاً بما يرويه له أحد المؤرخين : أنهم يتدخلون في أعمال الإنسان دائماً . وهم القادرون وحدهم على ضمان الانتصارات.(1)

أمّا في القرآن فإنا نجد فيما ترويه قصصه من أحداث التاريخ ، ما يفيد بأنّ سنن الحياة مخلوقة لله «سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَسُوا مِنْ قَبْلُ ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا» (2) . «وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا» (3) . فلا منافاة حينئذ بين البحث عن هذه السنن أو القوانين ، وبين الاعتقاد بخالقها ؛ ولا بين الاعتقاد باقتران المقدمات بالتائج ، أو ترتيبها عليها ؛ والإيمان بالله باعتباره خالقاً للمقدمة السابقة والنتيجة اللاحقة ، وما بينهما من ارتباط . لذلك لم يحدث أيّ تناقض في الفكر الإسلامي بين مبدأ السببية أو القانون العلمي من جهة ، والإيمان بأنّ الله هو المصرف للامور طبقاً لما نعلمه من سنن ، أو مآلاً نعلمه ، من جهة

(1) ق • لوبون G. Le Bon : فلسفة التاريخ (ت) ع • زعيتر : 56 - 57 •

(2) الاحزاب : 38 •

(3) الفرقان : 2 •

أخرى . «وموقعُ المعجزة من التفكير السليم أنها شيء لا يخالف العقل ، ولكنه يخالف المألوف والمتواتر المحسوس» (1) :

فتعذيب بعض الأتوام السابقين بالصاعقة أو الزلزال أو الريح لا يمنع أن يكون كل نوع من أنواع هذا التعذيب الذي صبه الله عليهم ، قد حصل بتوفر أسبابه الطبيعية المألوفة ، كإرسال السحب التي تنزل منها الصواعق القاتلة بسبب احتكاك طبقاتها، ولكن ذلك لم يكن نتيجة نهائية لِمَا يتولد عن التفاعل القسريّ للمادّة التي لا تُبصر ولا تعي ، «لأن السبب أو الناموس لا يملك وحده قدرة الانطلاق والتوافق التي يقع بها أُلْفُ حادث على نسق واحد ، بل لا بدّ له من القدرة التي يتابع بها هذا التسبب مرّة مرّة ، وحادثا حادثا» (2) .

قال تعالى : «وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ» (3).

فهذه السنن جزء من المخطط الالهي . إنها مخلوقة له ، وليست بديلا عنه ، خلافا لمزاعم القائلين بأن اكتشاف القوانين العلمية أغنى عن الإيمان بالله ، ولِمَا يزعم «ماركس» وغيره من الماديين أن المادة هي أصل الوجود ، وكل ما عداها انعكاس لها (4)

فتفسير التاريخ في نظر الماركسية يقوم أساسا على هذا العالم المحسوس ، وعلى الإيمان بحتمية التاريخ ، وهي : أن كل

(1) ع . م . العقاد : الفلسفة القرآنية : 18 .

(2) المصدر السابق : 17 .

(3) الرعد : 13 .

(4) محمد المبارك : العقيدة في القرآن الكريم (محاضرة) : 4 و 29 .

خطوة تؤدي حتما الى الخطوة الموالية بطريقة حتمية . وينبني على ذلك أن المجتمع يتبع عجلة التاريخ ولكن لا يوجهها .

وقد أنكر العالم الألماني هيزنبرق (Heisenberg) المحرز على جائزة (نوبل) سنة 1932 فكرة الحتمية . فأثار الشكوك القوية من حولها ، مقررًا أن التجارب الطبيعية لا تتشابه على الاطلاق ، ولا تأتي تجربة منها وفاقا للتجربة الأخرى تمام الموافقة . ، ولو اتحدت الآلات والظروف . وسمّى مذهبه هذا باللاحتمية (1) .

أما تفسير التاريخ من خلال القمص القرآني فينبني على أن الحاضر هو نتيجة الماضي ، وأن المستقبل متوقف على الحاضر .

«إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا أَسَاءَ أَفْلا مَرَدًّا لَهُ . وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ» (2) .

ويصحب هذا المبدأ شعورٌ فردي وجماعي بملكوت الله في الأرض ، وإيمانٌ بأن الله قد سنّ نظاماً يُصاغ واقع البشر في إطاره .

وهذا النظام لا يمنع مبدأ الحرية والاختيار ، ولا يتعلّق الباب على الإيمان بما وراء الحسّ . فهو يناقض الحتمية (Déterminism) التي يقول بها الماركسيّون ؛ كما يناقض الجبريّة (Fatalism)

(I) الفلسفة القرآنية : 138 - 139 .

(2) الرعد : II .

التي يقول بها الجبريون ؛ لأنّ القائلين بالاحتمية يؤمنون بالنظم الآلية وحدها ، ولا يؤمنون بإرادة إلهية قد تتعرض لتلك النظم بالتبديل والتحويل عند الاقتضاء .

والقائلون بالجبرية يفسرون أحداث التاريخ وحركات الوجود بالإرادة الإلهية وحدها ، وينكرون إرادة الإنسان المُشَبَّه لشخصه ، المؤمن بوجوده إيمانه بوجود خالقه . فكل أعماله وتصرفاته هي لله ، وليست له ، وإن نُسبت إليه ظاهراً . وقد يكون هذا الاعتقاد سبيلاً إلى التواكل ، وذريعة إلى المعاصي .

والحقيقة أنّ الله وإنّ أوجد الإنسان حراً قادراً مريداً فإنّه يريد أن ينبّهه إلى أنه ما يزال في حضرة وجوده ، ومرتبطاً به ، وداخلاً في نطاق المُلك الالهي ، رغم حرّيته وقدرته وإرادته .

ونستطيع من جهة أخرى أن نفهم كيف يتدخل الله في الكون إن شاء ، فتقع الخوارق ، أو غير العادي من الظواهر الطبيعية ، وأن نتصوّر كيف تُوجّه نفوس بعض الناس ، أو كيف تُلهّم بعض الحيوانات ؟ لأنّ هذا لا يعدو أن يكون تعطيلاً مؤقتاً لبعض الخصائص : كعدم إحراق النار لإبراهيم لَمّا ألقى فيها ، أو زيادة لبعضها بفعل مُوجدتها : كإنقلاب عصا موسى إلى حية تسعى . ولا إشكال في هذا عند من يقول بوجود الإله المدبّر ، بماّ له من صفات الكمال ، وبماّ له من صلة دائمة بالكون (1)

(I) انظر: تاريخ الفلسفة في الاسلام (ت) أبو ريذة : 38 .

فذكر يساء عليه السلام لما دهشته المفاجأة عند تبشيره بغلام،
أخذ يذكر الموانع الطبيعية من إنجاب الولد . «قَالَ : رَبَّ أَنْتَى
يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ؟»
(1) وقد حسب هذه الظواهر قانونا مطّردا لا استثناء فيه ، فنبهه
الخالت إلى أنها ليست كذلك عنده . «ونحن إنما نرتب أحكامنا
على مشاهداتنا وتجاربنا ، وهي ليست نهائية» .

فاذا قلنا : إن هنالك قوانين ثابتة ، فهو قول يستند إلى معرفتنا
الناقصة ، وليس لنا أن نكذب بما يقع مخالفا لهذا القانون ؛ لأننا
عاجزون عن الاستقصاء الحقيقي الكامل الذي نجزم بعده بأن ما
اهتدينا إليه هو القانون النهائي الذي لا قانون سواه » (2)

جاء في كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» (3) :
«على الرغم من أن في الطبيعة أشياء لم يصل الإنسان إلى معرفة
كنهاها أو تفسيرها ، لما يكتنفها من غموض فإننا لا نريد أن تقع في
نفس الخطأ الذي وقع فيه الأقدمون عندما اتخذوا آلهة ، كي يسجدوا
تفسيرا لما غمض عليهم ، وحدّوا الكلّ إله قدرته ، وعينوا
له وظيفته ودائرة تخصصه

وعندما تقدّمت العلوم ، وأمكن فهم كثير من الظواهر الغامضة
ومعرفة القوانين التي تخضع لها ، لم يعد هؤلاء الناس في
حاجة إلى الآلهة التي أقاموها ، بل إن كثيرا من البشر أنكروا
وجود الله لنفس السبب .

(1) آل عمران : 40 .

(2) في ظلال القرآن : ج 3 / 71 .

(3) جون كلونر مونسم (ت) الدمرداش عبد المجيد سرحان : 104 .

والواجب أن نلتمس قدرة الله في النظام الذي خلقه ، والقوانين التي أخضع لها جميع الظواهر والأشياء . فقد يستطيع الإنسان أن يفسر ما كان غامضاً عليه باكتشاف القوانين التي تحكمها ، ولكن الإنسان عاجز عن أن يسن تلك القوانين . فهي من صنع الله وحده .

على ضوء هذه الحقيقة ، يكون فهم الوقائع التاريخية التي وردت في قصص القرآن ، سواء منها العادية المألوفة التي تؤلف جملة من السنن والظواهر ، أو غير العادية من الخوارق والمعجزات التي يراها بعض العلماء شاذة عن قانون السببية ، ويراهم آخرون منسجمة مع قوانين أخرى نجهلها ، وقد يكشف عنها العلم ، وقد تبقى مستورة أبداً .

عرض القرآن للتاريخ :

ثم إن القرآن وان لم يلتزم فيما انتقى من أخبار التاريخ قواعد تدوينه وعرضه : كذكر زمان الواقعة ومكانها وترتيبها الزمني ، فقد صاغها في أسلوب إنشائي مؤثر .

فقومٌ مديين عرب يرجع نسبهم إلى مدين بن إبراهيم عليه السلام . وقد عاش عمراً طويلاً . وكان تزوج امرأة من العمالقة ، فولدت له أربعة بنين ونسوا . فكثرت عددهم في حياته . ولما رأى كثرة عقبه جمعهم ، وأشار عليهم أن يبنوا مدينة ويحصنوها من العمالقة ، ففعلوا ذلك ، وجعلوا أبوابها من الحديد ، وسموها

«مدین» باسم آیههم ، وجعلوها محالّ قبائلهم ، فرغب العمالقة فی مجاورتهم . وعندئذ امتلأت المدينة بهم وبأهلها حتى ضاقت ، فخرج العمالقة من مدین ، ونزلوا بالأیسكة ، وهي غیضة تقع عن یمینها ، فبنوا هناك الدُّور لأنفسهم .

وتقع مدین بأطراف الشّام التي تلی ناحیة الحجاز حول خلیج العقبة ، وقرب بحیرة لوط . وقد جاءوا بعد قوم لوط بمدة قریبة ، فبعث الله فیهم وفي أصحاب الأیسكة شعیبا علیه السّلام . ولم یزل بأرض مدین حتى جاءه موسی بن عمران من مصر وزوجه ابنته (1) .

فمثّل هذه المعلومات التاریخیة لیست من المقاصد التعلیمیة فی قصص القرآن ، لأن قرب الحادثة أو بُعدها فی الزمان والمكان ، لا یؤثّر فیما تحمیل من عبّر ، مادامت تلك الحوادث نابعة من غرائز الإنسان ، مرتبطة بما فی کیانه من نوازع الاستقامة والانحراف ، قائمة على طریق الإنسانیة التي لا تتغیر فی جوهرها بتغیر الأجلال .

لإنها عبرة یُفید منها كل مصلح یدعو إلى الحق والفضیلة ، وإلى كلّ أمة تنشُد الحیة والبقاء .

فمجتمع مدین — زیادة على ما كانت تسوده من وثیة — كان مجتمعا جشعا یتغلّ المال على حساب قوت الناس ومعیشتهم بتقیص الكیل والمیزان عند البیع ، وبخسّ الناس أشياءهم عند الشراء . كما كانوا مفسدین فی الأرض ، یقطعون الطریق على

(I) انظر : (نهاية الأرب فی فنون الأدب : للتویری : ج : 13 / 167 -

172 وقصص الانبیاء : لابن کثیر ج : I / 274 - 275 .

الناس ، ويفتنون المؤمنين في دينهم ، ويصدونهم عن سبيل الله . كما جاء في نهيهم على لسان نبيهم شعيب .

«وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ» (1)

روي عن ابن عباس : « أتهم كانوا يجلسون في الطريق ، فيقولون لمن أتى عليهم : إن شعيبا كذاب ، فلا يفتنكم عن دينكم » (2) وهذا ما حصل من قريش في أول الدعوة الإسلامية . فقد كانوا يحاولون أن يصرفوا المؤمنين عن الإسلام بضروب الفتنة والتعذيب

فكانت تصرفاتهم المشينة تُشيع في نفوس الناس مشاعر الألم والحقد ، واليأس من الخير والعدل وحسن التقدير . وكلُّها مشاعر سيئة تُفسد جوَّ الحياة والتعامل والروابط الاجتماعية .

وكانت قصصهم خير مثال يربط بين العقيدة في الله ، والسلوك في الحياة ، لأنَّ هدف العقيدة حفز النفوس إلى العمل ، ودفعها إلى الطاعة والامثال مادامت مؤمنة بأنَّ الله لا يشرع للناس إلا ما فيه الخير . فهو لا يريد بتشريعه إعناتها ، وما دام أساس تشريعه العلم المحيط ، والحكمة العادلة (3) .

(1) الاعراف : 86 .

(2) محمد أحمد العدوي : دعوة الرسل الى الله تعالى : 159 .

(3) المصدر نفسه : 157 .

وهكذا كان لهذه القصة أبعاد . فهي تشبه في ظروفها قصة محمد صلى الله عليه وسلم في قومه .

كما توضّح ما ينبغي أن يتحلّى به الهداة ودعاة الحق من كمالات ، وما ينبغي أن يتمسّكوا به من مبادئ ، لتطابق أقوالهم أفعالهم ، ويكونوا خير قدوة ، وكيف يتلطّفون في الجدل ، ويؤثرون الاستمالة بالرفق ، ونحو ذلك مما هو أدعى لقبول النصح ، وأدلّ على حبّ النفع ، والرغبة في الخير .

فلتأملْ إشارات القرآن في القصة .

«وَاللَّيْلَ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا . قَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ، وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ . إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ . وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ . قَالُوا : يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ؟ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ . قَالَ : يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَايَ بَيْنَةَ مِن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ فِكْرًا مِنْهُ إِلَى مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ . إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ . وَمَا تَوْفِيقِي

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ . عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ . وَيَا قَوْمِ لَا
يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ
أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ . وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ
بِيعِيدٍ . وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ . إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ
وَدُودٌ . قَالُوا : يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ .
وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا . وَلَوْلَا رَهْمُطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ،
وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ . قَالَ : يَا قَوْمِ أَرَهْمَطِيَ
أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ؟ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وِرَاءَ كُفْمٍ ظِهْرِيًّا
إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَيَّ
مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ . سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ
عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ . وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ
رَقِيبٌ . وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا . وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ،
فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنَّ لَمْ يَغْنَسُوا فِيهَا .
أَلَا بَعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ» (1) .

لقد ربطت قصة مدين بين ثلاثة أشياء تضمنتها رسالة شعيب

وهي :

- (1) نهيهم عن عبادة غير الله
- (2) وعن الظلم باستغلال المال على حساب الآخرين
- (3) وعن العبث والفساد في الأرض .

(I) هود : 83 - 95 .

ولكنهم - رغم تكرّر النصح لهم من نبيّهم - تهادوا على الشرك والظلم والفساد ، فكانت عاقبتهم ذلك الزلزال الذى دمّرهم ودمّر كل ما جمعوا وشيّدوا .

واستغلال بعض النُظُم الرأسمالية المجحفة للطبقات الكادحة أو للشعوب الفقيرة استغلالاً يتحدّى كلّ القيم الإنسانية وكلّ حقوق الإنسان ، لا يختلف في أسبابه ونتائجه عن الاستغلال الذى حصل في مجتمع مدين منذ عشرات القرون ، وإن اختلفت الأساليب وتغيّرت الطرق . أمّا الأسباب فهى طغيان الأنانية وقسوة القلوب .

فأنانية الرأسمالية الطاغية تؤكّد وجودها اليوم بالاستعمار المقنّع ، واستثمار الجهود لصالحها ، واستنزاف الثروة الاقتصادية والاجتماعية ، والضغط السياسي ، كما كانت أنانية المجتمع في «مدين» تؤكّد وجودها في الرفض والتحدّي لنصح شعيب والإصرار على ظلم الناس وسوء معاملتهم في البيع والشراء . وكل ذلك يُشيع الحقد والبغضاء واليأس من الإصلاح .

وأما النتائج ؛ فهى ما يحلّ بذلك المجتمع من عوامل الانحطاط الخلقي والفوضى الاجتماعية ، فالانهيار والاضمحلال .

ذلك ان عقوبة الاستئصال الجماعي وان زالت منذ عهد بعيد ، لكن عوّضتها عقوبات دينوية من نوع آخر جريا على سنن الله التي لا تبدّل في عقاب الظالمين . فإنّ الزلزال الذي أصاب مجتمع مدين ، ففضى عليه في وقت قصير ، لا يقلّ عنه خطورة تفجّر الشعوب وثوراتها ضد الاستبداد والاستغلال والظلم

الاجتماعي . وكل ذلك يُفقد الأمن والاستقرار والسّلم ، ويضعاف الآلام والمآسي . وكمن من نظم متعسّفة جائرة أطاحت بها الثورات العنيفة ، فزلزلت أركانها وحطّمت كيانها !

وهكذا نجد لكلّ قصّة في القرآن أبعادا . وممّا يستخلصه المدارس لقصّة مدين في أبعادها ، أن يعرف كيف تتصلّ المعاملات بالاعتقاد ، وكيف يتدخل الدين في الاقتصاد ، فيربط بين الإيمان بالله ، والسلوك الشخصي في الحياة ، والمعاملات الماديّة في الأسواق ؟ وأن يعرف كيف تمرّ الأشياء بمراحل تحوّل نتيجةً لظروف معينة . ولكنّ ممّا يترتّب عليها من نتائج الخير أو الشرّ لا يتغير مهما اختلفت الأزمان ، وتنوعت الأشكال !

فلئن وقع بالامس ظلم للانسان باستعباده ، وجعله سلعة تباع وتشتري في أسواق النخاسة ، فإنّه يقع اليوم باضطهاده وحرمانه من حريّاته الفرديّة والاجتماعية وهكذا (1) .

ومن هذه الاحداث التي تتفاعل وتشابه فيها الظروف والأسباب والنتائج، نستخلص سنن الله في الأمم . وهي التي تقودنا إلى معرفة قواعد العمران ، وأصول الاجتماع على أساس أنّ نفس الأسباب تؤدى إلى نفس النتائج إذا تحققت نفس الظروف .

يقول ديكارت : «ان فكرة السببية فكرة فطرها الله في نفوسنا ، فمحال أن تكون خاطئة ، وإنّ فطريّتها دليل على صدقها» (2) .

(I) انظر : الدين والدولة ... للبهى : تمهيد : II

(2) المنطق الحديث ومناهج البحث : 81 - 82 .

وإِنَّا لَنَجِدُ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ (1) - « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ » (2) - « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » (3) مَا يُوْحِي - عَلَى إيجازه - بِأَصُولِ الدِّرَاسَةِ الْعِلْمِيَّةِ لِحَيَاةِ الْجَمَاعَاتِ الْبَشَرِيَّةِ « عَلَى أُسَاسِ طَبِيعَةِ الْحَيَاةِ بِوَصْفِهَا حَرَكَةٌ تَطَوُّرِيَّةٌ ، وَطَبِيعَةُ الزَّمَنِ بِوَصْفِهِ مَوْجُودًا فِي الْخَارِجِ ، وَالْوُجُودُ حَرَكَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ فِيهِ » (4) .

السُّنَنُ وَالظُّوَاهِرُ الْعَامَّةُ :

وَقَدْ جَاءَ الْقِصَصُ التَّارِيخِي فِي الْقُرْآنِ مَبِينًا أَنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ إِنَّمَا تَنْفُذُ حَسَبَ سُنَنِ حِكْمَةٍ فِي السَّلَامِ وَالْحَرْبِ .

فَمَنْ سَارَ عَلَى هُدْيِهَا فِي الْحَرْبِ ظَفَرَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ مَلْحَدًا . وَمَنْ تَنَكَّبَهَا هُزِمَ وَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا . وَبِهَذَا يُفَسَّرُ انْهِزَامُ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ أَحُدَ مَثَلًا . وَقَدْ هَاجَمَ الْمُشْرِكُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَشَجَّوْا رَأْسَهُ ، وَكَسَرُوا سِنَّتَهُ ، وَذَلِكَ لِمُخَالَفَتِهِمْ أَوْامِرَ قَائِدِهِمْ ، وَإِخْلَاءَ ظُهُورِ الرَّمَاةِ لِعَدُوِّهِمْ .

(1) آل عمران : 140 •

(2) الاعراف : 34 •

(3) الرعد : 38 •

(4) تجديد التفكير الديني في الإسلام : 159 - 162 •

فهذه قصّة يعرضها القرآن ويضمّنها إشارات إلى سنن الانتصار في الحرب . وملخصها : أن شيوخ بني إسرائيل أعلنوا القتال بعد أن أجلاهم العدو عن ديارهم ، وأبعدهم عن أبنائهم واستذلّهم ، ولكنّهم جبنوا ، رغم أن الله كتب عليهم القتال ، ليستردّوا أرضهم التي فقدوها ، وعزّتهم التي سلّبوها ، وليدفعوا الظلم والعدوان . فقد اجتمعوا إلى نبيّ لهم طالين أن يعيّن لهم ملكا يقاتلون تحت رايته وإمرته . فأخبرهم بأن الله اختار لهم (طالوت) (1) لِمَا أودع فيه من سعة العلم الذي يكون به عمق التفكير ، وحسن التدبير . وقد قيل : المعرفة توحى بالفكرة ، والفكرة تهىء التجربة . والتجربة تمكّن من النجاح ، ولِمَا أودع فيه أيضا من بسطة الجسم الدالّة على اكتمال الصحة والقوّة والقدرة على الدفاع ، والتي يكون بها الوقار والهيبة . وقد قرّر علماء النفس أن لطبيعة الجسم أثرا في تكوين الشخصية ، وأنّ للقوّة البدنيّة ولصحة الجسد ونشاطه أثرا نفسيّا لا يُستهان به .

قال أرسطو : «إنّ النفس صورة الجسد» .

وهذا ما توفّر في طالوت . ولكنّ بني إسرائيل أنكروا اختياره ، لانه ليس له حسب ولا مال ، وهم إنّما تعوّدوا الخضوع

(I) قيل : هو تعريب « شاول » اسمه الحقيقي عندهم (النار : ج : 2 /

لأشراف والأغنياء . فبشرهم نبيهم بأن آية اصطفائه للملك من عند الله ، أنه يردّ التابوت (1) الذي طالت حسرتهم عليه ، وبذلك أذعنوا . ولكن الملك أراد أن يستوثق من استعدادهم للبذل والتضحية ، لأنه يعرف أنّ من طبيعتهم في السلم اللّجاجة . وهي خطر في الحرب . وقد يما قيل : «من لم يتعرض للبلاء لا يثبت جوهره» ولمّا اختبرهم ليأبوا إرادتهم على الحرمان في مواجهة (جالوت) وجنوده المشركين ، لم يثبت منهم إلاّ فئة قليلة من المؤمنين الواثقين بنصر الله وتأييده ، هم الذين اقتحموا المعركة وخاضوا غمارها ، فأعطاهم الله ما سألوا ، وثبت أقدامهم ، ونصرهم على عدائهم . ولنستمع إلى القرآن يعرض القصة :

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَالِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ لَهُمْ : ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . قَالَ : هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ؟ قَالُوا : وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ : وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ؟ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ . وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ : إِنْ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا . قَالُوا : أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ، وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ، وَلَمْ يَأْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ؟ قَالَ : إِنْ اللَّهَ

(1) التابوت : هو الصندوق الذي كان موسى يضع فيه التوراة ، وقد استولى عليه العمالقة . فشق على بني اسرائيل أن يضع عليهم هذا الأثر المقدس ، ويخرج من أيديهم .

اصْطَفَاهُ عَلَيْهِمْ ، وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ . وَاللَّهُ
 يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ . وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . وَقَالَ لَهُمْ
 نَبِيُّهُمْ : إِن آيَةَ مَلِكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ
 سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ
 هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ . إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ
 إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ :
 إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ . فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي .
 وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ .
 فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ . فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ
 آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا : لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ . قَالَ
 الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّسْلِقُونَ اللَّهَ : كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ
 فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ! وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ . وَلَمَّا
 بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا : رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا
 صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .
 فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ، وَآتَاهُ
 اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ . وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ
 النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ
 عَلَى الْعَالَمِينَ « (1) .

وهنا يبدو الفرق واضحاً بين الجبن المثبِّط للجهاد ، وماله في النفس من أثر سيء ، كالهلع الذي عبّر عنه هـلأ بنى إسرائيل بقولهم : «لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجِبَالُوتَ وَجُنُودِهِ» ، والشجاعة المُتقوية للعزائم ، ومالها في النفس من أثر طيب ، كالأطمئنان الذى عبّر عنه المؤمنون بقولهم : « كَم مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

وإنما تكون الغلبة بالإيمان الذى يبعث على الصبر والثبات والاتحاد والطاعة للقائد . وكثيراً ما تكون الكثرة في القتال على باطل ، فلا تملك من القوة المعنوية ما تملك القلّة . والقوة المعنوية تفعل ما لا تفعل القوة الحسيّة .

ثم إن الدعاء المتفجّر من قلوب الفئة المؤمنة لما برزوا لجبالوت وجنوده ، يدلّ على جدّيتهم في الحرب ، وأملهم في النصر بتأييد الله وعونه ، رغم قلّة عددهم ، ولم يكن دعاؤهم مخالفة لما تجرى عليه سنن الله في الخليقة ، وقد راعوا الأدب في طلبهم ، فأعدّوا الأسباب الطبيعية للظفر في الحرب ، من عدّد يواجهون بها الأعداء في تفران واستماتة وإخلاص .

والدعاء سلاح روجي للمؤمنين عند الشدائد والخطوب . وقد جرى إبراهيم على سنة الفطرة في دعائه بأن يجعل الله من ذريته أئمة للناس : « وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ، قَالَ : إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا . قَالَ : وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ؟ قَالَ : لَأَيُّنَّالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ » (١) .

فلم يطلب الإمامة لجميع ذريته ، بل لبعضها وهو الممكن .
ذلك من شروط الدعاء وآدابه . فمن خالف سنن الله فيه كان
غير جدير بالإجابة ، بل هو سيء الأدب مع الله تعالى ، لأنه
يدعوه أن يُبطل من أجله سنته التي لا تُبدل ولا تتحول . (1)

ومن سنن الانتصار في الحرب شعور المجاهدين بأنهم على
الحق . ومن كان على حق كان الله معه . ثم استعدادهم مادياً
ونفسياً للقتال .

أمّا الاستعداد المادى فمعروف . وأمّا الاستعداد النفسى فأعلى
منازله إيمان المقاتل بأنه ينصر الحق ، ويخذل الباطل ، ويدفع
الجور بقوة العقيدة في الله . فهو يرجو من الله ما لا يرجوه فاقدها
رغم اشتراكهما جميعاً في الآلام ومشقة القتال . وبهذه العقيدة
انصرت الفئة القليلة المؤمنة من بني إسرائيل ، دون أن تهولتهم
كثرة أعدائهم وترهبهم قوتهم . ولكم شهد التاريخ بصدق هذه الحقيقة!

كما أن من السنن العامة التي يمكن استخلاصها من تلك
القصة دفع الله الناس بعضهم ببعض . وهو ما يعبر عنه بتنازع
البقاء ، ويعبر عنه علماء الاجتماع بالانتخاب الطبيعي أو بقاء الأمل .

فلولا أن الله يدفع أهل الباطل بأهل الحق ، وأهل الفساد بأهل
الصلاح ، لكان لهم السلطان وحدهم ، فتنفسد الأرض بفسادهم .
وإنما يستخلف الله في الأرض من يقدر على تنظيم أحوال أممهم

(I) تفسير المنار : ج : I / 456 .

وتدبير شؤونهم ، ويتقون العدو بما أعدوا له من قوة ، ويحفظون
 كيانهم بما وفروه من أسباب التقدم ، ووسائل الحضارة . وهذا
 معنى قوله تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ
 أَنَّ الْأَرْضَ بَرِئُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » (1)

وليس من الصالحين المعنيين هنا ، أولئك الذي يقتصرون على
 العبادة من صلاة وصيام وتلاوة ، وهم عاجزون عن القيام بشؤون الناس ،
 وتصريف أمورهم ، والأخذ بسباب الرقي المادي والأدبي لأمتهم .

يقول صاحب المنار : « يظن بعض المتطفلين على علم السنن
 في الاجتماع البشري أن تنازع البقاء الذي يقولون : إنه سنة عامة
 هو من أثره الماديين في هذا العصر ، وأنه جور وظلم ، وهم
 الواضعون له والحاكمون به ، وأنه مخالف لهدى الدين . ولو
 عرّف من يقولون هذا معنى الإنسان ، أو لو عرفوا أنفسهم لَمَا
 قَالُوا مَا قَالُوا » (2) .

ويقول في تفسيره لهذه الآية الواردة في قصة طالوت وبنو
 إسرائيل : « وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ »

« إن من الناس من يظن أن معنى إسناد الشيء إلى مشيئة الله
 تعالى ، هو أن الله تعالى يفعله بلا سبب ولا جريان على سنة من سننه
 في نظام خلقه ، وليس كذلك . فإن كل شيء بمشيئة الله تعالى ، كما

(1) الانبياء : 105 .

(2) المنار : ج : 2 / 487 .

قال جلّ ثناؤه : « وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ » (1) : أيّ بنظام وتقدير موافق للحكمة ليس فيه جزاف ولا خلل . فإيتاؤه المُلْكَ لمن يشاء بمقتضى سنّته ، إنما يكون بجعله مستعداً للمُلْك في نفسه ، وبتوفيق الأسباب لسعيه في ذلك . أي هو بالجمع بين أمرين : أحدهما في نفس المَلِك ، والآخر في حال الأمة التي يكون فيها .

وفي الأحاديث المشهورة على السُنّة العامّة : « كَمَا تَكُونُوا يَسُؤَلُ عَلَيْكُمْ » . وفي كثر العمال أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن البيهقي عن أبي اسحاق السبيعي مرسلًا : « إِذَا أَرَادَ اللَّهُ إِسْعَادَ أُمَّةٍ جَعَلَ مَلِكَهَا مَقْوِيًّا لِمَا فِيهَا مِنَ الْإِسْتِعْدَادِ لِلْخَيْرِ ، حَتَّى يَغْلِبَ خَيْرَهَا عَلَى شَرِّهَا ، فَتَكُونَ سَعِيدَةً . وَإِذَا أَرَادَ إِهْلَاكَ أُمَّةٍ جَعَلَ مَلِكَهَا مَقْوِيًّا لِدَوَاعِي الشَّرِّ فِيهَا ، حَتَّى يَغْلِبَ شَرُّهَا عَلَى خَيْرِهَا ، فَتَكُونَ شَقِيَّةً ذَلِيلَةً ، وَتَعْدُو عَلَيْهَا أُمَّةٌ قَوِيَّةٌ . فَلَا تَزَالُ تَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، وَتَقْتَاتُ عَلَيْهَا فِي أُمُورِهَا ، أَوْ تَنَاشِهُهَا الْحَرْبَ ، حَتَّى تَزِيلَ سُلْطَانَهَا مِنَ الْأَرْضِ . »

يريد الله تعالى ذلك ، فيكون بمقتضى سنّته في نظام الاجتماع . فهو يؤتِي المَلِكَ من يشاء ، وينزعه ممن يشاء بعدلٍ وحكمة ، لا بظلم ولا عبث ... هذا معنى مشيئة الله في إتيان الملك . وأرى عامّة المسلمين يفهمون من مثل عبارة الآية « وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ » أن الملك يكون للملوك بقوة إلهية ، هي وراء السنن

(I) الرعد : 8 .

والأسباب التي يجري عليها البشر في أعمالهم الكسيبة . وهذا الاعتقاد قديم في الأمم الوثنية . وبه استعبد الملوك الناس الذين يظنون أن سلطتهم شعبة من السلطة الالهية ، وأن محاولة مقاومتهم ، هي كمحاولة مقاومة الباريء سبحانه وتعالى ، والخروج عن مشيئته « (1) .

ومن سنن الله في الأمم أنه إذا استشرى فيها الفساد ، وانغمس حكامها في الترف ، ولم يأبهوا لمصالح شعبيهم ، ولم يأخذ العقلاء فيها على أيديهم ، كان مصيرها الفناء . قال تعالى :

« فَلَوْلَا كَانَتْ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ، وَكَانُوا مُجْرِمِينَ » (2)

ولا يهم هذه السنن إلا السير عليها لتؤدي نتيجتها ، سواء أعلم الناس أنهم يسيرون عليها ، أم لم يعلموا ، شأن من يتناول سُمًّا ، فتكون له نتيجته المحتومة ، ولو لم يعلم أنه سُمٌّ . فاذا تعاطى الدواء الناجع شُفي ولو لم يعلم أنه دواء . وهكذا شأن القوانين الطبيعية (3) .

والدأرسون لقصص الأنبياء في القرآن - وهي أكثر قصصه - دراسة شاملة يلاحظون حرص القرآن على ربط الظواهر

(1) النار . ج : 2 / 471 - 472 .

(2) هود : 116 .

(3) احمد أمين : فيض الخاطر ج : 9 / 29 .

المتجانسة فيها ، والانتهاء بها إلى نتائج تخضع لسنن وقوانين ، هي ما نستخلصه من عدل الله المطّرد . فإنه تعالى لا يظلم أحدا بسلب نعمة ، أو تسليط نقمة . وإنما عقابه لهم أثر طبيعي لكفرهم وفسادهم وبغيهم . فاذا انتشر الظلم في الحكام وعمّ الجهل ، وانحطت الأخلاق في الدولة والأمة ، تسربت فيها الفوضى ، ودبّ إليها الانحلال . وهذا هو الشأن في كل عصر وأمة . ظلّم الحكام يُرُدِّيها ، وعدلّهم يحييها . « وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ » . (1) « وحالة الامم في صفات أنفسها ، وهي : عقائدها ومعارفها وأخلاقها . إنها الأصل في تغيير ما بها من سيادة أو عبودية ، وثروة أو فقر ، وقوة أو ضعف » (2)

كما أنّ تقلّها في أطوار مختلفة من عزّ وتمكين ، إلى قهر وذلّ ، أثر طبيعي لتغييرها ما بأنفسها من العقائد والأخلاق والملكات وطرق العمل « ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ لَمْ يَكْ مُغَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَيَّ قَوْمٍ حَتَّى يُغَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » (3) .

وإنّ تطوّر التفكير والنفسية والشخصية في معظم مظاهره هو في الغالب نتيجة لتطوّر الحياة الاجتماعية ، لا سبب لهذا التطوّر .

(1) هود : II7 •

(2) النار : ج : 2 / 472 •

(3) الانفال : 53 •

فالمجتمع الذي يقع فريسة للظلم والبغى والاستبداد ويستسلم ، هو مجتمع ليس له كيان . وسرعان ما ينحدر في هاوية الفساد الخُلقي ، ولا يستطيع الدفاع عن نفسه والذود عن حياضه فينحط تفكيره .

«لذلك لم تنفع موعظة الرّجليّين للشّعب الإسرائيلي ، لأنّ المرض أقوى من الدّواء ، فلا بدّ أن يتغلب عليه كما هي سنة الله تعالى في تنازع القويّ والضعيف ، فأكدوا لموسى عليه السلام أنهم لن يدخلوا الارض المقدّسة ما دام فيها الجبابرة ، لأن دخولها يستلزم القتال ، وهم ليسوا له أهلاً» (1)

فقد لبثوا تحت حكم الفراعنة أحقاباً طوالاً يسومونهم سوء العذاب . يذبّحون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، واستبدّ بهم الخوف ، وألفوا الذلّ والهوان ، واستكانوا الى المصانعة والملق والنفاق .

ولمّا أوحى الله إلى موسى أن يستعدّ هو وقومه لدخول الأرض المقدّسة ، ومقاتلة من فيها من العمالقة امتنعوا جبناً وتشبّثوا بالحياة ، فعاقبهم الله بحرمانهم منها ، وبالتالي في صحراء سيناء أربعين سنة ، حتى يبسد ذلك الجيل الذي نشأ على الذلّ ، وتربّي على العبودية . والسّرّ في ذلك كما قال ابن خلدون : «فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذلّ والقهر والقوّة ، وتخلّقوا به ، حتى ينشأ في ذلك التيه جيل آخر عزيز ، لا يعرف الحُكّام والقهر ، فنشأت لهم بذلك عصبيّة أخرى اقتدروا بها على

(I) دعوة الرسل الى الله تعالى : 178 .

المطالبة والتغلب . ويظهر من ذلك أن الأربعين سنة أقل ما يأتي
لفناء جيل ، ونشأة جيل آخر» (1).

(والعلماء يقرّرون أن حضارة العلم خمس عشرة سنة . أما
حضارة الاخلاق فمدتها أربعون سنة على الأقل (2)

فلنستمع إلى القرآن الكريم يروي هذه الحادثة :

«وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ
اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلْ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ،
وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ . يَا قَوْمِ :
ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَلَا
تَرْتَدُوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ . قَالُوا :
يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ . وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا
مِنْهَا . فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَلِنَا دَاخِلُونَ . قَالَ رَجُلَانِ
مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا : ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ
الْبَابَ . فإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنتَكُمُ غَالِبُونَ . وَعَلَى اللَّهِ
فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَالُوا : يَا مُوسَى إِنَّا
لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا . فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ ،
فَقَاتِلَا . إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ . قَالَ : رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا
نَفْسِي وَأَخِي ، فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ .

(1) المقدمة : 249 .

(2) دعوة الرسل الى الله تعالى : 179 .

قَالَ : فَلْيَأْتِهَا مُحْصَرَمَةً عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ . فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » (1) .

ومن السنن العامة التي أثبتها القرآن وأخبار التاريخ ، عقاب كفار الأمم الذين كذبوا رسلهم . فإن عاجزوههم بما اقترحوا عليهم من آيات كونيّة ، ثم لم يؤمنوا بها أهلكتهم الله بعذاب من عنده ، كما أوعدهم : « وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ » (2) .

وإن عادوهم وقاتلوهم عاقبهم الله بالخزي ونصر رسله عليهم : (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ . وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) (3) .

وهكذا يدعونا القرآن بإشاراتهِ البارعة إلى الاعتبار بسُنن الله في الأمم السابقة ، والتدبّر في أحوال الذين جاروا عن صراط الله ، وعدلوا عن سبيل العدل والايمان ، وخرجوا عن طريق الحكمة والاعتدال ، وكيف جعل الله بقاء الامم ونمائها في التحلّي بالفضائل ، وجعل اضمحلالها في التخلّي عنها سنّة ثابتة لا تختلف باختلاف الامم ، ولا تبدل بتبدل الأجيال .

ومن هذه السنن ما يكشف عن طبيعة البشر الثابتة خلال الدهور ، وعن مدى تأثير الرسالات السماوية في تغييرها

(I) المائدة : 20 - 26 .

(2) الاسراء : 59 .

(3) الأنفال : 38 .

وتوجيهها ، بحيث لا نجد حوادث التاريخ في القرآن متسلسلة
بغير أسباب تربط بينها ، والى غير غاية تتجه إليها .

ومن أهم هذه الظواهر العمامة :

أ- وحدة البشر : فهم من أصل واحد ، ولكنهم اختلفوا
ففرق بينهم الخير والشر ، وجعلهم فئتين : أنصار الحق ، وأنصار
الباطل . والعناية الالهية هي دوماً مع الحق وأهله ، فتكون العاقبة
لهم في نهاية الصراع . وهذا من أهم عناصر القوة في الإيمان
وأثره في الأخلاق من صدق وثبات وإخلاص . وبذلك يتضح باطل
العقيدة المجوسية في الكفاح التاريخي بين الخير والشر القائمة
على فكرة أن الشر يسود في منتصف الزمان ، فلا ينتصر عليه الخير
إلا يوم الدينونة ، لأن المجوس يسلّمون بوجود آلهة باطلة (1)

« قَالُوا ؛ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
فَاعِلِينَ . قُلْنَا : يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ
إِبْرَاهِيمَ . وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ .
وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ . . .
« وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ
مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ . وَنَصَرْنَا مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا . إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ
أَجْمَعِينَ » (2) .

(1) تجديد التفكير الديني في الاسلام : 166 .

(2) الانبياء : 67 - 76 .

وعلى هذا الاعتبار يُوحّد القرآن ميزان القِيَم ، فترفع هذه القِيَم في شعور المؤمنين عن عصبية الجنس واللون واللغة والوطن وحتى القرابة .

قال الملائكة الذين كفروا من قوم نوح : « وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا ... » (1) .

ولمّا نادى نوح ربّه : « رَبِّ إِنِّي ابْنِي مِنْ أَهْلِي ... »
« قَالَ : يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ . إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » (2)

ب) وحدة الرسالات في العقيدة : وهذه الوحدة يؤكدها القرآن بتوحيده المقصود لحكاية العبارة التي يدعو بها كلُّ رسولٍ قومه . وهو الإيمان بالله وتقواه ، وطاعة الرسول المبلّغ عنه . فهو يتّجه بالخطاب الى أمة الرسل ، وكأنهم اجتمعوا في صعيد واحد ، دون اعتبار للفوارق الزمانية والمكانية أمام وحدة الحقيقة التي تربط بينهم جميعا .

«يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا . إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ » (3) .

ج) اتفاق علل المعرضين وآثارها : لإعراض المبطلين عن دعوات الرسل في كل العصور عللٌ نفسية واجتماعية ، ترجع

(1) هود : 27 .

(2) هود : 45 - 46 .

(3) المؤمنون : 51 - 52 .

في جملتها إلى طغيان الهوى ، أو طغيان التعصب للجنس أو للآباء على سائر ما في الانسان من طاقات ونوازع ، فيختل توازنه ، وتقسوطباعه وتتحجر ، فلم يعد متفتحا للتور ، ولا مبصرا للدلائل الهداية ، إذا فتحت له بابا أغلقه .

جاء على لسان أبي جهل ومن على شاكلته في القرآن :
«اللهمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (1) .

أما طغيان الهوى : فمبعثه آفة هي جد خطيرة في انعكاساتها النفسية والسلوكية . ولم يكد يسلم منها البشر منذ عهد نوح . ويكاد القرآن يجعل منها حدا فاصلا بين الهدى والضلال ، وبين الصلاح والفساد . لذلك لم يفتأ يحذر منها في كثير من قصصه . وما تلك الآفة سوى الترف ! وطبيعة هذا المرض الذي يكون من أعراضه اللهو وفراغ الحياة من الواجبات ، والإسراف في المتاع ، أنه يفقد القلوب تلك الحساسية التي تلقى وتتأثر وتستجيب ، ويحملها على الضيق بحياة الجد والعمل . ويحوّل النفوس الى أدوات تستهلك ولا تنتج . لأن المترف مريض بالنعمة لا يستطيع أن يقابل الحياة كما هي عليه من شدة ورخاء ، ولين وقسوة ، ومنافع وشورر، وظلّ وحسّرور . والمال وحده لا يدفع ضرراً ولا يجلب سعادة . والحياة جهاد لا يجبه المترف . فأقل صدمة تصيبه يعتبرها عنيفة . في حين أن رجل الحياة لا بد أن يلبس الحياة كما هي في جميع أوضاعها وبجميع تقلباتها(2).

(1) الأنفال : 32 .

(2) عبد المنعم خلاف : المادية الاسلامية وأبعادها : 171 .

وقد فطن المربّون في الأمم المتقدّمة إلى ضرورة مقاومة أمراض التّرف لدى أبناء الأغنياء ، وعلاجه بالرياضات العنيفة ، والرّحلات الشاقّة في مجاهل الأرض ، وأعماق البحار ، وحياة الجنديّة .

ومن هنا كان الفقراء أقرب النّاس استجابة لدعوات الرّسل ، والمترفّون أشدّهم بُعدا عنها ، بل مقاومة لها ، لاغترارهم بشروتهم وقوتهم الماديّة ، واستكبارهم على الهدى ، وخوفهم من تغيير ما ألفوه في حياتهم : « وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا : إِنَّا بِيَمَّا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا : نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نُنْحَنُ بِمُعَذِّبِينَ » (1) .

وحسبك في هذه السّنة أنّ هرقل سأل أبا سفيان عن محمد صلى الله عليه وسلم قائلا : فأشرف النّاس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قال أبو سفيان : بل ضعفاؤهم . فقال له هرقل : كذلك أتباع الرّسل (2) .

قال فولتير (Voltaire) : استمرّت الديانة المسيحية مائة عام لا يدين بها إلاّ أخسّ النّاس (3) .

(1) سبأ : 34 - 35 .

(2) ابراهيم سلامة : خلق ودين : 152 .

(3) ق : لوبون : روح الاجتماع (ت) طه حسين : 143 .

ومن لوازم الترف ظلم الأفراد لأنفسهم بالفسوق ، والعصيان ، والإسراف في الشهوات ، والتكبر ، والبطالة . وظلم الحكام يقتل فيها نوازع الكرامة والعزّة ، ويحملها على الانحراف .

« وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ . فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ . لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ . قَالُوا : يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (1) .

ولمّا كان الرّسل يُبعثون في أهل القرى - وهم أهل الحضارة عادة - فإن خطر الكبراء المترفين في القرية أو المدينة يمتدّ إلى المجتمع بتأثير العدوى والاعراض . فإذا لم يوجد من يضرب على أيديهم عاثوا فساداً ، ونشروا الفاحشة وأذاعوها ، وأرخصوا القيم العلياً التي لا تعيش المجتمعات إلاّ بها ولها . ومن ثمّ تتحلل ، وتفقّد أسباب قوتها ومنعتها ، فيكون مصيرها الفناء .

« وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا . وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ . وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (2) . »

(I) الانبياء : II - 15 .

(2) الاسراء : I6 - I7 .

وقد عقد ابن خلدون فصلاً بيّن فيه أن من عوائق المُلك حصول الترف (1) . وليس من شك في أنه مدّين بالجانب الأكبر من مقدمته إلى القرآن ، فيما استوحاه من أصول علم الاجتماع وطبائع العمران .

وأما التعصب للجنس : فقد ظهرت آثاره في كيد بني إسرائيل للاسلام ، ومكرهم بصاحب الدعوة الإسلامية صلى الله عليه وسلم . وهم إنما يجرون في ذلك على عرق استقرت سجايه بالوراثة ، وعجزت كل بيثة عن التأثير فيه ، حتى صار أهونَ عليه أن ينقرض من أن يتحوّل . ومنذ أن كان لهم مجتمع ودين عزاوا أنفسهم عن المجتمع الإنساني ، في حين أن أتباع الإسلام والمسيحية من كل جنس .

قال ابن خلدون : « وأكثر ما رسخ وسواس العصبية لبني إسرائيل . فاتّه كان لهم بيتٌ من أعظم بيوت العالم بالمنبت أولاً لما تعدد في سلفهم من الأنبياء والرسل من لدن إبراهيم إلى موسى صاحب ملتهم وشريعتهم . ثم بالعصبية ثانياً ، وما آتاهم الله بها من المُلك الذي وعدهم به . ثم انسلخوا من ذلك أجمع ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وكُتِب عليهم الجلاء في الأرض ، وانفردوا بالاستعباد والكفر آلافاً من السنين . وما زال هذا الوسواس مصاحباً لهم (2)

(1) المقدمة : 246 - 247 .

(2) المقدمة : 263 .

ومن تعصبهم السافر لجنسهم :

(1) ادّعاؤهم بأنهم «شعب الله المختار» . فقد ورد في تعاليمهم اليهودية «إنّ الله منح السلطة على مقتنيات وحياة كلّ الشعوب» (1) .
«كما يسمو الإنسان على الحيوان ، كذلك يسمو اليهودي على سائر أهل الأرض ذوي الطبيعة البهيمة» (2) .

ونجد في القرآن ما يشير الى تفضيل بني إسرائيل على شعوب أخرى كانت في زمانهم ومن ذلك قوله تعالى :

«يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنْتِي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ» (3) .

ولكنه ليس تفضيل جنس على سائر أجناس البشر ، لأن التفاضل بين الشعوب عند الله لا يكون من أجل العرق والعنصر، بل بما قدموه من خير .

وما وصف القرآن أمة محمد بأنها خير الأمم إلاّ لأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر وإيمانها بالله . فالتمييز مشروط بتلك الصفات .

«كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» (4) .

(I) سفر حيكريم • 3 فصل 25 - نقلا عن مجلة الشرق : 18 - 770 •

(2) التلمود : سفر سنهدرين •

(3) البقرة : 47 •

(4) آل عمران : II •

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴿١﴾ .

فيكون المراد من تفضيلهم على غيرهم من أهل زمانهم أن الله أرسل الرسل منهم ، وأنزل الكتب عليهم ، وجعلهم ملوكا بعد أن كانوا عبيدا ، وآتاهم ما لم يؤت غيرهم من فلق البحر ، ونزول المن والسلوى عليهم ، وتظليلهم بالغمام في التيه ، كما جاء في تذكيرهم بنعم الله عليهم :

«وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلْ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلْنَاكُمْ مَلُوكًا ، وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ .

ولم يقل القرآن : وجعل فيكم ملوكا . لان معنى المملك هنا أن يكون المرء حُرًّا مالكا لزمَام أمره . وفيه تنويه بنعمة الحرية . وقد كان غيرهم من شعوب زمانهم مستعبدين للملوك الطغاة مثل الأقباط والبابليين . لذلك حذرهم الله من الغرور في الآية الموالية لآية التفضيل ؛ لأن كل نفس بما كسبت رهينة . فقال جل شأنه :

«وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ، وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٣﴾ .

• (١) الحجرات : ١٣

• (٢) المائدة : ٢٠

• (٣) البقرة : ٤٨

ولكنهم اغتروا فعدوه تفضيلا على البشرية قاطبة ،
 وادعوا أن ثواب الآخرة خاص بهم ، لأنهم أبناء الله وأحبأؤه ،
 وأن الجنة لا يدخلها إلا اليهود والنصارى ، وكأنهم اولياء الله
 من دون الناس ، وهو لا ينظر الى غيرهم ، ولا يشمل برحمته سواهم .

فجاء في رد القرآن على مزاعمهم الباطلة :

« قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً
 مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .
 وَلَسِنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ . وَاللَّهُ عَلِيمٌ
 بِالظَّالِمِينَ » (1) .

« وَقَالُوا : لَسِنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ
 يَهُودًا أَوْ نَصَارَى . تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ . قُلْ : هَاتُوا
 بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ
 لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ
 عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (2) .

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى : نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ
 قُلْ : فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ؟ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ
 خَلَقَ » (3) .

(1) البقرة : 94 - 95 .

(2) البقرة : III - III2 .

(3) المائدة : 18 .

« قُلْ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (1)

وإذا كان الله عند المسلمين هو رب العالمين ، فإنه عند اليهود إله بني إسرائيل فقط .

ففي القرآن : « فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا : إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ » (2) .

وفي التوراة : « دخل موسى وهارون وقالوا لفرعون : كذا قال الله إله إسرائيل : أطلق قومي يحجوا إلي في البر . قال فرعون : من الله ، حتى أقبل منه ، فأطلق بني إسرائيل ؟ قالوا : إله العبرانيين الخ » (3) .

ولتعصبتهم لجنسهم خاطبهم القرآن متضامنين متكافلين :
فأسند المنكسرات التي وقعت من أسلافهم إلى اليهود المعاصرين
للدعوة الإسلامية ، رغم أنها حدثت قبل زمانهم بقرون :
« وَإِذْ قُلْتُمْ : يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى
اللَّهَ جَهْرَةً » (4) .

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، قَالُوا :
نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا ، وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ، وَهُوَ

(1) الجمعة : 6 .

(2) الشعراء : 16 - 17 .

(3) سفر الخروج : فصل 5 .

(4) البقرة : 55 .

الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ . قُلْ : فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ
اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1) .

ومثل هذا التعبير القرآني يدلّ على أنهم متفقون مع مَنْ
سبقهم في علّة الجريمة ومبعثها من النفس ، واعتبار أنّ الأُمَّة في
تكافلها واقتداء لآحِقِهَا بسابقها كالشخص الواحد .

إنّهم متفقون مع أسلافهم في الأخلاق والسجايا ينتسبون
إليهم انتساب حسبٍ وشرف ، فكانوا على شاكلتهم ، وربما
كان المتأخرون منهم أضرى من المتقدمين لتمكّن داعية الشرّ
من نفوسهم بالوراثة والقدوة جميعا (2) .

وقد حاول غير واحد من اليهود قتل محمّد صلى الله عليه وسلم ،
كما كان آباؤهم يفعلون بأنبياء الله . ومن بينهم اليهودية
التي وضعت له السمّ في الشاة .

وفي البخاري : « روى عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها
قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في مرضه الذي مات
فيه : يا عائشة : ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلتُ بخيبر .
فهذا أوآنَ وجدتُ انقطاع أبهرى من ذلك السمّ . »

وأما التعصب للتقاليد الموروثة : فقد ظهرت آثاره في شدّة
تمسك أقوام الانبياء - وخاصة العرب - بعقيدة الآباء ، كما

(1) البقرة : 90 .

(2) المنار . ج : 4 / 264 .

حكى عنهم القرآن ، وذلك تحت وطأة القوى الموروثة
اللاشعورية التي توجه المشاعر ، ثم توجه السلوك .

قال قوم إبراهيم : « بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » (1)

وقال قوم ثمود : « أَتَسْهَأْنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا » (2)

وقال قوم مدين : « أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا » (3)

وقال قوم موسى : « أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتِنَا عَمَّامًا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا » (4)

وقال قوم محمد : (... بَلْ نَتَّبِعُ مَا الْفَيْسِنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) (5)

للم يكن داء الإعراض عن رسالات السماء ، ودعوات الأنبياء ،
سوى عِلل مزمنة في نفوس البشر ، ترجع الى الترف أو التعصب أو هما معاً .

لذلك جاءت اعتراضاتهم واعتذاراتهم متماثلة . فكان مثلها
في ذلك كمثل مرض معين تنشأ عنه أعراض واحدة أياً كان المُصاب ،
دون أن تختلف هذه الأعراض إلا من حيث القوة والضعف ، وبحسب
ما في الجسم من حصانة .

(1) الشعراء : 74

(2) هود : 62

(3) هود : 87

(4) يونس : 78

(5) البقرة : 170

ومن أعراض هذه العلة الاعتراضات والمواقف التي سجلها عليهم القرآن وتعقبها بالردّ وهي :

(1) استعجال أنبيائهم بما أنذروهم به من عذاب ، مبالغة في تكذيبهم واستخفافا بوعيد الله :

فقال لنوح قوميه : « يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ، فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » (1) ، وقال لشعب قوميه : « وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشِيرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » (2) .

وقد بين الله لنيته محمد صلي الله عليه وسلم : أن قومه يستعجلونه بالعذاب ، وكانهم لم يعلموا عاقبة هذا التحدي على الأمم الخالية ، وكان يجب أن يتعظوا بمن سلف . « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ » (3) .

(2) استبعادهم أن يكون الرسول بشرا : « وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا : أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ؟ قُلْ : لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَّسْئُلُونَ مُطَمَّئِنِينَ لَنزَّلْنَا عَلَيْهِنَّ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا » (4) .

(1) هود : 32 - 33 •

(2) الشعراء : 186 - 187 •

(3) الرعد : 6 •

(4) الاسراء : 94 - 95 •

ومنشأ هذه الشبهة التي صدّتهم عن الإيمان برسُل الله ،
 جهلهم لطبيعة الملائكة التي لو قُدّر لها أن تعيش في الأرض
 لصاغها الله في صورة آدميّة ، لأنها هي الصورة التي تتفق
 وطبيعة الأرض ، كما قال جلّ شأنه : «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَاً
 لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ» (1) .

ثم جهلهم لحقيقة إنسانيتهم وكرامتها على الله «وَلَقَدْ
 كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاَهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ،
 وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ
 خَلَقْنَا تَفْضِيلًا» (2) .

ولو أن الله أرسل ملائكة في الوسط البشري ، لَمَّا أمهلوا أهل
 الضلال والفساد ، ولناجزوهم العذاب . فالله رحمة
 منه بعباده ، لا يُنزلُ ملائكة غيرَ الذين سخّرهم للأُمُور
 المعتادة مثل الحفظة ، ومملك الموت ، والمملك الذي يأتي
 بِالوَحْيِ . ولا تنزل الملائكة بين القوم المغضوب عليهم إلاّ لإنزال
 العذاب بهم ، كما نزلت الملائكة في قوم لوط . (3) .

قال بعضهم : ما أعجبَ شأن أهل الضلال . لم يرضوا للنبوّة
 ببشر ، ورضوا للألوهية بحجر !

(1) الانعام : 9 .

(2) الاسراء : 70 .

(3) التحرير والتنوير ج : 7 - ق : I - I44 .

(3) مُطالبتهم بالآيات الماديّة رغم إصرارهم على عدم الإيمان لو أرسل الله بها إليهم «وسنة الله في الأمم أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها، ثم لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الاستئصال» (1).
«وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا» (2).
«وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ . فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ . فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ : إِنِّي لَأظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا» (3) .

وأهل الباطل تشابه عقولهم في الأفن وسوء النظر، فيتحدون في القول:
«وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ : لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ . كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ . تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ . قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» (4).
(4) تهديدهم بإخراجهم من القرية . فالله يحكي عن الكفار من أقوام الرسل جميعا :

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ : لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا» (5) .

(1) النسفي : ج 2 / 319 .

(2) الاسراء : 59 .

(3) الاسراء : 101 .

(4) البقرة : 118 .

(5) ابراهيم : 13 .

فَقَدَّ قَالَ قَوْمَ لُوطَ :

« لَتَيْنِ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ » (1)

وقال قوم شعيب :

« لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا » (2).

وكذلك كان موقف المشركين في مكة مع الرسول صلى الله عليه وسلم :

« وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ، وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا . سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا » (3).

وكان ورقة ابن نوفل يعرف هذه السنة من تاريخ جهاد الأنبياء . فقال في قصّة بدء الوحي بعد أن أخبره الرسول بما رأى : « هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى صلى الله عليه وسلم . يَا لَيْتَنِي فِيهَا جُدَعًا . يَا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . أَوْ مُخْرَجِي هُمْ ؟ قَالَ : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي . وَإِنْ يَدْرِكْنِي يَوْمًا أَنْصُرَكَ أَنْصُرَا مُؤَزَّرًا » (4) .

(1) الشعراء : 167 .

(2) الأعراف : 88 .

(3) الاسراء : 76 - 77 .

(4) صحيح البخارى : ج : 1 / 4

وكيف لا يلقى رسل الله مثل هذا التهديد من أقوامهم ، وهم يقتلعون من قلوبهم عقائد ، ليثبتوا بدلتها عقائد أخرى ، وينزعون منهم حواس مريضة ، ليضعوا مكانها حواس أدق ملاحظة ، وأكثر انفعالا ، وأجدر أن تُعرف رسالة الإنسان في الأرض ؟؟

الصدق في أخبار القرآن :

ولا بدّ من الإشارة هنا الى أنّ عناية القرآن بالتاريخ هي أكثر من مجرد عرضه لأخبار مضت. فقد وضع لنا قاعدة من أهم قواعد النقد التاريخي في رواية ما يكون مادة التاريخ : وهي التي تُقرّر أنّ ثقة الراوي عامل هام في الحكم على الأخبار المنقولة وعلى المرويّات . قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحِحُوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » (1) .

فكان تطبيق هذا الأصل على رواة الأحاديث النبوية بالخصوص عنصرا هاما في تطوّر النقد التاريخي . وكان من عمل المسلمين به أن ألّفوا الكتب في تراجم الرواة لتُعرف سيرتهم ، ويتبين الصادق والكاذب منهم ، وتُعرف الرواية المتصلة والمنقطعة ، وبحثوا في الكتب المؤلفة ، متى يوثق بنسبتها الى مؤلفيها ؟ وبينوا حقيقة التواتر الذي يفيد اليقين ،

(1) الحجرات : 6 .

والفرق بينه وبين ما اشتهر من روايات الآحاد . ولم يقتصر ذلك على علوم الدين : أُصُولُهَا وفروعها ، بل امتدّ الى كتب التاريخ والأدب ؛ فلم يضع شيء من العلوم والفنون ، ولا من الحوادث والوقائع التاريخية التي جرت في العالم بعد الإسلام . وما اختلف الرواة والمصنّفون في جزئيات من تاريخ الإسلام وغيره تَسَهَّلُ تصفيتهُ وأخذُ المصنّفِ منه لأجل الاعتبار به، ومعرفة سنن الاجتماع عنه ، جرياً على هدي القرآن فيه . (1) .

وإنّا لنجد في مثل هذه الآيات :

« قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ . فَمَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ » . (2) .

« أُولَئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (3) .

ما يحفز على البحث والتنقيب عن آثار المدنيات القديمة ، ودراستها،

(1) تفسير المنار : ج 2 . 465 - 466 .

(2) آل عمران : 137 .

(3) الروم : 9 .

والفائدة الكبرى التي يعلّقها القرآن على السير في الأرض ،
هي الاعتبار بمصارع الظالمين ، وما كانت لهم من حضارة
وقوة .

ومن المستشرقين من لا يعتبر القرآن فيما قصّه من أخبار
مصدر تاريخيًا يمكن الاعتماد عليه ، وذلك لخلوّ هذه الأخبار
من التفاصيل ، ومما يحدّدها في الزمان والمكان ، وعدم اتّفاق
بعضها مع ما جاء في كتب العهد القديم والجديد ، وكتب التاريخ
القديمة . ولكن هذا لا ينافي صدقه ولا صحّة أخباره . فإنّ
القرآن ليس تاريخًا ولا قصصًا ، وإنّما هو هداية وموعظة .
فلا يذكر قصة لبيان تاريخ حدوثها ، ولا لأجل التفكّه بها ، أو
الإحاطة بتفاصيلها ، وإنّما لأجل العبرة : «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ
عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ» (1) ، وبيان سنن الاجتماع : «سُنَّةَ اللَّهِ
الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ» (2) .

ومن المؤرّخين النابيين من لا يذكر من وقائع التاريخ إلاّ ما
يسْتَنْبِط منه الأمور الكليّة ، والأصول العامّة ، ولا يحفل بالجزئيات
لمّا يقع فيها من الخلاف الذي يذهب بالثقة ، ولمّا في قراءتها
من الإسراف في الزمن . فلا يكون عمله عرضة للتكذيب والظن ،
كما هو الشأن في أكثر المصنّفات التي تستقصي الوقائع
الجزئيّة .

(1) يوسف : III •

(2) غافر : 85 •

وإذا ورد في كتب التاريخ القديمة ما يخالف بعض هذا القصص ، فعلىنا أن نجزم بأن ما أوحاه الله الى نبيته ، ونُقيل إلينا بالتواتر الصحيح ، هو الحق . وما خالفه هو الباطل ، وناقيلُهُ مخطيء أو كاذب ، فلا نعدّه شبهة على القرآن ؛ لأن حال التاريخ القديم لم يكن من الدقة والتحري والضبط بحيث يكون حجة تُعتمد في هذا المجال ، إذ لا رواية يوثق بها للمعرفة التامة بسيرة رجالِ سَنَدِها ، ولا تواتر يُعتدّ به (1) ؛ فليس لنا اذن أن نأخذ مأخذ اليقين بروايات الأقدمين عن ماضيهم البعيد ، وليس لنا كذلك ان نقضها بغير دليل . إذ ليس من المحقق أن يوغّل التاريخ في القِدَم إلى تلك الألوف من السنين (2) .

وقد أثبتت بعض الكشوف الأثرية صحّة ما جاء في القرآن من أخبار العرب البائدة وغيرها : مثل سَيْلِ العَرَمِ الذي أدّى إلى انهيار سدّ مأرب باليمن ، والذي يرجع إليه الفضل في تحويل مدينة مأرب الى جنة يانعة . وما تزال آثار الجنتين الواقعتين عن يمينه وشماله حتى اليوم تؤكد ما جاء في القرآن (3)

« لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِينِهِمْ آيَةٌ . جَنَّاتٍ عَنْ

يَمِينٍ وَشِمَالٍ ... » (4)

(1) تفسير المنار : ج : 2 / 464 - 465 .

(2) العقاد : الانسان في القرآن : 73 .

(3) سيده إسمايل كاشف : مصادر التاريخ : 16 .

(4) سبا : 15 .

وتمكن بعض علماء الآثار حديثاً من اكتشاف عدد من النقوش
الشمودية في أرض تبوك ، ومدائن صالح وقيماء ، وفي الطائف .

وقديماً زار الاصطخري بيوت ثمود المنحوتة في الجبال ،
وحولها البئر التي كانت تشرب منها الناقة بالحجر : وهي
تقع بين الحجاز والشام في وادي القرى الخصيب (1) ولم تنزل
هذه المعالم باقية الى اليوم يؤمها كثير من السياح .

وفي التوراة ذِكرٌ لمدائن لوط ، وللنكبة التي حلت بها (2)
وذكرها استرابون حوالي سنة 90م فقال (3) : «انه يجب أن نصدق
ما يرويه أهل البلاد ، أنه كانت هناك ثلاث عشرة مدينة أهلة
بالسكان ، بقي جزء كبير من سور عاصمتها «سدوم» . وقد تهدمت
بزلازل ونيران وقطران حارّ ومياه كبريتية من البحيرة ،
والتهمت النيران الأحجار وقلبت مدناً كثيرة ، فهلك معظم سكّانها

كما ذكر بطليموس نكبة هذه المدائن . (4) .

ومما اكتشفوا حديثاً جُثة فرعون في أحد النواويس ،
وكتب في شأنه الأثري الشهير أحمد نجيب ، مؤكداً أنها جثة
فرعون موسى ، وأيده في ذلك عبد الوهاب النجار في كتابه
«قصص الأنبياء» ، وإن قوله تعالى : «فاليوم نُنَجِّيكَ بِدَنِكَ

(1) مسالك الممالك : 19 - 20 .

(2) سفر التكوين : 13 - 14 - 19 .

(3) في كتابه السادس عشر : 704 .

(4) احمد محمد الحوفي : مع القرآن الكريم . ج : 1 / 268 .

لِشَاكُونٍ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً» (1) تَحَقَّقَ بِالْعُثُورِ عَلَى جِثَّتِهِ . وَمِنْ
 غَلَامَاتِهِ أَنَّ أَرْنَبَةَ أَنْفِهِ مَأْكُولَةٌ غَيْرَ مَوْجُودَةٍ ، فَعَلَّلَ ذَلِكَ بِأَنَّ
 السَّمَكَ أَكَلَ ذَلِكَ الْمَكَانَ مِنْ جِسْمِهِ ، وَأَنَّهُ أَلْقَى إِلَى السَّاحِلِ ، فَأَخَذَهُ
 الْمَصْرِيُّونَ وَحَنَطُوهُ وَدَفَنُوهُ » (2)

وجاء في الحوار الذي دار بين موسى وفرعون :

« قَالَ فِرْعَوْنُ : وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ : رَبُّ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا » (3). ففي هذه الآية إشارات
 إلى ما كان شائعاً في مصر من معتقدات أثبتها التاريخ .

فقد كان للسماء آلهة اسمها (نوت) (Nout) . وكان
 للأرض إله اسمه (غب) (Gheb) . وكان للفضاء الذي بين السماء والأرض
 إله اسمه : (شو) (Chou) .

وفي تهديد فرعون لموسى حين «قال : لَتَسِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا
 غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنْ الْمَسْجُوتِينَ» (5) حقيقةً تاريخية .
 فقد كان الملك عند قدماء المصريين إلهًا . وكان

(1) يونس : 92 •

(2) دعوة الرسل إلى الله تعالى : 181 •

(3) الشعراء : 23 - 24 •

(4) ول • ديورانت : قصة الحضارة • ج : 268/2 •

(5) الشعراء : 29 •

بن «أمون - رع» لا يحكم مصر بحقه الالهي فحسب ، بل يحكمها أيضا بحق مولده الالهي . فهو إله رَضِي أن تكون الأرض موطناً له إلى حين (1)

ويُثبت المؤرخون أنه كانت لهم آلهات بجانب تأليههم لمسلوكهم . والقرآن يشير إلى ذلك بقوله فيما حكاه عن ملائكة فرعون : «وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ : أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ ؟ » (2)

وفيما عرض القرآن من قصص إبراهيم عليه السلام كثير من الوقائع التي أبدتها الدراسات التاريخية كالمعبودات التي كانت في عصره . وقد حكى عنها القرآن (3) . وهي القمر . وكان يُطلق عليه اسم «نانار» والشمس ويطلق عليها شماس»

كما وجدت عبادة الكواكب وأشهرها كوكب الزهرة التي يطلق عليها «عشتار» ، وكوكب المريخ «مردوخ» (4) .

ومن الوقائع التاريخية التي أشار إليها القرآن ، أن إبراهيم نطلع إلى السماء «فَنظَرَ نَظْرَةً فِي السَّمَاءِ فَجَنَّاتٍ مَوْجِيَّاتٍ فِيهَا نَجْمٌ مِثْلُ سَقِيمٍ» (5) والمعنى انه رأى في طالع النجوم ما يفيد مرضه . وهذا دليل على أن قومه كانوا يشتغلون بالتنجيم كما جاء في « قصة

(1) المصدر السابق : 161 •

(2) الاعراف : 127 •

(3) في سورة الأنعام : 75 - 79 •

(4) قصة الحضارة : ج 2 / 214 •

(5) الصافات : 88 - 89 •

الحضارة» : «لَمْ يَدْرُسِ الْبَابِلِيُّونَ النُّجُومَ لِيَرَسُمُوا الْخَرَائِطَ الَّتِي تُعَيِّنُ عَلَى مَسِيرِ الْقَوَافِلِ وَالسَّفَنِ ، بَلْ دَرَسُوهَا أَكْثَرَ مَا دَرَسُوهَا لِتُعَيِّنَهُمْ عَلَى التَّنَبُّؤِ بِمُسْتَقْبَلِ النَّاسِ ، وَبِذَلِكَ كَانُوا مَنْجِّمِينَ أَكْثَرَ مِنْهُمْ فَلَكَيِّتِي.....» (1) .

ويذكر القرآن عن إبراهيم أنه حطّم الأصنام إلاّ كبيرها «فَجَعَلَهُمْ جُذًا إِذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ» (2) . فيُفهم من ذلك أنّه كان لقومه آلهة كثيرة وإله كبير ، هو الذي أبقى عليه إبراهيم ، فلم يحطّمه . ويذكر (ول ديورانت) في كتابه : « قصة الحضارة » : بأن (مزدك) كان يعتبر كبير الآلهة عند أهل بابل ، وأنّه كان بجانب هذا الإله كثير من الآلهة . ومثل هذه الحقائق التاريخية خير نصير علمي للقرآن يؤيّد بأنه وحي من الله . وإلاّ فمن أين لمحمد صلى الله عليه وسلم هذه المعلومات التي ما كانت تُعرف في عصره ولا في بيئته ؟ إنها لم تُعرف إلاّ منذ أمد قريب بعد قيام العلماء بالحضريّات في أرض مصر وبابل ، والوقوف على أسرار الآثار التي فكّسوا رموزها ، وفهموا ما تدلّ عليه (3) .

قال تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم ، ومتحدّياً مكذّبيه بأنه لم يكن شاهداً عياناً لهذه الوقائع التي حدثت لموسى عليه السلام ، حتى يُخبر عنها بهذه الدقّة . « وَمَا كُنْتُمْ بِجَنَابِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْتُمْ إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتُمْ

(1) ج 2 / 211 - 212 .

(2) الأنبياء : 58 .

(3) انظر : اليهود في القرآن : لطبارة : II2 و 274 .

مِنَ الشَّاهِدِينَ . وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ . وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتَلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ، وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (1)

وقال تعالى عقب قصة مريم :

« وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَفْئَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ » (2) .

وأما عدم اتفاق بعض القصص القرآني مع ما جاء في كتب العهدين ، فإن القرآن - بوصفه كتابا سماويا سلم من التبديل والتحرير بشهادة الباحثين المخلصين للحقيقة من غير المسلمين - جاء مصدقا لما في التوراة والانجيل المنزليين من عند الله ، وكاشفا عن الحق فيهما بعد أن ألبسه التحريف بالباطل : «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَيَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» (3) .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية : أن اليهود سألو النبي صلى الله عليه وسلم زمانا عن أمور من التوراة ، لا يسألونه عن شيء من ذلك إلا أنزل الله عليهم ما سألو عنه فيخصمهم (4) .

(1) القصص : 44 - 46 .

(2) آل عمران : 44 .

(3) النمل : 76 .

(4) السيوطي : كتاب النقول في أسباب النزول : 17 .

فمن ذلك مثلاً قوله تعالى :

«...يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا
عَمَّا لِلَّهِ إِلَّا الْحَقَّ . إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ
اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُنْفَاها إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ . فَآمَنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا : ثَلَاثَةٌ . انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ . إِنَّمَا
اللَّهُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ سُبْحَانَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ . لَهُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا » . (1)

فوحدة المصدر لهذه الكتب السماوية هي التي تجمع بينها
على طريقٍ سواءٍ في مبادئ الدين وأصوله العامة ، وتجعل
اختلافها في ذلك محالاً . وعلى هذا الاعتبار فإن تنزيه الله عن كل
نقيصة ، والأنبياء عن كل معصية أصل لا يتغير في جميع الأديان السماوية .

وكلمًا وجدنا في نصوص الكتاب المقدس ما يعارض مبدأ
تنزيه الله ، أو عصمة الانبياء ، أيقنًا بتحريفه ، كوصف الله في
التوراة بالجهل ونسبة الندم إليه وتشبيهه بالمخلوق في صفات النقص
المختصة به ، والتي يجب تنزيهه عنها كقول من قال منهم :
إنه فقير ، أو إنه بخيل ، أو إنه تعب لما خلق السماوات والأرض (2) .

(1) النساء : 171 .

(2) انظر : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح : لتقي الدين أحمد بن

تيمية . ج : 49/2 .

جاء في قصة الطوفان « فندم على عمله الإنسان على الأرض ، وتأسف بقلبه داخلا وقال : أمحو البشر الذي خلقتُهُ لأنني نادم الخ ...» (1) . كما جاء في قصة طالوت «شاول» : «ندمت أني صيرت شاول ملكا ، إنه رجع من ورائي ولم يعمل بما أمرته» (2) فقد جعلوا الخالق سبحانه في موقف من يراجع نفسه فيما قضاه فيُبطله ، ويندم عليه ، مثلما يفعل الملوك في سياسة الرعايا المحكومين .

وجاء في قصص بعض الأنبياء وصف رسل الله بما عصمهم الله منه كالكذب والخداع والزنا وارتكاب كبائر المعاصي .

فزعموا أن لوطا زنى ببنتيه وحملتا منه . فولدت الكبرى ابنا سمته (مواب) وهو أبو الموابيين إلى اليوم . وولدت الصغرى ابنا أيضا ، وسمته (عمون) وهو أبو العمونيين إلى اليوم (3) .

وزعموا : أن حاما بن نوح رأى أباه وهو سكران مكشوف العورة ، فسخر منه . فلما أفاق نوح من سكره ، وعلم ما كان من ابنه حام ، دعا على ذريته ، وهم الكنعانيون بأن يكونوا عبيدا لعبيد أبناء ولديه الآخرين ، سام ويافاث (4) .

(1) سفر صموئيل : 15 / 6 .

(2) سفر التكوين : 19 .

(3) سفر التكوين : 9 .

(4) سفر التكوين : 17 .

وافترّوا على إبراهيم أنّه باع زوجته «ساراي» في مصر
لفرعون ، لقاء ما كان يرجوه من الاتّجار بجمالها ، وقال لها :
«قولني : إنك أختي ، فأُخِذت إلى بيت فرعون فانجّر إلى (إبرام)
خير بسببها ، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء ...» (1)

كما افترّوا على سليمان : أنّه عبد الاصنام لإرضاء لنسائه
اللاتي أحبهن وخاصة بنت فرعون « وتبع سليمان (عشروت)
آلهة الصيدين و(كاموش) إله الموابيين ، و(ملكوم) إله بني
عمون ، فغضب الربّ على سليمان ، اذ مال قلبه عن عبادة إله إسرائيل الذي
ظهر له مرتين ، ولم يكن قلبه سليماً لله ربه ، مثلما كان
قلب داود أبيه ...» (2) .

وما كان لنبيء ان يمكن لميوله ويمهّد لهواه بما يخالف
أمر ربّه .

ونسبوا إلى غيرهم من الأنبياء كيعقوب وابنه يهوذا وهارون
وداود ما تبرّأ منه الكتب السماوية ، وما يجعل التلفيق واضحاً ،
والكذب مفضوحاً . وحاشا لموسى عليه السلام أن يتلقّى مثل هذا
عن ربّه ، أو يهتك أعراض الأنبياء ، وهم المبرّءون من كلّ نقيصة في
أقوالهم وأفعالهم .

وفي قصص القرآن نجد من فضل الله وعدله وحكمة سننه
في خلقه ، ومن كمالات أنبيائه وأخلاقهم الكريمة ، وسموهم

(I) سفر التكوين : 12 .

(2) السفر الاول من أسفار الملوك : II .

عن الدنيا ، وترفعهم عن الأهواء ما جعل سلوكهم قدوة
صالحة للإنسانية . وكل ذلك يسمو بالنفس ويزيدها هدى
وإيماناً . قال تعالى :

«وَلَيْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيَّ قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ
دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ . إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ
إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا . وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ .
وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى
وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى
وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيُوسُفَ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَيَّ الْعَالَمِينَ . وَمِنْ آبَائِهِمْ
وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ . ذَلِكَ هَدَى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ .
وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . أُولَئِكَ
الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ فَمِنْهُمْ
يَكْفُرُ بِهَا هَوًى لَاءٍ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا
بِكَافِرِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ (1) .

فهذه أمثلة تثبت ما حرقه اليهود في التوراة من قصص بعض
الأنبياء التي عرضها القرآن .

كما أبطل القرآن ما حرقه النصارى في الإنجيل كقولهم

بالتثليث ، والأفانيم ، وحلول روح الله في جسد المسيح ، والاتحاد بين اللاهوت والناسوت ، وأنّ المسيح هو الله ، أو ابن الله .

«لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ . وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ . إِنَّهُ مِنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ . وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ . وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ ؛ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ؟ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ . انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ، ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ قُلْ : أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا . وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ؟ (1) .

ومن أبدع المشاهد التصويرية التي رسمها القرآن في أسلوب قصصي ينبض بالحياة ، مشهد خطاب الله لعيسى بن مريم يوم القيامة في ملائمة من ألتهوه ، وخاضوا في الأوهام حول ذاته ، ونشأته ، ومنتهاه ؛ لمواجهتهم بالحقيقة التي زاغوا عنها : «وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي

وَأَمِّيَ الْهَيْمَنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ قَالَ: سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ . إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ . تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ : أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ . فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . إِنْ تَعَدَّيْتَهُمْ فَلِأَنَّهُمْ عِبَادُكَ ؛ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَمَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (1).

والإنجيل الذي هو كلام الله المنزَّل على عيسى واحدٌ ، لا أربعة . وليس واحداً منها لاختلافها الى حد التضارب وبخاصة في نسب المسيح، وفي قصة صلبه ، وقيامته من قبره حسب زعمهم .

«وقد ابتدعوا شرعا لم يأت به المسيح ولا غيره ، مثل زعمهم أن جميع بني آدم من الأنبياء والرسل وغيرهم كانوا في الجحيم في حبس الشيطان ، لأجل أن أباهم آدم أكل من الشجرة ، وأنهم لم يتخلصوا من ذلك إلا بعد صلب المسيح . فإن هذا الكلام لو نقله ناقل عن بعض الأنبياء لقطعنا بكذبه عليهم . فكيف وهذا الكلام ليس منقولاً عن واحد منهم ؟ » (2) .

ومن الغريب أن الأناجيل الأربعة التي يدين بها أتباع المسيح على اختلاف طوائفهم ، لم يتحدث واحد منها على لسان المسيح

(1) المائة : 116 - 118 .

(2) الجواب الصحيح 000 ج : I / 377 .

ولا على لسان تلاميذه عن الأقانيم الثلاثة في التثليث الذي حدّته المسيحية : بالآب ، والابن ، وروح القدس . ولم يرد في نصوصها ما يشير الى الجمع بين هذه الكلمات في ذات واحدة ، وأن المسيح هو أحد هذه الاقانيم ، وهو أفنوم الابن :

فالمسيح يقول :

« لا تظنوا أنني جئت لأنقض ناموس الأنبياء ، ما جئت لأنقض ، بل لأكمل الحق أقول لكم : إنه إلى أن تنزل السماوات والأرض ، لا ينزل من الناموس بناء ولا نقطة ولا حرف حتى يتمّ الكلّ » (1) . ولكنّ بولس (2) في رسائله تحدّث الاقوال الصّريحة الواردة في الأناجيل على لسان المسيح ، وفتح للمسيحية الباب إلى القول بالتثليث ، والقول بفداء العالم ، والقول بألوهية المسيح . وفي هذا يقول « ول ديورانت » : «... وكان في وسع (بولس) فوق هذا أن يجيب على الأسئلة المركّبة ، أسئلة الذين قالوا : إنه اذا كان المسيح إلها حقًا ، فلميّ رضي أن يُقتل ؟ فقال : إنّ المسيح قد قُتِل ليفتدي بموته العالم الذي استحوذ عليه الشيطان بسبب خطيئة آدم ، فكان لا بد أن يموت ليحطّم أغلال الموت ، ويفتح أبواب السماء لكلّ من نالوا رضوان الله » (3) .

(1) انجيل متى : 17/5

(2) ولد سنة 100 م بطرسوس فتعلم اللغة الرومانية ووضع كثيرا من المعتقدات السائدة فيها مثل الاعتقاد بان الاله الذي يعبدونه قد مات من أجلهم ، ثم قام من قبره . واعتنق بولس المسيحية فأصبح داعيتها والشارح لها . انظر : قصة الحضارة • ج : 252/II .

(3) قصة الحضارة • ج : 265 / II .

وكان (بولس) يناهضُ بدعوته حركة التحرر التي بدأت تستيقظ في نفوس العبيد وتزعج الرومانيين وتهز أركان إمبراطوريتهم . فهو يقول : «لِتخضع كلُّ نفس للسلطين ، لأنه لا سلطان إلا من الله» .

فكان قوله هذا ترديدا للأفكار السائدة في محيط الرومانيين ، والتي نادى بها أرسطو في كتابه «السياسة» وهي أن الناس وُلدوا أحرارا وعبيدا ، وسادة ومسودين ، وحاكمين ومحكومين (1) .

يقول «ول ديورانت» في تعليقه على آراء بولس هذه : «لقد كان خليقا برومة أن تُبقي على فيلسوف طبع إلى هذا الحد» (2) .

وكان لكلماته التي احتوتها رسائله ما للانجيل من قداسة وحرمة ، فتناولها الدارسون من علماء اللاهوت ورجال الكنيسة بالبحث والتخريج ، فكانت منها تلك الفلسفة اللاهوتية التي شغلت الفكر المسيحي ، وما تزال تُقلقه وتزعجه بمتناقضاتها ، وإلا فكيف يقبل العقل عملية معقدة كعملية التثليث الذي يعتبرونه : ثلاثة في واحد ، وواحد في ثلاثة ؟ وكيف يجتمع الإنسان والإله في كيان واحد ، مع ازدواج الشخصية وترددّها بين الناسوت واللاهوت : أي بين البشرية والألوهية ؟

فالمسيحيون لا يتنازعون في أن الإله حل بنفس المسيح وجسمه ، وإتما يتنازعون في اللاهوت . مع أن النفس مفارقة للبدن بالموت ، واللاهوت عندهم لم يفارق الناسوت بالموت ،

(1) انظر : المسيح في القرآن : للخطيب : 304 - 313 .

(2) قصة الحضارة . ج : 12 / 216 .

بل صعد إلى السماء . وقد ضربوا للاتحاد عدة أمثلة . ولكن أيّ
مثّل ضربوه ظهر به فساد قولهم ، وكان حجة عليهم (1) .

والكنيسة كانت تحاول دوماً أن توفق بين هذه الآراء
المتعارضة التي أضحت عقيدة يجب التسليم بها عند المسيحيين في
نهاية القرن الرابع الميلادي ، فيقبلونها على علاقتها ، دون
أن توفر لهم الإجابات الواضحة ، والخالية من التناقض :

ومما يؤيد القرآن في إبطاله لعقيدة المسيحيين في المسيح
مصدرٌ ديني مسيحي لم تعترف به الكنيسة ، رغم أنه في نشأته يمتدّ
إلى أبعد أعماق التاريخ المسيحي . ذلك هو إنجيل (برنابا) ، وهو متداول
بين علماء الأمم الأوروبية ، رغم إنكار الكنيسة له .

وبرنابا كان من القدّيسين الذين أخلصوا الدّعوة إلى المسيحية .
وقد أرسلته الكنيسة إلى أنطاكية للتبشير في الوقت الذي أرسلت
فيه بولس إلى قبرص :

وهو خالٌ مرقس صاحب الانجيل المعروف ، ولكنّ
المسيحيين رفضوا إنجيله ، لأنه خالف أناجيلهم ورسائلهم في
أربع مسائل جوهرية في العقيدة . وهي :

(1) إنه لم يعتبر المسيح ابن الله ، ولم يعتبره إلهاً . كما
جاء في مقدمته : «أيّها الأعزاء إنّ الله العظيم العجيب قد افتقدنا
في هذه الايام نبيّه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم ، والآيات
التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى ،

(I) انظر : الجواب الصحيح ... لابن تيمية . ج 3 / 123 .

مبشّرين بتعليمٍ شديد الكفر ، داعين المسيح ابن الله ، ورافضين الختان الذي أمر به الله دائما ، مجوزين كل لحم نجس ، وقد ظلّ في عدادهم أيضا بولس الذي لا أتكلّم عنه إلاّ مع الأسى . وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيتُه .

ويقول في نفي ألوهية المسيح وبنوته لله : « أجاب الكاهن : إنّ اليهودية قد اضطربت لآياتك وتعليمك ، حتى أنهم يجاهرون بانك أنت الله ، فاضطّرتُ بسبب الشغب إلى أن آتي إلى هنا مع الوالي الروماني والملك (هيرودس) ، فرجوك من كل قلبنا أن ترضى بإزالة الفتنة التي ثارت بسببك ، لأن فريقا يقول : إنك الله . وآخر يقول : إنك ابن الله . ويقول فريق : إنك نبيّ . »

أجاب يسوع : وأنت يا رئيس الكهنة ! لماذا لم تخمد الفتنة ، وهل جنّنت أنت أيضا ؟ وهل أمست النبوات وشريعة الله الله نسيًا منسيًا، أيتها اليهودية الشقية التي ضلّ لها الشيطان ؟

ولمّا قال يسوع هذا ، عاد فقال : إنّي أشهد أمام السماء ، وأشهد كلّ ساكن على الأرض أنّي بريء من كل ما قال الناس عنيّ من أنّي أعظم من بشر ، لأنّي بشر مولود من امرأة ، وعُرّضة لحكم الله ، أعيش كسائر البشر عرضة للشقاء العام» (1) .

(2) أنّ الذي فداه الله بذبح عظيم لمّا أمر إبراهيم عليه السلام بذبحه في المنام هو إسماعيل لا إسحاق كما ذكرت التوراة ، وكما يعتقد المسيحيّون . فقد جاء في إنجيل برنابا أيضا على لسان المسيح عليه السلام : «... إنّ الملاك قال : يا إبراهيم

سيعلم العالم كله كيف يحبك الله ؟ ولكن كيف يعلم العالم محبتك الله ؟ حقاً يجب عليك أن تفعل شيئاً لأجل محبة الله . أجاب إبراهيم : ها هو ذا عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله . فكلّم الله حينئذ إبراهيم قائلاً : «خذ ابنك بكرك ، واصعد الجبل لتقدّمه ذبيحة » .

فكيف يكون إسحق البكر ، وهو لَمَّا وُلد كان إسماعيل ابن سبع سنين ؟ .

(3) أن (مسيا) أو المسيح المنتظر ، ليس هو يسوع ، بل هو محمد : كما جاء في إنجيل برنابا على لسان المسيح : «إن الآيات التي يُجرّيها الله على يديّ تُظهر أنني أتكلّم بما يريد الله ، ولست أحسب نفسي نظير الذي تقولون عنه ، لانيّ لست أهلاً لأن أحلّ رباطات أو سيور حذاء رسول الله الذي تسمّونه (مسيا) الذي خلّق قبلي ، وسيأتي بعدي بكلام الحقّ ، ولا يكون لابنه نهاية » .

وفي الفصلين 34 و 44 كلام واف في التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأن التلاميذ طلبوا من المسيح عليه السلام أن يصرّح لهم به ، فذكر ما يُعرّف بحقيقته (1) :

«وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » (2)

(I) انظر : الجواب الصحيح ... ج : 4 / 5 : II .

(2) الصف : 6 .

(4) إن هذا الإنجيل ينفي صلب المسيح ، ويثبت أن الله ألقى شبهه على يهوذا الاسخريوطى الذى كان رأس الفتنة فى تأمره مع اليهود على قتله . وهو الذى دلّهم عليه . كما تقول الأناجيل عنه :

«الحق أقول : إن صوت يهوذا ووجهه وشخصه بلغت من الشبه يسوع أن اعتقد تلاميذه والمؤمنون به أنه يسوع . كذلك خرج بعضهم من تعاليم يسوع ، معتقدين أنه كان نبيًا كاذبًا . وإنما الآيات التى فعلها كانت بصناعة السحر ؛ لأنّ يسوع قال : إنّه لا يموت إلى وشك انقضاء العالم ، لأنه سيؤخذ فى ذلك الوقت من العالم » .

وفى القرآن ردًا على زعم اليهود .

« وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ، وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ . وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ . مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ . وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ . وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) (1) .

وهكذا فإن إنجيل برنابا خالف المسيحية القائمة فى جوهر خصائصها : وهى التثليث وبنوّة المسيح وألوهيته وصلبه (2) .

كما انفرد القرآن عن سائر الأناجيل فيما قصّ من أخبار المسيح بذكر خبر نزول المائدة من السماء ، وتكلم عيسى فى المهدي . ولم تذكر الأناجيل شيئًا من ذلك .

(1) النساء : 57 / 158 •

(2) محمد ابو زهرة : محاضرات فى النصرانية : 70 / 72 •

فقد أورد القرآن في خبر المائدة الذي قال عنه مجاهد :
هو مثل ضرب به الله ولم ينزل شيء .

« ... إذ قالَ الحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ : هَلْ
يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ؟ قَالَ :
اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَالُوا : نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ
مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا ، وَنَكُونَ
عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ . قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ : اللَّهُمَّ
رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا
لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ .
قَالَ اللَّهُ : إِنِّي مُنزِّلُهَا عَلَيْكُمْ . فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ
فَإِنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَأَعَذِّبَهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ » (1) .

وفي خبر تكلم المسيح في المهد حين برأ أمه :

« فَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا : يَا مَرْيَمُ لَقَدْ
جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ، يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ
سَوْءٍ ، وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا . فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ . قَالُوا : كَيْفَ
نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ؟ قَالَ : إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ
الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ ،
وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي

وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ
وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (1) .

وقد اعترض النصارى على القرآن فيما أخبر به من كلام
المسيح في المهد ، كما يستفاد من كتب التفسير القديمة مثل «مفاتيح
الغيب» . ودعواهم في ذلك أن هذا لو كان حقا لَعَلِمَهُ خَاصَّتُهُ
وتلاميذه ، ولأثبتوه في عداد المعجزات .

ولعلّ الجاحظ بلغته هذه الاعتراضات والمساجلات التي
كانت تدور بين المسلمين والمسيحيين في الفترة التي ازدهر فيها
علم الكلام ، فكتب رسالة «في الردّ على النصارى» جاء فيها :

«فأما مسألتهم في كلام عيسى في المهد فهي أن النصارى مع حبهم
لتقوية أمره لا يثبتونه . وقولهم : إنا تقولناه ، أوروينا عن غير
الثقات ، وأنّ الدليل على أن عيسى لم يتكلم في المهد أن اليهود لا
يعرفونه ، وكذلك المجوس وكذلك الهند والخزر والديلم»

ف نقول في جواب مسألتهم : «لعمري لو كانت اليهود تُقرّ
لكم بإحياء الأربعة الذين تزعمون ، وإقامة المقعد الذي تدعون ،
وإطعام الجمع الكثير من الأرغفة اليسيرة ، والمشي على الماء .
ثم أنكرتهم الكلام في المهد من بين جميع آياته وبراهينه
لكان لكم في ذلك مقال ، وإلى الطعن سبيل . فأما وهم يجحدون
ذلك أجمع . فمرة يضحكون ، ومرة يغتاظون ويقولون : إنه
مداوي مجانيين ، ومتطبب وصاحب حيسل ، فكيف تستشهدون قوما

(1) مريم : 27 - 33 .

هذا قولهم في صاحبكم حين قلتُم : كيف يجوز أن يتكلم صبي في العهد مولودا ، فيجهله الأولياء والأعداء . ؟

ويقول في الرد على النصارى :

« فإن سألونا عن أنفسهم فقالوا : مالنا لا نعرف ذلك ، ولم يبلغنا من أحد ؟ فجوابنا أنهم إنما قبلوا دينهم عن أربعة أنفس : اثنان من الحواريين بزعمهم : يوحنا ومتى ، واثنان من المستجيبة (1) وهما ماركس ، ولوقش (لوقا) . وهؤلاء الأربعة لا يؤمن عليهم الغلط ولا النسيان ، ولا تعتمد الكذب ولا التواطؤ على الأمور

فإن قالوا : إنهم كانوا أفضل من أن يتعمدوا كذبا ، وأحفظ من أن ينسوا شيئا ، وأعلى من أن يغلطوا في دين الله تعالى ، أو يضيعوا عهدا ، قلنا : إن اختلاف روايتهم في الإنجيل ، وتضاد معاني كتبهم ، واختلافهم في كتبهم ، واختلافهم في المسيح مع اختلاف شرائعهم دليل على صحة قولنا فيهم ، وغفلتكم عنهم » (2) .

لكن قول الجاحظ في الحواريين مردود ، لأنهم أبعد من أن يكونوا موضع تهمة ، حتى لا يؤمن عليهم الكذب والتواطؤ على الأمور ، « إذ كان الله سبحانه وتعالى هو الذي اختارهم للمسيح أعوانا وأنصارا ، كما بصرح بذلك القرآن الكريم (3) في قوله تعالى : « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا : آمَنَّا وَآشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (4) » .

(1) الذين استجابوا ودخلوا في الدعوة المسيحية .

(2) انظر : رسالة الجاحظ في « الرد على النصارى » : 22 - 26 .

(3) الخطيب : المسيح في القرآن : 521 - 522 .

(4) المائة : III .

وقد أجاب الرّازي على هذه الشبهة بما نقله عن المتكلمين فيها قالوا : «إنّ كلام عيسى عليه السلام في المهد إنّما كان للدلالة على براءة حال مريم عليها السلام من الفاحشة» ولم يتكرر منه» وكان الحاضرون جميعا قليلين ، ولا يبعد في مثله التواطؤ على الإخفاء . ولو قدرنا أنّهم ذكروا ذلك ، فإنّ اليهود كانوا يكذبونهم وينسبونهم إلى البهت . فهم أيضا سكتوا لهذه العلة . ولأجل هذه الأسباب بقي الأمر مكتوما مخفيا ، إلى أن أخبر الله سبحانه وتعالى محمدا صلى الله عليه وسلم بذلك .

وأیضا فليس كلّ النصارى ينكرون ذلك . فإنّه نُقل عن جعفر ابن أبي طالب لما قرأ على النجاشي سورة مريم قال النجاشي : لا تفاوت بين واقعة عيسى وبين المذكور في هذا الكلام . (1)

وهكذا فإنّ القصص التاريخي في القرآن وإن لم يكن عرضا تاريخيا بالمعنى المعروف ، لكنّه حجة لا تقبل الطعن في إثبات ما قصّ من وقائع تاريخية . وقد أبان وجه الحق فيما دخل على بعض القصص من زيف أو تحريف ، سواء في كتب العهدين ، أو في كتب التاريخ القديمة .

وفي القرآن إشارات لا تخلو من أصول علم التاريخ وبذور فلسفته . فعلى الدّارس لقصصه ألاّ يقتصر على معرفة الوقائع ، بل عليه أن يعرف أسبابها ونتائجها وسننها ، ليتعمّق في فهم الحكمة التي يسير بها هذا الوجود وفق نواميس هي من صنع الله وهي على أكمل نظام ، وأتقن ترتيب .

(1) مفاتيح الغيب . ج : 7 / 55 - 56 .

إن القرآن لم يقتصر على عرض لوحات مجردة لماضي الإنسانية في صراع قوى الخير والشر ، وإنما كان يهدف إلى بعث المشال من التاريخ ، لإثارة الانفعالات الموحية بالهداية والإيمان ، واستغلال الأحداث التاريخية في التربية ومعالجة النزعات النفسية في الانسان ، وأمراض المجتمع الذي يعيش فيه بما لتلك الأحداث من قوة مفروضة على النفس تُحدث فيها انصهارا ووعيا ويقظة إحساس .

ومن هنا كان هذا القمص التاريخي أشدّ تأثيرا وأسمى طموحا من التاريخ ، لأنه يمدّ الإنسان بسلاح الإيمان والثبات ، ويعرفه بمالله من نواميس قارة في نظام الخلق والإبداع ، ومن سنن مطردة في نظام الأقوام والأمم ، سنن خاضعة لإرادة الله وليست مقيدة لها ، تتصل فيها الأسباب بالمسببات ، فلا تتغير أو أو تتحوّل محاباة لأحد من الناس ، لانها محور عدل الله وحكمته في تدبير الأمور :

« لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى . وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (1) .

(I) يوسف : III .

القصص التمثيلية

سبق في مقدمة هذا الفصل أن الصدق فيما قصه القرآن أمر حتمي لا يجوز أن يتصور المؤمن خلافه ، سواء أكان مصدر هذا القصص أحداث التاريخ ، أم واقع الحياة ، على معنى أنها تمثل أنموذجا للحياة ، وأن الإنسان يصادف دوما تجدداً لتلك الأحداث ولو في أشكال مختلفة . فالصدق الواقعي يتصف به القصص التاريخي ، وهو أكثر قصص القرآن . والصدق الموضوعي يتصف به القصص التمثيلي ، وهو قليل في القرآن . بل إن بعضهم نفى وجوده على اعتبار أنه ضرب من الخيال ، والخيال يختلف عن الحقيقة ، لأنه يفسح فيه المجال لانتحال أشياء غريبة عنها .

وإذا جوزنا أن نحمل ما في قصص القرآن من أشياء غريبة على أنه تمثيل ، أدّى بنا ذلك إلى إنكار الكثير من الحقائق التي تضمنتها الآيات الدالة على قدرة الله في هذا القصص .

ولئن كان المعتزلة هم أول من نادى بهذا التمثيل وفسروا بعض الآيات على هدي منه - وتفسير الزمخشري مليء بهذا اللون من التفسير - (1) فلا ينبغي أن يحملنا ذلك على رفض هذا المنهج رفضاً

(1) انظر مثلاً تفسيره لقوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم واشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى »

(الأعراف : 172) .

مطلقا . فإن من التمثيل البياني في القرآن ما يقرب الحقائق إلى الأذهان ، ويضفي عليها لونا من البيان فيجليها . وما ابتدع التمثيل لرسم الأشكال والألوان فقط . وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس ، ولتقوية الشعور وعمقه ونفاذه . ويدخل في ذلك ما ورد في القرآن من أمثال أشار إليها بقوله : «وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ» (1) .

ومن أغراضها : تقريب المعقول من المحسوس ، أو أحد المحسوسين من الآخر ، واستخلاص سنن الله في خلقه ، وعدله بينهم فيما تجلّى من نتائج الحكم الواحد لأمرين متماثلين ، وإن تباعدا في الزمان والمكان .

يقول ابن قيم الجوزية : «لوجاز التفريق بين المتماثلين لانسدّت طرق الاستدلال ، وأغلقت أبوابه . والأمثال كلّها أقيسة عقلية ينبّه الله بها عباده على أنّ حكم الشيء حكم مثله... فالقياس في ضرب الأمثال من خاصّة العقل . وقد ركّز الله في فطر الناس وعقولهم التسوية بين المتماثلين ، وإنكار التفريق بينهما ؛ والفرق بين المختلفين ، وإنكار الجمع بينهما . قالوا : ومدار الاستدلال جمعه على التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين ومن ضروره الاستدلال بالمعيّن على العامّ .

ومن هذا أدلة القرآن بتعذيب المعيّنين الذين عدّ بهم على تكذيب رسله . وعصيان أمره . على أنّ هذا الحكم عامّ شامل

(I) العنكبوت : 43 .

على كل من سلك سبيلهم ، واتصف بصفتهم وقد نبه سبحانه
وتعالى عباده على نفس هذا الاستدلال وتعدية هذا الخصوص الى
العموم كقوله تعالى عقب إخباره عن عقوبة قوم عاد :
«وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ
سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً . فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ
وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، إِذْ كَانُوا
يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (1)

فتأمل قوله : «وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ
فِيهِ» كيف تجد المعنى : أن حكمكم كحكمهم ، وأنا إذا
كنا قد أهلكناهم بمعصية رؤسنا ، ولم يدفع عنهم ما مكَّنوا فيه
من أسباب العيش ، فأنتم كذلك ، تسويةً بين المتماثلين ، وأن
هذا محض عدل الله بين عباده» (2) .

ثم إن الصّدق في القصص التمثيلي يلاحظ من وجهتين :
موضوعية وفنية .

أما الوجهة الموضوعية ففي تمثيله بأشخاص غير معينين
لم يكن لهم وجود بأسمائهم في واقع التاريخ ، ولكن وجود أمثالهم
في واقع الحياة ممكن ، وذلك من حيث مواقفهم وتصرفاتهم
التي تملئها نوازع نفسية راسبة في شعور الانسان لأنها من طباعه
وفي غرائزه .

(1) الأحقاف : 26 .

(2) اعلام الموقعين عن رب العالمين . ج : 1 / 130 - 132 .

وأما الوجهة الفنيّة ، ففي تصويره للشخصية من خلال الحوار تصويراً حياً ، وفي دقة نقله لمشاعرها وتعبيره عن مواجيدها وأحاسيسها . وهذه وظيفة الفنّ .

أما حقيقة الفن فهي كما قال « تولستوي » : « ليست في وصف ما هو كائن ، بل في ما يجب أن يكون . فكسّم من كتب تصيف ما حدث ، ولكنها كاذبة من الوجهة الفنيّة ! وكسّم من قصص تمثيلي كآله حقيقة ، لأن الحق طريقه ، ولأنه يكشف عن ملكوت الله ! » (1) .

فتأثير هذا القصص إذن إنّما هو في صدقه الموضوعي والفني ، وفي تشخيص المعاني المجردة والتوجيهات التربويّة التي تضمّنها في شكل عملي تطبيقي يمكّن من تصوّرها وإدراكها . ذلك أنّ من المدارك ما يقف عند الأمور الحسيّة ، فلا يقوى على فهم المعاني الكليّة فضلاً عن التأثير بها ، إلاّ إذا كان لها وجود واقعي مفترّض يجسّمه الحوار ، ويحدّد إطاره جوّ القصة وأحداثها . ومن هنا استعمل القرآن القصة التمثيليّة لغرس القيم الدينيّة وإيقاظ الوجدان للإيمان بها .

فقد يكشف السياق القرآني فيما يعرض بأسلوب يشبه أسلوب القصة عن حقيقة في الإنسان لم تتغير فيه منذ بدء الخليقة ، مهما تغيرت مظاهر حياته . وهي أنه سريع النسيان . لا يذكر الله إلاّ في الشدائد ، ولا يثوب إلى رشده ، وينزع عن

غِيَّهَ إِلَّا فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ . فَاذَا اسْتَقَرَّ وَأَمِنَ ، فَيَأْتِي النِّسْيَانَ ،
وَأَمَّا الطَّغْيَانُ . قَالَ تَعَالَى :

« وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ
إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا . قُلْ : اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا . إِنْ
رُسُلْنَا يَكْتُتِبُونَ مَا تَمْكُرُونَ . هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ
فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ ، وَجَرَينَ
بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ
وَجَاءَهُمْ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ
بِهِمْ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ : لَشِئْنٍ أَنْجَيْتَنَا مِنْ
هَذِهِ لَنَسْكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا
هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ . يَا أَيُّهَا النَّاسُ
إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . ثُمَّ
إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَتَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » (1) .

وهذا نموذج بشري لطائفة كبيرة من الناس في كل جيل ،
متلَّهُ ما صنع قوم فرعون مع موسى . فكلما أخذوا بعذاب
استغاثوا ، ووعدوا بالعدول عما هم فيه . فاذا ذاقوا الرحمة
مكروا في آيات الله ، وعادوا إلى ما كانوا فيه .

« فَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا : يَا مُوسَى ! ادْعُ لَنَا رَبَّكَ
بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ : لَشِئْنٍ كَشَفْتَنَا عَمَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ

وَلَتَرْسِلُنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِالْغُيُوبِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ» (1)

وكذلك صنعت قريش مع محمد صلى الله عليه وسلم لما أجدبت وخافت الهلاك . فهي ظاهرة مطردة في الإنسان ، ما لم يعصمه الإيمان . (2)

ومن أبداع القصص التمثيلي في القرآن قصة صاحب الجنيتين ، لما فيها من تشخيص حيّ للمشاهد يقصّر عنه التعبير في أي أسلوب آخر غير الأسلوب القصصي . وفي هذه القصة ضرب الله مثلاً لبرجلين : أحدهما كافر بسط الله له في رزقه ، وجعل له حديقتين من أعناب حولهما نخيل يثمر ، لكنه لم يشكر ربه على ما أنعم عليه ، بل كفر بنعمه اعتزازاً بما يملك . وأما الآخر فهو مؤمن ، لكنه فقير لم يفسد فطرته الترف الذي يقطع الصلة بين قلوب المترفين وبين تلك النفحة العلوية التي تصل الإنسان بخالقه الكريم .

« وقد ضرب الله القصة مثلاً للكفار من قريش الذين افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين . فبين الله تعالى أن ذلك مما لا يوجب الافتخار ، لاحتمال أن يصير الفقير غنياً ، والغني فقيراً . أما ما تحقّ المفاخرة به ، فطاعة الله وعبادته ، وهي حاصلة لفقراء المؤمنين . وبيّن ذلك بضرب هذا المثل الذي كانت فيه العاقبة المحمودة للمؤمن (3) .

(1) الأعراف : I34 - I35 .

(2) انظر : في ظلال القرآن • ج : II / 66 - 67 .

(3) مفاتيح الغيب • ج : 21 / I23 .

وذكر الطبرى في تفسيره : « أن عُيَيْنة والأقرع قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن سادات العرب وأرباب الأموال . ففتح عنا سلمان وخباباً وصهيباً ، احتقاراً لهم وتكبّراً عليهم » (1) .

واختلف المفسّرون في اسم هذين الرجلين وتعيينهما . فقيل : هما أخوان من بني إسرائيل (2) وقيل : « إنَّ هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لهذه الأمة ، وليس بخبر عن حال متقدمة » (3) وضرب المَثَل لا يقتضي وجود المُمَثَّل به . وإلى هذا القول أميل ، لأنه لو كان الرجلان معيّنين لورد ذكرهما بالتعريف فتسكيرهما « وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ » يؤيد هذا الرأي . وسواء أكان الرجلان موجودين في واقع التاريخ ، أم موجودين في واقع الحياة افتراضاً ، فإن قصتهما رسمت في الحالين نموذجين واضحين للنفس المعتزّة بزينة الحياه ، والنفس المعتزّة بالله التي ترى النعمة موجبة لِحَمْدِهِ وذكره ، لا لجحوده وكفره .

إنّها قصّة كلّ من آتاه الله مالا ، فغره وأنساه ربّه ، وهو إن لم يقل مثل مقاله نصّاً ، فإنّ حاله تبيّن عنه . وكثيراً ما يكون لسان الحال أفصح من المقال :

« وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ ، وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا . كِلَيْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهُمَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ

(1) الطبرى : جامع البيان • ج : 246/15

(2) الطبرى : مجمع البيان • ج : 156/15

(3) القرطبي الجامع لأحكام القرآن • ج : 401/10

شَيْئًا . وَفَجَرْنَا خِيَالَهُمْ مَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ نُمْرٌ ، فَقَالَ
 لِصَاحِبِهِ ، هُوَ يُحَاوِرُهُ : أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَنُ
 نَقْرًا . وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، قَالَ : مَا أَظُنُّ
 أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً . وَلِئِنْ
 رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهُمَا مُنْقَلَبًا . قَالَ لَهُ
 صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ : أَكْفَرْتَنَ بِالذِّي خَلَقَكَ مِنْ
 تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ؟ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ
 رَبِّي ، وَلَا أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ
 قُلْتُ : مَا شَاءَ اللَّهُ ، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ
 مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ
 جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ
 صَعِيدًا زَلَقًا ، أَوْ يُصْبِحَ مَأْوُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ
 لَهُ طَلَبًا . وَأَحِيطَ بِثَمْرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْنِهِ عَلَى مَا
 أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، وَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِي
 لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ .
 هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا » (1) .

فهذه القصة تمثل صورة لرجل ثري غره نجاحه في
 إنشاء جنتين ، كلتاها أثمرت وآت أكلها ، وأصبح لها

منظر بهيج ، يتدفق قوة ونضارة . فامتألت نفسه زهوا واختيالاً .
وأبطرته النعمة ، فنسى شكر المنعم ، وتعالى على صاحبه
الفقير وهو يحاوره ، وظنّ أنّ جنتيه تستعصيان على عوامل
الفناء ، فلن تخذله القوة والجاه . واستبعد أن تقوم الساعة ،
وخيل إليه أنه سيجد الرعاية والإيثار عند ربّه بعد الموت ،
كما وجد في الدنيا ، وأنّ المكانة التي يحظى بها أهل الثراء
في هذه الحياة ، ستظلّ محفوظة لهم حتى في المآل الأعلى .

أمّا صاحبه الفقير المؤمن الذي لا مال له ولا نقرّ ، ولا جنة
عنده ولا ثمر ، فإنه معتزّ بما هو أسمى وأبقى . فهو يُنكر على
صاحبه المغرور كبره ، ويذكّره بمنشئه المهين ، وبمن خلقه
وسوّاه ، ويحذّره أن يصيبه سخط الله . وكان ما توقعه هذا المؤمن .

وفجأة ينقلب السّياق من مشهد النماء والإزدهار ، إلى مشهد
الفناء والدمار . فاذا بالثمر والجنّتين أثر بعد عين . وعندئذ
تعظم حسرته ليلّف ماله ، وضياع جهده ، ويندم على إشراكه
بالله ، ولكن الله لم يقبل توحيدّه ، لأنه ما رغب فيه إلا لأجل طلب
الدنيا (1) .

وهكذا جسّمت هذه القصة ما تضمّنه الحوار فيها من
المعاني الكليّة المجرّدة ، فقرّبت حقائقها إلى الأذهان ، بل

(1) انظر : في ظلال القرآن . ج : 15 / 93 - 95 .

ومفاتيح الغيب . ج : 21 / 183 .

قررتها فيها ونقشتها . بما ضربت من مثل بليغ مؤثّر ، أبان أنّ القسيم الحقيقيّة ليست في اللذائذ الماديّة . ورغم أنّ الإسلام لم يحرم الطيب منها ، لكنّه لم يجعل منها غاية لحياة الإنسان . فمن شاء أن يتمتّع بها فليتمتّع ، لكن في غير إسراف أو ترف . بل عليه أن يذكر دوما ربّه الذي أنعم عليه ، وأن يشكره على ما أنعم به ، وذلك بطاعته ، والتواضع له ، والانفاق في سبيله وإعانة ذوي الحاجات ، عملا بقوله صلى الله عليه وسلم :

«الخالق كلّهم عيال الله ، فأحبّهم إلى الله أنفعهم لعياله (1) .

وعندئذ فقط يأمن من أن يستحوذ عليه الخوف اللاشعوري المتأصل في أعماق الإنسان من غرور النجاح المطرد . والحظّ السعيد المُلازم ، وما ينتج عن ذلك من تحوّل السعادة الى شقاء ، والغنى إلى إفلاس ، والرّفعة الى ضعة ، حتى لكأنّ السعادة المتواصلة بدون منغّصات نذير خفيّ بالشرّ يتحسّسه الكثيرون ، ويتطيّرون منه .

ألسنا نقول عندما نفرح كثيرا ، ونضحك كثيرا : اللهم اجعل العاقبة خيرا ؟ ومعنى ذلك أنّ في أعماقنا خوفا لا شعوريا من أنّ السعادة المسترسّلة قد يعقبها ألم ومعاناة . وقد سمّي التحليل النفسي هذا الخوف باسم (مركب بوليكرانس) (Complex polycrotes)

وإنّنا لنجد أثر هذا الخوف والقلق في كل عهود الإنسانيّة .

(I) رواه السيوطي في : الجامع الصغير .

فقد كان الإغريق يسمون الغلوّ في النجاح (Hubris) ومعناه في اللغة الاغريقية : شدة أو عنف ناشيء عن العتوّ في القوة ، والتباهي بها ، لاعتقادهم أنّ ذلك يثير غضب آلهة الانتقام (Némésis) إذ كأنّ الانسان ينجاحه المتواصل يتحدّى الآلهة ، فتسلطّ عليه العقاب حسب اعتقادهم (1) .

ونجد في جميع الأديان السماوية ما يُشعر الإنسان على الدوام بأنّه ضعيف أمام قوّة الاله ، وأنّه لا ملجأ من الله إلا إليه .
ففي إنجيل لوقا قال المسيح لتلاميذه :

«متى صليتم فقولوا : أبانا الذى فى السموات . ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك . لكن مشيتك فى السماء ، فى الارض . خبزنا كفافنا . أعطنا كلّ يوم ، اغفر لنا خطايانا » (2) .

فيتبين من كلّ ذلك أنّه من اليسير إثبات وجود الله بالأدلة النفسية من خلال شعور الإنسان بوجود إله خالق عظيم . وأكثر الذين يُنكرون هذه الحقيقة يشعرون فى أعماقهم بخوف لا يعرفون مصدره ، سيما إذا نُكبوا أو حلت بهم كارثة ، وربما أحسوا باطنياً بأنّها عقاب لهم على إنكارهم لوجود الخالق .

(I) انظر : سيكولوجية الضمير : لمحمد كامل النحاس : 76 - 81 .

(2) الاصحاح : II .

وهكذا فإن التجبر والتعاضم والبغي في الإنسان الذي يحالف
 الحظ في جميع أعماله وتصرفاته ومشروعاته ، فيزداد عتواً ،
 ينتهي به الى الظلم والمروق ، ولكنه يلقي بسبب ذلك الألم والحسرة
 والأسى عند زوال ما كان يعتز به من عرض زائل .

كُلُّ ذلك قد تمثل في قصة صاحب الجنتين . وكان من
 الحكمة والتبصر ألا ينسى القوة المطلقة التي تسيطر على حظوظ
 الناس في الحياة ، وأنه مهما بلغ من سعة الرزق والقوة والسلطان ،
 فليس بخارج عن مشيئة الله وملكوته ، لأن قوته إذا لم تساندها قوة
 الله تحطمت وانهارت ، كما جاء على لسان الفقير المؤمن وهو
 ينصحه : « وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ : مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ
 إِلَّا بِاللَّهِ » .

ونظير هذا ما حكاه القرآن عن قوم هود :

«فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا :
 مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ
 أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ . فَأَرْسَلْنَا
 عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فَبِئْسَ أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ
 الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَى
 وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ» (1) .

الفصل الخامس جوانب المعرفة في قصص القرآن

إنّ الآراء العلمية المجرّدة التي تُقدّم لبتّ الدعوة ، ونشر العقيدة ، كثيرا ما تكون خالية من القوّة النفسية الدافعة ، واللّمسات الفنيّة المؤثّرة ، فلا تفتح الطريق للوجدان كي يتدبّر ويعتبر .

لذلك فإنّ القرآن الحكيم في منهجه عامة ، وفي قصصه خاصة ، لم يقدّم العقيدة الإسلامية كنظريّات للبحث ، أو أثر للدراسة ؛ فإنّ هذا لا يستوعب كلّ جوانب النّفس ، ولا يمثّل الحياة في شتى مظاهرها ، ولا ينشئ شيئا في عالم النّفس ، ولا في عالم الحياة . كما أنه لم يقدّمها كشعور مجرد يثير العواطف الدينية في سداجة ، لأنّ الشعور إن لم يستند إلى مبدإ يقوده ، أو فكرة تدعّمه ، لا يكون له وضوح ولا قرار .

ولنّما قدّم العقيدة ، وفيها مادّة للمعرفة التي استعمل في تبليغها للفكر والوجدان ألوانا من أساليب البيان ، وطرق التأثير ، وفنّ القول . وكان أبرزها وأبلغها أثرا ، فنّ القصّة التي سلك فيها القرآن منهجا قويا لإيقاظ الفكر عن طريق الملاحظة الموحية بالفكرة ، المهيّئة للتجربة ؛ وأثار المشاعر بما عرض

فيها من آيات الله في أخبار الأولين وفي عظمة الكون ، وفي أسرار النفس البشرية .

فلم تقتصر فيه المعرفة الدينية على الحس ، كما تُقرّر العلوم التجريبية : أن الموجود وحده هو المحسوس ، وأن ما لا يناله الحس بجوهره فنقرض وجوده محال . بل تناولت - فيما تناولت - ثلاثة جوانب هامة تمدد الفكر والعاطفة - على تفاوت مراتب الناس في دقة فهمهم وعمق إحساسهم - بغذاء لا ينقطع ، وهي : الكون ، والنفس ، والتاريخ .

قال تعالى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ . أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » (1)

ولا ريب أن ما في الآفاق هو ما ينظرون إليه ، ثم ينظرون فيه ، أو ما يُشاهدونه بعين البصر ، ثم بعين الذهن المعتمد على الحس ، أو هو عالم الشهادة ، أو ملك السماوات والأرض ، وأن ما في أنفسهم هو المدرك بالشعور الباطني ، أو بالعقل المجرد من كل غواشي الحس ، وعلائق المادة ، حتى يتبين لأولئك وهؤلاء أنه الحق . وهنا نصل إلى إدراك المنزلة الالهية الحقيقية التي هو

فيها دليلٌ كلٌّ كائن ، وبرهان كلٌّ موجود ، فنهتف بعقولنا
وقلوبنا : أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (1)

وقال تعالى : « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ . فَسِيرُوا
فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذَّبِينَ (2) »

فإن سنن الله في الأفراد والأمم إنما نستخلصها من أحداث
التاريخ . لذلك كان التاريخ بهذا الاعتبار من أهم جوانب المعرفة
التي بثها الله في كتابه ، والتي تصوّر قيام النظام الاجتماعي المترابط ،
إلى جانب النظام الكوني العام على السنن الإلهية .

وقد دعانا الله في هذه الآية إلى السير في الأرض لمعرفة هذه
السنن ، سواء أكان السير الحسي بالسفر ، أم السير المعنوي بالتفكير
والاعتبار . كما دعانا إلى النظر في آثار من سبقونا ليحصل منه
تحقق ما بلغ من أخبارهم ، أو السؤال عن أسباب هلاكهم ، وكيف
كانوا أولي قوة ، وكيف طغوا على المستضعفين ، فاستأصلهم الله .
أو ليتضمن نفوس المؤمنين بمشاهدة المخبر عنهم مشاهدة عيان ،
فإن للعيان بديع معنى ، لأن المؤمنين بلغتهم أخبار المكذبين :
عاد وثمود وأصحاب الأيكة وأصحاب الرّس ؛ وكلّهم في بلاد
العرب ، يستطيعون مشاهدة آثارهم . وقد شهدها كثير منهم
في أسفارهم .

(1) محمد غلاب : المعرفة عند مفكرى المسلمين : 139 .

(2) آل عمران : 137 .

«وفي الآية دلالة أيضا على أهمية علم التاريخ ، لأنّ فيه فائدة السير في الأرض ، وهي : معرفة أخبار الأوائل ، وأسباب صلاح الأمم وفسادها» (1) .

(1) الكون :

ففي القصص القرآني ما يستهدف الملاحظة التأملية لِمَا خلق الله في السماوات والأرض . وتفتح الحسّ يحمل على الإيمان بَمَنْ يُعَدُّ هذا الكون آيةً على وجوده ، ودليلا على قدرته ، وينقل المتأمل البصير من عالم الشهادة إلى عالم الغيب . مِن ترتيب الكون وفقا لنظام ، إلى ضرورة وجود خالق سنّ له هذا النظام .

قال تعالى في معرض الامتنان على خليله إبراهيم عليه السلام : « وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكَوَاتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ » (2) .

فإنّ هذا الكون الذي نشاهده يستحقّ منّا أن نتدبّره . وقد جعل الله لنا السمع والبصر والفؤاد لنسمع ونُبصر ونُتأمل . وكلّما دقّ نظرنا وأرهِف حسّنا ازدادت معرفتنا ، وسَمّت نفوسنا ، وتطلّعت للخير والحق والجمال . لذلك أنكر الله على المكذّبين للرسول وبآيات الله ، ودلائلُ الإيمانِ ناطقةٌ ، فقال : « أَوْ لِمَ يَسْتَعْزِمُوا فِي مَلَكَوَاتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ » (3) .

(1) التحرير والتنوير . ج : 4 / 97 .

(2) الانعام : 75 .

(3) الأعراف : 185 .

وكم في الكون من أشياء تدهش الحسّ ، وتحيّر الفكر ، وتدعو إلى البحث ! ان النظر بالقلب المبصر ، والعين المفتوحة في هذا الملكوت طريق لإدراك الحقّ الكامن فيه . والإبداعُ يشهد به ، ويدل عليه ، وينفي الفوضى التي تعتمد المصادفات العمياء .

فالمنزع التعليمي في القرآن أن يُحيي في الإنسان شعورا عميقا متجددا بما بينه وبين الكون من وشائج ، ومن علاقات سامية « وإنّه لأمرٌ عظيم حقّا أن يوقظ القرآن تلك الروح التجريبية في عصر كان يرفض عالم المراثيات بوصفه قليل الغناء في بحث الإنسان وراء الخالق » (1)

فنوح عليه السلام يوجه قومه في جهاده المرير إلى حقيقة يدركونها بأدنى فكر . يوجههم إلى آيات الله في الكون المحيط بهم ، لينشئ في قلوبهم إيمانا يقوم على المشاهدة الحسيّة ، وما تركه في القلب من شعور حيّ ، فيقول لهم : « أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ، وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا . وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا . وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا » (2) .

(1) تجديد التفكير الديني في الاسلام : 21 .

(2) نوح : 13 - 20 .

وكذلك أجاب موسى فرعون لما سأله عن ربه :

« قَالَ : رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى .
قَالَ : فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ؟ قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي
كِتَابٍ لَا يَبْضِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى . الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ
مِهَادًا ، وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى . كُلُّوا وَارْعَوْا
أَنْعَامَكُمْ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى . مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ
وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى » (1) .

فهذا الوصف الذي يحكيه القرآن الكريم عن موسى عليه السلام يلخص أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود . هبة الوجود لكل موجود ، وهبة تيسيره للوظيفة التي خلق لها.... من الذرة إلى أضخم الأجسام ، ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة في الإنسان . فهذا الترابط المحكم بين عوالم الكائنات علويتها وسفليتها ، وهذا التلازم الذي يبدو في وضع كل كائن في مكانه من التركيب الكوني ، وهذا الاتساق في إيصال كل عنصر من عناصر الكون بسائر العناصر ، هو الإطار الذي يصور سنن الله الكونية التي دبر بها الكون . وهذا الاتساق أو هذا التوازن هو العدل الذي قامت به السماوات والأرض . وهو الحق

(1) طه : 48 - 54 .

الذي خُلِقَتْ به الحياة (1) كما قال جلّ شأنه :

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ » (2)

ويستطرد موسى فيعرض على فرعون آثار تدبير الله في الكون ، وآلائه على بني الانسان ، إذ جعل لهم الأرض مهبطاً يتقلبون عليها ؛ وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها ، وأنبت فيها أصناف النبات لأقواتهم ، ورعى أنعامهم . فمن مادتها خُلِقُوا ، وإليها يعودون ، ومنها يُبعثون

وقد عدل عن ضمير الغيبة الذي يقتضيه ظاهر السياق إلى ضمير التكلّم ” فأخرجنا “ للإشارة إلى كمال قدرته سبحانه ، وأن كل شيء في الكون ينقاد لمشيئته العليا .

وإذا نظرنا إلى تاريخ الفكر البشري وجدنا “انكساغوراس” الفيلسوف الإغريقي أول من اكتشف هذا المنهج الفكري للاستدلال على وجود العقل العام أو (القوة المدبّرة) ، وذلك بالتفكير في الكون تفكيراً طويلاً ، والتأمّل في ملكوت السماوات والأرض تأمّلاً دقيقاً ينتهي إلى نتيجة ، كما انتهى التأمل بأنكساغوراس إلى ما يلي :

« لو نظر الإنسان إلى سير الكواكب في أفلاكها ، ورأى إلى أي حدّ هي تامّة الإحكام ، دقيقة التنظيم ، بحيث لا يدخل كوكب في فلّك ، ولا يغادره قبل موعده المحدّد له ،

(1) محمد الصادق عرجون : سنن الله في المجتمع من خلال القرآن : 16 - 17

(2) الحجر : 85 .

أو بعده بدقيقة واحدة ، بل بشانية . ولو فعل لاصطدمت الكواكب ،
ولتهوى العالم كله في مكان سحيق ، وإذن فهذا التدبير الذي
انتهى إلى حدّ الكمال ، هو أقطع دليل ، وأنصح برهان على وجود
العقل العام المدبّر » (1)

وقد وضعت الحكمة السماوية في القرآن وقصصه هذه المرحلة
في المعرفة . وهي مرحلة لا غنى عنها لطائفة من الناس اقتصر
معرفتهم على مُدركات الحواس وحدها ، ولم تقوَ على الخروج
من دائرة المراتب ، أو لطائفة أخرى اتسع ادراكها وتصورها ،
فهيأت لها هذه المرحلة مرحلة ثانية ، وهي النظر إلى الموجودات
بعين الذهن ، وذلك باجتياز طور الحس والمحسوس إلى دور
العقل والمعقول ، لبلوغ مرتبة أسمى ، وهي التأمل في المعنويات
الخالصة من شوائب الحس وعلائق المادة ، وهو ما نجده في
القرآن أيضا كمنهج من مناهج المعرفة فيه .

وهكذا رسم مبدع الأكوان في الكتاب العزيز طرقا مختلفة
تلتزم مع مختلف المراتب والتصورات ، وتماشى مع مراتب الإنسانية
ودرجاتها ، وتتجاوب مع حاجاتها وضرورتها ، وتوجه إلى تجديد
النظر في الكون المحيط بنا في آفاقه الواسعة ، ومخلوقاته المختلفة ،
وحوادثه المتوالية ، وسننه المطردة .

(2) النفس :

وأما النفس كمصدر للمعرفة ، فهي : منبع القوى الباطنية
في الإنسان ، ومناط سموه وترقيته ، أو انحطاطه وترديته

(1) المعرفة عند مفكرى المسلمين : 129 •

وقد كان سقراط يقصر بحثه على عالم الإنسان ، ويرى أن المعرفة العميقة ، إنما تكُون بنظر الإنسان في نفسه .

فمن أقواله المأثورة : « اعرف نفسك بنفسك » . وقديما قيل : من عرف نفسه فقد عرف ربه . فالنفس هي التي تجعل الإنسان يستعذب العذاب في سبيل المشل العليا التي يؤمن بها . وتدفعه إلى البحث الدائم عن آفاق جديدة ينصح فيها عنها . والإنسان - على ما فيه من نقائص - أسمى من الطبيعة ، لأنه إذا استهوته القوى التي تحيط به ، فبنفسه يقدر على تكييفها . أما إذا غلبته على أمره ، فإنه يقدر أن ينشئ في أعماق نفسه عالما أكبر ، يجد فيه منابع من السعادة والإلهام لا حد لها ولا نهاية .

ومع أن حياة الانسان في هذا الوجود شاقّة ، فليس لعالم نفسه نظير في القوّة والإلهام والإبداع .

فالإنسان في صميم كيانه كما صورّه القرآن قوّة مبدعة ، وروح متصاعدة ، تسمو قدما من حالة وجودية إلى حالة أخرى (1) ومن هنا كانت دعوة القرآن للإنسان أن ينظر في نفسه كمُنطلق إلى الإيمان بخالق النفوس الذي يعلم سرّها ونجواها .

قال تعالى : « وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ » (2)

فإنّ طريق النفس للمعرفة يتمثل في ذلك الشعور العميق المتأصل في نفس كل إنسان ، مهما كان حظّه من العلم والثقافة ،

(1) انظر : تجديد التفكير الديني ••• 19

(2) الذاريات : 21

وهو ميله الذي لا يُغالب ، وانعطافه الذي لا يُقاوم نحو السمو والجمال والخير . ولا ريب أن كلمة (تُبصرون) في الآية تتضمن معنى الإبصار لا بالبصر ، ولكن بالعقل المجرد الذي استقرّ في النفس ليدبّرها ويسيرها ، أو بالبصيرة النورانية التي تكشف الحقائق متى وصلت إلى مرتبة معينة . ذلك أنّ الظرفية المستفادة من حرف (في) قرينة مانعة من الإبصار بالعين . وتعبير الآية بصيغة الاستفهام الإنكاري « أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ » تأييدٌ على التقصير في التأمل الذي يتأتى لكل انسان ، لأنه من خصائصه كما قال شاعر :

دَوَاؤُكَ فِيكَ وَمَا تَشْعُرُ وَدَاؤُكَ مِنْكَ وَمَا تُبْصِرُ
وَتَزْعَمُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ وَفِيكَ انْطَوَى الْعَالَمَ الْأَكْبَرُ

لقد منح الله الإنسان القدرة على فهم أسرار هذا الكون ، ولكن ذلك شغله عن الوصول إلى أسرار نفسه ، تلك النفس التي وضعها القرآن الكريم في كفة واحدة مع الكون كله بما فيه من عوالم . وإذا نجح الإنسان في اكتشاف الكون ، فإنه عاجز عن اكتشاف النفس بما فيها من أبعاد ، وبما لها من قوى دافعة ، واتجاهات في دروب الحياة المتشعبة .

ومن آيات روعة القرآن وجلاله أنّ الخالق يحدثنا فيه بنفسه عن همسات الضمائر ، وخواطر القلوب ، وما في خبايا النفوس ، وهو أدرى بما أودع فيها من أسرار : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » (1) ، لكن المجال هنا لا يسمح باستقصاء

(I) الملك : 14 .

هذا الجانب كمصدر من مصادر المعرفة في القرآن . فلنقتصر إذن على القصة القرآنية بعرض نماذج قصيرة منها تكشف عن مطاوي النفس .

إذ أننا نجد في هذا القصص ما يتقصى أبعاد الجوانب فيها بما تضمنته من إشارات تلمس أرقّ العواطف والمشاعر ، كما في قصة زواج موسى من بنت شعيب :

«وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ . وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ . قَالَ : مَا خَطْبُكُمَا ؟ قَالَتَا : لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدَرَ الرَّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ . فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ، فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ . فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ، قَالَتْ : إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا . فَلَئِمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ : لَا تَخَفْ . نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . قَالَتْ إِحْدَاهُمَا : يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ . إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ . قَالَ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ . فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ . وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْسُقَ عَلَيْكَ . سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَ : ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَسِينَ فَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ . وَاللَّهُ عَلِيُّ وَكَبِيلٌ (1) .

(I) القصص : 23 - 27 .

فهذه القصة القصيرة تسلط الأضواء على بعض الجوانب النفسانية لشخصية موسى عليه السلام ، حين انتهى به المطاف إلى ماءٍ لمدين . فلم يكاد يجلس ليُريح جسمه المكدود ، حتى يرى مشهدا لا تستريح إليه نفس كنفسه النبيلة . فقد رأى الرعاة يزدهمون على المورد ليوردوا أنعامهم ، ورأى امرأتين تمنعان غنمهما عن ورود الماء . وكان من المروءة والشهامة أن يُفسح الرجال لهما ، ويعينوهما . فسقى لهما ثم عاد إلى الظل يُناجي ربه ، وهو الطريد الغريب المحروم في موطن قد تذهل فيه النفوس .

ثم تعود إليه إحدى البنيتين لتبليغه دعوة أبيها الشيخ في حياء لا يشوبه عي أو ارتباك ، مع قصد في الكلام ، وإبانة عن المراد . ولكنها على قلّة كلماتها تشير في وضوح إلى معان كثيرة منها :

أن موسى فهم أن هذه المرأة ذهبت إلى أبيها وحدثته عما فعله ، وطلبت منه أن يجزيه . إنها بلا شك أثنت عليه ثناء جعل والدها يثق في هذا الرجل المجهول ، فيرسلها إليه وحيدة دون أختها لتستدعيه . ولعل الأخت الأخرى أدركت بذكائها الفطريّ ألاّ مكان لها في هذه العاطفة ، فآثرت البقاء إلى جوار أبيها (1) ، حتى تعود أختها بالرجل الذي رأت من قوته التي هابها الرعاة ، ففسحوا له المورد ، ومن أمانته التي جعلتها تطمئن إليه وهي ترافقه إلى بيت أبيها ما دفعها إلى القول :

« يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ » .

ولعله أحسن من نفس الفتاة ونفس موسى ثقة متبادلة وميلا

(I) محمد كامل حسن : القرآن والقصة الحديثة : 54 .

فطريتا - وهو الرجل الذي أذكت التجربة من حسه - فحاول أن يترجم عن رغبتها الكامنة بعرض الزواج عليه . ولا شك أن القوة والأمانة حين يجتمعان في رجل ، تهفو إليه طبيعة الفتاة البريئة التي لم تنحرف عن فطرة الله (1) .

ويظهر في القصة جانب آخر من نفسية المرأة التي تُعجَبَ برجل ما . والمثل الفرنسي يقول : المرأة هي التي تختار زوجها في الوقت الذي يُحس فيه الرجل أنه هو الذي يختار . فإن موسى لما وقع من قلب تلك الفتاة زينت لأبيها أن يستدعيه ليشكره ويستأجره ، فيستجيب الأب ، ويأتي موسى ، ويقبل شروط الزواج بها ، فيتم لها تحقيق حلمها ، واختيار زوجها .

وفي قصة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك التي قادها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، يتحدث القرآن في بساطة عن بعض نظريات علم النفس الحديث ، وهو عذاب الضمير ، ومعاناة الشعور بالذنب .

وهؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية . فقد تخلفوا رغم الإعلان عن الغزوة والتجهيز لها ... فلما مضت الغزوة أحسوا الإثم ، وبأزمة نفسية كادت تعصف بهم ، إلى أن نزل فيهم حكم الله :

« وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ

(1) انظر شرح القصة : في ظلال القرآن .

الأرضُ بِمَا رَحِبَتْ ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ ، وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ . ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا » (1)

فلو تصورنا ذلك الإنسان المذنب ، وقد ضاقت عليه الأرض ، ثمّ ضاقت عليه نفسه ، وكأنها تابوت يضغطه داخله ، لوجدنا أروع صورة رسمت دقة الشعور بالخزي ، والإحساس بالإثم ، كما تصوورها أحدث كتابات علم النفس (2) .

والآية التي تصوّر مشهد أهل الكهف الذين تعاقبت عليهم السنون ، فتحولوا إلى صورة تُفزع القلب وتروّع النفس فتقول : « لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَسَوَّلَيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ، وَلَمَلَّثْتَ مِنْهُمْ رُعبًا » (3) تتفق مع نظريات علم النفس التي تقول : إنّ الإنسان قد يفزع من خطر ، فإذا غريزة حبّ البقاء تدفعه بعيدا عن مصدر الخطر ، لأن مجرد إحساسه بالخطر يحشد فيه قوّة غير عادية لا يُمكن ان يحصل عليها في حالة الاطمئنان . فالآية تشير إلى الحالة التي تملك الانسان عندما تشور فيه غريزة حبّ البقاء ، فيلوذ بالفرار ، ويزداد إحساس القارىء بعمقها في ضوء علم النفس . وهذه الغريزة هي التي استولت على موسى عليه السلام ، فولّى مديرا حين رأى عصاه تتلوّى وتهتزّ صاعدة هابطة ، وهول بعيدا عن مكان الخطر الذي يخشى منه على نفسه . « فَاكْمَأَ رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ » لولا نداء ربه له :

(1) التوبة : 118 .

(2) القرآن نظرية عصرية جديدة : 222 .

(3) الكهف : 18 .

« يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ »

ونسجد في القصص القرآني نوعاً آخر في تحليل النفس ، وما يعترئها من آفات وانحرافات ، كالتعصب والهوى والترف والركون إلى الظلم والتقليد .

وما استعمله القرآن من عوامل التأثير النفسي لمقاومة هذه الآفات النفسية والوقاية منها ، هو ما سندرسه في الباب الثاني من هذا الكتاب (قسم البحث التحليلي) .

(3) التاريخ :

إذا اتَّجِهَ قصص القرآن نحو ماضي الإنسانية فإنَّما ليكشف عن الحقائق من وراء الأحداث التاريخية ، ويستخلص منها سنن الله الحكيم في النعمة والنقمة ، وفي قيام الأمم وسقوطها ، وضعفها وقوتها ، وإلى عدله تعالى في بقاء الأصلح ، وحكمته في نظام خلقه . وذلك باعتبار أن التاريخ مصدر من مصادر المعرفة القرآنية . وقد سبق الحديث عن سنن الله في الفصل السابق ، ولكن سننظر في هذا الموضوع من زاوية أخرى لبيان أن التاريخ مصدر من مصادر المعرفة في القصص القرآني خاصة ، وذلك بما يكشف عنه بعض أحداث هذا القصص من نتائج تتجلى فيها نهاية الصراع بين الحق والباطل ، بين الإيمان والكفر ، بين الخير والشر ، كما في هذا المشهد من قصة موسى وفرعون :

« وَتَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ، قَالَ : يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ؟ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ »

« أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ، وَلَا يَكْنَادُ يَبِينَ .
فَلَوْلَا الْقِيَامَ عَلَيْهِِ أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأَتِكَةُ
مُقْتَرِنِينَ . فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ . إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
فَاسِقِينَ . فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ
أَجْمَعِينَ . فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ »

ففي سياق تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عن مقاومة
كبراء قومه له ، واعتراضهم على اختياره للرسالة ، واعتزازهم
بالمظاهر المغرية ، والأعراض الزائلة ، يُقدّم القرآن حلقة
تاريخية تقصّ ما كان يلقاه موسى من فرعون وملئه ، وتُشبهه ما
يلاقه الرسول من رؤوس الشّرك في قومه . قَالَ كُبراء قريش
في معرض الاعتزاز بعظمة الغنى والرئاسة :

«... لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْبَاتِ عَظِيمٍ» (2).

وقال قبلهم فرعون في معرض الاعتزاز بالمال والسلطان أيضا :

« فَلَوْلَا الْقِيَامَ عَلَيْهِِ أَسَاوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ ، « أَلَيْسَ لِي
مُلْكٌ مِّصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ؟ » .

وكلا الاعتراضين يُبين عن نفسيّة التّعالي عن دعوة الحق ،
والتّباهي بالجاه والمال . فلا يملأ عين الكبراء ، ولا يعظّم في
نفوسهم غير بريق الذهب ، وأبهة السلطان .

(1) الزخرف : 50 - 56 -

(2) الزخرف : 30 .

وبعرض هذه اللّمة التاريخية الخاطفة في تناسق بين الحلقة المعروضة ،
والحال القائمة ، يتجلّى الهدف الديني بارزاً : ألا وهو : تثبيت الرّسول
والمؤمنين في الدعوة إلى الله ، وانذار المعرضين مصيراً كمصير فرعون
وملئه . على أن القصص القرآني إذ يعتمد هذه المصادر التي يعتمدها
القرآن عامّة ، لا يُلغى العقل ولا يعطله عن التفكير . لأنه
كثيراً ما ينتهي إلى نتائج إيجابية شاملة ، وإلى نواميس ينسّقها
في منطق عامّ ، ويعملها تعليلاً منطقياً يقتنع به العقل :

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ بَطَرَتْ مَعِيْشَتَهَا ، فَتَلِكْ
مَسَاكِيْنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَائِيْلًا . وَكُنَّا نَحْنُ
الْوَارِيْثِيْنَ . وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكِ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِيْ أُمَّهَاتِ
رَسُوْلًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا
وَأَهْلُهَا ظَالِمُوْنَ » (1)

ومن النّواميس الثابتة التي يجب التّسليم بها في مقدّمات البراهين ،
أن منهج الأفراد والأمم ، وطريقتهم في التفكير والاعتقاد والسلوك ،
تخضع لسنن الله في تصريف الطبائع والقلوب وفق المؤثرات
والاستجابات . فالأمة التي تغلق قلوبها دون دواعي الهدى ودلائله
في الكون والنفوس وأحداث التاريخ أمة ضالة ، تزداد ضلالاً كلّما
ازدادت إعراضاً عن الهدى ودواعيه ، فيحلّ عليها غضب الله .
ومن يحلّ عليه غضبه لا يأمن عذابه .

« وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ، وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ، وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ . وَقَارُونَ وَقِرْعُونَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ . فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ . فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا . وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (1) .

الفصل السادس

عرض ونقد لمنازع المفسرين

الاسرائيليات والقصص :

الإنسان بطبعه تواق إلى معرفة أخبار الماضين واستقصاء قصصهم ، سيما إذا كانت كأكثر قصص القرآن تتصل بحياة الإنسان وسنن الكون وأسرار الوجود ، وفيها ما يُفسح المجال للفكر والعاطفة . فكان تطلع الصحابة إلى هذا اللون من القصص الديني الذي لم يألفوه ، وكان لما يجدون في نفوسهم من ميل إلى استقصاء أخباره ، والوقوف على تفاصيله ، مما دفعهم إلى استيضاح أهل الكتاب ، وبخاصة اليهود عما أجمله القرآن

قال ابن خلدون : « إن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم ، وإنما غلبت عليهم البداوة والامية . وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات ، وبدء الخليقة ، وأسرار الوجود ، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدونه منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ، ومن تبع دينهم من النصارى . وأهل التوراة الذين هم بين العرب يومئذ بادية مثلهم . ولا يعرفون من ذلك إلا ما عرفه العامة من أهل الكتاب . ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية . فلما أسلموا ،

بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها . فامتلات التفاسير من المنقولات عنهم . ولا تحقيق عندهم بمعرفة بما ينقلون . لكنها تُلقيت بالقبول لِمَا كانوا عليه من المقامات في الدين والمِلَّة « (1) .

وفي المرحلة الأولى للدعوة الإسلامية خشي الرسول صلى الله عليه وسلم أن يختلط على المسلمين مبادئ هذا الدين وأصوله بغيرها مما يتلقونه من اليهود من ثقافتهم الدينية . فنهى عن سؤالهم في حديث رواه جابر بن عبد الله : « أن عمر بن الخطاب أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه عليه ، فغضب ، وقال : أمتهوكون (2) فيها يا ابن الخطاب ؟ والذي نفسي بيده . لقد جئتكم بها بيضاء نقية . لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به ، أو يباطل فتصدقوا به . والذي نفسي بيده لو أن موسى صلى الله عليه وسلم حيا ما وسعه إلا أن يتبعني (3) .

وعملا بهذا الحديث روئي أن ابن عباس قال يوما لجماعة من أصحابه كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذي أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدث ؛ تقرأونه محضا لم يشب . وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : « هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا » .

(1) المقدمة : 786 .

(2) المتهوك : المتحير . والمعنى : أمتهيرون ، شاكون في الاسلام ؟

(3) رواه أحمد .

ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ . لا والله : ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل إليكم » (1) .

ويبدو أنه لما زال خوف الالتباس والخلط باستقرار العقيدة ، الإسلامية ، واستقرار الدين الحنيف ، أذن الرسول في السماع عنهم ، ورواية ما لا يتضح كذبه ، فقال : « بلّغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » (2) . ومن واجبتنا أن نكذبهم فيما يُحدثون به ، أو يخبرون عنه ، إذا كان منكراً في ديننا ، كإخبارهم عن الله بما ينافي تزويده ، وعن أنبيائه بما لا يتفق وعصمتهم .

أما ما يحتمل الصدق والكذب ، فلا نحكم عليه بشيء ، حتى لا تقع في الحرج عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم :

« لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم الآية » (3) .

ومن هنا يتبين كيف دخلت الإسرائيليات (4) بعد عصر الصحابة وصدر التابعين في تفسير القصص ، حتى غدت على توالي القرون مرجعاً لأكثر المفسرين بالمأثور . وقد سوّغ لهم أن يزجوا بهذه المنقولات على ما هي عليه في تفاسيرهم أنها ليست مما يرجع

(1) رواه البخارى .

(2) رواه البخارى .

(3) رواه البخارى .

(4) الاسرائيليات : الثقافتان اليهودية والنصرانية . وإنما أطلق عليها هذا الاسم من باب التغليب ، إذ أن الجانب الاسرائيلي هو الذى اشتهر وكثر النقل عنه .

إلى الأحكام التي يجب العمل بها ، وأنّ العامّة يتلهّفون على هذا القصص الديني ، ويروقههم أن يجدوا فيه من التبسّط والاستقصاء ما يشبع رغبتهم ويشفي غليلهم . فقد كانوا يجلسون حول القاصّ في المسجد ، فيروي لهم من أخبار الأمم السالفة ما يعتمد الترهيب والترغيب ، وإثارة العجب والإعجاب ، أكثر ممّا يعتمد صدق الرواية .

آفات القصص :

لذلك كره الصحابة هذه الطريقة في التذكير والوعظ ، لأنها رغم تأثيرها في العامّة لا تخلو من تزييف ومبالغة ، ومن استغلال للعواطف الساذجة .

وأول من قصّ في مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تميم الدّاري في خلافة عثمان . وكان استأذن قبل ذلك عمر أن يذكرّ الناس ، فأبى عليه ، لأنّه يعرف ولعه بالقصص ، وهو الذي ذكر للنبيّ صلى الله عليه وسلم قصة الجسّاسة والدجال (1)

ويروى أنّ عليّاً مرّ برجل يقصّ على النّاس . فقال له :
 أتعرف النّاسخ من المنسوخ ؟ قال : لا . فقال له : أتعرف المحكّم
 من المتشابه ؟ قال : لا . فأخذ عليٌّ بيده وقال : إنّ هذا يقول :
 اعرفوني (2)

(1) القصتان في : صحيح مسلم .

(2) أبو طاهر اسماعيل النفوسى : قناطر الخيرات : 233

وقد عقد الطرطوشي فضلا تحدث فيه عن بدعة القصص في المساجد (1) .

ولا تخلو بعض التفاسير القديمة ممّا لا يفيد العلم به ، ولا يضرّ الجهل به في الدين والدينا . ولا جدوى في تكهّنات المفسّر التي لا يعضدها نقل موثوق به ، إذ ليس من شأنه أن يسمع صوت العشب وهو يبت كما يقال .

ومن ذلك مثلا : خوض بعضهم في لون كلب أصحاب الكهف ، واسم الغلام الذي قتله العبد الصالح في قصّته مع موسى ، وأنواع الطعام الذي نزلت به مائدة السماء استجابة لدعوة عيسى ، وأنواع الطيور التي أحياها الله لابراهيم ، وما أهدته بلقيس إلى سليمان ، وعدد الدراهم التي بيع بها يوسف ، ونحو ذلك من الجزئيات التافهة .

على أنّ هذا ليس بالأمر الخطير . وإنّما الخطير حقا أن نجد في بعض التفاسير القديمة - التي اكتسبت لتقدم عهدتها نوعا من القداسة عند الناس - أخبارا غريبة يرويها المفسّر ولا يعقّب عليها بالتجريح أو التضعيف ، في حين أنّها من نسج خيال سخيّف ، لأنّ همّه أن يستوعب الأخبار عمّن سلف ، ويحشد النقول ، ويجمع الروايات أيّا كان مصدرها وإن كانت غريبة .

ومن ذلك مثلا ما ذكره الألوسي نقلا عن "معالم التنزيل" عند تفسيره لقوله تعالى : « وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا » (2) . من قصة «عوج بن عنق» العجيبة

(1) انظر هذا الفصل في : كتاب الحوادث والبدع : 99 - 103 .

(2) المائدة : 12 .

وزعمهم أنه كان في عهد نوح عليه السلام . وبعد الفراغ من عرضها قال : لقد شاع أمر "عوج" عند العامة ونقلوا فيه (حكايات شنيعة) . وكما قال ابن القيم : « ليس العجب ممن جُسرأة ممن وضع القصة ، وكذب على الله ، وإنما العجب ممن يُدخل هذا الحديث في كتب العلم من التفسير وغيره ، ولا يُبين أمره . ولا ريب أن هذا وأمثاله من صنع زنادقة أهل الكتاب الذين قصدوا الاستهزاء والسخرية بالرسول الكرام عليهم الصلاة والسلام » (1)

ومنه أيضا ما أورده الخطيب الشربيني - وهو من المولعين برواية غريب القصص - عند تفسيره لقوله تعالى : « وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ . وَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ » (2).

نراه يروي خبرا طويلا عن كعب فيه : أنه صاح طاوس عند سليمان عليه السلام . فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا . قال : فإنه يقول : لَيْتَ هؤلاء الخلق لم يُخلَقوا . وصاح ديك فقال : اذكروا الله يا غافلون ، إلى آخر ما ذكره من المعاني لصيحات حيوانات مختلفة هو في منتهى الغرابة .

منشأ اختلاف المفسرين :

وفي قصة المائدة التي أنزلها الله من السماء استجابة لدعوة عيسى عليه السلام (3) ، لم يكن الاختلاف بين المفسرين فيما

(1) الآلوسی : روح المعاني . ج : 6 / 86 - 87 .

(2) النمل : 16 .

(3) المائدة : 114 - 117 .

نزلت به المائدة من طعام فحسب ، وإنما الخلاف بينهم في نزول المائدة ، أو عدم نزولها ، وفيما يراد بالمائدة .

فقد روي عن مجاهد قال : هو مثلٌ ضربه الله ، ولم ينزل شيء (1) .
وعن وهب : نزلت مائدة منكوسة تطير بها الملائكة ، عليها كلّ طعام إلاّ اللحم . وقيل كانوا يجدون عليها ما شاءوا

وقيل : كانت تنزل حيث كانوا بكرة وعشياً (2) .

وروي انها سفرة حمراء نزلت بين غمامتين.....عليها سمكة مشوية بلاشوك تسييل دما ، وعند رأسها ملح ، وعند ذنبها خلّ ، وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث ، وإذا خمسة أرغفة : على واحد منها زيتون ، وعلى الثاني عسل ، وعلى الثالث سمن ، وعلى الرابع جبن ، وعلى الخامس قديد . فقال شمعون رأس الحواريين : يا روح الله ! أمن طعام الدنيا ، أم من طعام الآخرة ؟ فقال : ليس منهما ، ولكنه شيء اخترعه الله تعالى بالقدرة العالية (3) وقال قتادة كان عليها ثمر من الجنة (4)

وعن بعض الصوفية : المائدة هنا : عبارة عن حقائق المعارف . فإنها غذاء الروح ، كما أنّ الأطعمة غذاء البدن . وعلى هذا فلعلّ الحال أنهم رغبوا في حقائق لم يستعدوا للوقوف عليها.....الخ (5)

(1) عمدة التفسير . عن ابن كثير : اختصار وتحقيق أحمد محمد شاكر .

ج 4 / 262 .

(2) تفسير النسفي . ج : 1 / 310 .

(3) البيضاوي : أنوار التنزيل . ج : 2 / 176 .

(4) أبو السعود : ارشاد العقل السليم . ج : 2 / 74 .

(5) الزمخشري : الكشاف . ج : 1 / 158 .

والجدير بالملاحظة هنا أن هؤلاء المفسرين الذين اختلفوا
اختلفا كبيرا في قصة المائدة ، لم يدعم واحد منهم رأيه بدليل
يطمئن إليه الدّارس . وبذلك سدّوا عليه منافذ الاختيار والترجيح .

والحقّ أنّنا إذا نظرنا بعين الناقد البصير في ما اعتمد من
مصادر لتفسير قصص القرآن ، تمثّلت المعضلة في انعدام المراجع
الموثوق بها في ظروف القصة وتفاصيل أحداثها ، ثمّ في تعدّد
الروايات المتباينة التي كثيرا ما تختلط فيها المعلومات التاريخية
بالأساطير الشائعة ، ويشتبه فيها الصحيح بالموضوع ، والأصيل
بالدخيل .

وهذه الطريقة التي انتشرت في التفسير بالمأثور ، وفي تدوين
التاريخ القديم تفسّر قول ابن حنبل : (ثلاثة لا أصل لها :
التفسير والملاحم والمغازي) (1) .

وإنّما يعني بالتفسير ما كان ممزوجا بالأساطير وبالقصص
الخيالي .

نعم لقد عرض القرآن بعض القصص في إيجاز
واجمال يتعدّر معهما أحيانا فهم المراد من إشاراته التي
تكاد تكون لمن لم يعرف القصة من قبل أُلغازًا ، لا غنى فيها للمفسّر
عن ثقافة تاريخية عامّة تمكّنه من الرجوع إلى بعض مصادر التاريخ
القديم ، لكن في إطار القصة القرآنية ، أعني التقيّد بما ورد فيها ،

(I) السيوطي : الاتقان في علوم القرآن . ج : 2 / 178 .

وتجنب التفاصيل والاستطرادات التي لم يتعرض إليها القرآن
ولو بالإشارة والتلميح

ومن ذلك مثلاً قصة أيوب عليه السلام :

«وَأذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ
بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ . ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ
وَشَرَابٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا
وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ . وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ
وَلَا تَحْنَثْ . إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ » (1) .

فهذه القصة تروي ما عاناه أيوب عليه السلام عند ما ابتلاه
اللهُ بفقد ماله وممتلكاته وكل ثروته ، وبهلاك أولاده جميعاً ، وبالحاح
الصدأ والسقم على جسده ، حتى هزل ونفرت منه شيعته ومن
حواله إلا زوجته التي كانت تحنو عليه ، ثم انقلبت بعد ان عيّل صبرها
وملّت الحياة إلى جانبه وفي خدمته . فقالت له يوماً : حتى متى
يعذبك ربك ؟ فهلاً دعوت الله أن يكشف حزنك ويزيل بلواك ؟
أين الاولاد ؟ أين الصديق ؟ أين شبابك الذاهب ؟ أين عزك
القديم ؟ فقال : أستحيي أن أطلب من الله رفع بلائي ، وأنسى ما قضيت
فيه مدة رخائي . ولكن يخيل إليّ أن الشيطان سؤل لك أمراً ،
وإنه قد ابتداء يضعف إيمانك ، ويضيّق بقضاء الله قلبك ! ولئن
برئت وعادت إليّ قوتى لأضربنك مائة سوط . فاغربي عني ،
حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً . فأصبح أيوب وحيداً ، وقد اشتدت

أسقامه ، وتضاعفت ألامه . فالتجأ إلى الله بالدعاء فأصاخ لشكواه وأوحى الله إليه : أن اضرب الأرض برجلك ينبع لك منها ماء بارد فاغتسل ، واشرب منه ، يذهب مرضك . فما شرب حتى صح جسمه ، وزال سقمه ، وكانت زوجته قد رقت قلبها له ، وحدثت عليه ، ولم تطاوعها نفسها أن تتركه وشأنه ، فرجعت إليه لتقوم بأمره فأوحى إليه الله : أن خذ حزمة من القش ، واضربها بها ضرباً رقيقاً رخصة لك في يمينك حتى لا تحنث ، ورحمة بهذه المخلصة المؤمنة التي شاركتك في آلامك واحتملتك في مرضك

وقد أثنى الله على أيوب الذي أصبح مثالا عالياً في الصبر . فقد احتمل هموما تنوء بها الجبال ، وما افتتر لسانه عن ذكر الله ، ولا تزعزع قلبه عن الإيمان ، بل ادرع بصبر عجيب ، وفزع إلى الله لا متسخطاً ولا متبرئاً ، بل داعياً متضرعاً (1) .

إن قصة أيوب لم ترد في القرآن إلا في هذا الموطن من سورة (ص) أو إشارة منها في سورة (الانبيا)

« وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ » (2) .

(1) انظر : قصص القرآن : لمحمد أحمد جاد المولى وزملائه : 231 - 239 .

(2) الأنبياء : 82 - 84 .

فمن لم يكن له إمام بهذه القصة من قبل ، عجز عن فهمها من القرآن : لأنه لا يستطيع ان يتكهن بما تدلّ عليه إشاراته . ولا مجال في مثل هذا للاجتهاد والتأويل .

ولا يُستبعد أن يكون في القرآن من القصص ما للعرب معرفة به ، ولو إجمالاً . فالرّازي يقرّر أنّ أخبار عاد وثمود وفرعون كانت معلومة عند العرب بالتواتر

ونجد في الشعر الجاهلي ذكراً لبعض هؤلاء الأقوام والأنبياء . ولكن الشعراء لا يتداولون الأخبار إلاّ إذا كانت ذائعة معلومة في بيئاتهم ، وان امتزجت في كثير من الأحيان بالأساطير .

يقول الجاحظ : « وترعم الأعراب أنّ الله تعالى حين أهلك الأمة التي كانت تسمى (وبار) كما أهلك طسما وجد يسا وعملاق وثمودا وعادا ، سكنت الجنّ في منازلهم ، وحمتها من كل من أرادها ، وأنها أخصب بلاد الله وأكثرها شجرا ، وأطيبها ثمرا ، وأكثرها حبّا وعنبا ، وأكثرها نخلا وموزا . فإن دنا اليوم إنسان من تلك البلاد متعمداً ، أو غالطا ، حثوا في وجهه التراب ، فإن أبي الرجوع خبلوه ، وربّما قتلوه » (1)

فمن الأخبار الواردة في أشعار العرب الجاهلية قول عمرو بن قميئة :

لا تحسبن الدهرَ مُخلدِكم أدائمًا لتكمُ ولم يَدمِ ؟
لو دام دَام لتبَّعِ وذوي الأصقاعِ من عادٍ ومن إرمِ (2) .

(1) البيان والتبيين . ج : 6 / 66 .

(2) ديوان الحماسة : 182 .

ولا سبيل إلى الشكّ في أنّ الشعراء الجاهليين قد عرّفوا سليمان وتسخيره الحيوان والجنّ والرياح ، كما كانوا على علم ببعض الأحداث التي وردت في العهدين : القديم والحديث ، كحديث التكوين ، وأخبار الطوفان .

فقد جاء ذكر سليمان في قول الأعشى بعد وصفه لبنات الدهر :
فذاك سليمان الذي سخّرت له مع الإنس والجنّ الرياح المذاكيّا
فلو كان شيءٌ خالد غير ربنا لكان لها من سائر الناس وآليّا

ولكنهم قد يخلطون في التاريخ ، فينقلون أخبارا خاطئة :
كما في قول زهير بن أبي سلمى يحذّر من شرور الحرب وآفاتها :
فتنّسجْ لكم غلمانَ أشأمَ كلّهمْ كأحمرِ عادٍ ، ثم ترضع فتفطمـ
أراد به عاقر الناقة الذي كان شؤما على أهله ، ولكن عاقر
الناقة - كما لاحظ الأصمعي - هو من ثمود لا من عاد . (1)

فاختلاف المصادر التي اعتمدها المفسّرون القدامى في تفسير
القصة القرآنية ، وقلة المصادر الموثوق بها ، ثمّ تأثر القصص
القرآني في شرحه وتحليله بالآراء الشخصية ، والنزعات المذهبية ،
والاتجاهات الفلسفية ، والمدارس الأدبية ؛ كل ذلك نشأ عنه اختلاف
المفسّرين والدّارسين لهذا القصص . والاختلاف والتنوع هنا كلاهما
من سمات التحرّر الفكري ، لكن على ألاّ ينتهي الخلاف إلى
التضارب والتضادّ ، أو إلى العدول عن المعنى الحقيقي للقصة - بلا

مبسرّ سوى تأييد مذهب أو نزعة - إلى المجاز ، أو الكناية ، أو التمثيل ، أو التخيل ، وذلك بصرف الألفاظ عن مدلولها الظاهر في تعسّف وتكلّف ينبو عنهما المنطق ، كما عُرّف عن بعض غلاة الشيعة الذين يعمدون إلى التأويلات البعيدة لتأييد مذهبهم بحمل النصوص القرآنية عليها ، مدعين أنّ القرآن ظاهراً وباطناً ، وأنّ فيه علم الأولين والآخرين ، وأنباء ما كان وما سيكون ، وأنّ ذلك محجوب إلاّ عن جماعة أخذت العلم وراثته عن النبوة إلهاماً من الله (1)

ومنهم من تأثر بالذوق الصوفي فاستعمل التفسير الإشاري الذي يفتح الله به على أهل الحقيقة من العارفين

بل ومن الدارسين للقرآن وقصصه ، من جاء تفسيره لبعض القصص متأثراً بخواطر في السياسة والعلوم الحديثة ، كما ورد في عرض الأفغاني لقصة سليمان وبلقيس والهدد

« قَالَتْ: يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ لِي كِتَابٌ كَرِيمٌ . إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَنْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَتْ : يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ افْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ . قَالُوا : نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ . فَاَنْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ . قَالَتْ : إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ . وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ

(I) عبد الكريم الخطيب : التعريف بالاسلام : 64 •

إِلَيْهِمْ بِهِدِيَّةٍ فَنَظَرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَاوَنَ : فَلَمَّا
جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ : أْتَمِدُّونَنِي بِمَالٍ ؟ فَمَا آتَانِي اللهُ خَيْرٌ
مِمَّا آتَاكُمْ . بَلْ أَنْتُمْ بِهِدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ . ارْجِعْ إِلَيْهِمْ
فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ، وَلِنُخْرِجَنَّهُمْ
مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ . قَالَ : يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ
يَأْتِيَنِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَ : عَفْرَيْتُ
مِنَ الْجِنِّ : أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ، وَإِنِّي
عَائِيهِ بِقُوِيٍّ أَمِينٌ . قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ
أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ» (1)

يقول الأفغاني في تفسير القصة :

« نعم ... إنَّ تدبير الممالك وصورها - من سلطان أو ملك يطغى
بقوته - بالحكمة وحسن الرأي والمشاورة ، ودعوة الأمة للتداول ،
وأعمال بعض الملوك ومساويهم ، وما يحدثونه من المفساد إذا
دخلوا بعساكرهم للمدن والقرى ، وإذلالهم أعزّة القوم كلَّ
ذلك مسطور في القرآن في سورة النمل ، بأصرح عبارة ، وبآيات
وجيزة . وإليك البيان :

غضب سليمان عليه السلام على الهدهد إذ تفقده ولم يجده .
فلما حضر قال : « جِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ بِنَبِيٍّ يَقِينٍ » غير
ملفتِّ ولا مشوب بكذب ، كما تفعل أكثر الجواسيس مع الملوك
والحكّام

فلم يتسرع سليمان في قبول نبأ الهدهد هذا ، بل أعطاه كتابا ليُوصله ، وأوصاه أن يترقب عن بُعد ما يعلّقون . فلما جاء الكتاب إلى مكة سبيل ، جمعت فوراً مجلس الأمة وقالت :

« يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ افْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ »

وبعد أن تداول مجلس الأمة " الوزراء اليوم مثلاً "

واستخرجوا إحصاء من سجلاتهم بما عندهم من المعدات الحربية ، أعلموا الملكة أن بإمكانهم محاربة سليمان بما توفر لديهم من القوة ، إذا هي وافقت على إعلان الحرب « قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ ، وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ »

فقلت ما معناه : إن للحرب ويلات ، فلا ينبغي أن نتسرع بإعلانها ، بل نحاول درأها بما أمكن من التدابير والوسائل السلمية والتودد واللين ، إلى غير ذلك عسى أن نتخلص ، ونخلص البلاد من رزايا دخول الملوك بعساكرهم ، وما يحدثه ذلك : « قَالَتْ : إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ . وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ؟ »

فرد سليمان الهدية ، وتحفز لإخراج الملكة وقومها أدلة بالحرب ، وأراد أن يربها مالدته من القوى ، وما تسخر له من رياح يمتطيها وتجري بأمره (طيارات مثلاً) وسرعة نقل الاخبار والأشياء بأسرع من البرق (التلغراف اللاسلكي مثلاً)

فقد وجدنا بهذه القصة أنّ تلك الوسيلة التي توفوت لسليمان وبها نقل عرش بلقيس من سبيل إلى القدس قبل أن يتردد إليه طرفه ، جاءت صريحة بالعمل ، مبهمّة عن الآلة العاملة ، إذ لم يكن بالإمكان للقرآن أن يصرّح بشكلها أو باسمها لبُعد ذلك عن الأذهان في ذلك الحين

وكذلك لوجاءنا للقرآن بنقل الأخبار بالفضاء ، وشرح لنا ما فهمناه اليوم ، لما صدّقنا ذلك لو لم نره باللاسلكي

وهكذا العلم لا يعجز عن إحداث ما نظّمه اليوم مستحيلا وابرازه مرثيا . فالبشر في الهيكل الترابي قد تحدّد له ما يستطيع عمله به ، وأنّما هو في قوّة روحه وعقله لا ندري إلى أين يصل.... ؟

ثمّ يقول : « وفي قصة الهدهد إشارة دقيقة جدا ، وهي :
عندما أراد سليمان استحضار عرش بلقيس استعرض ما عنده من وسائل النقل السريعة وأربابها ، واستبرزهم ما عندهم من ذلك (قَالَ عِفْرِيْتُ مِنَ النِّجِينِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ) فرأى سليمان عليه السلام ذلك بطيئا ، فلم يرق له ، فتقدّم عند ذلك غيره ، (وَقَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) ، فعلمنا من تلك الإشارة أو الصّراحة أن وسيلة نقل الأشياء بسرعة لا يتخيّلها وهمنا اليوم ، كانت علما مدوّنا بكتّاب ، وله أرباب وذووا رسوخ فيه ، وتمكّن وقدرة عليه على طريقة الأرواح» (1)

(I) الاعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني : 267 - 268 .

وما ذكره الأفغاني من هذا الشرح لا يبدو أن يكون تقريبا لبعض الأمور العجيبة من الأذهان ، لأنه ليس تفسيرا بالمعنى العلمي المعروف . وإلاّ فإنّ الفرق بعيد بين صنع الخالق وصنع المخلوق . وقد أرشد الله عباده إلى القياس في غير موضوع من كتابه ، فقاس النشأة الثانية على النشأة الأولى في الإمكان ، وقاس حياة الأموات بعد الموت على حياة الأرض بعد موتها بالنسب ، وقاس الحياة بعد الموت على اليقظة بعد النوم (1)

من أمثلة الاختلاف :

ولعلّ من القصص التي تباينت فيها اتجاهات المفسرين سواء في فهمها أو في تفسيرها ، وظهرت من خلال تفاسيرهم شتى النزعات المذهبية والشخصية ، كما تجلّت فيها تحكّمات أهل الرأي على اختلاف مشاربهم : (قصة البقرة) التي كشفت عن طباع بني إسرائيل وأخلاقهم ، كاللجاج ، والمشاكسة ، والتلدد في الاستجابة ، وكثرة السؤال ، والتمرّد ، والقسوة .

وقد أخبر القرآن في هذه القصة عن معجزة أقامها حجّة لهم على المعاد ، لأنهم ينكرون قيام الأموات ، ولا يؤمنون باليوم الآخر ، رغم أنّ ديانتهم في أصلها تقرّر البعث والحساب ، ولكن أسفار العهد القديم لم تذكر شيئا من ذلك . وهذا دليل على أنها من صنع أيديهم ، وليست التوراة الصحيحة التي أنزلها الله على موسى نورا وهدى للناس .

وتتمثل هذه المعجزة التي أشارت إليها القصة في إحياء ميت قيل : لأنه كان موسيرا ، فقتله بنوعمه ليرثوه ، وطرحوه على باب المدينة ، ثم جاءوا موسى يطالبون بديته . ولما استحالت معرفة القاتل ، وراح كلُّ يتهم الآخر ، وبات الناس مهددين بفتن خطيرة ، أمر الله نبي إسرائيل على لسان نبيهم أن يذبحوا بقرة ، ويضربوا القاتل ببعضها ليحيا ، فيخبرهم بقاتله .

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً . قَالُوا : أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا ؟ قَالَ : أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قَالُوا : ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ؟ قَالَ : إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ ، عَمَّانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ، فافعلوا ما تؤمرون . قَالُوا : ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ؟ قَالَ : إِنَّهُ يَقُولُ : إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْبَعْ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ . قَالُوا : ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ؟ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ . قَالَ : إِنَّهُ يَقُولُ : إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ ، مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا . قَالُوا : الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ . فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ . وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ، وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مِمَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ . فَقُلْنَا : اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا . كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً .

وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَّا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ . وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَشَقُّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ السَّمَاءُ . وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَنْهَيْطُ مِنَ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ . وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ، ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ؟» (I)

فلو أننا حللنا الفكرة الأساسية للقصة ، والمغزى الذي تضمنته ، والغرض الذي سيقته له ، لاستخلصنا ما يلي :

(1) الفكرة الأساسية : وتمثل هنا حلقة في سلسلة طويلة

من أخبار بني إسرائيل . وتصوّر هذه الحلقة مدى انحراف فطرتهم ، والتواء طبعهم ، وتبيين كيف كانوا يتلكأون في الاستجابة لما يدعوهم إليه الله ، بل يُسيئون الأدب معه بمثل قولهم : « ادْعُ لَنَا رَبِّكَ » ويتهمون رسوله بالهزء والسخرية ، ويُعقدون الأمور ، ثمّ يفتعلون الحيرة ، ويرتكبون جريمة القتل ، ثمّ يرمون بها الأبرياء .

(2) الغرض الذي سيقته له القصة : وهو هنا تعريف الرسول

والمؤمنين بنفسية بني إسرائيل وأخلاقهم ، حتى لا يغرّهم نفاقهم ، وبأنه لا طمع في إيمانهم ، لأنّهم يعلمون الحقّ ويصرون على الباطل ، ويعرفون الهدى وينحرفون عنه . وقسوة قلوبهم تمنعهم من التأثر والتدبّر . فقد جعلوا من الدين عصبية عمياء تقوم بينهم على الجنس . وكان محمّد صلّى الله عليه

وسلم يحاول هو وأصحابه أن يثبتوا في قلوبهم الإيمان ، مؤمّنين هدايتهم ، باعتبار أنهم أعرف الناس بالكتب المنزلة ، ورسالات الرسل ، وأنّ القرآن جاء مصدّقاً لما جاء في التوراة ؛ كما كان بعض المؤمنين ينخدعون لمراوغتهم ونفاقهم ، فيعاشرونهم ، ويتخذونهم بطانة . وقد نهاهم الله عن ذلك في قوله عزّ وجلّ :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا . وَدَّوْا مَا عَنْتُمْ . قَدْ بَدَأَ الْبَغْضَاءُ مِّنْ أَقْوَاهِهِمْ ، وَمَا تَخْفَىٰ صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ . قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ، وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ . وَإِذَا لَقَوْكُمْ قَالُوا : آمَنَّا . وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ . قُلْ : مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ . إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِنَّ تَمَسَّسَكُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ ، وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا . وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا . إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (1) . »

وفي القرآن آيات كثيرة ربطت بين أخلاق اليهود الذين احتك بهم النبيء والمسلمون ، وبين أخلاق آبائهم وأجدادهم ، باعتبار أنهم يتفقون معهم في السجايا والطباع . فالقرآن عند ما يعرض أخبار أسلافهم ومنكراتهم في صيغة الخطاب لليهود

المعاصرين للدعوة الاسلامية ، فإنّما ليثبت وحدة الشخصية اليهودية
عبّر التاريخ ، كما ورد في هذه القصة نفسها :

« وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ... »

« ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ... »

تنبيهها للرسول وللمؤمنين على أنّ خلفهم على شاكلة سلفهم ،
ولذلك نزلوا منزلتهم .

3) المغزى : وهو ما يُستخلص من أحداث القصة للعظة

والاعتبار . وهو هنا : ذلك الانفعال الذي يستشعره القارئ بما
يفاجأ به في النهاية من ذلك الحدث العجيب الذي لم يكن يتوقعه
في بداية القصة ، وهو إحياء القتيل بسرّ من أسرار القدرة الآلهية

فهوّل الموت عند البشر عظيم ، ولكن إعادة الروح إلى
الجسد الذي أفسد الموت أجهزته ، وسلّبه كلّ أسباب الحياة
أمرٌ عند الله يسير ، يدعو إلى الايمان بالبعث والجزاء . لأنّ مشاهدة
هذه الآية العجيبة من شأنها أن تردّ العقول الضالّة إلى الحقّ ،
والقلوب الحائرة إلى اليقين ، وكذلك التصديق بها بعد أن أصبحت
حقيقة تاريخية

ولكن بني إسرائيل الذين رأوا تلك الآية عيانا ، سرعان
ما تناسوها ، وامّحى أثرها من قلوبهم ، فعادت إلى الجفوة والجهود
والقسوة ، لأنها كما وصفها القرآن أشدّ صلابةً من الصخر ،
لطغيان هوى المادة عليها ، وانقطاع صلّتها بالله .

« وإنّما تعلقت إرادة الله بالكشف عن القتييل مع أنّ دمه ليس بأوّل دم طلّ في الأمم ، إكراما لموسى عليه السلام ، أن يضيع دمٌ في قومه ، وهو بين أظهرهم ، وبمرأى منهم ومسمع ، سيما وقد قصد القاتلون استغفاله ، ودبروا المكيّدة في إظهارهم المطالبة بدمه . فلو لم يُظهر الله هذا الدم في بني إسرائيل لضعف يقينهم برسولهم ، ولكان ذلك مما يزيدهم شكّا في صدقه ، فينقلبوا كافرين » (1) .

وهكذا فإنّ الباحث يستطيع ان يتوسّع أكثر من مجرد شرح القصّة أو تحليلها ، بل يتعمّق في الوقوف على أبعادها ، دون أن يخرج عن الإطار القرآني الذي جاءت فيه . إذ المنهج السليم في تحليل القصّة القرآنية وإبراز أهدافها والجوانب المؤثّرة فيها ، إنّما يكون بالتزام النصّ ، وعدم الخروج عن منطوقه ومفهومه ، وتجنّب الخوض في المسائل الغيبية بدون نصّ أو دليل ، في تفاصيل لم ترد فيه إلاّ بالاعتماد على حديث صحيح ، أو رواية مؤثوق بها من الوجهة التاريخيّة ، حتى لا يتسرّب شيء من الخرافات والأساطير إلى العقول والعقائد ، يخرج بالقصّة عن هدفها الأصلي ، وغرضها المرسوم .

فإنّ ممّا أخذوا على « طنطاوي جوهرى » في تفسيره (الجواهر) كثرة الاستطراد ، والتوغّل في قضايا لا تستفاد من الآيات التي تفسّرها ، وإنّما جعل فيها مداخل ينفذ منها إلى مباحث أخرى صارت لبُعدها كأنّها عناوين لمقالات هامشية .

فهو في تفسيره لقصة البقرة يعقد بحثا مستفيضا في علم استحضار الأرواح الذي ظهر أخيرا ، والمناسبة التي يستطرد منها إلى هذا البحث هي : إحياء الله لقتيل بني إسرائيل ، لما ضُرب بشيء من لحم البقرة التي أُمروا بذبحها . فيقول :

«.....وأما علم تحضير الأرواح فإنه من هذه الآية استخراجها.... إن هذه الآية تُتلى ، والمسلمون يؤمنون بها ، حتى ظهر علم الأرواح بأمريكا أولا ، ثم بسائر أوروبا ثانيا .»

ثم يقول في خاتمة بحثه :

«ولما كانت السورة التي نحن بصددنا قد جاء فيها حياة العزيز بعد موته ، وكذلك حمارة ، ومسألة الطير وإبراهيم الخليل ، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فرارا من الطاعون فماتوا ، ثم أحياهم ... ، وعلم الله أننا نعجز عن ذلك ، فنجعل قبل ذكر تلك الثلاثة في السورة ما يرمز إلى استحضار الأرواح في مسألة البقرة . وكأنه يقول : إذا قرأتم ما جاء عن بني إسرائيل في إحياء الموتى في السورة عند أواخرها فلا تيأسوا من ذلك، فإنني قد بدأت بذكر استحضار الأرواح، فاستحضروها بطرقها المعروفة ، وأسألوا أهل الذكّر إن كنتم لا تعلمون . ولكن ليكن المحضّر ذا قلب نقّي خالص ، على قدم الأنبياء والمرسلين : كالعزيز وإبراهيم وموسى . فهؤلاء لعلّوا نفوسهم أريهم بالمعينة . وأنا أمرت نبيكم أن يقتدي بهم ، فقلت : فبهداهم اقتده » (1) .

(I) الجواهر ، ج : I / 70 - 77 .

فكيف يسوغ القول بأنّ علم تحضير الأرواح يُستخرج من هذه الآية ، وهذا العلم ذاته لم يكن مسلماً به عند المسلمين على الأقلّ ؟ وكيف يجوز أن نقول القرآن مالم يقله ؟ ثمّ ما معنى : « ليسكن المحضِر ذا قلب نقى خالص على قدم الأنبياء ؟

لا شكّ أنّ قصص القرآن إذا استقبلتْ دراسته على هذا النحو من الخلط والادّعاء ، فقد اقتضحتْ قدسيّته ، وزالت روعة الحقّ فيه ، وتزلزلتْ قضاياه في كلّ ما تناوله من قضايا ووقائع .

كما أنّ محاولة جعله ككتب التاريخ بإدخال كلّ ما يُروى فيه على أنّه بيان له ، صرفٌ للقلوب عن موعظته ، وإضاعة لمقصده وحكمته . فالواجب أنّ نفهم ما فيه ونعمل أفكارنا في استخراج العِبَر منه (1) .

ويعجبني قول ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى : « فَكَلَّمْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا » : (هذا البعض أيّ شيء كان من أعضاء هذه البقرة ، فالمعجزة حاصلة به ، وخرق العادة به كائن ، وقد كان معيّنا في نفس الأمر . فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين والدنيا لبيّنة الله تعالى لنا . ولكنه أبهمه ولم يجيء عن طريقٍ صحيحٍ عن المعصوم بيانه . فنحن نُبهمه كما أبهمه الله) (2) .

بينما نجد عكس ذلك في تفسير ابن جرير الطبري مثلا : فهو يورد كثيرا من الأخبار التي ليس لها سند صحيح ۞

(1) المنار . ج : 2 / 465 .

(2) عمدة التفسير . ج : 1 / 166 .

ومن ذلك ما رواه في هذه القصة نفسها :

« كان رجل من بني إسرائيل من أبرّ الناس بأبيه . فمرّ به رجل معه لؤلؤ يبيعه . وكان أبوه نائما ، وتحت رأسه المفتاح فقال له الرجل : تشتري مني هذا اللؤلؤ بسبعين ألفا ؟ فقال له الفتى : كمّا أنت ، حتى يستيقظ أبي . فأخذّه بثمانين ألفا . فقال له الآخر : أيقظُ أباك ، وهو لك بستين ألفا . فجعل التاجر يحطّ له حتى بلغ ثلاثين ألفا ، وزاد الآخر على أن ينتظر حتى يستيقظ أبوه ، حتى بلغ مائة ألف . فلما أكثر عليه قال : لا والله ! لا أشتري منك بشيء أبدا . وأبى أن يوقظ أباه ، فعوضه الله عن ذلك اللؤلؤ بأن جعل له تلك البقرة . فمرّت به بنو إسرائيل يطلبون البقرة ، فأبصروها عنده ، فسألوه أن يبيعهم إيّاها بقرّة بقرّة ، فأبى . فزادوه حتى بلغوا عشرين ألفا . فقالوا : والله لا نتركك حتى تأخذها منك . فانطلقوا به إلى موسى فقالوا : يا نبيّ الله إنّنا وجدنا البقرة عند هذا ، فأبى أن يعطينا إيّاها . وقد أعطيناها ثمنها . فقال له موسى : أعطهم بقرتك . فقال : يا رسول الله أنا أحقّ بمالي فقال : صدقت . وقال للقوم : أرضوا صاحبكم . فأعطوه وزنها عشر مرات ، فباعهم إيّاها ، وأخذ ثمنها . فقال : اذبحوها فذبحوها . فقال : اضربوه ببعضها . فضربوه ببعض الذي بين الكتفين فعاش ، فسألوه : من قتلك ؟ السخ » (1)

ثمّ يضيف ابن جرير تعليقات على هذه القصة : فيروي أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلّم قال في حديث مرفوع : « انظروا إلى البرّ ما بلغ بأهله » .

ومثل هذا الشرح هو إلى هامش القصة أقرب منه إلى صميمها .
فهو قصة في قصة إن صح التعبير . لأن القرآن لم يذكر شيئا من
ذلك ، ولو بإشارة عابرة ، ولم يجعل من الأغراض الدينية لها
(برّ الوالدين) رغم ما في هذا الموضوع من معنى خلّقي تربوي ،
وذلك مما يرجح وضع القصة من أساسها .

وهكذا فإن كل التفاصيل والشروح التي لم تعتمد على النقل
الصحيح للمرويات من الأخبار ، ولم تستند على ما تتضمنه القصة
القرآنية من الإشارات ، خرّوج بها عن هدفها .

ونجد صنفا آخر من المفسرين يحمّون قصص القرآن
مالا يحتمل ، بدافع التعصب الشديد لأصول مذهبهم ، مثل بعض
غلاة الشيعة الذين يكادون يجعلون من القرآن كتابا حزبيا شيعيا .

فهذا سلطان محمد الخراساني ، أحد متطرفي الشيعة الإمامية
الاثني عشرية (1) يقول في شرحه لقصة البقرة :

« إن موسى جمع أمائل القبيلة التي وُجِد القتيلُ فيها ، وألزمهم
أن يحلف خمسون منهم بالله القوي الشديد إله بني إسرائيل بفضل محمد
وآله الطيبين على البرايا أجمعين : ما قتلناه ولا علمنا له قاتلا »

ثم يذكر أنهم طلبوا البقرة المذكورة بأوصافها في القرآن ،
فسم يجدوها إلاّ عند شاب من بني إسرائيل ، أراه الله في منامه
محمدًا وعليًا وطيبًا ذريتهما ، فقالا : إنك كنت لنا محبًا مفضلًا ،
ونحن نريد أن نسوق إليك بعض جزائك في الدنيا ، فإذا راموا

(I) انظر : التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي . ج : 2 / 199

شراء بقرتك فلا تبعها إلاّ بأمر أمّك ، فإنّ الله بلقنها ما يغنيك
وعقبك الخ .»

ويقول في إحياء القتل : « كما يروى أنهم توسّلوا إلى الله تعالى
النبيّ محمّد وآله عند ضربهم القتل ببعض البقرة ، لأجل أن
يُحييه لهم . فاستجاب ، وإنّ القتل بعد حياته توسّل إلى الله
بمحمّد وآله أن يسقيه في الدنيا ممّعا بابنة عمّه ، ويسجزي عنه
أعداءه ، ويرزقه رزقا كثيرا طيبا . فوهب له سبعين سنة زيادة على
السنين التي عاشها قبل ذلك ، وعاش في الدنيا صحيحةً حواسه ،
قويّة شهواته ، ممّعا بحلال الدنيا ، وعاش معها لم يفارقها
ولم تفارقه إلى أن ماتا جميعا معا ، وصارا إلى الجنّة ، وكانا فيها
زوجين ناعمين » (1) .

ولا شكّ أن إقحام مثل هذه الخفاهات والأساطير في قصص
القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، مما يسيء
إلى جمال القرآن وجلاله ، ويجرّئ الطاعنين عليه .

وأخطر من هذا تفسير الباطنية من الشيعة الذين يزعم بعضهم :
أنّ قول الله : « إنّ الله يأمركم أن تدبّحوا بقرة » لا يمكن
أن يراد منه إلاّ عائشة زوج النبيّ صلّى الله عليه وسلم وخصيمة
عليّ (2) .

(1) بيان السعادة في مقامات العبادة . ج : I / 57 - 58 .

(2) انظر : تأويل مختلف الحديث : لابن قتيبة : 86 .

وهؤلاء أولوا جميع الخوارق والمعجزات التي أشار إليها
قصص القرآن ، كما حكى ذلك عنهم الغزالي . فقالوا :

« الطوفان معناه : طوفان العلم أغرق به المتمسكون بالسنة .
ونار إبراهيم : عبارة عن غضب نمرود ، لا النار الحقيقية
وعصا موسى : حجته التي تلقفت ما كانوا يأفكون من
الشبهة ، لا الخشب .

والجنّ الذين ملكهم سليمان ، باطنية ذلك الزمان ، والشياطين
هم الظاهرية .

وعيسى له أب من حيث الظاهر ، وإنما أراد بالأب الإمام ،
إذ لم يكن له إمام ، بل استفاد العلم من الله بغير واسطة . وزعموا
أنّ أباه يوسف النجار :

وإبليس وآدم : عبارة عن أبي بكر وعلي ، إذ أمير أبو بكر
بالسجود لعليّ ، والطاعة له ، فأبى واستكبر .
وياجوج وماجوج : همّ أهل الظاهر

هذا من هديانهم في التأويلات ، حكيناها ليضحك منها
ونعوذ بالله من صرعة الغافل وكبوة الجاهل » (1)

وبعض المفسرين من الصوفية يشرح القصة القرآنية بالطريقة
العادية المألوفة على حسب ما يدلّ عليه ظاهر النصّ ، ثمّ يؤولها
تأويلا باطنيا ، فيحملها على غير ظاهرها ، ويستخرج منها إشارات
خفية ، يقال : إنها تعين للمتصوفين من أرباب السلوك . وهو ما

(I) انظر : فضائح الباطنية : 58 .

يسمى بالتفسير (الفيضي) أو (الإشاري). وليس الدليل -بنافع في هذه الطريق رداً وقبولاً، إذ هي من قبيل الوجدانيات والمعاني الذوقية (1)

ومن ذلك ما ذكره الألوسي في قصة البقرة :

«ومن باب الإشارة: إن البقرة هي النفس الحيوانية حين زال عنها شرّ الصبّا، ولم يلحقها ضعف الكبّر، وكانت معجبة رائقة المنظر، لا تثير أرض الاستعداد بالأعمال الصالحة، ولا تسقي حرث المعارف والحكم التي فيها برياضة التوجه إلى حضرة القدس، والسير إلى رياض الأنس. وقد سلمت لترعى أزهار الشهوات، ولم تنقيد بقيود الآداب والطاعات، فلم يرسخ فيها مذهب واعتقاد، ولم يظهر عليها ما أودع فيها من أنوار الاستعداد.

وذبحها قمع هواها، ومنعها من أفعالها الخاصة بها بشفرة سكين الرياضة. فمن أراد أن يحيا قلبه حياة طيبة، ويتحلّى بالمعارف الالهية، والعلوم الحقيقية، ستكشف له حال المُلْك والملكوت، وتظهر له أسرار اللاهوت والجبروت، ويرتفع ما بين عقله ووجهه من التدارؤ والنزاع الحاصل بسبب الإلّف للمحسوسات. فليذبحها، وليوصل أثره إلى قلبه الميت. فهناك يخرج المكتوم، وتفيض بحار العلوم. وهذا الذبح هو الجهاد الأكبر، وعقباه الحياة الحقيقية، والسعادة الأبدية.

ومن لم يمُت في حبّه لم يعيش به ودون اجتناء النحل ما جنت النحل (2)

(1) ابن خلدون: المقدمة: 868.

(2) الألوسي: روح المعاني: ج: 1 / 215

وعلى الرغم مما في هذه الطريقة الصوفية من غرابة في تفسير القصص القرآني ، لخروج أنفاظها عن مدلولاتها اللغوية ، فإن بعض العلماء القدماء والمحدثين لم ينكروها ما دام الصوفي لا يرى أن إشاراتِهِ هي كل ما يراد من القصة ، وإنما يرى أن هناك معنى آخر تحتمله . ويُراد منها أولاً وقبل كل شيء ، ذلك المعنى الظاهر الذي ينساق إليه الذهن قبل غيره .

يقول التفتزاني في تعليقه على قول النسفي في (العقائد) :
(والنصوصُ على ظواهرها . فالعدول عنها إلى معانٍ يدعيها أهل الباطن إلحاد) .

(وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص محمولة على ظواهرها ، ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف لأرباب السلوك ، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة ، فهو من كمال الإيمان ، ومحض العرفان) (1) .

ويقول ابن الصلاح في فتاواه : « الظن بمن يوثق به من الصوفية أنه إذا قال شيئاً من أمثال ذلك لم يذكره تفسيراً ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة من القرآن العظيم ، فإنه لو كان كذلك لكانوا سلكوا مسلك الباطنية ، وإنما ذكر ذلك منهم لنظير ما ورد به القرآن . فإنّ النّظير يذكّر بالنّظير » (2)

ونقل السيوطي عن ابن عطاء الله أنه قال في كتابه (لطائف المنن) : « لا يصدّقك عن تلقّي هذه المعاني من الصوفية أن يقول

(1) العقائد النسفية : 143 .

(2) فتاوى ابن الصلاح : 29 .

لك ذو جدل ومعارضة : هذا إحالة لكلام الله.....فليس هذا بإحالة ، وإنما يكون إحالةً لو قالوا : لا معنى للآية إلاّ هذا وهم لم يقولوا ذلك ، بل يقرّون الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها ، ويفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم » (1)

ويحلّل «محمد إقبال» الرّياضة الصوفيّة تحليلاً نفسياً ، فيؤكد حسبما استخلصه من أدلّة الخبراء الدينيين في جميع العصور والأمصار أنّه توجد إلى جانب شعورنا العادي (بالفعل) أنواع من الشعور (بالقوة) . فإذا كانت هذه الأنواع من الشعور تفتح المجال لإمكان وجود تجربة تفيد العلم ، فالدين يمكن أن يكون تجربة أسمى وأرفع (2)

ومن العلماء السّنين المتمسّكين بالمبادئ الأصلية ، المدرّكين ما في تلك الخروق من خطر اشتباهها بتأويل الباطنية ، من يعارض مثل إشارات الآلوسي ، وإن لم يجعلها مستفادة من ظاهر الآيات كما قال الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور في الآلوسي نفسه : « قد فتح خرقاً جديداً يقتضي أن هنالك طريقاً لاستفادة المُراد غير الألفاظ ، وهو خروج عن قواعد أهل السنّة في أنّ الإلهام ليس من أسباب المعرفة . وبذلك صحّ له أن يسمّي الفقهاء والعلماء في كثير من المقامات بأهل الحجاب ، ممّا أثار على تفسيره الطّامة الكبرى من العلماء » (3)

(1) الاتقان في علوم القرآن . ج : 2 / 185 .

(2) تجديد التفكير الديني في الاسلام : 213 .

(3) التفسير ورجاله : 156 .

الباب الثاني

قسم البحث التحليلي

الصفحة	الموضوع	الفصل
347 - 309	تحليل القصة القرآنية	الفصل الاول
420 - 348	عناصر القصة القرآنية	الفصل الثاني
508 - 421	عوامل التأثير في قصص القرآن	الفصل الثالث
542 - 509	نظرات في قصة يوسف	الفصل الرابع
597 - 543	الجانب التربوي في قصص القرآن	الفصل الخامس

الفصل الأول تحليل القصة القرآنية

القصة الفنية ككل - أثر فني يُترجم عن مشاعر وانفعالات امتزج صاحبها بظروفها ، ومارسها ، وعانى تجربة نقلها إلى مشاعر أخرى ، ليست في غنى عن علم النفس الذي يرتاد مثل هذه المجالات بحثاً وتحليلاً . فيتهدي على ضوء ما يستخلصه من ذلك الأثر الفني إلى خفايا نفسية صانعه ، فيحللها ، ويدرسها . وهي طريقة مألوفة لدى نقّاد الأدب ، إذ يتوصلون إلى درس نفسية الشاعر ، وتوضيح معالمها من خلال شعره ، ونفسية القاص من إنتاجه القصصي ، باعتبار أن هذا الإنتاج الأدبي - تعبير موحٍ عن قيس حية ينفعل بها صاحب الإنتاج ، وإن اختلفت هذه القيم من نفس إلى نفس ، ومن بيئة إلى بيئة ، ومن عصر إلى عصر....

قالت أديبة أنقليزية : أنا لا أقرأ كتاباً من أجل القصة ، بل أطلعها كدراسة نفسية للمؤلف . فالقصص عندها لا تعني الناس الذين هم في الكتب ، بل المعرفة الدقيقة لكل شيء عن المؤلف (1) ولكن القصة القرآنية - وإن كانت أثراً فنياً - لا تخضع إلى هذه الطريقة من الواجهة النفسية إلا من أحد جانبيها ، وهو

(1) ليون ايدل (Léon Edel) القصة السيكولوجية : (ت) محمود
السمره : 231 •

تحليلها لمعرفة عوامل التأثير فيها ، ومدى استجابة القلوب لِمَا تدعو إليه . لأنّ مصدرها هو خالق النفوس الذي يعلم السّرّ وأخفى : « أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ » (1)

أمّا الجانب الثاني المتعلّق بذات منشئها سبحانه - وهو المنزّه عن كلّ ما يتأثّر به البشر من عواطف - فإنّما أمرنا أن نتفكّر في خلقه لا في ذاته . وهل يستطيع الفكر المحدود أن يتصوّر المطلّق ، أو يُحيط علما بمن كلّ يوم هو في شأن ؟

ولعلّ هذا أبرز العناصر التي يختلف فيها القصص الإلهي في القرآن عن قصص البشر ، رغم أنه منظور إليه من خلال الإنسان ، ومقدّر ما فيه من قوة وضعف ، وسموّ وإسفاف .

فهو يبدي لنا الأشياء ، ويعرض علينا الحقائق في صور تستسيغها عقولنا وأذواقنا ، وتهفو إليها عواطفنا . فيصف النفوس كما هي ، وكما يجب أن تكون ، ليجعل من الواقع نقطة انطلاق نحو مثاليّة لا يقدر على الاقتراب منها غير المؤمن بالقيسم الدينيّة ، الجادّ في يلوغ مراتبها .

ثمّ إنه ليس بالأمر الهين تحليل أثر فنّي عميق الأثر ، كقصص القرآن دون أن ينال التكلّف - وما تقتضيه طبيعة التعليل - من جمال هذا الأثر الذي كثيرا ما يتسامى عن التعليل والضبط والتقويم . فإنّ مقومات الإبداع تُفقد من قبضة الدّهن . وفي طبيعته أنّه لا يثبت للمعرفة العلميّة

(I) العنكبوت : IO .

ولعلّ أقرب المقاييس الفنيّة إلى المنهج العلمي ، ما قام على خبيرة التذوق ، إلى جانب الفرض والاستدلال .

لذلك فإنّ الإبداع في قصص القرآن إنّما يُقاس بجودة أسلوبه ، وقوّة تأثيره في البيئة التي نزل فيها ، وفي نفوس أصحاب الذّوق البيانيّ ممّن حذق العربية ، وسبر أغوارها ، ووقف على أسرارها

والقرآن لم يعرض قصصه هذا العرض الفنيّ المثير ليشغل العقول بأحداثها كقصايا تاريخيّة تعيش لحساب العلم والمعرفة ، ولكن للتأثير بعبّرها ، والهداية بتوجيهاتها ، وقد تضافر على تحقيق هذه الغاية كلّ من المضمون والشكل والجرّس .

أمّا خبيرة التذوق ، فقد دلّت التجربة على أنّ المرء لا يستطيع أن يتذوق العمل الفنيّ العظيم إلاّ إذا كان من أولئك الذين لا يتعدون عن بذل الجهد في سبيل الثقافة الشاملة العميقة : الثقافة الإنسانيّة بوجه عام ، والفنيّة بوجه خاص .

فالثقافة الإنسانيّة الشاملة يظهر أثرها مثلاً في أننا لا نستطيع أن نتذوق الأدب الإغريقيّ إلاّ إذا كنّا على علم بالحياة في المجتمع الإغريقيّ . ولن نستطيع أن نتذوق الشعر الجاهليّ إلاّ إذا كنّا على علم بالحياة في المجتمع العربيّ الجاهليّ.....

فالعلم بشؤون الحياة الاجتماعيّة التي أحاطت بظهور عمل فنيّ ما شرطٌ لا بدّ منه لاكتمال تذوقنا له . وكلّما بعدت الشقّة بيننا وبين موطن ظهور هذا العمل (في الزمان أو المكان أو الحضارة) ازداد شعورنا بهذه الحقيقة .

والثقافة الفنية تمدّ المرء بما يمكن أن يسمّى (إطاراً) يساعد على تنظيم التلقّي للعمل الفني . وكلّما ازدادت ثروتنا الفنية ازددنا قدرة على تذوّق الأعمال الفنيّة بكل ما للكلمة التذوّق من معنى دقيق (1)

جوانب التحليل العامّة :

فكان لا بدّ إذن في تحليل القصّة القرآنية من ثقافة إنسانية دينيّة ، ومن ثروة فنيّة ، ومن نظرة عميقة تشمل ثلاثة جوانب على الخصوص ، وهي :

(1) شخصية صاحب الدعوة صلّى الله عليه وسلم في هذا القصص ، وماله من دور إيجابي في تثبيت فؤاده ، وذلك لِمَا يَعْلَمُ الله من أنّ الدعوة إلى الإصلاح محفوفة بالمخاطر ، محوطة بالأشواك . ومن شأن هذه المخاطر أن تكون ذريعة لتثبيط همّة الداعي ، وتسربّ اليأس إلى نفسه . فكان من الخير أن يُحال بين اليأس وبين قلب الرسول ، وأن يُريه ربّه أن هذه العقبات التي تعترض الداعي ، وتلك الشدائد التي يلاقيها المصلّح ، لا مفرّ منها ، وأنها سنّة الله في من سبقه من الرّسل : « وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَيَّ مَا كُذِّبُوا ، وَأَوْذُوا حَتَّىٰ أَنهَامُ نَصَرْنَا . وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ . وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ » (2)

(1) مصطفى سويّف : الاسس النفسية للإبداع الفني في الشعر : 44 - 45

(2) الانعام : 34 .

وكيف ينجو رسول من هذه الشدائد ، وهو يحول بين النفوس وشهواتها ، ويرسم لها طريقا يباعد بينها وبين ما ألفت ؟ وكثيرا ما تستحكم الشهوات ، ويتمكن الفساد ، فيحتاج الرسول إلى شيء كثير من التسلية ، وإلى نماذج كثيرة من سير المصلحين في الأرض .

فإذا عرف صلى الله عليه وسلم ما لاقاه الرسل في سبيل الدعوة إلى الله ، وقف على أخلاق البشر في بداوتهم وحضارتهم وطباعهم وعاداتهم . وبذلك يستطيع أن يسيّر في دعوته على هدى ، ويُعيد لها من القوى النفسية والمادية ما ينبغي أن يُعيد .

فلا عجب إذن أن تكون سيرة الرسل الماضين جزءا من دعوة خاتم الأنبياء ، وأن تكون دعوتهم لأقوام مثلاصالحة لدعوة قومه... ولا عجب أن تكون أنبياء الرسل مما يقوي عزمه على النضال (1) ، بل إننا لنجد من هذا القمص ما يقدمه القرآن على أنه حجة له صلى الله عليه وسلم ليثبت بها صدق نبوته ، أو يستخدمها في جداله مع المشركين وأهل الكتاب (2) .

والذي يجب أن يُؤخذ بعين الاعتبار هنا ، هذا التشابه الملحوظ بين موقف بعض الأقوام من أنبيائهم ، وموقف قريش من النبي !

فإن فرعون لما قال لقومه : « ذرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى

(I) دعوة الرسل الى الله تعالى : المقدمة .

(2) سنبعث هذا الجانب بأكثر تفصيل وعمق في الموضوع الآتي تحت

عنوان : (القمص والرسول) .

وَلْيَدْعُ رَبَّهُ . إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَنْ يُظْهِرَ
فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ»

قال رجل من آل فرعون يكتُم إيمانه « أَتَقْتُلُونِ رَجُلًا
أَنْ يَقُولَ : « رَبِّيَ اللَّهُ ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ » (1) .

وإذا جاز القول بأن أحداث التاريخ قد تتجدد ، فقد روي عن
عروة بن الزبير ، قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرني
بأشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم . قال :
بينما رسول الله يصلي بفناء الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ،
فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولوى ثوبه في
عنقه ، فخنقه خنقا شديدا . فأقبل أبو بكر ، فأخذ بمنكبه ،
ودفعه عن رسول الله ، وقال : « أَتَقْتُلُونِ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ :
رَبِّيَ اللَّهُ ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ » (2) .

وما أشد الشبه بين موقف بعض الكبراء من نوح عليه السلام ،
وموقف بعض أشراف العرب من محمد صلى الله عليه وسلم !
فقد كان كل من أولئك وهؤلاء ، يستنكف أن يجتمع بالرسول
وحولته من سبق إلى الإيمان به من الفقراء . لذلك لم يستجيبوا
للدعوة ، وطلبوا إلى الرسول أن يطردهم ، حتى لا يجمعهم
عنده مجلس واحد

(1) غافر : 28

(2) رواه البخاري .

فجاء على لسان نوح ردًا على قومه :

« وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا . إِنَّهُمْ مُسْلِقُونَ رَبَّهُمْ
وَلَسَكِنِّيَ آرَآكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ . وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ
اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » (1) .

وجاء في توجيه الرسول ردًا على عيينة بن حصن الفزاري
الذي قال له : أطرد هؤلاء عنك حتى يجيء إليك أشراف قومك
ويسمعوا كلامك :

« وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » (2) .

ومن هنا يتضح مقصد القرآن من اختياره في قصصه لأحداث
بعينها من تاريخ بعض الرسل « وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ
الرُّسُلِ مَا نُنَشِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ » (3) .

ففي سورة يونس مثلاً ، عرضت قصة نوح مع قومه ،
وهي شبيهة بحالة محمد مع قومه . وكانت الفترة التي نزلت فيها
السورة شديدة عليه ، لموت المدافع عنه عمه أبي طالب ، وفقد
النصير له والمواسي في البيت زوجته خديجة ، وتآلب المشركين
عليه ، وإمعانهم في إيذائه (4) فنزلت عليه هذه الآيات :

(1) هود : 29 - 30 .

(2) الأنعام : 52 .

(3) هود : 17 .

(4) محمود شلتوت : إلى القرآن الكريم : 72 .

«وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكَيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ»... (1)

تسليّة له وارشادا إلى التمسك بموقف أخيه نوح ، وإن طال الأمد ، واشتدت شكيمة الأعداء . وكأنّ لسان الحال يخاطبه : ثق بأنّ عاقبتك هي عاقبته ، وعاقبة المكذّبين لك هي عاقبة المكذّبين له ، أولئك الذين أخبر الله تعالى عنهم بقوله : «فَكَذَّبُوهُ فَسَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ، وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ» (2)

(2) البيئة التي نزل فيها القصص :

القرآن مرآة صادقة للحياة الجاهلية ، فهو يصور الظواهر الدينية والعقلية والاجتماعية أبلغ تصوير

وقد اقتضت حكمة الله أن يُبعث كلّ نبي في قومه ، وفي البيئة التي نشأ فيها ، حتى يعرف ما لا يعرفه الغريب عنها ، فيكون تأثيره فيها قويا . وقد جرت هذه السنّة على خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وسلم ، رغم أنّه بُعث إلى الخلق كافّة ، إذ من الحكمة أن تمرّ دعوته إلى الإسلام بمرحلة يعتمد فيها أولاً على عشيرته وقومه ، حتى يتشعّر أتباعها ، ويتكاثر أنصارها . فكان لا بدّ من تجاوب بين وسائل الدعوة وبين عناصر من البيئة

(1) يونس : 70 •

(2) يونس : 73 •

التي انبثقت فيها الدعوة واحتضنتها ، وإلاّ انقطع ما بينها من سبب يصلها بها ، ويتفاعل معها . ولعلّ من أبلغ هذه الوسائل تأثيراً قصص القرآن . لأنّ العرب لم يعرفوا القصّة في معناها الفنّي ، ولكنهم يعرفونها حكايات تُسرّد ، ووقائع تُروى ، وأخباراً تُعرض ، منها ما يتعلق بالتاريخ البعيد ، كخذيمة والزبياء ، أو قبائل العرب البائدة كعاد ، وطسم ، وجديس . ولكنّ جلّ قصصهم الذي كانوا يتسامرون به في أسواقهم وأنديتهم ، إنّما يدور حول (أيّام العرب) ، وهي معارك نشبت بين قبائل العرب في الجاهلية لأسباب اقتصادية كالمتّسابق على موارد المياه ومنابت العشب ، أو لأسباب نفسية صادرة عن رغبة في الدّفاع عن الكرامة والشرف والعصبيّة، أو سياسيّة كحجب السيطرة والاستئثار بالرئاسة . ومن هذه الحروب : حرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء ، وحرب الفجار .

وكثير من القصص الجاهلي لم يصل إلينا ، وقد طمست معالمه أميّة العرب وعدم تسجيلهم لذلك التراث . فلم يبق منها إلاّ ما يرمز إليها ، وهو : الأمثال ، التي هي في الحقيقة عناوين أو رموز لقصص شاعت في محيط العرب الأوائل . وربّما نشأ المثل من الأقصوصة ، وهي حكاية صغيرة ذات مغزى . وتحمل الأمثال في القرآن الكريم بعض الصّور التمثيلية ، كما هي تشبه الأسلوب القصصي . ومن ثمّ نستطيع أن نفسّر وجه الشبه بين أمثال القرآن وأمثال العرب .

ثمّ إنّ ما نجده في تاريخ الأدب العربي من خرافات كانت العرب تقصّها في جاهليتها ، يدلّ على أنهم كانوا لا يحسنون تعليل الأحداث ، ولا ربط الأسباب بمسبباتها . لذلك كانوا يلجأون في تعرّف الحوادث الماضية والمستقبلية إلى الكهانة والعرافة

والعيافة وزجر الطير . وكان من الطبيعي ألا يتعمقوا في معرفة حقائق الأشياء ، لأنهم أعرق الناس في البداوة ، وأبعدهم عن العلوم ذات الملّكات التي تحتاج إلى تعليم .

ومن ذلك مثلاً : زعمهم أن سبب خراب سدّ مأرب جرذان حمراء ، كانت تحفر السدّ بأنيابها ، فتقتلع الحجر الذي لا يستقلّ بحمّله مائة رجل ، ثم تدفعه بأظافرها ، حتى تسدّ الوادي من الناحية التي يجتمع فيها الماء . وقد عجزوا أن يفهموا أن السبب هو إهمال تعهد السدّ ، حتى لم يعد يقوى على تحمل السيل .

ومن ذلك أيضاً قولهم : إن الذي بنى "الخورنق" هو النعمان ابن امرئ القيس . بناه له رجل من الروم يدعى "سِنِمَار" فلما أتمه قال له : أعلم موضع آجرة لو زالت لسقط القصر . فقال النعمان : أيعرفها سواك ؟ قال لا : فأمر به ، فألقي من أعلى القصر فمات ، فضرب به المثل (1) .

وقد صدقوا بهذه الخرافة مع استحالة تركيز القصر كله على آجرة واحدة . ومثلها أن السعلاة - وهي في مخيلتهم مخلوق غريب الشكل بين الانسان والجن - كانت تسكن فيافي جزيرتهم . وقد زعموا أن عمرو بن يربوع تزوج سعلاة ، فولدت له أولادا (2)

قال المسعودي : وللعرب في الغيلان والتغول أخبار طريفة ، لأنهم يزعمون أن الغول يتكوّن لهم عند الخسوات ، وأنّها

(1) انظر : المعجم في مادة مأرب والخورنق ، وأمثال الميداني .

(2) انظر : فجر الاسلام : 39 - 40 .

تظهر لخواصّهم في أنواع من الصور فيخاطبونها... وقد أكثروا من ذلك في أشعارهم (1) .

وهكذا كان العربيّ قبل الإسلام يتصوّر الأشياء كما يتوهم عقله الساذج ، ولكنه لا يخترع الأساطير حولها ، مهما كانت عنده هذه الأشياء غامضة مجهولة . وإذا استثنينا بعض هذه الخرافات التي تتصل بالجنّ أو بالسّحابة ، فإنّ العربيّ لا يلعب به الخيال ، أو يخدعه ، حتى يحجب عنه الرؤية الواضحة لِمَا يحيط به ، وهو الذي لم يعيش في أحلام اليقظة ، ولم يشأ أن يتصوّر الحياة على غير الحقيقة التي يعيشها ، أو في غير شكلها الطبيعيّ المجرد عن كل تزويق أو صباغ

فلا غرو أن يكون قصصه بعيدا عن الخيالات والرؤى ، وأن يكون قصصه البطولي واقعيًا يستمدّ من واقع الحياة ، ومن دنيا الناس ، دون أن ينقلب كالقصص اليوناني إلى ملاحم تلعب فيها الآلهة أدوارا في الهزيمة والانتصار .

ولا عجب أن يجد العربيّ في قصص القرآن صدى لواقعه ، وتلاؤما مع مزاجه ، وهداية لحيروته .

وأحسب أنّ صحو العقل العربيّ وعدم شروده كثيرا إلى عالم التهاويل والخرافات كان أكبر ميزة رشّحته لأنّ ينزل عليه القرآن بذلك النسق الإثباتي الجميل ، الذي أثبت حقائق

(1) المسعودي : مروج الذهب : ج : 3 / 314 .

الكون ، ووضح معالمه ، وجعل العقل البشري يرى كل شيء فيه بوضوح ، كما وضعه علم الله وتنظيمه .

ولئن كان بعض النقاد المحدثين يعيبون على العقل العربي في مجال الشعر والقصة والفن أنه محدود الخيال ، ضعيف الجناح ، ضيق التصور للأوهام الجميلة ، والأشباح المستحيلة التي تبدو في أكثر القصص "المتولوجي" والأساطير الشعبية في الأمم الأخرى ، وأنه ليس له ما للاغريق من (اللياذة والأوديسية) ، ولا ما للرومان من (الانباد) ، ولا ما للفرس من (الشهنامه) ، ولا ما للهند من (المهابهارتا) ، ونحو ذلك مما يعدّ مادة خصبة لنسج الآدب والفنون ، فإننا نرى أن تلك الظاهرة جعلت العقل العربي أقرب إلى أن يكون عقلا علميا صالحا لأن يتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ، فيواجه به عصر العلم والرشد ، ويؤهل الناس للعيش فيه ، والوصول بمنطقه وأسلوبه إلى إدراك أسرار الله في التكوين المادّي ، وإلى تأويل ما لم يحيطوا بعلمه .

ولكن مع الاسف ما يزال أكثر المسلمين المعاصرين يصدرون في تفكيرهم عن أفكار ليست من وحي القرآن ، وليست من طبيعة إichاء هذا البناء المادّي للكون . ولذلك لم ينصرفوا - برغم طول العهد على بدء اتصّالهم بالعلوم العصريّة - عن تلك الأوهام التي قيّدت أنظارهم ، وحجبتها على مقاطع نظر خادعة

ولو وفرّ المسلمون ما أضاعوه من عمرهم في الاجترار والجمود ، وما أضاعوه في تلك الجدليات الفرضية والأوهام ، لملكوا اليوم قياد الحضارة ، كما ملكوه بالأمس ، ولكن لهم

شأن وأي شأن ! في حين أن القرآن الكريم يوحى بهذا الاتجاه ويدعو إليه . وهو الذي أقام التفكير الإنساني على سنن وقوانين بُنِي عليها نظام الطبيعة بجانب قسم غيبية بُنِي عليها ما وراء الطبيعة (1)

ويتجلى فضل القرآن على العرب خاصة بما أسسوه من دولة ، وأنشأوه من حضارة ، وكوّنوه من عمران ، وبما أضحي عليه تفكيرهم بعد الإسلام ، وقد كان قبله بدائياً وسطحياً . وما ذاك إلا لأن الله نزل إليهم أحسن الحديث ، وقصّ عليهم أحسن القصص :

روى عن عون بن عبد الله قال : حلّ أصحاب رسول الله عليه وسلم حلّة فقالوا : يا رسول الله حدثنا . فأُنزل الله : « الله نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » (2) ، ثم حلّوا حلّة أخرى ، (3) . فقالوا : يا رسول الله حدثنا فوق الحديث ودون القرآن ، يعنون القصص . فأُنزل الله عزّ وجلّ : « أَلَمْ تَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ » (4)

فأرادوا الحديث ، فدلّهم على أحسن الحديث ، وأرادوا القصص فدلّهم على أحسن القصص (5) .

(1) انظر : المادية الإسلامية وأبعادها : عبد المنعم محمد خلاف : 86 - 88 .

(2) الزمر : 33 .

(3) أي نزلوا بعض الامكنة ، وحلّوا بها .

(4) يوسف : 1 - 3 .

(5) ابن كثير : البداية والنهاية . ج : 2 / 467 .

وروي انّ عمر ابن الخطاب . قال : « إنّما تنقض عُرَى الإسلام عُرُوهُ عُرُوهُ ، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية » .
 والمراد أنّ من نشأ في الإسلام ولم يعرف حال النّاس قبله ،
 يجهل تأثير هدايته ، وعناية القرآن في إصلاحه لأحوال البشر
 وإخراجهم من الظلمات إلى النور . ومن جهل هذا ، يظنّ أنّ
 الإسلام أمر عاديّ ، كما يرى بعض الذين يتربّون في النظافة
 والنعيم ، فإنّهم يعدّون التشديد في الأمر بالنظافة والسّواك من
 قبيل اللغو ، لأنّه من ضروريات الحياة عندهم . ولو اختبروا غيرهم
 من طبقات النّاس لعرفوا الحكمة في تلك الأوامر وتأثير تلك
 الآداب من أين جاء (1)

ومن ناحية أخرى ، فإنّ القرآن معجزة محمد الخالدة ،
 وقد نزل بلسان عربي مبين . فمن يشهد بإعجازه غير العرب
 الذين كان من رُعاتهم من لا يسجد لله ، ولكنه يسجد لبلاغة
 القرآن ؟ ولا يتهيباً لمن كان لسانه غير العربية أن يعرفوا هذا
 الإعجاز إلاّ بشهادة هؤلاء .

ثمّ إنّ من قصص القرآن ما فيه ذكرٌ لبعض أخبار الشعوب
 العربيّة القديمة التي بادت مثل عاد ، وثمود ، وسبيل ، وأصحاب
 الفيل ، وأصحاب الأخدود . ولا يعني اعتبار هذا الجانب أنّ القرآن
 في قصصه وأخيلته صورة للحياة البدائيّة في البادية وجفائتها وجديها ،
 وليّما يدور في أخيلة القوم ، ويجري في تفكيرهم ، ويداعب

أحلامهم ، كما يزعم بعض المستشرقين (1) ، أو ادعاء أنها خاطبت العرب بما يتخيّلون ويتوهّمون ، لأنّ مصلحة الجمهور أن يخاطبوا بما يفهمون . وهؤلاء هم الذين قال فيهم ابن تيمية : « أهل الوهم والتخيل » فهم يقولون : إنّ الأنبياء أخبروا عن الله . واليوم الآخر ، وعن الجنّة والنار على قدر مدارك العامّة وبما يتخيّلون ويتوهّمون من أن الأبدان تُعاد ، وأن لهم نعيما محسوسا ، وعقابا محسوسا ، لأنهم لا يتصوّرون غير ذلك ، وأنّ هذه القصص مجرد حكايات إصلاحية أدّت دورها في بيئة خاصّة ، ولفترة محدودة مرّت بها في حضارة الدّين الأولى ، ثمّ ظلّت حيث هي متجمّدة في زمانها ومكانها ، على حين انطلق المسلمون يأخذون في الحياة وجودهم ، ومن الحضارات الإنسانية مكانهم ، وإن بقيت مشاعرهم تحمل لهذه القصص ذكريات مقدّسة ، أو اعتبار أنها جاءت لأعراب البادية وأبناء الصّحراء . وهي تُعتبر الآن ثوبا فضفاضا لا يمكن أن تلبسه أرقى الشعوب حضارة ومدنيّة (2)

بل يجب أن يُنظر إلى هذه القصص أيضا ، على أنّها منهج تربية ، وأسلوب تعليم وتوجيه ، وغذاء للفكر والروح . ومن هنا كان منظورا إليها من خلال الإنسان باعتبار أنّ ما تضمنته من دعوة إلى الدّين الحنيف ، كان دعوة إنسانية شاملة ، لا تعرف حدود الأوطان ، ولا تقسم الناس طوائف وألوانا وعناصر « وإنما

(1) ومنهم قول تزيهر في كتابه : العقيدة والشريعة في الاسلام .

(2) عبد الكريم الخطيب : التعريف بالاسلام : 86 - 88 .

تنفذ إلى قلوبهم مباشرة ، حيث يكون الإنسان الجوهر الذي تتكوّن منه الإنسانية » (1) .

ولا شكّ أنّ هذا عنصر يبعث على الاهتمام في تحليل قصص القرآن ، ويدعو إلى اعتبار الجانب الثالث وهو :

(3) الانسان :

فإنّ القصة القرآنية بكشفها عن سنن تجري عليها الأمور ، وبتجردها عن الزمان والمكان ، وخلوها من التفاصيل ، والاسترسال في الوصف ، والإسهاب في القصّ ، إنّما تعرض حقيقة إنسانية تتجاوز حدود الزمان والمكان ، وتعالج قضايا الإنسان ، وتداوي علله المتشابهة ، بما تروي من روائع الحكيم التي قرعت آذان الأمم منذ أقدم العصور على لسان الرّسل ، فيما سجّل القرآن من هديهم ووصاياهم لأقوامهم في شريط واحد (2) ، وكأنتهم بعبثوا في فترة واحدة !

وكثيرا ما يصورّ القرآن مواقف الأمم المختلفة مع رسلها ليسين ما بينها من شبه تامّ ، وليحذّر من آفات الطغيان والغرور التي لم تكد تسلّم منها نفوس البشر في كل عصر ، ومن ذلك قوله تعالى : يَا حَسْرَةَ عَلِيّ الْعِبَادِ مَا يَاْتِيهِمْ مِنْ رَسُوْلٍ اِلَّا كَانُوْا بِهِ يَسْتَهْزِئُوْنَ » (3) .

(1) محمد قطب : منهج التربية الاسلامية : 14 - 15 .

(2) عرضت قصص قوم نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب في آيات متتالية

في سورة الاعراف (60 - 92) .

(3) يس : 30 .

وقوله سبحانه :

« كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مَن قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا : سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ (1) .

بل إننا نجد في حوار بعض القصص من المعاني السامية ما يتجاوز نطاق القصة ذاتها، ويتخطى القرون ليبقى صدها عبر الزمان والمكان :

كما في دعوة مؤمن من آل فرعون كان يكتسب إيمانه ، ولكن الحق الذي تبين له وآمن به يُنطقه ، فيجهر به أمام فرعون ومثله - لما رأهم يأترون بموسى عليه السلام ليقتلوه - في كلمة مدوية صريحة ، جاهدا أن يُثير حساسيتهم بالافتناع والتخويف ، ولكن في حذر ومهارة وحذق . فكانت كلمة خالدة في ضمير الزمان ، يستمد منها دعاة الحق في كل عصر حرارة الإيمان ، وبراعة المنطق ، وقوة الحجّة

« وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّن آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِّن رَّبِّكُمْ . وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ . وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ . إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ . يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ؟ قَالَ

(I) الذاريات : 52 - 53 .

فِرْعَوْنَ : مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ، وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ
الرَّشَادِ . وَقَالَ الَّذِي آمَنَ : يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ، مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ . وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ . وَيَا
قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ، يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ .
مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِثْلَ عَاصِمٍ . وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (1) .

وكانت هذه الدعوة الصادقة يوم نزل الوحي بها تناشد
المشركين في مكة ، - وقد اشدت مكرهم بالرسول صلى الله
عليه وسلم - أن يثوبوا للرشد ، ويخضعوا للحق ، كما هي تناشد
المبطلين في أرجاء الدنيا في كل مكان وفي أي زمان .

وهكذا فإن « الآيات الفنية الخالدة هي التي تطوي الدهور
طيًا ، بدون أن تفقد روعتها ، بل تزداد جمالا كلما اتسعت
آفاق الإنسان الثقافية ، وأصبح أوسع فهما وأنفذ بصرا » (2).

وكما أن للقصص القرآني جوانب عامة مشتركة ينبغي
اعتبارها عند تحليلها ، وهي التي سبقت الإشارة إليها في هذا
هذا الفصل ، أو التي سيأتي بيانها في الفصل الموالي : « عناصر
القصة القرآنية » فإن لها جوانب خاصة لا تشترك فيها كل القصص ،
ولكن تنفرد بها أو ببعضها كل قصة ، ولا يتسنى تحديد هذه
الجوانب أو ضبطها ، لأنها تختلف باختلاف نوع القصة ، وبحسب

(1) غافر : 28 - 33 .

(2) يوسف مراد : مبادئ علم النفس العام : 243 .

موضوعها ، وأهدافها ، وطريقة عرضها ، فهي ليست مثلاً من قبيل المحور ، أو الغرض العام ، أو الحوار ، أو الشخصية ، أو نحو ذلك مما يدخل في الإطار العام للقصة .

ولعلّ من المفيد أن نعرض نموذجاً لأهمّ العناصر الذي قد يستمدّ منها التحليل مادته وموضوعاته ، وذلك لمعرفة ما تثيره القصة من مباحث أو قضايا أو تساؤلات ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً لا هامشياً ، وتتعلق بالناحية التاريخية أو العقلية أو النفسية أو الدينية ، بل وحتى الفنية . وليكن هذا النموذج مثلاً في :

قصة صالح وئمود :

«وَالَّذِي تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْثُفٌ مِنْ رَبِّكُمْ . هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ . فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ . وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا . فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ : اتَّعَلَمُونَ أَنْ صَالِحًا مَرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ؟ قَالُوا : إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا

بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ
 أَمْرِ رَبِّهِمْ . وَقَالُوا يَا صَالِحُ : ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ
 مِنَ الْمُرْسَلِينَ . فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ
 جِاثِمِينَ . فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ : يَا قَوْمِ ! لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
 رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، وَلَكِنْ لَآتِيُونَ النَّاصِحِينَ «
 (الأعراف : 72 - 78)

المضمون :

تكشف هذه القصة عن أسباب مصرع ثمود الذين استخلفهم
 الله من بعد عاد ، ومكنتهم في الأرض ، فشيّدوا في السهول قصورا ،
 ونحتوا في الجبال بيوتا ، ولكنهم أبطرتهم النعمة ، فعتوا وعاثوا
 في الأرض فسادا ، استطالةً بالقوة والتمكين . فبعث الله منهم صالحا
 عليه السلام ، يدعوهم إلى عبادة الله ونسبذ الأوثان ، وينهاهم
 عن البغي والفساد ، ويذكّرهم بنعم الله عليهم ، فما آمن له
 من قومه إلاّ الضعفاء ، وهم قلة بالنسبة للكبراء الذين أصروا
 على الباطل ، وتصدّوا لمقاومة الدعوة ، وصرف المؤمنين عنها
 بتشكيكهم في صدق صاحبها ، فأيدته الله بمعجزة الناقة ، وجعلها
 آية على قدرته المبدعة ، وعلى صدق رسوله الذي حذّرهم من
 أن يصيبوها بأذى ، ولكنهم تمادوا في عتوهم ، واستخفّوا بوعيد
 الله وتحذير نبيّه ، فعقروا الناقة ، وتحذّوه بتعجيل العذاب الذي
 نزل بساحتهم بعد ثلاثة أيام كما أنذرهم . فأهلكتهم الرجفة .

من هول الصاعقة ، وتركتهم على هيئاتهم جاثمين ، لم ينج منهم الا الفئة المؤمنة . وهكذا طويت صفحاتهم ، فأصبحوا أثرا بعد عين ، وتركهم صالح عليه السلام للمصير الذي جلبوه على أنفسهم بأيديهم ، بعد أن أفرغ جهده في نصحتهم ، وإبلاغهم رسالة ربه

المحور العام :

تدور هذه القصة حول محور عام وهو : دعوة الرسل إلى الله ، وإعراض اقوامهم عنها وتحديهم لها . وتتجسم فيها سوء عاقبة الإعراض والتحدي للدعوة إلى الايمان . فهي تمثل صراعا بين الحق والباطل . والايمان والكفر .

الغرض العام :

وأما الغرض العام الذي سبقت من أجله ، فهو تحذير المكذبين للرسول صلى الله عليه وسلم والمتحدين لدعوته أن يصيبهم عذاب من السماء - إذا هم أصرّوا على الباطل - كما أصاب ثمود من قبلهم ، وأمرهم مشهور عند العرب في الجاهلية والاسلام .

فقد تحدّوا نبيهم بآية الناقة التي طلبوها كبرهان على صدقه : « **وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا** » (1)

(I) الاسراء : 59 .

كما تحدّثى المشركون من العرب محمّدا صلى الله عليه وسلم بآيات حسّية طلبوها منه لتصدق دعوته :

« وَقَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْفَجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا ، أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ، أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ » (1)

وما أظلم من يعلم الحقّ واضحا ، ثمّ هو يُعرض عنه ، ويُدخل الشبهات على الناس ليوقعهم في الضلال والحيرة ! إنه لن ينجو من عقاب الله كما قال جلّ شأنه :

« وَمَنْ لَا يُجِيبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ (2) ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ . أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » (3)

وهذا حكم عام لا يقتصر على فترة الدعوة المحمّدية ، بل يمتدّ على مدى الأزمان ، ويشمل كلّ فئة أو أمة عرفت الحق وأنكرته ، أو هي لم تأخذ على أيدي المعتدين المكابرين ، كما فعلت ثمود .

(1) الاسراء : 90 - 93 .

(2) فليس بمعجز في الارض : اي لا يفر من عقاب الله .

(3) الاحقاف : 32 .

وموطن العبرة هنا ، أنّ الذي عقر الناقة واحد منهم ، ولكن القوم كانوا راضين عن عمله ، فنُسب إليهم العقر ، وعمّتهم الله بعذابه ، ليُرينا أنّ النَّاسَ إذا لم يأخذوا على يد الظالم كانت مسؤوليتهم جماعية . كما قال تعالى :

« وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمْتُمْ مِّنْكُمْ خَاصَّةً » (1) .

ذلك أن كلّ مجتمع لا بدّ أن يقوم بين أفراده الواجب العامّ ، والإحساس بالمسؤولية المشتركة .

وفي غزوة تبوك مرّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم بيثر صالح ، فلم يفته أن يتنفع وينفع بما فيها من عبرة ، فيشير إلى بقاياها ويقول : لا تَسْأَلُوا نبيكم الآيات كما سأل الناسُ قبلكم . هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم آية

عناصر التحليل :

ومن أهمّ عناصر التحليل في هذه القصة ما تثيره في النفس من شعور بالخوف من عذاب الله ونقمته . وبالأمن في حمى الإيمان بالله وقوته ، ومن استمالة وجدانية بتعديد الله للكثير من نعمه على ثمود ، وإقامة الحجة عليهم عند تذكيرهم بهذه النعم ، وانقطاع حجّتهم بما أراهم من آية الناقة ، واستنفاد نبيّهم صالح عليه السلام كل ما في جهده لإقناعهم ودعوتهم إلى الله ، وبذلك استحقوا العذاب لتحديّهم وإتيانهم ما حذّروه ، وهو عقر الناقة .

(1) الانفال : 25 .

ويظهر الاستهواء الفني في التصوير الحيّ لهول الفاجعة بإيجاز محكم ، وإشارات سريعة حصل بها استجابة القصّة المغرض الديني الذي سيقّت له : وهو الاعتسار بمصارع الظالمين ، بالإضافة إلى ما تركته القصّة من صدى في النفس ، وحيرة ممّا ينتظر الإنسان من مصير غيبي مجهول في الحياة وبعدها ، إذا طغى ، وتغلّبت فيه دوافع الشرّ ونوازع الباطل .

فالإنذار العامّ لا يدخل فيه من هو على صراط مستقيم ، كما أنّ الشعور بالتهديد لا يحسّ به إلاّ من يشمله حقيقةً لانحرافه وتنكّبه . والمتأمل في القصّة يجد فيها ما يثير الفكر للبحث عن هذا الوجود وخالفه . ولاشكّ أنّ كل عنصر من هذه العناصر التي ذكرتها على سبيل المثال ، لا على سبيل الحصر والاستقصاء ، يحتاج إلى تبسّط وتعمّق ، وإلى مزيد من الشرح والبيان .

وقد يقال هنا : أليس ممّا يبعث على التشاؤم من مصير الإنسان الذي أصبح محلّ ابتلاء إلهي خطير ، أن يُسمح قوم بعذاب السماء من أجل ناقة ؟

والجواب : أن هذه الناقة لا قيمة لها في ذاتها ، لو لم تكن آية من آيات الله ، أرسل بها استجابةً لرغبة ثمود لما طلبوا من نبيهم أن يأتهم بما يقوم شاهداً على صدقه . فآتاه الله معجزة الناقة ، وجعلها من أعاجيب خلقه .

وقد جرت سنة الله — كما سبق بيان ذلك — أن ينزل العذاب على كلّ من يعلّقون إيمانهم على أن يروا آية حسّية ، فيستجيب الله لهم ، ثمّ هم لا يؤمنون . وكذلك فعلت ثمود ! فلم يكن عقربهم للناقة

الا تحديًا لنيهم ، واستخفافا بآيات الله ، واستهتارا بوعيده .
والواجب ألا يقتصر نظرنا على العمل في ذاته ، بل أن نتجاوزَه
إلى ما وراءه . قال تعالى :

«وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ» (1)

وهذه الهداية الإلهية هي هداية الدعوة والتعليم والإرشاد .

وقد ختم الله قصص الأنبياء وأممهم في سورة الشعراء بما
في ذلك قصة صالح وثمرود بقوله سبحانه :

«وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» (2)

« فإن ما حكّم به لرسله وأتباعهم ولاعدائهم صادر عن
عزّ ورحمة . فوضع الرحمة في محلّها ، وانتقم من أعدائه بعزّته ،
ونجّى رسله وأتباعهم برحمته » (3)

والحقّ أنّ كلّ قصة من قصص القرآن لا بدّ أن تدور حول فكرة
معينة أي : لا بدّ أن تحتوي على إجابة مقنعة للسؤال الذي نوجّهه لأنفسنا
دائمًا عقب قراءة كلّ قصة ، وهو : لماذا جرت هذه الأحداث ؟
و ما هي القضية التي تريد أن تعرضها هذه القصة ؟

وكثيرا ما تكمن قيمتها الفنية في قدرتها على الإيحاء والتأثير .

(1) فصلت : I6 •

(2) الشعراء : I59 •

(3) ابن القيم : شفاء الغليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل •

القِصَصُ والرِّسُولُ

للقصص القرآني - بما تصمّنه من توجيهات تربوية ،
ومُثُل عليا ، وحكّم ومواعظ ، وتعليم لأصول العقيدة ، وما ينبثق
عنها من قيم أخلاقية ، وأعمال سلوكية - دورهُ الفعّال ، سواء
في المجتمع المعاصر لفترة نزوله ، أو المجتمع الإسلامي عامّة .

ولكنّه كان قبل كلّ شيء دروساً حيّة لها بالغ الأثر في نفس
صاحب الدعوة سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلم ، وقوة دافعة له على
المُضيّ في ما أمر أن يصدع به في فترات عسيرة بلغت فيها الشدّة
أقصاها بتحدّي قريش له ، وتجرؤها على دعوته ، واستعمالها ضدّه
كلّ وسائل المقاومة : من الهزء والسخرية ، ومحاولة إغرائه بالملك
والمال ، والإمعان في إيذائه ، والتأمر على قتله ، ومقاطعة القبائل
له ، وبثّ البلبلة في صفوف أتباعه ، وارتداد بعض من أسلموا ،
حتى كادت تتجمّد حركة الدعوة ، مع ما سبق هذه الفترة من
موت عمّه أبي طالب ، وزوجته خديجة ...

كلّ ذلك يصبّر لنا مدى ما كان يعاينه صلّى الله عليه وسلم
من ألم ووحشة ، وضيقت وأزمات نفسية مختلفة عبّر عنها القرآن
بمثل قوله تعالى :

« فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ، وَضَائِقٌ
بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا : لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابٌ ، أَوْ جَاءَ
مَعَهُ مَلَكٌ . إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ . وَاللَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » (1)

• (I) هود : I2

وقوله سبحانه : « قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لَيُحْزِنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَيَّ مَا كُذِّبُوا ، وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا . وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ . وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ المرسلِينَ » (1) .

فكان خير ما يسلية في هذه الأزمة ، ويسرّي عنه الوحشة ، ويشحذ عزيمته لمواجهة معاقل الشرك والظلم ، ما ينزل عليه تباعا من قصص الأنبياء خاصة ، وما يُعرض فيها من أثر رحمة الله بهم ، وما أغدق عليهم من نعمة وفضل ، ومن به من عزّ وتمكين ، ونصر وتأيد ، حتى لا يستولي عليه الحزن ، ويستبدّ به اليأس ، بل يدفع عن نفسه الأسى بالتأسي ، والشك باليقين ، والجزع بالاطمئنان ،

إنه لم يكن فيما لقي من أذى قومه بدعاً من الرسل . فهم جميعاً كذّبوا وعذّبوا « وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولُ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ : مَتَى نَصُرُ اللَّهَ ؟ » (2)

ولا ريب أن شعوره بتجاوب الوحي السماوي مع احساسه ونفسيته مما يثبت فؤاده ، وينزل عليه السكينة بما يجد من عناية ربه به ، ومن تربيته بما قصّ عليه من سير الماضين :

« وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ »

• (1) الانعام : 34 - 35

• (2) البقرة : 214

« وَإِنْ يَسْكَدُ بِوَكِّ فَقَدَرُ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ
وَتَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ
وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ الْكَافِرِينَ ، ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ
كَانَ نَكِيرٍ » (1) .

كما هو يرشده بهذا الوحي إلى سنة الله في الأنبياء والأمم ،
وهي أن نصر الله يجيء دائما في نهاية الطريق ، وبعد استفاد كل
وسائل الإقناع ، حتى لا يكون لأحد على الله حجة :

« حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا
جَاءَهُمْ نَصْرُنَا . فَنَنْجِيهِ مَنْ نَشَاءُ . وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ
الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ » (2)

فلا غرو أن نجد في هذا القمص ما يعكس نفسية الرسول
صلى الله عليه وسلم ، ونفسية المجتمع الذي يحيط به .

ويظهر هذا التجاوب في أجلى صورته فيما يختار الله من قصص
تلائم بيئته ، وتُشبه ظروفه . ولولا الوقائع الخاصة التي يعرضها
في قصص الأنبياء مع أقوامهم لكانت هي بنفسها قصة الرسول مع قومه
لتشابهه المواقف ، واتفاق التعالقات والمبررات ، وحتى الاتهامات :

« كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا :
سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . اتَّوَصَّوْا بِهِ . بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ » (3)

(1) الحج : 39 - 42 .

(2) يوسف : 110 .

(3) الذاريات : 53 .

فقد قال نوح لقومه :

« وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ
وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ » (1)

كما قال محمد لقومه :

« وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ
وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ » (2)

ويجدر التنبيه إلى تلك اللّفات البديعة التي كثيرا ما يتوجه بها الخالق إلى رسوله في أوّل القصة ، أو أثناءها ، أو عقبها . إنها لتتفصح عن مدى عنايته به ، وتكريمه وتربيته وتعليمه بما يقص عليه . فمن أمثلة ذلك في مفتتح القصة :

« وَهَلْ آتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا (3) »

« وَهَلْ آتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ
دَخَلُوا عَلَيَّ دَاوُدَ » (4)

(1) هود 21

(2) الأنعام : 51

(3) طه : 8

(4) ص : 22

وقد تشير اللَّفْطَةُ إِلَى أَنَّ الْقِصَّةَ نَزَّاتٍ لِيُجِيبَ بِهَا الرَّسُولَ عَلَى سَوَالٍ وَجَّهَ إِلَيْهِ مِثْلُ : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ . قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا » (1)

فقد روي عن ابن عباس أن قريشا بعثت النضر بن الحارث وعقبة ابن أبي معيط وغيرهما إلى أحبار اليهود بالمدينة . فقالوا لهم : سألوهم عن محمد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله . فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء .

فلما سألوهم ، قالوا لهم : سلوه عن ثلاث فإن أخبركم بها فهو نبي مرسل . وإن لم يفعل فالرجل متقول . سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ؛ ما كان من أمرهم ؟ فإنه كان لهم أمر عجيب . وسلوه عن طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هو ؟ (2)

فنزلت هذه القصة وقصة أهل الكهف لتأييد رسوله ، وإقامة الدليل على أن ما يدعو إليه حق .

ومن لفتات السياق القرآني إلى الرسول أثناء القصة :

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ . وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ، وَقُلْ : عَسَى أَن يَهِيَ بَيْتِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِن هَذَا رَشَدًا » (3)

فقد وردت هذه الآية أثناء قصة أهل الكهف .

(1) الكهف : 82 .

(2) انظر : لباب النقول في اسباب النزول : للسيوطي : 144

(3) الكهف : 24 .

قيل : إنه لما سُئِلَ قال : أُخبركم غدا . ولم يقل : ان شاء الله . فنزلت الآية تعليما له وللمؤمنين أن يستعينوا بمشيئة الله على كل ما يعتزمون ، ويصلوا قلوبهم به في كل ما يهيمون . حتى إذا كشف الغيب عن تدبيرِ الله غير تدبيرهم تقبلوه بالرضى لأن الأمر لله أولاً وآخرأ . كما علمه الله ألا يقبل النقاش في هذا القصة من المشركين وأهل الكتاب « فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ، ولا تستفت فيهم منهم أحداً » (1) وحدّره أن يحاربهم في ما كانوا يعتقدون له المجالس من لغو الكلام ولهو الحديث . فإذا قالوا في أهل الكهف بأنهم ثلاثة رابعهم كلبهم ، أو أربعة خامسهم كلبهم ، أو أكثر من ذلك أو أقل ، فقل : « الله أعلمُ بعدّتهم ما يعلمهم إلا قليلاً » (2) .

وإذا سألوا : كم لبث أهل الكهف في كهفهم ؟ فقل :

« الله أعلمُ بما لبثوا . له غيبُ السموات والأرض » (3)

ومما ورد من ذلك عقب القصة :

تلك من أنباء الغيب نُوحِيهَا إِلَيْكَ . مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا . فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ » (4)

• (1) الكهف : 22

• (2) الكهف : 22

• (3) الكهف : 26

• (4) هود : 49

فقد جاءت هذه الآية بعد نهاية قصة نوح ، لتوجيهه صلى الله عليه وسلم إلى محاجة الجاحدين بدلالة هذا القصص ذاته على الوحي والرسالة ، علاوة على الأدلة الأخرى المتنوعة .

ومن ذلك مثلا : أن الشمس كسفت في اليوم الذي مات فيه إبراهيم بن محمد صلى الله عليه وسلم : فقال أحدهم : لقد كسفت لموت ابنه إبراهيم . ولكنّه لم يترك هذه الكلمة تسير بين الناس تؤيد نبوته وتعزز مكانته ، لأنه يأبى أن يقول غير ما قال الله فيهما : « بأنهما آيتان يخوف الله بهما عباده ، فلا يكسفان لموت أحد ولا لحياته » (1)

وهكذا فإن القرآن ربط بين الرسل والرسالات خلال العصور ، وجعل في الإمكان درس الرسالة المحمدية على ضوء ما سبقها من رسالات ، ودرس هذه الرسالات على ضوء رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . كما نجد في هذا القصص القرآني ما يواجه مقتضيات الحركة والمعركة مع الجاهلية في مراحلها المختلفة ، ويساير مراحل الدعوة ، والظروف النفسية التي كان يعيشها صاحبها صلى الله عليه وسلم ، حتى يكون ما فيه من منزع تعليمي تربوي قوة له مهذبة مُحْيِيَّة دافعة .

قال الله مخاطبا إيساه :

« فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ . لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَسُبِّدَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ »

(1) الحديث ، رواه البخاري .

(2) القلم : 48 - 50 .

أليس في هذا الخطاب تشخيص لتجربة حياة مارسها الرسول
وامتزج بها . فكانت له زاداً يُعينه على عبثه الثقيل في ثبات وصبر ؟
فلن يستبطيء إيمان قومه ، أو ييأس منهم كما فعل يونس عليه
السلام . ولن يطول عليه تلكئهم ، فيكلهم إلى أنفسهم ، أو يهجرهم
ساخطاً.....

كل ذلك علاوة على ما كان يجد في هذا القصص من متاع
روحي ، وشوق إلى المعرفة ، وتطلع إلى أبناء الغيب .

فقد روي أنه قصّ على أصحابه قصة موسى والخضر . فلمّا
بلغ قوله : « هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ » قال :

« وددنا ان موسى صبر حتى يقصّ الله علينا من خبرهما » (1)

وكان يقصّ على أمته قصصاً هادفاً ذا نزعة تعليمية بناءة ،
مثل قصص القرآن من هذه الوجة ، وإن كان يختلف عنه شكلاً
وأسلوباً : كقصة أصحاب الغار الثلاثة ، وتوسلهم إلى الله بما
قدّموه من صالح الأعمال كي يفرج عنهم الصخرة التي سدّت
مدخل الغار (2) .

وقصة الأقرع والأبرص والأعمى (3) التي توضّح معنى الاختبار ،
وتكشف عن حقيقة الابتلاء ، وما ينجّر عنه من جزاء ، وإمّا
بدوام التعمّة ، وإمّا بسلبها

(1) رواه البخارى .

(2) انظر القصة فى : صحيح مسلم . ج : 7 / 287 .

(3) المصدر السابق : ج : 7 / 289 .

وقصة أصحاب الأخدود (1) التي فصلت فيها ما أجمله القرآن .
وهي تضرب أروع الأمثال في الإخلاص لله ، والثبات على دينه ،
والتضحية في سبيله .

وهذه القصة كما رواها صهيب عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال :

« كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر ،
قال للملك : إنني قد كبرت ، فأبعث إليّ غلاماً أعلمه السحر .
فبعث إليه غلاماً يعلمه . فكان في طريقه - إذا سلك - راهب . فقعده
إليه ، وسمع كلامه فأعجبه . فكان إذا أتى السّاحر مرّاً بالراهب
وقعد إليه . فإذا أتى السّاحر ضربه . فشكا ذلك إلى الراهب .
فقال : إذا خشيت السّاحر ، فقل : حبسني أهلي . وإذا خشيت
أهلك ، فقل : حبسني السّاحر .

فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس .
فقال : اليوم أعلمُ : السّاحر أفضل ، أم الراهب أفضل ؟ فأخذ
حجراً ، فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك من أمر
السّاحر ، فاقتل هذه الدّابة حتى يمضي الناس . فرماها فقتلها ،
ومضى الناس . فأتى الراهب ، فأخبره . فقال له الراهب : أي
بني ! أنت اليوم أفضل منّي ، قد بلغ من أمرك ما أرى . وإنك ستبتلى
فإن ابتليت فلا تدلّ عليّ .

وكان الغلام يبصرى الأكمه والأبرص ، ويداوي الناس
 من سائر الأدواء . فسمع جليس للملك كان قد عمي . فأتاه بهدايا
 كثيرة . فقال : ما ههنا هو لك أجمع إن أنت شفيتني . فقال
 لاني لا أشفي أحدا ، إنما يشفي الله . فإن أنت آمنت بالله دعوت
 الله فشفاك . فأمن بالله ، فشفاه الله . فأتى الملك ، فجلس إليه كما
 كان يجلس . فقال له الملك : من ردّ عليك بصرك ؟ قال : ربي
 قال : ألك ربّ غيري ؟ قال : ربّي وربك الله . فأخذه ، فلم
 يزل يعذّبه ، حتّى دلّ على الغلام . فجيء بالغلام . فقال له الملك :
 أيّ بني ! قد بلغ من سحرك ما تبرى به الأكمه والأبرص ، وتفعل
 وتفعل.... فقال : إنّي لا أشفي أحدا إنما يشفي الله . فأخذه
 فلم يزل يعذّبه ، حتّى دلّ على الراهب . فجيء بالراهب . فقيّل له
 ارجع عن دينك . فأبى . فدعا بالمنشار ، فوضع المنشار في مفرق
 رأسه فشقه ، حتّى وقع شقّاه . ثمّ جيء بجليس الملك . فقيّل له :
 ارجع عن دينك . فأبى . فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به ،
 حتّى وقع شقّاه . ثمّ جيء بالغلام . فقيّل له : ارجع عن دينك
 فأبى . فدفعه إلى نفر من أصحابه . فقال . اذهبوا به إلى جبل
 كذا ، فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغتم ذروته ، فإنّ رجع
 عن دينه ، وإلاّ فاطرحوه . فذهبوا به فصعدوا به الجبل . فقال :
 اللهم اكفنيهم بما شئت . فرجف بهم الجبل فسقطوا . وجاء
 يمشي إلى الملك . فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال
 كفانيهم الله . فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به فاحملوه
 في قرقورة فتوسطوا به البحر ، فإنّ رجع عن دينه ، وإلاّ فاقدفوه .
 فذهبوا به . فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت . فانكفأت بهم السفينة ،

ففرقوا ، وجاء يمشي إلى الملك . فقال له الملك ما فعل أصحابك ؟
قال : كفانيهم الله . فقال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل
ما أمرك به . قال وما هو ؟

قال : تجمع الناس في صعيد واحد ، وتصلبني على جذع ،
ثم أخذ سهمًا من كنانتي ثم وضع السهم في كبد القوس ، ثم
قل : بسم الله رب الغلام ، ثم ارمي . فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني .

فجمع الناس في صعيد واحد ، وصلبه على جذع ، ثم أخذ
سهمًا من كنانته . ثم وضع السهم في كبد القوس ، ثم قال :
بسم الله رب الغلام . ثم رماه ، فوقع السهم في صدغه ، فوضع
يده في موضع السهم فمات . فقال الناس : آمنًا برب الغلام .
فأتى الملك ، فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر ؟ قد والله نزل بك
حذرک . لقد آمن الناس

فأمر بالأخدود في أفواه السكك فحُدّت ، وأضرم النيران ،
وقال : من لم يرجع عن دينه فاحموه فيها ، أو قيل له : اقتحم .
ففعّلوا . حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها ، فتقاعست أن تقع فيها ،
فقال لها الغلام : يا أمه اصبري ، فإنك على الحق . « (1)

أما تأثره عليه السلام بقصص القرآن فقد أعربت عنه آثاره
في أخلاقه ، وفيما روي عنه من أحاديثه :

(I) صحيح مسلم . ج : 7 / 306 - 307 .

روي أنه صلى الله عليه وسلم قسم قسمة ، فقال رجل من الأنصار : والله إنها لتقسمة ما أريد بها وجه الله . فبلغ ذلك إليه ، فتغير وجهه وغضب ، ثم قال :

« لقد أوذى موسى بأكثر من هذا فصبر » (1) .

وروي أنه قال :

« يرحم الله لوطا . لقد كان يأوي إلى ركن شديد » .

« ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأحببت الداعي . ونحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال له : أو لستم تؤمنون ؟ قال : بلى . ولكن ليطمئن قلبي (2) .

وما قوله : « لأجبت الداعي » إلا توضعاً منه صلى الله عليه وسلم .

ومعنى « نحن أحق بالشك من إبراهيم » : لو شك إبراهيم لكننا أولى بالشك منه . ونحن لا نشك ، فإبراهيم أحرى ألا يشك . فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم . والرسول إنما يحدث عن المجموع ، لا عن الجميع ، ولا عن نفسه . وإنما أراد إبراهيم زيادة إيمان ، عندما يرى كيفية الإحياء . وهو إيمان عن مشاهدة ، يعبر عنه بحق اليقين (3) .

وقال صلى الله عليه وسلم بعد أن فتح مكة وحطم أصنامها ، وأقبلت قريش : « إنني أقول كما قال أخي يوسف : لا تشرب عليكم اليوم يغفر الله لكم . وهو أرحم الراحمين » (4)

(1) رواه مسلم .

(2) رواه البخاري .

(3) انظر : المنتخب من السنة . م : I / 326 .

(4) رواه البخاري .

فهذا يبرهن على مدى تأثيره بقصص الأنبياء ، وتأسيه بأخلاقهم ،
واقترائه بهم .

كما نجد في أحاديثه ما يدلّ أيضا على تأثيره العميق بأحداث
القصص القرآني ، والاعتبار بها في خشية وجلال.....

قالت عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى
غيثا أو ريحا عرف في وجهه . فقلت : يا رسول الله ! إن الناس
إذا رأوا الغيث فرحوا ، رجاء أن يكون فيه المطر . وأراك إذا رأيتَه
عُرفت في وجهك الكراهية . فقال : يا عائشة ! ما يؤمنني ان يكون
فيه عذاب . عُدّب قومٌ بالريح . وراى قوم العذاب ، فقالوا :
« هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا » (1)

وروى ابن عمر قال : لما مرّ النبي صلى الله عليه وسلم
بالحجر ، مساكن ثمود قال : « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم
إلاّ أن تكونوا باكين ، حذرا أن يصيبكم مثل ما أصابهم . ثم
قنع رأسه ، وأسرع السير ، وأجاز الوادي » .

ولما نزل الجيش الذي سار معه إلى غزوة تبوك بهذه المساكن
استقوا من آبارهم ، وعجنوا به العجين . فأمرهم رسول الله صلى
الله عليه وسلم أن يريقوا ما استقوا ، ويعلفوا الإبل العجين ،
وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردّها الناقة (2)

فهذه الحالات النفسية كانت ولا شكّ تنتقل منه صلى الله
عليه وسلم إلى أصحابه عن طريق الإيحاء تارة ، والتلقين أخرى

(1) رواه البخارى .

(2) رواه البخارى ومسلم .

وذلك لما عُرف به من قوّة التأثير بحسن الإشارة وإشراق البيان ،
وتعبير الملامح . فإنّ أصحابه أسرعوا كما أسرع هو بالمرور
(ببطن محسّر) ، إذْ به هلك أصحاب الفيل ، ولأنّ الرسول علّمهم
ذلك ، وبيّن لهم بالقول والسلوك أنّ منازل الظالمين لا تُدخل
إلاّ للتذكّر والاعتبار .

الفصل الثاني

عناصر القصة في القرآن

أهمّ ما يشترك فيه القصص القرآني مع سائر القصص من عناصر : هو الشخص ، والحدث ، والحوار .

أمّا الشخص في هذا القصص فقد يكتفي القرآن بذكر بعض صفاته ، كما جاء في قصة موسى وفتاه والخضر :

« فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا ، وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّنْ لَدُنَّا عِلْمًا » (1) . فاستغنى القرآن بوصفه عن ذكر اسمه وهو « الخضر » على ما يذكر المفسرون ، لأنّ الناس لا يعرفونه . وكما ورد في قصة ثمود : « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا » (2) . فهذا الذي انبعث لعقر الناقة واسمه على ما يذكره المفسرون (3) . « قدار بن سالف » . لم ير القرآن فائدة من التصريح باسمه ، ولكنه اكتفى بذكر أهمّ صفة من صفاته النفسيّة ، وهي أنّه أشقى رجل في ثمود

وأما الحدث فكثيرا ما يُعرض مجردا عن ذكر الزمان والمكان اللذين وقع فيهما ، لكن قد يكون لهما أو لأحدهما مجال في سير الحادثة ، فيتعلّق الغرض بذكره ، كما في قوله تعالى عن إخوة يوسف : « وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ » (4)

(1) الكهف : 9 - 29 .

(2) الشمس : 17 .

(3) تفسير النووي . ج : 2 / 448 .

(4) يوسف : 16 .

فقد حرص القرآن على ذكر الزمن الذي دُبِّرَت فيه الجريمة وهو العشاء ، هذا الجزء من الليل الذي تستر إخوة يوسف بظلامه لحبك مؤامرتهم ، وإنجاز مكيدتهم .

وكما جاء في قصة موسى : « فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى » (1) فإن لهذا المكان شأنًا وأي شأن ! وأما الحوار فأخصّ ميزاته أنه يصور الأحداث في أسلوب الحكاية تصويرا يكشف عن خبايا الصدور ، ويسجل الإشارات والاهتزازات على نمط رفيع لا ينزل ، أيًا كان الأطراف المتحاورون .

الأحداث

قد ينصرف الاهتمام في القصة القرآنية إلى الأحداث دون الشخصيات ، فيختار القرآن منها أو من عناصر الحادثة ما يخدم الفكرة الرئيسية ، ويخلق الجوَّ النفسي الملائم ، من إجلال أو رهبة أو خوف ، ونفور أو رغبة . وهذه الحوادث إنَّما أثارت الانفعال ، وتركت آثارها في النفس ، لا لمجرد أنها أحداث فخمة رائعة فيها فعِلُّ الله ، وآثارُ قدرته الباهرة ، ولكن أيضا بتصويرها الفني الذي يعتمد على عنصر أساسي تكون بدونه قصة الحادثة جامدة لا حياة فيها ولا حركة ، مادبئة كانت : كالانتقال المادّي في المواقف والزمان والمكان ، أو داخلية نفسية : كتحرّكات الخواطر والأفكار والعواطف .

(I) القصص : 30 .

فهذه الحركة في معناها الشامل هي التي تجعل المشاهد في القصة حية ، والأحداث نابضة ، والمواقف المختلفة متفاعلة ، والسياق ديناميكيا . وكثيرا ما يستعين القرآن على إبرازها :

(أ) : بالوصف الدقيق المصور : كوصف نوح لإعراض قومه عن دعوته :

« وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ، وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا » (1) .

(ب) : بالمعاني المعبرة عن المشاعر والانفعالات والأحوال النفسية ،

كما جاء في القرآن على لسان مريم - وقد تمثل لها الملك رجلا يفجئها في خلوتها - « قَالَتْ : إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا » (2) ، وكقولها وهي تعاني ألم المخاض : « يَا لَيْسَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ، وَكُنْتُ نِسِيًّا مَنْسِيًّا » (3)

(ج) : بإبراز الصراع منسجما مع المغزى العام للقصة :

صراع الخير والشر ، والحق والباطل ، والإيمان والضلال ، ويكون حيناً صراعاً مادياً : كموقف موسى عليه السلام مع السحرة لما رمى عصاه ورموا عصيتهم ، وحيناً صراعاً نفسياً كموقف إبراهيم من الكواكب والقمر والشمس ، وما أبان له عقله الباطن من خطأ ما كان يتوهم ، ثم يعتقد بذلك ، فيرى أنه على خطأ (4) وقد قيل : من يبحث يجد ، ومن يجد يعرف ، ومن يعرف يستقر .

(1) نوح : 7 .

(2) مريم : 18 .

(3) مريم : 23 .

(4) بكرى أمين : التعبير الفني في القرآن : 224 .

وهكذا فإنّ التعبير الفنّي للقرآن في قصصه لا يخرج في جملته عن كونه تعبيراً عن النفس ، هو كتعبير النفس بالسلوك العمليّ في واقع الحياة .

جاء في وصف ميثاق بني إسرائيل الذي أخذ عليهم ، وأقروا به ، ثمّ أعرضوا عنه قوله تعالى :

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ، وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ » (1) .

ففي الآية : « ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ » لا يصحّ تفسير التوليّ بالإعراض ، وإلاّ عدّ ذلك تكراراً بالمعنى . لأنّ معنى التوليّ : الانصراف والبعد بالجسم . ومعنى الإعراض : الانصراف والبعد بالقلب . فالقرآن جمع بين المظهر الحسّي والمعنى النفسي . فقوله تعالى : « وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ » جملة حالّيّة ، وفيه معنى أن الإعراض النفسي عن الحقّ وجحوده حال مستمرّة من أحوالهم . فالحقّ لا يصلّ قلوبهم (2) .

فكان في دعم المعنى النفسيّ بالمظهر الحسّي تعبير مشخّص وتصويرٌ لحركة مادّيّة ونفسيّة .

(1) البقرة : 83 .

(2) العجزة الكبرى : القرآن : محمد أبو زهرة : 337 .

أما هذه الحوادث من حيث طبيعتها وجوهرها فتكمن فيها
قيسم روحية تكشف عن العناية الآلهية بما تُفضي إليه من نتائج ،
هي من تدبير الله المحكم ، وعدله المطلق ، وإن كانت تبدو
أحيانا وكأنها تسير سيرا عاديا مألوفا

فالأحداث التي جرت فيها قصة مولد موسى عليه السلام ،
تكشف إرادة الله فيها ، وتحدي القدر لفرعون رغم شدة حرصه
على قتل أيّ طفلٍ ذكّر يولد ، حذرا من أن يكون هلاكه على يديه ؛
كما أخبره بذلك الكهنة . ولكن يد القدر تقتحم بالوليد على
فرعون قلب امرأته ، بعد ما اقتحمت به عليه حصنه (2)

فكان للغيب حساب ، وكان لفرعون وشيعته حساب ؛ إذ
أرادوه لشيء ، وأراده الله لشيء آخر .

وليس من شك في أن ذلك مما يزيد المؤمنين إيمانا بأن
الله يتولى برعايته عباده الصالحين ، فلا تمتد إليهم يد أئمة ،
وأنته سبحانه يحول بين المرء وقلبه . فيصرف القلوب كما يشاء ،
تنفيذا لمشيئته

فلنتأمل معا هذه الحلقة الأولى من القصة كما وردت في القرآن الكريم :

« إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا
شِيْعًا . يَسْتَفْزِعُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ
وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ . إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . وَنُرِيدُ
أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ ، وَنَجْعَلَهُمْ

(2) في ظلال القرآن . ج : 20 / 44 .

أَيِّمَةً ، وَتَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ . وَتُمْكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ،
وَنُرِّيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ .
وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ . فإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ
فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ، وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي . إِنَّا رَادُّوهُ
إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ، فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ
لِيَكُونُوا لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا . إِنْ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا
كَانُوا خَاطِئِينَ . وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي
وَلَكَّ . لَا تَقْتُلُوهُ ، عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ . وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ
لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .
وَقَالَتِ لَأُخْتِهِ قُصِّيه . فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنِ جُنُبٍ وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ . وَحَرَّمَنا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ . فَقَالَتْ :
هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ
نَاصِحُونَ ؟ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَمَا تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ
وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » (1)

فقد كان تدخل القدر في هذه الأحداث خفياً ، لأن نتائجها
لم تنكشف إلا بعد وقوعها بمدة .

وقد يبرز هذا التدخل سافراً في الأحداث التي يتراد فيها
التحدي بالخوارق ، فتأتي نتائجها سريعة لا تقبل التريث ولا الإمهال ؛

وأحداثها خارجة عن الطبيعي المألوف ، توجهها قوة غيبية

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى :

« فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ ،
فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ . وَأَزَلَفْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ .
وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (1)

وقوله تعالى : « قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . قُلْنَا : يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ
إِبْرَاهِيمَ . وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ (2)

ومثلُ هذا التدخل الغيبي السَّافر يقوِّي ثقة المؤمنين بربهم
وبعدله وقدرته وإرادته . وليس من شأنه أن يدعو إلى الاستسلام
للقدر ، أو يحمل على الاعتقاد بأنَّ الإنسان ألعوبة في يده تندرج
مع التيار ، أو قطرة متلاشية في محيط الكون الأبدي ، لأنَّ
مثل هذه الأحداث التي عرضها القرآن في قصصه لم تخضع للقدر
على هذا المفهوم ، ولكن على معنى أنَّ هذه القوَّة الخفية في
كيان الوجود ، إنَّما تحرَّكها إرادة حكيمة مبدعة حسب نوااميس
خاصة تختلف عن نوااميس عالم المادة . وكلَّ خطوة فيها
مقدورة بحساب . وذلك ممَّا يجعل الإنسان في تعليقه للأحداث
أنفذ بصرا وأشدَّ عمقا .

(1) الشعراء : 63 - 66 .

(2) الانبياء : 67 - 69 .

يقول وليام جيمس (W. James) : «النفس محتاجة إلى الاعتقاد في أن العالم المشاهد وراء عالم أدبي أكثر منه روحانية . ولهذه الحاجة النفسية من قوّة وسلطان على نفوس الذين يشعرون بها ، مثل احتياج النفس إلى الاعتقاد في اطّراد القوانين السببية ، وما لهذه الحاجة من قوّة وسلطان على نفوس العلماء التّقنيين » (1)

كما أن الغيب الذي تظالّعنا به بعض أحداث القصص القرآني - وقد دُعينا إلى الإيمان به - لا يناقض العقل ولا يعطلّه ، لأنّه ليس ضدّه ، بل هو فوقه . والفرق عظيم .

فما هو ضدّ العقل يُلغيه ويعطلّه ويمنعه أن يفكّر فيه وفي سواه . وما هو فوق العقل يُطلق له المدى إلى غاية ذرّعه ، ثم يقف حيث ينبغي له الوقوف ، وهو يفكّر ويتدبّر (2)

ذلك أن القوانين المعروفة في عالم الخليقة قد استُخرجت ممّا نعمده ونشأهده ، وليست قوانين عقلية قامت البراهين على استحالة ما عداها .

فمن كمال العقل . أن يدرك أن وراء المحسوسات موجودات يجب أن يصدّق بها رغم أنّ الحس لا يأتي عليها ، ولكنّه وإن خفيت عنه حقائقها ، فإنه يحسّ بآثارها . كالوجود الآلهي ، فهو من عالم الغيب ، ولكن آثاره في خلقه من عالم الشهادة . ولا شك أنّ الإيمان بذلك يحتاج إلى قصد وملاحظة وحاسيّة .

(1) ارادة الاعتقاد : (ت) محمود حبّ الله : 131 - 132 .

(2) المقاد : التفكير فريضة اسلامية : 127 - 128 .

وليس من الإيمان بالغيب ذلك الاستسلام التقليدي الذي لم يأخذ من نفوس بعض العامة إلاّ ما أخذ اللفظ من اللسان ، وليس له أثر في الأفعال ، لأنّه لم يقع تحت نظر العقل ، ولم يلحظه وجدان القلب ، بل أغلقت عليه خزانة الوهم . فمثلُ هذا الذي يسمونه إيماناً لا يفيد في إعداد القلب للاهتداء بالقرآن (1)

ولقد أرشد القرآن فيما عرض من أحداث غريبة ، أن وراء الظواهر حقائق ، وأنّ الحقيقة لا تنقض الشريعة ، بل تتممها وتكشف عمّا خفي من حكمتها ، وأنّ الظواهر وحدها قد تُبعد عن منطق الأشياء التي لم تستطع رؤية العقل أن تدرك أبعادها ، وذلك لقصور طبيعي ، أو لعوارض داخلية .

وقد صورَ الشاعر الفارسي (عرفي) هذه الناحية من الإدراك الإنساني تصويراً جميلاً حين قال :

« إذا كان قلبك لم يخدعه السراب ، فلا تكن معجباً بحدّة ذكائك .
لأنّ خلاصك من هذا الخداع البصريّ مردّه إلى ضعف ظمّك »

يريد الشاعر بهذا أن يقول : « إذا اشتدّ ظمؤك بعثتُ رمال الصحراء في نفسك صورةَ البُحيرة . وخلصك من هذا الوهم يرجع إلى فقدان الحاجة الشديدة إلى الماء . وقد أدركتَ الشيء على حقيقته ، لأنّه لم تكن لك مصلحة في أن تدركه على غير حقيقته » .

وعلى هذا فإنّ الغايات والأهداف سواء أوجدت في الميول الشعورية ، أم فيما تحت الشعور ، هي لُحمة التجربة الشعورية وسداها (2) .

(1) المنار - ج : 2 / 128 .

(2) إقبال : تجديد التفكير الديني في الإسلام : 64 .

فهذه قصة موسى والعبد الصالح يرويها القرآن :
 « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ : لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ
 الْبَحْرَيْنِ ... الخ » (1)

فتكشف عن حقيقة من الغيب ، يبدو فيها سير الأحداث
 غريبا . بل إن حركاتها تصادم منطق العقل . لذلك لم يستطع
 موسى عليه السلام أن يتمالك وهو يرى السفينة تُحرق ، والغلام
 يُقتل ، والشح يُقابل بما يُشبه التبذير ، ثم يُراد منه ألا يتحرك ،
 وأن يضع أعصابه في ثلاثة كما يقال (2) :

ولو لم يتضح ما وراء تلك الأحداث من حكمة مغيبة لظلت
 غامضة تثير العجب وتدعو إلى الاستنكار .

ولعل من الطريف في هذه القصة مفاجأتها المتعاقبة التي
 تثيرها الأحداث بقدر ما يثيرها اكتشاف السر في البواعث
 على تلك الأحداث .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه القصة تظهر فيها الناحية التعليمية
 بصورة جلية ، كما يدل على ذلك مضمونها ، وكما يدل الحديث
 الوارد في شأنها . وهو : ما رواه أبي بن كعب عن رسول الله
 صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل : فسئل : أي الناس
 أعلم ؟ فقال : أنا . فعتب الله عليه ، إذ لم يرد العلم إليه . فأوحى
 الله إليه : إن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى :

(1) القصة في سورة الكهف : 59 - 81 .

(2) محمد المجذوب : قصص وعبر : 194 .

يا رب! فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتا فتجعله في مكنتل .
فحيثما فقدت الحوت فهو ثم .

فأخذ حوتا فجعله في مكنتل ، ثم انطلق ، وانطلق معه
فتاه يوشع بن نون « الخ » (1)

فهي ترشد إلى أن من الأحداث ما تسيطر عليه قوى غيبية
من البداية إلى النهاية . ولم تكن فيها تصرفات البشر والظواهر
الطبيعية إلا وسائل تنفيذ ، وأن الاتصال الروحي بالحقيقة لا تقوم
دونه حواجز الحسن ، إذا كان للطاقة الروحية في الإنسان مدد
من الإيمان بخالق الوجود .

ومن المحاولات الفاشلة أن يتطلع الإنسان إلى ما وراء الحسن
بالعقل وحده .

ولاشك أن تفتح الوجدان لهذه الأسرار الآلهية مما يفتح
آفاقا جديدة في الإحساس بما للقوى الغيبية من تأثير في مجرى
الأحداث ، والشعور بأن لتلك الأحداث عللا خفية ، وغايات
مرسومة عن قصد وتديبر .

ومن هنا كانت عناية القرآن بالنفس البشرية أثناء عرضه
للأحداث تفوق عنايته بأي شيء آخر . فهو يختار من الأحداث
ما كان أقواها تأثيرا في النفس ، وأكثر استجابة للغرض الديني .
ويتضح ذلك من قصصه لجملة من الأحداث تفصيل بينها قرون
وبيئات مختلفة ، ولكن تجمع بينها وحدة الهدف ، إذ هي تخدم
غرضا دينيا موحدًا .

(I) انظر الحديث في صحيح البخارى . ج : 6 / III - III (دار مطابع
الشعب بمصر) .

والقصص القرآني لا يقنعنا بوقوع تلك الأحداث وأسبابها بالمحاكمات والبراهين والوثائق فقط ، وإنما يقنعنا أيضا بشيء آخر من التلقين المفاجيء الذي يكشف لنا عن الأشياء ويحملنا على التصديق بها ، لأن الاقتناع العقلي يكون غير مُلزم دائما ، بينما الاقتناع الوجداني له أثر حتمي في معظم الحالات ، إن لم نقل في جميعها .

وترهيب القرآن بقوة الله وجبروته من خلال روعة الأحداث التي يعرضها لا تثير في النفوس خوفا غامضا من المجهول ، لأنها ليست قوة غاشمة تخبط خبط عشواء كما يقال ، ولكنها قوة مُبصرة يقودها الحق والعدالة . لذلك نرى القرآن يتعقب تلك الأحداث بما يبررها ، أو يفسر أسبابها ، أو يبرز موطن العبرة فيها ، حتى يكون لها وقعها في النفوس ، بما يستخدم في التعقيب عليها من أساليب التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير . ومن ذلك مثلا ما جاء في آخر قصة عاد :

« وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمِ الْقِيَامَةِ . أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ . أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ » (1) .

وما جاء في آخر قصة قارون :

« تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا . وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » (2)

(1) هود : 58 - 59 .

(2) القصص : 83 .

الشخصية

تردُ الشخصية في بعض القصص القرآنيِّ مِحوراً تدور حوله الأحداث فتؤثر فيها وتتأثر بها .

والقرآن لم يُبرز هذا العنصر لذاته ، ولكن للتأسي بالشخصية الخيرة ، والتفسير من الشخصية الشريفة ، مثل أسماء الأنبياء وأعدائهم ممن تحدوا دعوات السماء : كموسى وهارون ، وفرعون وقارون .

لذلك لم يُعنَ برسم الخطوط الشكلية للشخصية ، وإبراز ملامحها الخارجية ؛ كما يفعل بعض المولعين بالقص ، فيذكرون مثلاً لون الشعر والعينين ، ووصف الفم والأنف والجبين ، وتشبيه نبرات الصوت والمشية ، وتفسير نظرات الفرح ، والحزن والغضب ، وابتسامات البراءة والمكر والسخرية ، ونحو ذلك من الأوصاف الفيزيولوجية التي تجعل الشخصية كأنها ماثلة للعيان ، لأن ذلك كله لا يخدم أيَّ غرض ديني من أغراض القصة القرآنية . وإنما يكشف القرآن عن مزاج الشخصية ، وعن دوافعها وانفعالاتها وسلوكها من خلال الوصف ، أو حكاية الأقوال أو الأحداث بصورة عرضية لم تُقصد لذاتها بالأصالة

ومن ناحية أخرى فإن الشخصية القرآنية تتمثل في :

(1) : فرد مُعيّن باسمه : كإبراهيم وموسى وفرعون .

(2) : جنس مُعيّن وحدت بين عناصره العصبية ، ومجموعة

من سجايا العرق : مثل بني إسرائيل

3) : الإنسان أياً كان ، بما جُبل عليه من غرائز ، وما رُكِّب فيه من طباع ثابتة ، تكشفها الأحداث من حين لآخر

وفي القرآن شخصيات من غير البشر ، صدرت عنها عبارات وأفكار ، وقامت بأدوار إيجابية في القصة : كالملائكة في قصة إبراهيم ولوط ، والجن في قصة سليمان ، وإبليس في قصة آدم . وأبرز ما يلاحظ في التصوير القرآني للشخصية بصفة عامة : أمانة النقل في حكاية أقوالها ، ودقة التعبير عن مشاعرها ، وصدق الترجمة الباطنية عن خواطرها . فهي رغم تعدد مواقفها وتنوعها في مواطن متفرقة من القرآن لا يتناسق جمعها في موضع أو سورة ، لانعدام الوحدة الموضوعية بينها ، لكننا نجد في تلك الشخصية من توافق العناصر ، وائتلاف الصفات ، وتفاعل السمات المزاجية والخلقية على الخصوص ما يُلقى الأضواء على جوانبها النفسية .

فهذه شخصية إبراهيم عليه السلام كانت في القرآن محورا لأحداث مختلفة كشفت عن ملامحها . فمن ذلك مثلاً :

قصة إيمانه بالله :

« وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَانَ مِنَ الْمُوقِنِينَ . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَبَلَ : هَذَا رَبِّي . فَلَمَّا أَفَلَ ، قَالَ : لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَبَلَ : هَذَا رَبِّي . فَلَمَّا أَفَلَ ، قَالَ : لئن

لَسْمَ يَهْدِينِي رَبِّي لِأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى
 الشَّمْسَ بِأَزْغَةٍ قَالَ : هَذَا رَبِّي ، هَذَا أَكْبَرُ ، فَلَمَّا أَفَلَتْ
 قَالَ : يَا قَوْمِ ! إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْتُ
 وَجْهِيَ لِلذِّي فَطَرَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا . وَمَا
 أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ « (1)

وقصة إيمانه بالبعث :

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ؟
 قَالَ : أَوَلَمْ تُؤْمِنُ ؟ قَالَ : بَلَى . وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي .
 قَالَ : فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ، ثُمَّ
 اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ، ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ
 سَعْيًا . وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ « (2)

وقصة فداء ابنه بعد ابتلائه :

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ . قَالَ : يَا بُنَيَّ ! إِنِّي أَرَى فِي
 الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ؟ قَالَ : يَا أَبَتِ افْعَلْ
 مَا تُؤْمَرُ . سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ . فَلَمَّا
 أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ، وَنَادَيْنَاهُ : أُنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ
 الرُّؤْيَا ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ
 الْبَلَاءُ الْمُبِينُ . وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ . وَتَرَكَنَا عَلَيْهِ

(I) الأناعام : 76 - 84 .

(2) البقرة : 260 .

فِي الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَيَّ إِِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ » (1)

وقصة دعوة أبيه إلى عبادة الله ونبذ الأوثان :

« واذكُرْ فِي الْكِتَابِ إِِبْرَاهِيمَ . إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا
نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ : يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا
يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ؟ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ
الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا . يَا أَبَتِ
لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ . إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا .
يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ
لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا . قَالَ : أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِِبْرَاهِيمُ ؟
لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا . قَالَ : سَلَامٌ
عَلَيْكَ ! سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي . إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا .
وَأَعْتَزَلْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ . وَأَدْعُوا رَبِّي .
عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا » (2)

وقصة زيارة الملائكة له ، لتبشيره بسلام ، وتعريفه بهلاك

قوم لوط :

« وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى . قَالُوا :
سَلَامًا . قَالَ : سَلَامٌ . فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ .

(1) الصافات : 102 - III •

(2) مريم : 40 - 48 •

فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ، وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا : لَا تَخَفْ . إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ، وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةً فَضَحِكْتُمْ . فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ، وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ . قَالَتْ : يَا وَيْلَتَا أَلِدُ ، وَأَنَا عَجُوزٌ ، وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ! قَالُوا : أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ؟ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ . إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ . فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ . يَا إِبْرَاهِيمُ أُعْرِضْ عَنْ هَذَا . إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (1)

فمن خلال هذا القصة برزت شخصية إبراهيم المثالية . فكان مثلاً في حصافة الرأي ، وحب التطلع إلى اليقين ، والامتنان لأمر الله في تفسان وإخلاص ، والرفق والحلم ، والرافة والحنان . وقد تجمعت في شخصه من جليل الخصال ما تفرق في غيره من الناس على مدى الأجيال . فكان أمة برأسه كما أثنى الله عليه :

« إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (2) .

(1) هود : 68 - 75 .

(2) النحل : 120 - 122 .

فما عرفَ به عليه السلام من أناة وبعُد نظرورجاحة عقل ،
دلّ عليه تأمّله في ملكوت السماوات والأرض ، وهو يبحث عن
خالق هذه الأكوان ، مستعينا بفطرته السليمة وتجربته القويمة ،
حتى هداه الله إليه فوجده . ولكنّه لم يجده في كوكب يلمع ،
ولا في قمر يطلع ، ولا في شمس تسطع ، ولا فيما تُبصره عيناه ،
وتُدركه حواسّه . وإنّما وجده في كيانه وفي الوجود كلّه ، (1)
فكان إيمانه عن معرفة . وهو لفرط رغبته الوصول إلى مرتبة
المعانيّة ، ويقين المشاهدة في دليل البعث ، سأل ربّه أن يُريه
إحياء الموتى بالمحسوس ، ليستقل من البرهان النظري ، إلى
العلم الضّروريّ الذي يدفع كلّ الشّبه عن العقل .

وما غُرس في قلبه من إيمان بالله بلغ به أسمى مراتب الطاعة
والامثال ، كُشف عنه إقدامه على ذبح ابنه ، ولكن الله افتداه بكبش
رحمة به وبأبيه الذي ابتلاه ومحّصه ، فوجده من الصابرين المخلصين
وما اتّصف به من أدب وحياء ورفق حمّله على ملاطفة
أبيه رغم إساءته إليه بالتهديد والوعيد ، ولكنه لم يَفقد أدبه
معه ، ولا احترامه له ، ولا بیره به ، بل كان يحاول أن يقنع أباه
بالحُسنى ، ويُفهمه أن لا غضاضة في أن يتبع الوالد ولده ، إذا
كان الابن يعلم من الله ما لا يعلمه أبوه .

ولا عجب ! فإبراهيم صاحب القلب الكبير الذي وسّع النَّاس
بمحبّته ولينه ، يحنو على قومه رغم إيذائهم له . فهو لا يطلب
العذاب والهلاك لِمَن عصاه ، وإنّما يكلّمهم إلى رحمة الله وغفرانه .

« رَبِّ ، إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ . فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (1)

كما أن ما جُبل عليه من سخاء ورأفة أبان عنه احتفاؤه بضيوفه ، وإكرامهم ، وسؤالُ ربّه أن يعفو عن قوم ابن أخيه لوط ، وقد أبلغه ضيوفه من الملائكة أنهم مرسلون إلى لوط ليأمره بالخروج من القرية مع أهله قبيل الصبح ، موعداً هلاك قومه . فكان يجادل ربّه في شأنهم رجاءً أن ينظر إليهم بعين الرحمة .

وبينما يرسم بعض القصص القرآني لشخصية إبراهيم هذه السمات ، نراه يرسم لشخصية موسى مثلاً سمات أخرى ، منها ما يلتقي معها ، وفيها ما يقابلها . فيجعل منه نموذجاً للزعيم القويّ المندفِع بحدّة الطبع والمزاج وسرعة الانفعال ، وحساسية الوجدان . ولعلّ هذه السمات هي التي جعلت حظوظ نجاحه أقوى في قيادة شعب صلب المراس ، معقّد النفسية ، وهو شعب بني إسرائيل الذي كان من طبعه التلكؤ في الطاعة ، والجمود في المشاعر ، والمراوغة ، والسخرية في المواقف الجدّية ، ومقاومة شيع الفراعنة الذين كان من أخلاقهم البغي والكبر ، واحتقار الفقراء والضعفاء ، وتقديس الكبراء وذوي الشراء و « الله أعلم حيث يجعل رسالته » (2) .

ومما تجلّت فيه تلك السمات موقفه عندما فوجيء بارتكاس قومه ، واتخاذهم عجبلاً يعبدونه أثناء غيابه في مناجاة ربّه ،

(1) إبراهيم : 36 .

(2) الانعام : 124 .

فَيُفْقِدُهُ الْغَضَبَ هَدْوَهُ ، وَيُلْقِي بِالْأَلْوَابِ الَّتِي تَحْمِلُ كَلِمَاتِ اللَّهِ ،
 وَسُرْعَانَ مَا يَسْكُنُ غَضْبَهُ ، فَيَعُودُ إِلَيْهَا لِأَخْذِهَا . كَمَا يَثُورُ ثَوْرَةٌ
 عَنِيفَةٌ عَلَى أُخِيهِ هَارُونَ ؛ وَكَانَ قَدْ اسْتَخْلَفَهُ عَلَى قَوْمِهِ ، فَغَلَبَهُ عَلَى
 أَمْرِهِ فِي عِبَادَةِ الْعَجَلِ ؛ فَيَأْخُذُ بِشَعْرِ رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ ، وَيَجْذِبُهُ إِلَيْهِ ؛
 وَلَكِنْ هَارُونَ يَسْتِثِيرُ عَاطِفَةَ الْأَخُوَّةِ فِي قَلْبِهِ ، وَيَعْتَذِرُ لَهُ عَمَّا جَرَى ،
 فَيَهْدَأُ غَضْبَهُ ، وَتَسْكُنُ ثَوْرَتَهُ ، وَيَتَحَوَّلُ انْفِعَالُهُ مِنْ غَضَبٍ عَلَيْهِ إِلَى
 شَفَقَةٍ . وَالإِنْسَانُ الْعَصْبِيُّ يَكُونُ تَرَاجَعُهُ عَلَى قَدْرِ انْدِفَاعِهِ .

وَيُشَخِّصُ التَّعْبِيرُ الْقُرْآنِيُّ هَذَا الْغَضَبَ فِي حَرَكَتِهِ وَدَفْعِهِ فَيَقُولُ :

« وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا
 جَسَدًا لَهُ خُورًا . أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ
 سَبِيلًا ؟ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ »

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ، قَالَ :
 بَشَسَمًا خَلَقْتُمُْونِي مِنْ بَعْدِي . أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ؟
 وَالْقَتَى الْأَلْوَابِ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ . قَالَ :
 ابْنَ أُمَّ ! إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي . فَلَا
 تُشْمِتُ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .
 قَالَ : رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ، وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ
 أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ الخ (1)

وتظهر هذه الطبيعة الانفعالية الدفاعية لشخصية موسى عليه السلام من تصرفاته في كل أدوار حياته منذ أن وكز الرجل المصري الذي رآه يقتتل مع الإسرائيلي ، فمات ، ثم أناب إلى ربه مستغفرا معتذرا ، حتى إذا كان اليوم الثاني ، ورأى الاسرائيلي يقتتل مع مصري آخر ، همّ بالمصري مرة أخرى (1).

فكان هذا المزاج العصبي ملازما له في كل موافقه .

« وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ، فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ . هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ ، وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ . فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ، فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ . قَالَ : هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ . إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ . قَالَ : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي . فَغَفَرَ لَهُ . إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . قَالَ : رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِلْمُجْرِمِينَ . فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ، فَلِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ . قَالَ لَهُ مُوسَى : إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ، فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا ، قَالَ : يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ؟ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ، وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ » (2)

ومن هذه الحادثة يُبرز القرآن ما في طبع موسى من صفات العصبية : كسرعة اندفاعه لنجدة الإسرائيلي ، وعنفه

(1) في ظلال القرآن . ج : 15 / 105 •

(2) القصص : 14 •

مع القبطي ، وسرعة رجوعه على نفسه باللائمة ، وإلى الله بالإقرار بالذنب وطلب الغفران . فهو طيب القلب سريع الندم .

وهكذا نلاحظ أن إبراز سمات الشخصية في القرآن يقوم على مبدأ عامّ يسمّى في علم النفس « اتّساق شخصية الفرد » بحيث إنّ سلوكه يتناغم بصفة مستمرة مع الظروف الداخليّة والخارجيّة التي يتعرّض لها ، وذلك بما يحمل من خصائص معيّنة تلازمه من موقف لآخر ، وتؤثر في سلوكه ، وتحدّد وجهته ونمطه » (1) وما ذلك إلاّ لأنّ القرآن يعبر بأمانة عن تصرف الأفراد في مواقفهم

وإنّه لَمَن المفيد أن نأخذ نموذجا آخر من الشخصيات القرآنية غير الأنبياء الذين تلتقي قلوبهم وتتفق سرائرهم في الصفاء والإخلاص لله ، والإنابة إليه في السراء والضراء والرضى والغضب ، وإن اختلفت أمزجتهم ومواقفهم من أقوامهم .

ولتكنّ هذه الشخصية مثلا : فرعون الذي كانت له مع موسى مواقف برزت من خلالها أخصّ صفاته ؛ وهي الطغيان ، والتكبر ، والغرور ، والمكابرة في الحقّ .

فيرجع طغيانه إلى اعتزازه بالقوة الغاشمة التي بين يديه ، والثروة الطائلة التي ينعم بها في ترف وإسراف ، والسلطان المادّي الذي يرتكز إليه . وكلّ طاغية متجبر ، يسترهب الناس بالقوّة والبأس . فيتسلّط على الرقاب بالبطش والإرهاب ، ويستذلّ القلوب بالظلم والاستبداد .

(I) مصطفى فهمي : الصحة النفسية : 66 .

فقد قال فرعون للسحرة لما سجدوا وآمنوا برب العالمين ،
 رب موسى وهارون : « آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ . إِنَّ
 هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمْوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ
 تَعْلَمُونَ . لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاَفٍ ثُمَّ
 لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ » (1)

« وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ : أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ
 لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ ؟ قَالَ : سَنَقْتُلُ
 أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ » (2) .

وَيَرْجِعُ كَبْرِيأَهُ إِلَى ادْعَائِهِ الرَّبُّوبِيَّةِ ، وإعراضه عن الحق
 رغم ما أراه موسى من آيات الله .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي
 إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ . فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ : إِنِّي لَأَظُنُّكَ
 يَا مُوسَى مَسْحُورًا » (3)

« فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ، فَكَذَّبَ وَعَصَى . ثُمَّ أَذْبَرَ
 يَسْعَى . فَحَشَرَ فَنَادَى : فَقَالَ : أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى » (4)

• (1) الأعراف : I22 - I23

• (2) الأعراف : I26

• (3) الاسراء : IOI

• (4) النازعات : 20 - 24

ومن كبريائه أنه يستنكف من أن يجعل نفسه داخلا في دعوة موسى أو مقصودا بها ، فيعمد إلى تحويل خطاب موسى له إلى جلسائه :

« قَالَ : إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ لِاتِيكُمْ لَمَجْنُونٌ » (1)

ثم يرفض أن يقبل الهدى ، ويقول لرسول رب العالمين في استعلاء :

« لَسِنٍ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّاكَ مِنْ الْمَسْجُونِينَ » (2)

ويرجع غروره إلى سلطته المطلقة على بني إسرائيل الذين كانوا يتبعون خطواته الضالة بلا تدبر ولا تفكير ، وينقادون إليه في ذلة وخوف ، وقد خلب البريق الخادع عقولهم الساذجة :

« وَتَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ : يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تَبْصُرُونَ ؟
أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » (3)

« وَقَالَ فِرْعَوْنُ : يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرِّحًا لِعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ كَاذِبًا » (4)

(1) الشعراء : 29 •

(2) الشعراء : 25 •

(3) غافر : 36 - 37 •

(4) الزخرف : 50 - 52 •

وإذا كانت شخصية الانسان تميّز على حسب العواطف التي تدور عليها حياته ، وخاصة السائد منها ، فإن لكلّ من موسى وفرعون عاطفة سائدة تسيطر على ما لديهما من عواطف أخرى ، وتوجّه سلوكهما .

وهي في موسى كما في سائر الأنبياء : حبّ الله ، والإخلاص له في السرّ والعلانية ، والتفاني في تبليغ رسالته .

وهي في فرعون : حبّ الذات الذي يسيطر فيه الزهو والغرور على النفس ، فيطغى عليها الكبرياء حتى يجبرّها إلى عدم الاكتراث بالغير ، واحتقار البشر ، وعدم الإذعان للحقّ رغم ظهور آياته ، والعناد الأعمى رغم ما يؤدّي إليه من الهلاك .

النوع الثاني :

شخصيّة جنس وحدّت بين طباعه وأخلاقه عوامل العرق والوراثة حتى صار الفرد مرآة للجنس كلّه ، والجنس يتمثّل في أيّ فرد من أفراده . ويكاد ينحصر ذلك في بني إسرائيل الذين لهم تاريخ طويل ، ولكنهم جنس واحد في سجايا العرق ، متضامنوا الأجيال ، متحدو الجيلة في جميع العصور . لذلك نرى القرآن في عرضه لأخبار بني إسرائيل يحوّل السياق من الحكايات إلى الخطاب ، ليذكّرهم بما أنعم الله على آبائهم من نعم جليّة قابلوها بالجحود والانحرافات كالعناد ، والتمرد ، واختلاق المعاذير الواهية في التخلّي عن الواجبات ، والاستخفاف بأنبيائهم ، والاعتداء على بعضهم بالقتل ، ونكث العهود ، ونقض المواثيق ، والادّعاءات العريضة الباطلة ؛ وكأنه بذلك يخاطب جيلا واحدا ، لا أجيالا عديدة فرقت بينها القرون .

لأن ما في طبيعتهم من تعصب شديد ، جعل تصرفات الأحفاد ، متساوقة مع تصرفات الأجداد (1) .

« فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا ، قَالُوا : لَوْلَا أُوْتِيََ مِثْلَ مَا أُوْتِيََ مُوسَى ! أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوْتِيََ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ؟ قَالُوا : سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا . وَقَالُوا : إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ » (2)

فهم يُحسّون أن كلَّ خير يُصيب غيرهم كأنّما انتزع منهم ، والأثرّة الضيقّة في نطاق عصبيّة الجنس جعلتهم لا يشعرون بالوشائج الإنسانية التي تربط بين البشر جميعا .

ولقد كانت حجّتهم في إعراضهم عن الإسلام أنّهم على شريعتهم ، وأنّهم في غنى بتعاليم أنبيائهم عن كل داعية جديدة . « وَقَالُوا : قَالُوا بِنَا غُلْفٌ » (3) . وعندئذ يَكشِفُ الْقُرْآنُ عَنْ نَفْسِيَّتِهِمْ ، وعن حقيقة موقفهم من أنبيائهم وشرائعهم . وكان الذي حملهم على هذا كلّهُ حسدهم لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يختاره الله للرّسالة التي انتظروها فيهم ، ثمّ طبيعة هذا الدّين الذي بُنِيَ على الوحدة الإنسانيّة ، والقضاء على التفرقة العنصريّة بين الأجناس ، إذ جميع البشر من جوهر واحد ، كما جاء في الحديث : « كُلكُم من آدم ، وآدم من تراب » (4)

(I) تحدثنا في الفصل الرابع من قسم البحث النظري عن موضوع التعصب

للجنس فارجع اليه بصفحة : 208 - 213 .

(2) القصص : 48 .

(3) البقرة : 88 .

(4) رواه البخارى .

وإذا كان الربّ « يهوه » إلها لليهود فقط « شعب الله المختار » كما يزعمون ، فإنّ القرآن يقرّر أنّ الله لم يلتزم بأيّ عهد مع أيّ شعب .

وقالوا : « لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً . قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَيَّ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ؟ » (1)

فإذا أخذنا الواحد المطلّق كمركز للإيمان افترضت الشهادة « لاله الا الله » وحدة الإله ووحدة الطبيعة ، وكذلك وحدة العرق ووحدة الإنسان (2)

وينتج عن ذلك « أنّ شرف أيّ إنسان مكتسب بصفة فردية بفضل ما يقوم به من أعمال الصّالح والخير ، لا بالانتساب إلى قبيلة أو جنس أو موطن » (3) . وهذا مخالف تمامًا لما عليه بنو إسرائيل ، ولما كان عليه العرب قبل الإسلام .

فالإسلام يعتبر « أنا » شعورا ووعيا . والوعي قبس من نور الله . وعلى العكس من هذا ، لم يكن « الأنا » في العصر الجاهلي مركزا في داخله ، بل مُشْتَتًا على الخارج ، منعدم الذاتيّة الخاصة ، حسبّه المشاركة في ذاتيّة قبليّة مشاعة . فكيف يستطيع أن يصل إلى

(1) البقرة : 79 .

(2) انظر : الشخصانية الاسلامية : محمد عزيز الحبابي : 30 .

(3) المصدر السابق : 26 .

درجة الوعي ما دام شعوره يذوب في شعور جماعي غير محدد
قانونه العصبية الضيقة التي يعبر عنها دريد بن الصمة بقوله (1) :

وهل أننا إلا من غزيرة إن غوت غويت وإن ترشد غزيرة أرشد

وبفضل الدين الجديد لم يعد العربي فردا يذوب في القبيلة داخل
اتصال أفقي ، بل صار شخصا يشعر بشخصيته في ذاتها ، ويتصل
بكاثر مطلق ، هو الخالق المتعالي الذي سوى بين العربي والأعجمي :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » (2) .

وهكذا فإن الاسلام حقر العصبية التي تستند إلى الجنس ، والعصبية
التي تلتحم بالدم والقراة . فتلك عصبية جاهلية قد يجتمع الناس باسمها
على الحق والباطل ، وعلى البر والفجور ، وعلى العدل والظلم . وقد
أحل الإسلام محلها عصبية العقيدة وعصبية الفكر . التي تجعل من
المؤمن رجلا يتعصب للحق في ذاته ، ولو كان عليه ، أو على أهله (3)

النوع الثالث : الانسان

هذا الذي أودع الله فيه مزاجا يرتبط فيه الجسد بالروح ، لا يمكن
أن ينفصل أحدهما عن الآخر ما دامت تسري فيه الحياة (4) .

(1) المصدر السابق : 17 .

(2) الحجرات : 13 .

(3) خلق ودين : 84 - 85 .

(4) انظر : مدلول الانسان لابن حزم : الفصل في الملل والاهواء والنحل

ج : 5 / 66 .

والقيمة في كيانه لم تنشأ من قبضة الطين التي خلقت منها
الجسد الأول ، وإنما نشأت حين تلبّست بها نفخة الروح
العلوية ، وهي التي بها استحقّ التكريم ، ومن أجلها أمر الله
الملائكة أن يسجدوا له :

« إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ : إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ . فإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي ، فَسَجُّدُوا لَهُ سَاجِدِينَ » (1) .

وبهذه الطبيعة المزدوجة التي ركّبت فيه ، كان قادرا على
السّموّ بروحه إلى الملكوت ، أو على الهبوط بحيوانيته إلى الحضيض .

فإذا ارتكس إلى أسفل ، فإنه حينئذ تصدّق عليه التفسير
المخطئة التي تصوّر الإنسان من جانب واحد في صورة حيوانية :
كالتفسير المادّي للتاريخ الذي يقول : « إن تاريخ الإنسان هو
تاريخ البحث عن الطعام » ، والتفسير الجنسي الذي يقول : « إن
الفرد محكوم بغرائزه ، وبغريزة الجنس بصفة خاصة في نظر
"فرايد" . وإن هذه الغريزة تسعى دوما إلى الحصول على اللذة ،
والهروب من الألم . أمّا الأخلاق والتقاليد وجميع القيم فإنها
ليست نابعة من ذات الانسان ، وإنما هي مفروضة عليه من الخارج :
من المجتمع ، ومن سلطة القانون ، ومن سلطة الأقوياء ، ومن
سلطان الدين » (2) .

(I) ص : 70 - 71 .

(2) محمد قطب : دراسات في النفس الانسانية : 323 .

والحقُّ أن في كيان الإنسان استعدادا للهدى والاستقامة ، إذا جعل القياد لروحه ، واستعدادا مماثلا للضلال والانحراف ، إذا جعل القياد لغرائزه . لذلك لم تتخل عنه السماء ، ولم يتركه الله سدى ؛ بل أرسل الرسل يرشدونه إلى المنهج القويم ، ويرُدُّونه إليه ، حتى يكون أهلا لما أعدّه الله من الخلافة في الأرض ، وتحمل الأمانة .

« فَلَمَّا بَيَّنَّاتِكُمْ مِثِّي هُدًى ، فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (1) »

وقد ورد لفظ "الإنسان" في القرآن في خمسة وستين موضعا أبرزَ فيها ما له من طاقات، وكشف عن دقائق ملامحه النفسية ، ونوازعه الخفية (2) .

فهو مزوّد بوسائل المعرفة والإدراك والتمييز والقدرة على مجابهة المشاق والصراع ، والاستعداد للتلقّي والاستجابة ، والتصرف بإرادته ليُسْتَبلى ويُجزى . فهو مخلوق لغاية ، ومشدود إلى محور

« عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » (3)

« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ » (4)

(1) البقرة : 37 - 38 •

(2) انظر : مقال في الانسان : للدكتورة بنت الشاطي : 15 - 19 •

(3) العلق : 5 •

(4) البلد : 4 •

« إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ،
فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا
وَأِمَّا كَفُورًا » (1) .

« وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وَأَنْ سَعِيهِ سُوفَ
يُسْرَى . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى » (2)

وهو ضعيف في التغلب على دوافع غرائزه ، والتحكّم في
نزواته . وقد علّم الله ضعفه ، فنسى عنه الجرح والمشقة والضّرر ،
وفتح له باب التوبة :

« يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ . وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ
ضَعِيفًا » (3) .

وهو أناني جحود : يجأر إلى ربه في الشدّة ، ويفزع إليه
في البأس . فإذا استجاب الله دعاءه ، ورفع عنه الضّرر ، أعرض
عنه ، وعاد إلى ما كان فيه :

« وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنَانِهِ أَوْ قَاعِيدًا
أَوْ قَائِمًا . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرًّا كَانُ لَمْ يَدْعُنَا
إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ » (4)

(1) الانسان : 2 - 3 .

(2) النجم : 39 - 41 .

(3) النساء : 28 .

(4) يونس : 12 .

« وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ .
 وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ » (1) .
 « إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ . وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ .
 وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ » (2)
 « وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ » (3)

وهو متقلب يُبَطِّره الغنى فيطغى :

« كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ . أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ » (4)
 وهو سريع التسيان ، لا يثبت أمام الإغواء والإغراء :
 « وَلَقَدْ عَاهِدْنَا إِيَّاهُ بِآدَمَ مِن قَبْلُ ، فَانسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ
 لَهُ عِزْمًا » (5) .

وهو عنيد مكابر ، يحب المراء والجدل في الله وآياته :

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ .
 وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا » (6) .
 « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ ، فإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ » (7)

(I) فصلت : 50 .

(2) العاديات : 6 - 8 .

(3) إبراهيم : 36 .

(4) العلق : 6 - 7 .

(5) طه : II5 .

(6) الكهف : 53 .

(7) النحل : 4 .

وهو عَجُول بطبعه ، يمدّ بصره دائما إلى غيب المستقبل ،
فيستعجل أحداثه ، وإن كان في ذلك ضررُهُ :

« خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » (1)

« وَيَدْعُو الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ . وَكَانَ
الْإِنْسَانُ عَاجُولًا » (2) .

فنستنتج من هذا العرض السريع أن ما وُصِف به القرآن
الإنسان من ضعف وكفر وعجلة ومكابرة ونسيان وطغيان ،
وذهول عن الله وجحود لنعمه ، ظاهرة عامة في تاريخ الإنسانية
وما تزال فيها . لأنّ في طرق الانسان مزلق وأشواكا ومعوقات ،
وأنته بغير الإيمان الراسخ ، والعقيدة الصحيحة ، لا يأمن من
غوائل الشرّ المُتسرّب إلى نفسه بفعل الجواذب والدوافع ، وهي
عنيفة ومتنوعة .

« أَلَمْ أَعْهَدَ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ
إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ .
وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا . أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ؟ » (3)

ولعلاج هذه الأدواء المزمنة في الإنسان ، وضمان صحته
الروحية ، استعمل القرآن مختلف المؤثرات النفسية .

وكان من أبرزها :

(I) الأنبياء : 36 •

(2) الإسراء : II

(3) يس : 59 - 61 •

(1) : قصّ أنباء الأمم السالفة ، وما حلّ عليهم من عذاب الله وبأسه الشديد ، لكفرهم وبغيهم بعد الإنذار الطويل

« ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رُّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ، فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا ، وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ . فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » (1)

« وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ . فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ » (2)

(2) : تذكيره في عدّة مناسبات بنعم الله عليه : كتكريمه على سائر المخلوقات ، وتمكينه في الأرض للخلافة والتعمير ، وتسخير كلّ ما في السماوات والأرض له :

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ ، مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مَسْخَرَاتٍ بِأَمْرِهِ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ . وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ

(1) الأنبياء : 44

(2) الأنبياء : II

حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا . وَتَرَى الْفُلُكَ مَوَاحِرَ فِيهِ ، وَلِتَبْتَغُوا
 مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ
 أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وَعَلَامَاتٌ
 وَالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ . أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ
 أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ
 اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » (1)

(3) : تكرر إشارته إلى هوان الإنسان وضعفه في أصل
 نشأته وخلقه كبئس لجماع غروره وطغيانه وكفره :

« أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ
 خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ » (2)

« أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ؟ » (3)

« قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ! مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ؟
 مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ » (4)

« فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ؟ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ،
 يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ . إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لِقَادِرٌ » (5)

(1) النحل : 10 - 18 •

(2) يس : 77 - 78 •

(3) المرسلات : 20 •

(4) عبس : 17 - 20 •

(5) الطارق : 5 - 8 •

(4) : تذكيره بحتمية الموت وهوان الدنيا ، لا لترهيد فيه ، أو في العمل لها ، ولكن ليحذر مغرياتها ، وغفلة النفس عن الله في نشوة الحياة المتدفقة ، ويتقي شر الأثرة والشح ، والتهالك على عرضها الزائل ، وتذكيره في الآن نفسه بما بعد الموت من بعث وحساب ، لدفعه إلى العمل الصالح في معركة الصراع بين الخير والشر ، وإلى مجاهدة هواه لتحقيق وجوده الأسمى ، وإلى الإيمان بحياة أخرى خالدة ”يرتهن مصير الإنسان فيها بما قدم في دنياه ، وتعصمه من محنة العدم ومن فكرة الفناء الأبدي“ ، التي روّعت البشرية منذ بدأت حياتها على الأرض“ (1)

« اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِيبٌ وَلَهُوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ، ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ . وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ . وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ » (2)

« كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ . وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ . وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ » (3)

« لَا يَغْرِبُكَ تَقَابُطُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ، ثُمَّ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . لَكِنَّ الَّذِينَ

(1) مقال في الانسان : 137

(2) الحديد : 19

(3) آل عمران : 185

اتَّقُوا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » (1)

وقد وَفَّقَ القرآن في قصة قارون (2) بين الأمور الدنيوية والأمور الأخروية ، وخرج من ذلك بمذهب معتدل . فليس الزاهد من لا يملك شيئا ، بل الزاهد من لا يملكه شيء . فهو مالك الدنيا ، غير مملوك لها . ومن ملكته الدنيا استحوذت على قلبه فصدته عن الهدى ، وحجبته عن النور ، وألقت به في متاهات الهوى والبغى ، كما حدث لقارون .

هكذا وجه القرآن الإنسان ، فدعاه إلى تحرير وجدانه من عبادة سواه ، والخنوع لمخلوق . لذلك نراه يعرض لعقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر من خلال القضايا الكبرى للإنسان ، وفي مقدمتها تحريره من العبودية في المجالات الدينية والسياسية والاقتصادية

ففي المجال الديني نفى كلّ وساطة بين الإنسان وربّه ، ونعى على أهل الكتاب الذين « اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ رُهْبَانَتَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ » (3)

وفي المجالين السياسي والاقتصادي وردت سورة القصص تدور حول محورين ، وهما : التحرر من سلطان التآله السياسي في الحكم ،

(1) آل عمران : 196 - 198 .

(2) القصص : 75 - 83 .

(3) التوبة : 31 .

والتحرّر من سلطان التآله المالي في المعاملة . وقد برزت في هذه السورة شخصيّة فرعون القائل : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ أَلَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرِي » (1) وقارون الذي « كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ » (2) بكنوزه العظيمة وثروته الطائلة ، ه كان الهلاك مآلهما .

وبهذه الفكرة تُنهي سورة القصص قصة المتآلهين على الناس ، السابيين نحريّاتهم ، لترجع بنا في خاتمتها إلى الإيمان بالله ، والخضوع إليه دون سواه

وقد صور القرآن أدقّ تصوير صاحب الحرية الفردية الذي يأمر بالعدل ، بعد أن باشره بقوله وحكمه وتصرفاته ، مستقيم في سلوكه ، متهيّء للتعاون والتوادّ مع غيره في المجتمع دون عقْد أو مركبات ، وفاقد هذه الحرية الذي لا يستطيع إبداء الرأي بالنقد أو المعارضة ؛ لأنه كالأبكم . ولا يستطيع الحركة ؛ لأنه خارج الدائرة التي يعمل فيها تحت إمرة السيد ، أو كابوس الحكم كالمشلول . ولا يقدر على الانتاج الا بمقدار ما يدفعه الخوف ، وتحيط به الرّهبة (3) .

قال تعالى :

« وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ . أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ

(1) القصص : 38

(2) القصص : 75

(3) الدين والولوة : 22

بِخَيْرٍ . هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ، وَهُوَ عَلَيَّ
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؟ « (1) .

لذلك دعا القرآن الإنسان إلى تنظيم دوافع الحياة وضروراتها ،
وحاجات الجسد ومتطلباته ، وبين له في جلاء استعداده للكمال
والنقص ، والخير والشر . فهو ليس ابن الخطيئة الأولى ، وبذرة
الشجرة المحرمة التي أكل منها آدم كما تعتقد الكنيسة ،
ولم تلعن الأرض من أجله كما جاء في التوراة (2) ، وإنما يولد
على الفطرة كصفحة نقيّة بيضاء لا يلاحقه ذنب ، ولا تتبعه لعنة ،
حتى إذا رشد تولّى امر نفسه في العقيدة . فيدين بعقله فيما رأى
وسمع ، ويدين بوجوده فيما طواه الغيب (3) .

ويتحمّل مسؤولية عمله فرداً ، جماعة بحيث لا يؤاخذ
واحد بوزر واحد ولا أمة بوزر أمة

« وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ » (4)
« تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ . لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ .
وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (5) .

(1) النحل : 76 .

(2) سفر الخليقة : فصل : 3 . فقرة : 19 .

(3) عباس محمود العقاد : الإنسان في القرآن : 12 .

(4) النساء : III .

(5) البقرة : 140 .

وإننا لنجد في القرآن تحليلاً جذرياً لِنفسيّة الإنسان بطريقة مباشرة كما تقدّم ، أو غير مباشرة : كما في القصّة التمثيلية التي يروق الإنسان أن يرى فيها نفسه ممثّلة في غيره (1) .

وقد ذكر النفس الإنسانية بكلّ أبعادها وقواها المختلفة التي يدرسها اليوم علم النفس التحليلي . وهي أنواع :

1) : النفس السفلى : وهي التي استقرّت في أعماقها مجموعة النزعات، والرغبات والميول البدائية المكبوتة في اللاشعور « هو » . وتبقى هنالك دائمة التأثير على سلوك الفرد في حياته اليومية من حين لآخر ، محاولة التعبير بالحيثل اللاشعورية كالأحلام ، وقلّات اللسان ، والتبرير ، والإسقاط (2) ... الخ .

ويقابلها في القرآن : (النفس الأمّارة بالسوء) .

« وَمَا أَدْرَىٰٓٓٓ نَفْسِي . إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ » (3)

2) : النفس الواعية : وهي التي تُواجه العالم الخارجي وتتأثر به . وتكاد تكون صورة للواقع الذي تُقرّه البيئة والتقاليد الاجتماعية « أنا » . فكل ما يصدر عنها من سلوك عادي ، أو ميول مهذبّة هو نابع من الشعور . وهذه يمكن أن تقابلها في القرآن : (النفس الملهمة)

« وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » (4)

(1) راجع : القصّة التمثيلية في الفصل 4 من قسم البحث النظري : صفحة 245

(2) انظر : الدوافع النفسية لمصطفى فهمي : 145 .

(3) يوسف : 53 .

(4) الشمس - 7 - 8 .

3) : النفس العليا : وهي الرقيب الداخلي الذي يقف حائلا دون اندفاع الرغبات والميول ، سواء أكانت شعورية أم لاشعورية ، أي : سواء أكانت صادرة عن «أنا» ، أم عن «هو» . إذا كانت تلك الرغبات والميول تصادم القيم الاخلاقية والتعاليم الدينية التي تلقاها الفرد وتأثر بها «الأنا الأعلى» . ويتكوّن هذا الرقيب الداخلي تكويننا لا شعورياً (1) وتقابلها في القرآن «النفس اللوامة» .

« لا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . ولا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللّوَامَةِ » (2)

وكما بيّن القرآن ما هو ثابت في طبع الانسان ، فقد بيّن أيضا أنّ الناس لم يُخلقوا على طبيعة واحدة ، ولم يخرجوا على نسق واحد في النزعات والرغبات ، والأفكار والتصورات ، بل إن كل فرد من أفراد الإنسان شخصية مستقلة ، له وجهته وتطلّعاته ، وعالم بذاته ، له منازعه ورغباته ، وأفكاره وخطراته .

والفرق بين إنسان وإنسان ليس فرقا نوعياً ، ولكنه فرق كيميّ

« فكل شخص نسخة من صنع الله ، ولكنه نسخة فريدة »

« وليكلُّ وجهتهُ هو مولّيها ، فاستبِقُوا الخيَراتِ » (3)

« قُلْ كَلِّمْ يَعْْمَلُ عَلَيَّ شَاكِلَتِهِ . فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا » (4)

(1) الدوافع النفسية : I48 •

(2) القيامة : 2I •

(3) البقرة : I47 •

(4) الاسراء : 84 •

وتبتديء الشخصانية عندما يرفض الانسان الطاعة العمياء : طاعة
الاشخاص وطاعة الاشياء ، ويعترف بالقيمة العليا للعقل والفكر (1) .

لذلك نعي القرآن على الإنسان تبعيته الدليلية الناشئة عن فقدان
الذاتية ، وتحجر الفكر ، وغباوة الألفة والغفلة ، لأنه يريد أن
يستقبل مشاهد الكون بحس متجدد ، ونظرة فاحصة مُستطلعة .

« إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ، وَرَأَوْا
الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ
أَنَّا لَمَّا كَرِهْنَا لَنَنبِرَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا . كَذَلِكَ يُرِيهِمُ
اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ . وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ
النَّارِ » (2)

وندّد بتصامم أقوام الأنبياء ، وتعطيل عقولهم وحواسهم
عن التدبر في ما جاء به أنبيائهم بتقليد آباءهم ، واقتدائهم بهم
في المعتقدات ، فرسم لجمودهم صورة زريّة ، لا تليق بإنسان
له شخصيّة تنبثق خصائصها من أعماق ذاته ، فيتحدّى بها كل
عائق ، وكلّ ضغط خارجي .

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، قَالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ
مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا . أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ
شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ؟ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ

(1) الشخصية الاسلامية : II - I2 •

(2) البقرة : I64 - I66 •

بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً . صُمُّ بَكُمْ عُمِّي فَهَمْ لَا
يَعْقِلُونَ» (1)

كما ندد القرآن بطاعة الجماهير العمياء لفرعون الطاغية ،
وعلل استجابتهم له ، فقال : « فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ . إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ . فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ
فَأَعْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ . فَيَجْعَلْنَا لَهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِالْآخِرِينَ » (2)

والنظم الحديثة تنظر إلى الإنسان في المجتمع نظرتين متقابلتين :
نظرة ترى أنه ذاتية مستقلة ، ولكن لها علاقات بالغير تحددها
القوانين والسلوك الأخلاقي والعادات

والنظرة الثانية ترى أنه جزء في كل ، يذوب وينصهر فيه ،
ولا تُعرف معالمه وحدوده ، ألا أنه يُسهِم في نشاط « الكل العام »

والنظرة الأولى هي التي يراها الإسلام ، لأنه لا يُبغى ذاتية
فرد لمنفعة فرد آخر ، ولا يُذيب شخصية إنسان في شخصية
آخر مهما كان بينهما من علاقات الصلة والقربى والمودة ،
فضلا عن المجتمع . فهو مع حرصه على نمو علاقة الانسجام
والود والاستقرار بين الزوج والزوجة يحرص في الوقت نفسه
على استقلال الزوجة في التصرف في الشؤون المالية الخاصة بها .
كما يمنع من حملها على الإسلام إذا كانت غير مسلمة .

(1) البقرة : 169 - 170 .

(2) الزخرف : 54 - 56 .

فذايئة الفرد وشخصيئته إذن شيء ، وعلاقته بفرد آخر في المجتمع شيء آخر (1)

سؤال وجواب :

وقد يقال في معرض الحديث عن شخصية الإنسان كما جاءت في القرآن وقصصه :

عندما نستعرض الآيات القرآنية الواردة في الإنسان فأننا لا نكاد نجد فيها إلا وصفه بأخس الصفات وأفدح العيوب : كالغرور والكبر والطغيان والكفر والجهل والظلم .

أفلا يكون ذلك مما يبعث على التشاؤم من مصير هذا الانسان الحقيقير التعس ، ويحمل على القول بأنه أقرب إلى الشر منه إلى الخير ، بل كأنه مجبول على الشر ، مفطور عليه ؟

ولا شك أن هذا من أعظم ما يدعو إلى اليأس من إصلاحه . ومما يؤكد هذه الحقيقة أن القرآن يقص علينا ما عاناه الأنبياء من أقوامهم ، وجهادهم المرير من أجل هدايتهم ، ولكن بدون جدوى ؛ فإن معظم أولئك الأقوام كانت نهايتهم إلى البوار .

وهل إن المعري في فلسفة تشاؤمه من البشر وحكمه عليهم جميعا بأنهم لا يستحقون الحياة ، كان متأثرا بما ورد في القرآن من هذا القصص . فهو يقول مثلا :

(I) الدين والدولة : 35I .

مَضَى الزمان ونفْسُ الحَيِّ مُولَعَةٌ بِالشَّرِّ من قَبْلِ هَابِيلِ وَقَابِيلِ
لَوْ غُرِبِلِ النَّاسِ كَيْمَا يَعْدَمُوا سَقَطَا لَمَّا تَحَصَّلَ شَيْءٌ فِي الْغَرَابِيلِ
هَلْ يَنْظُرُونَ سِوَى الطُّوفَانِ يَهْلِكُهُمْ كَمَا يَقَالُ أَوْ الطَّيْرِ الْأَبَابِيلِ (1)

فالجواب :

أنّ الذي فهم مشكلة الإنسان هو مفكر مثل أبي العلاء حين يقول :
« إلهي الله أشكو مهجة لا تطعيني »

أو مثل قوت (Goethe) إذ يقول : « إنّ روحين تسكنان
في صدري » ،

أو مثل فخرالدين الرازي إذ يقول : « وأرواحنا في وحشة
من جسمنا »

إن الإنسان أرقى الكائنات الحادثة ، وجماله في إشكال طبيعته ،
وفضله في السعي للتغلب على ضروب المحن والإغراء ، وما يلحق
بذلك من الآلام ، وفي قبوله عبء طبيعته وعبء هذه الحياة ،
راضيا بنفسه ، محاولا إيجاد الانسجام بينه وبين نفسه ، وبين
الإرادة العليا . وهنا فقط يملك نفسه كلها ، ويراهها في حالة
من الوجود الحق ، والخلود الذي ليس له حدود .

ثمّ إن تاريخ الانسانية الطويل يؤكد ما وصف به القرآن
الإنسان من صفات أم يقصد بها الحطّ من كرامته ، وإنما اتذكيره

(I) مناهل الادب العربي : اللزوميات .

بما هو فيه ، حتى يكون خيرا ممّا هو عليه ، وفي مستوى المنزلة الرفيعة التي أعدّها الله له إذا استقام ، باعتباره خليفة له في الأرض . وهو لم يأمر ملائكته الكرام بالسجود لآدم إلاّ تكريما للإنسان وتشريفا له :

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا » (1)

وفي القرآن آيات عديدة تذكر الإنسان بنعم الله عليه « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » (2) .

ولكن الإنسان لم يقابل هذه النعم بالشكر ، كما قال جل شأنه : « وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ » (3)

وإذا استعرضنا مواقف الأنبياء مع أقوامهم من خلال القصص القرآني ، أدركنا حقيقة جهادهم ، وما تحمّلوه من أذى أقوامهم في سبيل إنقاذهم من ظلمات الكفر والفسوق والعصيان .

فإنّ نوحا عليه السلام لبث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلاّ خمسين عاما . ولكنه لم يؤمن به طيلة هذه القرون سوى فئة قليلة هم الذين نجّاهم الله معه في السفينة : « وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ » (4)

(1) الاسراء : 70 .

(2) ابراهيم : 36 .

(3) سبا : 13 .

(4) هود : 10 .

قَالَ تَعَالَى .

« وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » (1) .

وقال : « وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ » (2)

وليس معنى ذلك أن الإنسان مجبول على الشر ، كما قد يتبادر إلى الأذهان ، ولكن آفة الشر طارئة عليه من داخل نفسه الأمانة بالسوء ، ومن الخارج .

يقول ابن خلدون : « كان الإنسان أقرب إلى خلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة ، لأن الشر إنما جاء من قبيل القسوى الحيوانية فيه . وأما من حيث هو إنسان ، فهو إلى الخير وخلاله أقرب » (3) .

ففي النفس غضب وشهوة يزيئان لها الضلال والهوى والجور ، وجهل يطمس عليها الطُّرُق ، ويساوي عندها بين السبيل ، ويهجم بها على إحدى الطرُق المتنكبة عن الحق تهوِّرا ، أو جُبُنا ، أو إلفا وتقليدا ، أو سوء اختيار .

وأما الآفات الخارجية فمتأثية من فتنه الدنيا ، إذ يغتر الإنسان بما أوتي من مال أو سلطة أو جاه ، فيبغى ويبغى ويعيث في الأرض فسادا .

(1) يوسف : 103 .

(2) ص : 22 .

(3) المقدمة : 250 .

ومن هنا كان أكثر أتباع الأنبياء من الضعفاء والفقراء ، لأنهم أبعد الناس عن الكبر وتيه الغواية :

« وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقْتُولُوا : أَهْؤُلَاءِ مَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِنَا ؟ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ؟ » (1)

يقول فولتير (Voltaire) : استمرت الديانة المسيحية لا يدين بها إلاّ أخسّ الناس مدة مائة عام (2)

فكان إعراض الإنسان عن الحق ، وغفلته ، وإيثار حريته في إشباع غرائزه وشهواته على التقيّد بالتعاليم السماوية ، والحدّ من حريته الشخصية ، وكبره على الهدى ، وغيّبه وظلمه وقسوة قلبه ؛ كل ذلك كان مدعاة لتبصيره بحقيقة وجوده ، وتذكيره بضعفه وغيوبه ؛ لأنّه بحكم استعداده الفطري قادر على رفض ما يقود إليه الجهل والشهوة والغضب والغرور .

فقد خلق الله فيه قوّة التمييز التي جعل له بها سبيلا إلى فهم خطابه ، وما دعا إليه رسلّه ، وإلى معرفة الخير والشر ، وإيثار ما دلّ عليه الفهم ، وأنار سبيلّه العقل (3) .

بالإضافة إلى أنّ الإيمان بالله من فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وملاً بها الكون بالآيات والشواهد الدالّة على وجوده وعظمته وقدرته . فكانت هذه الفطرة بمثابة عقد جرى بين الله والإنسان في أن ينظر ويفكر ويستدلّ ، حتى يؤمن بالله ولا يشرك به

(1) الانعام 54 .

(2) لوبون (Le Bon) : روح الاجتماع : I43 .

(3) انظر : الاحكام في أصول الاحكام : ابن حزم . ج : 5/4 .

« وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِمَّنْ ظَهَرُوهِم مِّن ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُم عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَىٰ » (1)

وأشنع العيوب ما تلبس بمن يقدر على التخلص منه ، ثم هو لم يفعل ، كما قال المتنبي :

ولم أر في عيوب الناس شيئا كنفص القادرين على التمام (2)

ورغم ذلك فإن القرآن لم يبعث على اليأس من إصلاح الإنسان وتقويمه ، حتى يصح القول بأن المعري كان في فلسفته المتشائمة من البشر جميعا متأثرا بنظرة القرآن للإنسان . بل إن القرآن فتح للإنسان باب التوبة ليحيي في قلبه الأمل ، ويجتث من شعوره عقدة الإحساس بخزي خطاياہ وآثامه :

« قُلْ : يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ . إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا . إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » (3)

وجاء في القرآن على لسان يعقوب عليه السلام :

« يَا بَنِيَّ إِذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُّوسُفَ وَأَخِيهِ ، وَلَا تَيَاسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ . إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » (4)

(1) الأعراف : 172 •

(2) التبيان في شرح الديوان : ج : 4 - 145 •

(3) الزمر : 50 •

(4) يوسف : 87 •

كما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام :

« قَالَ : وَمَنْ يَتَّقِنُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ » (1)

وأما هلاك الأقبوام السابقين فلم يكن إلا بعد البيان الذي اتضح به الحقّ عندهم : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ! أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا . قَالُوا : شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا . وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ . ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ » (2)

بقيت نقطة أخرى قد تُثار تعقياً على ما جاء في تعليل قلة عدد المؤمنين في مختلف عصور التاريخ . وقد قيل :

إنّ الذين آمنوا بنوح ونجّاهم الله معه في السفينة لم يتجاوز عددهم اثني عشر بين رجال ونساء .

والذين آمنوا بمحمد طيلة المرحلة المكيّة التي نزل فيها أكثر القصص القرآني ومدتها ثلاث عشرة سنة . لم يتجاوز عددهم السبعين . وقد يقال : أمّن أجل هذه القلة الضئيلة العدد ، تُبذل مثل هذه الجهود المضنية ، والتوضيحات الموصولة من الرّسل وأتباعهم من عهد نوح إلى عهد محمد عليهما السلام ؟

(1) الحجر : 56 .

(2) الانعام : 131 - 132 .

وهل تعادل هذه الحصيللة من المؤمنين تلك العناية الإلهية الكريمة بارسال الرُّسُل تترى رغم العناد والإعراض والكفر ؟

نعم إنَّ استقرار هذه الحقيقة في قلب ، معناه : أن ينطوى هذا القلب على قبس من نور الله ، وأنَّ يكون مستودعاً لسرٍّ من أسرارهِ ، وأنَّ يكون أداة من أدوات قدرهِ النافذ في هذا الوجود . وهي حقيقة أكبر من الإنسان ذاته ، وأكبر من أرضهِ وسماواتهِ ومن كلِّ هذا الكون الكبير .

وقد أثبت الواقع التَّاريخيَّ أنَّ البشريَّة لا يمكن لها أن ترتفع ولا أن ترقى عن طريق فلسفة أو علم أو فنٍّ أو نظام إلى المستوى الذي وصلت أو تصل إليه عن طريق استقرار حقيقة الإيمان بالله في نفوس الناس وحياتهم وأخلاقهم وتصوراتهم وقيمهم . وهذه الحقيقة ينبثق منها منهج حياة كامل ، سواء أ جاءت مجلَّة ، كما في الرِّسالات الأولى ، أم مفصَّلة شاملة ، كما في الرِّسالة الأخيرة (1)

يقول ق . لوبون (G. Le Bon) : يظهر أحيانا أنَّ الأمم تُدفع بقوى خفيَّة ، على أنه لا بسعنا أن نعرف إلاَّ قليلا عن تلك القوى ، وذلك بالبحث عنها في حركة تطوُّر الأمة ، لا في الحوادث الفرديَّة التي يُخال أنها سبب ذلك التَّطوُّر . إذ لو قصرنا النَّظر على هذه الحوادث ، لظهر أنَّ التاريخ يتكوَّن من مصادفات غير معقولة بالمرَّة . فلقد كان ممَّا لا يصدِّقه العقل أن عصابات من العرب تندلع من صحاريها ، وتبسط فتوحها على القسم الأكبر من

(1) انظر : في ظلال القرآن . ج : 29 / 118 - 122 .

الدنيا القديمة التي عرفها اليونان والرومان ، وتختط مملكة فاقت
ضخامتها مملكة الإسكندر (1)

شخصية المرأة

ومما يجدر اعتباره في تسوية القرآن بين أفراد الإنسان .
أنه لم يفرق في الحقوق الأدبية ، والحياة الروحية بين الرجل
والمرأة ؛ لأنهما خلقا من نفس واحدة . فكانت مثلته مناط التكليف
والمسؤولية ، وأهلا للتشريف بخطابات السماء ، بل بالوحي
الإلهي ، كمريم وأم موسى .

وبذلك رفعها من المهانة إلى مكانة الإنسان المعدود من
ذرية آدم وحواء ، ورفع عنها لعنة الخطيئة الأبدية (2) التي
استولت على الناس قرونا طويلة ، وحررها من العبودية ، وأنقذها
من الأحكام الجائرة عليها .

فليست المرأة في القرآن هي السبب الأصلي في آلام العالم
وأحزانه ، كما جاء في الأسطورة الأفريقية القديمة "بندور" ، وليست
(بليّة العالم) كما كان يسميها اليونانيون ، ولا "الشیطان الجمیل"
ولا "ينسوع المسرات السامة" ، كما كان يسميها اللاتينيون .
ولم تكن هي التي بدأت بالخطيئة الأولى وأغوت آدم ، كما
جاء في العهد القديم (3) ، بل كلاهما شرفه الله بخطابه ، وتحدث

(1) روح الاجتماع : 192 .

(2) عباس محمود العقاد : المرأة في القرآن : 80 .

(3) سفر التكوين : الاصحاح الثالث .

عنهما وكأنته يتحدث عن شيء واحد : « فَكَلِمَاتٍ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ،
وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ »

وكلاهما وسوس له الشيطان وأغراه :

« فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا
مِنْ سَوْءِ أَيْهِمَا »

وكلاهما عاتبه ربه على نسيانه العهد واتباعه الشيطان :

« وَتَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا : أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ ،
وَأَقْبَلُ لَكُمْ : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ؟ »

وكلاهما أعلن توبته لله وطلب منه المغفرة :

« قَالَا : رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا . وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا
لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » (1)

كما تظهر المساواة بينهما في الشخصية عند تكرار قصة
إبراهيم وتبشير به غلام . فقد كانت البشارة مرة له : « وَبَشَّرْنَاهُ
بِغُلَامٍ عَلِيمٍ » (2) ، ومرة لزوجته : « فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ » (3)

وذلك لا يدل على أن في القصة واقعتين مختلفتين ، أو أن
القرآن يتناول مسائل التاريخ في حرية فنية . كما يرى الدكتور

(1) الذاريات : 26

(2) الاعراف : 18 - 22

(3) هود : 70

”خلف الله“ (1) ، ولكنه يدل على نظرة القرآن إلى الزوجين ،
وكأنهما شيء واحد في الشعور الإنساني . فإسحاق ابنهما معا ،
فهما شريكان في هذه المنّة .

وقد أخذت المرأة مكانها في القصص القرآني ، كإنسان
لها شخصيتها التي تُعبّر عنها بالقبول والرفض ، والفكر المستقل ،
والإرادة المتحررة ؛ وكامرأة لها خصائص أنوثتها

فقد استطاعت امرأة فرعون أن تحرّر فكرها ووجدانها من
كل الأواصر والمؤثرات والقيود ، فترفض أن تسير في ركاب
زوجها ، وأن تنساق في تيار المجتمع الذي تعيش فيه ، بل تُعلن
عن موقفها في ثبات وإيمان ، بعد أن اتضح لها ضلال فرعون
وقومه ، وتبين لها الحقّ في دعوة موسى ، رغم ضغط المجتمع
وشدّة وطأته ، ورغم مغريات الحياة الرخيّة الناعمة في قصر
أعظم ملوك الأرض ، ورغم آصرة الزوجيّة التي تربطها بفرعون .
فكانت مثالا للشخصيّة الإنسانيّة المستقلّة في الإيمان بالمبادئ والقيّم .

« وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ
قَالَتْ : رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ، وَنَجِّنِي مِنَ
فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ، وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » (2)

وكانت على نقيض ذلك امرأة لوط ، فكلتاها لم تهتد بنور
النبوّة المشرق في بيتها . بل تحولت عن زوجها النبيء إلى الجبهة

(1) الفن القصصي في القرآن الكريم : 248 .

(2) التحريم : II .

المعادية ، وخانت دعوته ، وكانت حربا عليه مع الكافرين . فأصابهما ما أصابهم من عذاب الله .

« ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبِيدِنِ مِنِ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ، فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا ، وَقِيلَ : ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ » (1)

وفي إشارة القرآن هنا ما يؤكد المسؤولية الفردية . فكل إنسان رجل أو امرأة مسؤول عن ذاته ، ولن يعفيه من هذه المسؤولية شيء .

وهو لم يعين في هذه الإشارة أسماء النسوة اللاتي ضرب بهن المثل في الإيمان والكفر ، « لأن إشارته تعني حقيقة دائمة مستقلة عن الأشخاص ، وإنما الأشخاص مجرد أمثلة لهذه الحقيقة » (2)

وفي سورة مريم يظهر جانب من خصائص الأنوثة متمثلاً في عذراء طاهرة متبتلة يمتلكها الرعب والهلع ، إذ تجد نفسها في خلوة مع الملك الذي تمثل لها رجلاً ، فتستشير فيه مشاعر التقوى والخوف من الله ، ثم تدركها شجاعة الأنثى المهددة في عرضها وشرفها ، لماً صارحها بما يחדش سمع العذراء الخجول .

« واذكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا . فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ، فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ : إِنِّي - أَعُوذُ

(1) التحريم : IO .

(2) في ظلال القرآن : ج : 173/28 .

بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا . قَالَ : إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكَ
لَأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا . قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ
يَمْسَسَنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ... ؟ » (1)

ويظهر للمرأة في قصص القرآن جانب آخر تمثل فيه
عاطفة الأمومة في أم موسى :

« وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ
لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَقَالَتْ
لَأُخْتِهِ قُصِّيهِ » (2)

وفي قصة يوسف تظهر في امرأة العزيز جوانب أخرى للمرأة :
وهي عاشقة ، وهي منتقمة لكبريائها ، وهي نادمة .

فإنها لم تكذب تُعجب بحسنه وجمال طلعه حتى تُفتن ،
فتطغى عاطفتها على الواجب ، ويستبد بها الغرام ، فتراوده عن
نفسه في مخدعها ، فيأبى ويستعصم ، فتكيد له وتتهمه باطلا أمام
زوجها . ولكنها عاشقة ! فهي تخشى عليه ، فتشير بالعقاب المأمون
إبقاءً على حبها . وما هذا العقاب إلا انتقاما لكبريائها ، وهي
التي شذت عن طبيعة المرأة في التمتع ، وبذلت نفسها في ذل لمن
أعرض عنها في عز .

(1) مريم : 15 - 20 •

(2) القصص : 10 - 11 •

« وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيْسَا
 سَيِّدَهُمَا لَدَى الْبَابِ . قَالَتْ : مَا جِزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءَ
 إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (1)

ولمّا ذاع خبرها بين نساء المدينة ، وبخاصّة في الوسط
 الارستقراطي الذي لاهمّ لنسائه إلا الحديث عمّا يجري في محيطهن ،
 عيّل صبرها . فجمعتهن في قصرها ، وأمرته بالخروج عليهن ،
 كي يلقين من طلّعه ما لقيت من الدهش والإعجاب ، فيكون
 لافتانها به ما يبرّره . وفعلا فقد تواطأن معها على كيدها :

« وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ : امْرَأَةٌ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا
 عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا . إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .
 فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ
 مُتَّكِنًا . وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ، وَقَالَتْ :
 اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ . فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ
 وَقُلْنَ : حَاشَ لِلَّهِ . مَا هَذَا بَشَرًا ، إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ .
 قَالَتْ : فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لُمْتُنِّي فِيهِ . وَلَقَدْ رَاودْنَهُ عَنْ
 نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ . وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ
 وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاعِرِينَ » (2)

وبدلّ تهديدها إياه على ثقته بسلطانها على زوجها رغم علمه
 بأمرها ، واستعظامه لكيدها ، شأنه في ذلك شأن المترفين العاجزين

(1) يوسف : 25 .

(2) يوسف : 30 - 32 .

عن صدّ زوجاتهم . وإن لساء الأكابر في الأمصار التي أفسدتها
الحضارة كيذا وخذاعا (1)

كما أنّ هذه المشاهد تُلقَى الأضواء على نفسيّة المرأة المترفة
ذات المنصب الرفيع ، وما لجمالها من سلطان تفرضه على زوجها ؛
حتى لتتملك منه القياد في المواطن التي تتأجج في مثلها قلوبُ
الرجال غيرة وحميّة . فقد كان جواب العزيز بعد أن تبين
له حسب شهادة شاهد من أهلها ، أنّها هي التي راودته
« يُوَسِّفُ أَعْرَضُ عَنِّ هَذَا ، وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكَ . إِنَّكَ
كُنْتِ مِنَ الْخَطَاطِيئِينَ » (2)

وبعد شهادة النسوة ببراءة يوسف من كلّ ما اتهم به ،
تتقدّم امرأة العزيز ، فتشهد أيضا ببراءته وصدقته ، وتعرف
بما صدر عنها من مراودته ، حرصا منها على أن يحترمها الرجل
المؤمن بتقديره لإيمانها ولصدقها في حقّه عند غيبته ، بعد أن
تبين لها أنّه لا يقدرها من أجل جمالها الجسدي .

قَالَ : « مَا خَطْبُكُنْ إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ .
قُلْنَ : حَاشَ اللَّهُ . مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ . قَالَتِ امْرَأَةُ
الْعَزِيزِ : الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ . أَنَا رَاودْتُهُ عَن نَّفْسِهِ ،
وإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ . ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ،

(1) النار : ج : 12 / 299 .

(2) يوسف : 29 .

وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ . وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي . إِنَّ
النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي . إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ» (1)

وهكذا نلاحظ أن وجود المرأة في بعض القصص القرآني لم يقصد به الاستشارة أو الترفيه ، أو إشباع بعض الميول ، كما نجد ذلك في القصص الإنساني العاطفي ، وإنما لأنّ الحدث استدعى وجودها بصورة تلقائية ؛ فتؤدي دورها في القصة كامرأة لها عواطفها ومشاعرها الخاصة ، أو كإنسان لها شخصيتها المتميزة ، وذاتيتها المستقلة . فلا يُظفي القرآن على وجودها ألوانا زاهية جذابة ، ولا يسلط عليها أضواء أكثر مما تقتضيه طبيعة المشهد .

سؤال وجواب :

ولعلّ من المفيد أن أذكر بهذه المناسبة ما كان وُجّه إليّ من أسئلة عند تحليلي لشخصيتي يوسف وامرأة العزيز من خلال سورة يوسف ، في برنامج دراسي حول "قصص القرآن" .

وهذا معنى السؤال كما ورد عليّ : (2)

إنّ ما في قصة يوسف عليه السلام من احتدام الصّراع بين العاطفة والواجب ، قد استفيد عرضاً من بعض المواقف في القصة . فلا أرى فيه تشخيصاً كما عوّدنا القرآن في كثير من المشاهد التي يعرضها !

(1) يوسف : 51 - 53 .

(2) ادخلت تحويراً على صيغة السؤال واسلوب التعبير فيه مع الاحتفاظ بالمعنى لأسباب لغوية فنية .

وقد يقال :

أفلا يكون تصورنا أعمق ، وإكبارنا أجلّ لعفة يوسف ، وتماسكه أمام الإغراء الصارخ ، لو استوقفنا القرآن قليلا ، ووصف لنا جمال امرأة العزيز . كما يكون إدراكنا لشغف امرأة العزيز بيوسف أدقّ وأوضح ، لو وصف لنا يوسف بأكثر ممّا وصفه به في حسنه وفتوته أو نحو ذلك مما يستهوي المرأة في الرجل ، حتّى يكشف لنا عن هذا الصراع داخل نفسها بين صوت الضمير وداعي الهوى والحب ، ولعلّ بعض كتب التفسير والتاريخ والقصص هي التي عرفتنا بهذا الصراع ، وأوقفتنا على نقاط قوته وضعفه . بينما القرآن الكريم يجري بنا في القصة من مشهد لآخر ، دون أن يدعنا نستريح لندّ أنفاسنا إلاّ في نهايتها . ولست بهذا التساؤل أعترض على أسلوب القرآن الحكيم ، ولكن أريد أن أدفع هذا الاعتراض بما فيه مقنع لكلّ من تساوره مثل هذه الفكرة ، وبما فيه بيان للمنطق القرآني في مثل هذه المواقف .

الجواب :

القول بأنّ تشخيص الصّراع في مثل هذه المواقف إنّما يتمثّل في وصف جمال المرأة ومفاتها ، هو ضرب من الوهم . بل إنّ ذلك طريق لا شعوري لإشباع الغرائز بأطياف اللذائذ الجنسيّة ، يفسّره إقبال الجمهور على الروايات والأفصيص الغرامية في الكتب والسينما بحثا عن التسلية ، وصرفا للفكر عن مشكلاته الأساسيّة ، ولكنها تسلية غير بناءة تستنزف جهدا ووقتا ، وتنتهي إلى إفلاس وجدانيّ

ومرص خلقي ، وقلتي نفسي ؛ أعراضه إدمان في طلب التسلية ، وقلّة حماس عند القيام بالأعمال الجدّية ، وخيالٌ يعزل عن الواقعية .

فالقرآن لم يصف لنا هذه الفتنة التي تحدّث عنها المؤرخون والقصاص حتى لا يفتن الناس ، أو يشغلهم عمّا يجب أن يصرفهم إليه . ولكنه صور لنا الصراع وشخصية يوسف بمثل قوله :

« وراودتهُ التي هو في بيئتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك . قال : معاذ الله ! إنّه ربّي أحسن مشواي إنّه لا يفلح الظالمون . ولقد هممت به ، وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه » (1)

وبمثل قوله : « ربّ السجّن أحبّ إليّ ممّا يدعوّنني إليه ، وإلاّ تصرّف عني كيدهنّ أصبّ إليهنّ وأكنّ من الجاهليين » (2)

ألاّ يعبر كلّ ذلك عن صراع عنيف بين داعية الفتنة وصوت الحقّ ؟

ثمّ إنّ ما يصوره بعض القصاصين من جموح العواطف ، ومغامرات الغرام ، وبعدهونه بطولات ، يعدّه القرآن ضعفا وانحلالا . فهو لا يحفل بتصوير لحظات الضعف ، ولا يتوسّع في عرضها بحجّة أنه يرينا الواقع ، كما نجد ذلك في بعض القصص السينمائي مثلا عندما يزيّن القبيح ، ويبرّر المنكرات بأسلوب

(1) يوسف : 23 •

(2) يوسف : 33 •

العرض السّاحر الجذّاب ، رغم ما يهدف إليه في النهاية من تقويم الانحراف ، وإصلاح الفساد ، ولكن ما انطبع في الذّهن أولاً هو الذي يبقى ، فتحصل الفتنة والإغراء ، وتضيع معاني العبرة ، ومغزى القصة في ثنايا المشاهد الفاتنة ، وعرض الواقع المُغري .

ثمّ أيّ وصف لجمال يوسف أبلغ من وصف القرآن له ضمناً فيما حكاه عن النسوة اللاتي دعتهن امرأة العزيز إلى بيتها ، وآت كلّ واحدة منهن فاكهة وسكينا وقالت ليوسف : « اخْرِجْ عَلَيْنَهُنَّ ؟ فَالَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، وَقُلْنَ : حَاشَ لِلَّهِ . مَا هَذَا بَشَرًا ، إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . قَالَتْ : فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ » (1)

نَعَمْ ! لقد أسرع القرآن في عرضه للحظة الضعف البشري لسلط الأضواء على لحظة الافاقة من سكرة الهوى ، ولأنه لم يشأ أن يجعل من ذلك معرضاً للجمال والإغراء حتى لا يوسّع دائرة الشوق الجنسيّ ، أو يحصر أشواق الانسان في تلك اللحظة العابرة . وللانسان من الأشواق العليا ما يتصل بصميم الكون والحياة

إنّ القرآن لا يهتف لنقص الإنسان وهبوطه ، ولكن يهتف له بأشواق السموّ والاستعلاء ، فهو لا يزور الشخصية الإنسانية ، فيبرزها في صورة مثالية لا وجود لها في دنيا الناس ، أو يجعلها سافلة ملتصقة بالأرض ، بل إنّ صدقه في تصوير أهداف الحياة اللاتئة بعالم من البشر ، لا بعالم من الملائكة ، ولا بقطيع من الذئاب (2).

(1) يوسف : 32 .

(2) سيد قطب : العدالة الاجتماعية : 280 .

ويقابل هذا التطرف في وصف الواقع وتصوير الصراع
تطرف آخر لا يقلّ عنه غرابة ، وهو تجاهل هذا الواقع البشري
فقد روي أنّ فرقة من الخوارج تسمى (الميمونية) من اتباع
(ميمون العجدي) أنكرت سورة يوسف ، ولم تعدّها من القرآن ،
لأنّها قصّة غرام في زعمها (1)

وأما القول بأنّ القرآن في قصصه يُسرّع بنا الخطى في
عرض المشاهد ، ولا يستوقفنا لتأمل ونستريح . فإنّ طريقة
القرآن في إشارته البعيدة ، وإيجازه المحكم ، تستدعي التوقف
الطويل ، والتأمل العميق .

وهل يستعجلك القرآن فينقلك من مشهد إلى مشهد آخر على
الرغم منك ، دون أن تكون لك رغبة وشوق وتطّلع ؟ وكم في مشاهد
قصصه من آيات وعبر يمرّ بها القراء وهم لا يشعرون !

الحوار

إذا نظرنا في قصص القرآن بحسب ترتيب النزول لاحظنا
أنّه بدأ غالباً بإشارات خاطفة خالية من الحوار ، كما في سورة
الفجر : (6 - 14) ، وسورة الفرقان : (35 - 40) ؛ وذلك لأنّ الغرض
هو إثارة الوجدان ، وإيقاظ الفكر .

ثمّ تدرّج نحو الطول والتفصيل بتدرّج أسلوب الدعوة ،
وتهيؤ النفوس للاطلاع والمعرفة ، واستعداد العقول للجدل ،

(I) محمد ابو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية • ج 1 • / 92 •

والخوض في القضايا الغيبية التي كانت محور هذا القصص وهي :
التوحيد ، الرسالة ، والبعث .

فكان لابد لتقرير هذه الحقائق من تربيت وأناة وتأمل ، وكان
لابد بعد الإصداع بالدعوة المحمدية من الدخول في الجدل والمناظرة
سواء مع من يبغون المعرفة للهداية والإرشاد ، أو مع المكابرين
والمعاندين لدحض حججهم وقطع مبرراتهم ومعاذيرهم

ومن هنا كان دخول عنصر الحوار الذي تدرج بالقصة من
الإشارة إلى التفصيل ، ومن العام إلى الخاص ، ومما تغني فيه
العاطفة إلى ما يحتاج إلى الفكر والنظر ، كما سبق بيان ذلك
في الفصل الثاني لقسم البحث النظري (1)

ولم يسلك الحوار بالقصة القرآنية مسلك التبسط فحسب ،
بل رسم فيها معالم الشخصيات الإنسانية ، بالتعبير عن خواطهم
النفسية وآرائهم ومواقفهم ، وما شجر بينهم من صراع ، على
طريقة الحكاية عنهم ، ونقل أقوالهم نقلا أميناً لا مبالغة فيه
ولا افتعال ، فصاغ معانيها على ما يقتضيه أسلوب إعجازه ،
لا على الصيغة التي صدرت فيها ، ولو كان المنقول عنهم من
العرب ، حتى يكون الإعجاز البياني للأقوال المحكيّة إعجازاً
للقرآن ، لا لتلك الأقوال (2)

وهو لا ينقل كل ما دار بينهم، وإنما يختار اللقطات الموحية، والعناصر
الحية التي تحقق الغرض، وتفي بالحاجة ، وتكون أكثر دلالة ومغزى .

(1) انظر : صفحة : 91 - 93 .

(2) انظر : التحرير والتنوير . ج : I / 107 .

فإن نوحا عليه السلام لبث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما . ولكن القرآن لم ينقل من محاوراته في هذه القرون الطويلة سوى عيّنات هي خلاصة دعوته وجوهرها ، ممّا يخدم الدعوة الاسلامية ، وينسجم مع بيئتها ، ومع الظروف النفسية التي كانت تحيط بالنبيء صلى الله عليه وسلم

والميزة الأخرى لهذا الحوار القرآني أنه لم يكن مصدره دائما هو الإنسان ، كما هو المألوف ، بل اشتركت فيه عناصر متباينة .

فنجد في القصص القرآني حوارا :

بين الله والملائكة :

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً . قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ، وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ الخ (1) » .

وبين الله والانسان :

« أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَيَّ قَرْيَةً وَهِيَ خَاوِبَةٌ عَلَيَّ عُرُوشِهَا . قَالَ : أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ .

(I) البقرة : 29 - 32 .

ثُمَّ بَعَثَهُ . قَالَ : كَمْ لَبِثْتَ ؟ قَالَ : لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ
يَوْمٍ الخ « (1) .

وبين الله وإبليس :

« قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ . قَالَ : أَنَا خَيْرٌ
مِنَهُ . خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . قَالَ : فَاهْبِطْ
مِنْهَا . فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ
الصَّاغِرِينَ . قَالَ : أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ » (1) .

وبين الإنسان والملائكة :

« وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ، إِذْ
دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَتَفَرَّعَ مِنْهُمْ قَالُوا : لَا تَخَفْ . خَصْمَانِ
بَعَثْنَا عَلَيْكَ بَعْضٌ الخ « (2)

وبين الإنسان والحيوان :

« وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ : مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ
مِنَ الْغَائِبِينَ ؟ لَأُعَدِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ، أَوْ
لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . فَمَسَكَتْهُ مَيْمَنَةُ بَعِيدٍ ، فَقَالَ :
أَحْطَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ الخ « (3) .

(1) الأعراف : 10 - 17 .

(2) ص : 20 - 23 .

(3) النمل : 20 - 28 .

والخوض في الطَّرِيقَة التي جرى بها الحوار بين هذه العناصر المتباينة لا يُجدي . وقد استشكل بعض المفسِّرين ولا سيما علماء الكلام منهم خطاب الربّ سبحانه للشيطان في هذا التحاور الطويل ، واختلفوا فيه : هل هو خطاب بواسطة الملائكة كالوحي لرسول البشر ؟ أم بغير واسطة وكيف ، وهو يقتضي التكريم ؟ (1) وهل إنَّ ما حكاه القرآن على لسان الهدهد تخييل أو تمثيل ، أو تعبير بلسان الحال ؟ إن محاولة الإجابة على مثل هذه التساؤلات تُفضي إلى التحكّم ، والإيمان بدعونا إلى التسليم بأنَّ ما جاء في هذا الحوار حقّ ، دون البحث في كَيْفِيَّتِهِ .

لكن الذي يجدر اعتباره هنا أنَّ محتوى هذا الحوار مهما كان مصدره لم يخرج عن منطق البشر ، بل تظمن إليه العقول وتستجيب له المشاعر .

وللحوار دور هام في القصص القرآني فهو الذي يبعث الحياة والحركة في الحدث ، ويؤدّي إلى الهدف ، ويُظهر المغزى ، ويكشف عن مدى الصِّراع في المواقف المتغيرة ، كالصِّراع القائم بين يوسف وامرأة العزيز . كما أنَّه يترجم عن الشخصية ، ويستبطن انفعالاتها وأزماتها ، ويضعها في إطار نفسي معيّن ، وينزج بالقارئ في تجربة القصة ليعيشها ، وتنقله من عالمه إلى عالمها ، كما نجد ذلك في قصة يوسف على الخصوص .

وقد يكشف القرآن عن حديث المرء لنفسه في صورة حوار ، أو مناجاته لربه .

فمن الأوّل ما جاء على لسان إبراهيم وهو يحاور قومه :
 « وَتَنَا اللَّهُ لِأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ » (2)

(1) المنار . ج : 7 / 339 .

(2) الأنبياء : 57 .

فقد أضمر إبراهيم في نفسه ذلك وتحركت كلماته من وراء شفثيه ، دون أن يسمعه أحد من شهود هذا الموقف ، ولكن القرآن يصرح به بعد أن أصبح الحديث تاريخاً (1)

ومن الثاني : ما جاء على لسان موسى في مدين وقد تولى إلى الظل بعد أن سقى لابنتي شعيب :

« رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ » (2)

وما جاء على لسان يوسف وهو يواجه إغراء النسوة في ظل التهديد :

« رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلَّا

تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ » (3)

ولا شك أن الحوار الذي يُديره القرآن في دقة وحساسية

لإحياء المشاهد ، أو تصوير الانفعالات ، أو الإقناع والتأثير ،

يقتضي تنوع أساليبه وطرقه باختلاف الأشخاص وبحسب المواقف ،

حتى يكون أبعد أثراً في نفوس سامعيه وهدايتهم وتوجيههم .

ومن أبرز هذه الأساليب :

التقرير :

وذلك بعرض الحقائق على الخصم ، وكأنها من المسلّمات

البديهية التي لا تقبل الإنكار أو الجدل :

(I) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه : 147 •

(2) القصص : 24 •

(3) يوسف : 33 •

«وَالَّذِي تَسْمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ . هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ » .

«وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ، تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ، فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْسَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » (1)

التلقين :

وذلك بتوجيه دعوة الحق إلى ما يواجهون به خصومهم في دعوتهم ، أو في دفع شبهاتهم لإظهار العناية برسئله ، والأهمية التي يرشد إليها أمره سبحانه بعبارة "قل" أو نحوها .

كما ورد في أمر الله لموسى وأخيه هارون إلى فرعون لإتخاذ بني إسرائيل من سطوته وجبروته :

«....فَأَنْتِيَاهُ فَقُولَا : إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ . فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا نُعَذِّبْهُمْ . قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى . إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى » (2)

(1) الاعراف : 72 - 73 .

(2) طه : 45 - 47 .

وقد جمع هذا الأسلوب من الدعوة الالهية بين الترغيب والاستمالة ، وبين التهديد والتحذير .

المحاجة :

وذلك بإقامة البرهان عن طريق التحاكم إلى العقل ، أو إلى القضايا التي لا تكلف الإنسان في إدراكها سوى الرجوع إلى الحس والتجربة :

« وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : مَا تَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا : نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ لَهَا عَاكِفِينَ . قَالَ : هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ » (1) .

التذكير بالنعم والتخويف بالعذاب :

مسايرةً لطبيعة الإنسان التي قضت أن نكتنفه عاطفة الرغبة فيما يحب ، وعاطفة الخوف مما يكره :

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ، وَأَنَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ . يَا قَوْمِ : ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَلَا تَرْتَدُوا عَلَيَّ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ » (2)

(1) الشعراء : 69 - 82 .

(2) المائدة : 22 - 23 .

كما نجد في ما يُجره القرآن من حوار على لسان خصوم الأنبياء ، وأعداء الأديان السماوية نماذج أخرى يتمثل فيها على الخصوص :

محاولة التبرير :

وذلك بالتماس الأعذار إبقاءً على وضعهم ، وتخلصاً من الدعوة الجديدة وقيودها التي تصادم أهواءهم :

« وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا : لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا ، وَلَا حَرَمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ . كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ . فَهَلْ عَلَّمَى الرَّسُلَ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ » (1) .

الازدراء والاستخفاف :

وذلك بالتصامم عن دعوة الرسول للتحقير من شأنه في قومه والخطّ من منزلته عندهم : كما قال فرعون لموسى :

« أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ، وَلَبِثْتَ فِينَا مِن عُمُرِكَ سِنِينَ ، وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ؟ » (2) .
وكما قال قوم شعيب لرسولهم :

(1) النحل : 35 .

(2) الشعراء : 17 - 18 .

« قَالُوا : يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ . وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا . وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ » (1)

الوعيد والتهديد :

قصدَ بثَّ الرِّعْبِ فِي قَلْبِ الرَّسُولِ وَأَتْبَاعِهِ ، وَصَرَفَهُمْ عَنِ الدَّعْوَةِ : كَمَا قَالَ آزَرَ لِابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ :

« أَرَاغِبُ أَنْتَ عَنْ آلِيهِتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا » (2)

وَكَمَا قَالَ قَوْمُ شُعَيْبَ لِنَبِيِّهِمْ :

« قَالِ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا » (3)

فنستخلص من هذا العرض الموجز لمختلف أساليب الحوار القرآني ومحتواه ، ما في دعوات الرسل إلى الله من استحضار خشيته وجلاله ، بالتوجه إليه في طلب العون والتأييد ، كما ورد على لسان شعيب وهو يحاور قومه :

(1) هود : 91 •

(2) مريم : 46 •

(3) الاعراف : 87 •

« رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ
الْفَاتِحِينَ » (1)

أو الحديث عنه بضمير الغائب عن الحسن ، الحاضر في القلب ،
كما جاء على لسانه أيضا :

« وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ
مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ . وَمَا قَوْمُ
لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ . وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ .
إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ » (2)

كما نستخلص كيف يجنح الأنبياء في تحاورهم مع أقوامهم
إلى الترفق في الخطاب الذي تسري فيه معاني الرحمة والمحبة
والإخلاص ، وتساميهم عن العبارات النابية التي تحمل الشتم أو
التجهيل أو نحو ذلك مما يمس بالكرامة الإنسانية ، أو يحمل
على استمرار الكفر والفسوق . بل إن عباراتهم لتنبثق
من قلوبهم حانية مترفقة مشفقة ، مهما كانت المواجهة عنيفة
أحيانا في الإنذار والتخويف من عذاب الله .

في حين أننا نحس من عبارات خصومهم أنها شديدة
عنيفة ، تُفجّرُها النقمة والغضب ، ويقذف بها العناد والمكر .

(1) الأعراف : 88 .

(2) هود : 89 - 90 .

الفصل الثالث

عوامل التأثير في قصص القرآن

اختلاف المؤثرات في الناس

جاء القصص القرآني ليبنى عقيدة على أنقاض ما هدمه من خرافات وأباطيل رآنت على القلوب ، وتمكنت من العقول ، واجتالت الإنسانية عن فطرتها ، وعن الأديان السماوية السابقة أجيالا . وقد ارتبطت دعوة القصص إلى هذه العقيدة بثلاثة محاور وهي :

(1) التعريف بالله وبصفاته وأفعاله تعريفا مفصلا ، حتى كأنَّ العباد يحسّون به في أعماقهم وهو على عرشه يكلمهم ملائكته ، ويدبّر الأكوان ، ويسمع أصوات خلقه ، ويرى أفعالهم وحركاتهم ، ويعلم ما تكتمه صدورهم ، وتُخفيه سرائرهم . يأمر وينهى ، ويرضى ويسخط ويرحم ، ويجيب دعوة المضطّرّ ، ويفكّ العاني ، وينصر المظلوم ، ويأخذ الظالم ، ويسوق الأقدار إلى مواقيتها ، ويُجريها على نظامها .

(2) التعريف بالطريق الموصّل إلى صراطه المستقيم ، والإيمان برسله الدالّين على هذا الطريق ، المعرفين بمسالك الحق والخير

(3) التعريف بالمآل بعد الموت وهو اليوم الآخر ، وما يتضمّنه من بعث وحساب وعقاب وثواب وجنّة ونار (1) .

(1) انظر : مدارج السالكين . . . ابن قيم الجوزية . ج : 3 / 223 .

والمدعوون إلى معرفة هذه الحقائق والإيمان بها ليسوا سواء في ملكاتهم العقلية واستعداداتهم الفطرية ، ولا في تصوراتهم وأخلاقهم وطباعهم . ذلك أن النتيجة التي تحصل ، إنما هي من تأثير عامل معين فيهم . وهذا العامل المؤثر يختلف باختلاف الأشخاص والأقوام ، بل يختلف في الشخص الواحد من وقت لآخر . فمنهم من يتأثر بتوعية وجدانه ، واستهواء عاطفته ، وإيقاظ شعوره ، فتلتقي مشاهداته في الخارج مع تأملاته الباطنية ويهتدي إلى المعرفة ، وكأنّ وحيا أشرق عليه ، وهو ما يسميه علماء النفس « حدسا » ويسميه الشعراء « إلهاما » ويسميه الصوفية « كشفا وإشراقا »

ومنهم الجدليون الذي لا يُدعون لغير البرهان ، ولا يقتنعون بغبر الحجج العقلية ، وما يُستخدم فيها من قياس واستقراء وتمثيل . ومنهم أهل الذوق البياني الذين ينجذبون لفنون القول ، والكلمات التي أُتقن تنظيمها وسبكها ، ودُعمت بالصّور التشخيصية ، والرسوم البيانية ، والتعبيرات التمثيلية وغيرها من الأساليب التي تنقل الحقائق إلى الآخرين في إطار فنيّ جذاب .

كما أنّ فيهم المتعصب لنظم موروثه تعزّزها عدة عوامل ، من معتقدات وخرافات وعادات نمت على مدى السنين ، حتى رسخت وكادت تستعصي على كل معالجة منطقية ، وهي التي يسميها علم النفس ، بالتواحي التي يعجز حياؤها المنطق (1) .

(I) انظر : علم النفس التربوي . ج : 3 / 67 .

وهؤلاء لا يُجدي معهم البرهان ، وإنما الإقناع المبني على العاطفة ، لأن غاية البرهان ذبوع الحقيقة فقط بصورة مستقلة عن الشخص ، أما غاية الإقناع فتسخير عقل المخاطب ، وتعجيزه ، حتى لا يقدر على الاعتراض ، لأنه لم يبق عنده ما يعترض به .

وفيهم العنيد الذي يحاول أن يستر ضعفه بالعناد الأعمى الخالي من النقد العقلي والتفكير لمجرد المخالفة والمعارضة ، أو حبا للظهور . وهؤلاء قد يؤثّر فيهم التخويف والتهديد .

وفيهم السطحيّون الذين لهم فاعليّة الإرادة رغم سذاجتهم ، فيصدّقون المستحيل ، ويثبتون أو ينفون كل شيء بحسب الدوافع المؤقتة فيهم ، دون أن يهتموا بالتناقض في معتقداتهم التي يعتبرون الخروج عنها - رغم تكذيب الواقع لها - ضربا من النّزق والمغامرة (1) .

وهؤلاء قد تُسخّر عقولهم لقلوبهم عن طريق الكشف الانفعالي الذي يهيتهم لتقبل العقيدة الجديدة ، أو عن طريق التأثير على متبوعيهم .

لذلك نرى الأنبياء في قصص القرآن يفتنون في أساليب الدعوة بين الترغيب والترهيب . فمرة يخوفون أقوامهم ، وأخرى يبشرونهم ، وأحيانا يذكرونهم بنعم الله عليهم ، وآونة يُنذرونهم عذاب الله وبطشه ، وحيناً آخر يُعرضون عليهم الخوارق الحسيّة .

وفي القصص الذي يروي أخبار الإنسانية الأولى من الأمم الخالية ، كعاد وثمود ، نجد الأنبياء يعتمدون قى ترهيب أقوامهم على الإنذار بالعقاب العاجل في الدنيا ، أكثر من إنذارهم بالعقاب الآجل في الآخرة . كما كانوا يقتصرون في ترغيبهم على التذكير بما من الله عليهم في الدنيا من أنعام وبنين وجنات وعيون . ولعل مَرَد ذلك : أن رؤية عقولهم لا تمتد إلى ما بعد الحياة التي يحيونها . فقد نفى قوم هود أن يكون بعد الموت بعث أو حساب ، وكان جوابهم لنبيهم لما أنذرهم بعذاب يوم القيامة ، أن هذا من اختلاق الأولين :

وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ . إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالُوا : سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ . إِنَّ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ ، وَمَا نَحْسِنُ بِمُعَذِّبِينَ (1)

ومن هنا يتضح لنا السر في تنوع عوامل التأثير في قصصه تبعا لتنوع الاستجابات في الإنسان .

فهو يخاطب العاطفة عن طريق الشعور ، ويقنع العقل عن طريق الحس ، ويجلب الأسماع والقلوب بالتعبير الفني البديع . وهكذا يمكن جمع هذه العوامل وحصرها في ثلاثة عناصر عامة . وهي :

(1) التأثير النفسي . (2) الإقناع العقلي - (3) الإبداع الفني

(I) الشعراء : I32 - I38 .

النائب النفسى

لقد أغفلت كتب علم النفس حتى نهاية القرن الماضى البحث عن الشعور الدينى إلاّ لمآماً ، حتى يشكّ القارىء في وجود شيء لدى الإنسان اسمه «ظواهر دينية» ومن بحث فيها من علماء النفس أمثال : لوبا (Luba) وجيمس (James) وستارباك (Starbuk) وثاولس (Thouless) وبوفان (Bovet) ، اقتصروا على الوقوف على الظواهر النفسية الدينية ، وتفسيرها بمقتضى العلل والمعلولات الداخلية ، مع الإعراض عن تعريف الظاهرة الدينية ، والاقتصار على القول بأنها نتيجة لحالات انفعالية ، وعواطف ورغبات لها أصلاتها الخاصة (1) .

كما اقتصر دور كهائيم (Durkheim) في بحوثه على الظواهر الاجتماعية الخارجية للدين (2) .

أمّا البحث في علم النفس الدينى على الجانب الفردى ، وتفسير الدين بلغة الشعور الشخصى ، فإنه لم يستوف حظه موضوعياً ومنهجياً . ذلك أن البحوث التى تُعتبر بحوثاً سيكولوجية تُهمّل مسألة القيمة الموضوعية للدين ، ولا تعرف هل إنّ الخبرات الدينية تقابلها موضوعات خارجية ذات وجود فعلى ، أم إنها مجرد حالات نفسية لا يقابلها وجود موضوعى ؟

(1) عبد المنعم عبد العزيز المليجى : تطور الشعور الدينى عند الطفل

والمراهق : 20 - 21 .

(2) انظر كتابه : Les formes élémentaires de la vie religieuse

وقد انتقد (جيمس) علماء النفس وفلاسفة الأديان الذين يتحدثون عن العاطفة الدينية باعتبارها حقيقة نفسية مستقلة عن غيرها من العواطف الأخرى . فبعضهم يعتبرها الشعور بالمطلق أو باللامتناهي ، وبعضهم يربطها بالشعور بالتبعية ، وآخرون يعتبرونها من مشتقات الخوف ، بل منهم من يردّها الى الحياة الجنسية . ولم تنزل في بعض المعابد من الرسوم والتماثيل ما يرمز إلى ارتباط الشعور الديني بالشعور الجنسي .

في حين أن الدين في حياة الفرد ليس هذا ولا ذلك ، وليس عاطفة قائمة بذاتها ، ولا انفعالات خاصة فريدة من نوعها . وإتّما هو انفعالات وعواطف تتلبس حول موضوعات الدين . فالحبّ الديني ليس إلاّ الحبّ العاديّ موجّهًا إلى موضوع دينيّ هو الله . وما الخوف الدينيّ سوى الخوف الطبيعيّ بجميع مظاهره الخارجيّة ، وكلّ ما هنالك أنّ ما يثيره ليس موضوعا طبيعياً كالذي يثيره شخص مخيف ، أو حيوان مفترس ، وأنّ ما يثيره العقاب الالهي . والرّجفة الدينية لا يختلف في شيء عن الرّجفة العاديّة التي تعرّونا عندما نضلّ الطّريق في غابة موحشة مثلاً . بيد أنّها رجفة نتجت عن التفكير في علاقتنا بما هو إلهي . وما يقال عن الانفعالات الدينية ، يقال كذلك عن الموضوع الديني والفعل الديني (1)

وقد قام فلورنوا (Flournoy) بدراسات نفسية في الظواهر الدينية ، أطلق عليها «علم النفس الديني» مشيراً إلى أنّ هذا العلم هو كفاء للاندماج في علم النفس العامّ كفرع من فروعه . ومقرراً بذلك مبدأً منهجياً ،

(I) تطور الشعور الديني ٠٠٠ 17 - 18

وهو أن المبادئ الموجهة في أي علم من العلوم ينبغي أن تُشتق من المادة العلمية القائمة . فذلك خير من وضعها سلفاً على نحو تجريديّ دون سند من الواقع (1) .

وممن تناول هذا الموضوع بالدرس الدكتور عبد المنعم المليجي في كتابه : «تطور الشعور الديني عند الطفل والمراهق» واعتمد المنهج السيكلوجي الأول وهو : الاستبطان (Introspection) ، في تحليله لشعوره الديني الخاص ، وما طرأ عليه من تغيير وتطور عبر السنين ، ثم المنهج التجريبي باستفتاء عدد من الأطفال والمراهقين المسلمين والمسيحيين حول : فكرة (الله) وفكرة (كائنات غير أرضية : (الملائكة والشياطين) ، وفكرة (الجنة والنار) وفكرة (الموت والخلود) ، وتحديد فترة الاتجاهات الدينية ، والانقلاب الديني

ولعلّ درس المؤثرات النفسية الدينية في القصص القرآني يكشف عن حقائق هامة في علاقة الشعور الديني بالعاطفة ، وارتباط الجانب الالهي بالنفس ، لِمَا في هذا القصص من إثارات متنوّعة ، ومن تجارب دينية ، كان الإنسان محورها ، ومن دعوات سماوية استفزّت مشاعر الدّاعين والمدعوين ، وتولّد عنها صراع طويل المدى بين أهل الحق وأهل الأهواء .

ولا شك أن مؤسسي الأديان لا يباشرون أعمالهم بتقديم نظريات أو بيانات أو لوائح يعرضون فيها مبادئهم مؤثلاً

بعضها مع بعض ، كالفلاسفة ، أو رجال السياسة . ولكنهم يبلّغون رسالةً من شأنها أن تكون بسيطة في تناول الجميع ، موجّهةً أولاً إلى القلب الذي لا بدّ أن تؤثر فيه (1) ، كما نرى ذلك في دعوات الأنبياء الواردة في قصص القرآن .

ثمّ إنّ التحليل النفسيّ لبعض ما ورد في هذا القصص لا تخلو منه بحوث السّابقين وتقاسيرهم فيما يذكّرونه أحياناً من خطرات القلوب ، ومدلولولات الأقوال ومبعثها من النفس ، وإن خلّت من مصطلحات علم النفس الحديث ومناهجه وموضوعاته ؛ أمثال ابن قتيبة في : (مشكل القرآن) ، والقشيري في : (لطائف الاشارات) والرازي في : (مفاتيح الغيب)

ومن ذلك مثلاً قول القشيري عند تفسيره لقوله تعالى :

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ . فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ :
ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ : مَا بَالُ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ
أَيْدِيَهُنَّ ؟ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (2)

«أراد يوسف ألاّ يلاحظه الملك بعين الخيانة ، فيسقطه عيبه من قلبه ، فلا يؤثر فيه قوله . فلذلك توقّف حتى يظهر أمره للملك وتنكشف براءته» (3)

وقوله في تفسيره لِمَا جَاءَ عَلَى لِسَانِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ :

(1) فلسفة الفكر الديني بين الاسلام والمسيحية : ج : I / 246 .

(2) يوسف : 50 .

(3) القشيري : لطائف الاشارات . ج : 8 / 188 .

«قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ : الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ . أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ» (1) .

«لَمَّا كَانَ حُبَّ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ لِيُوسُفَ غَيْرَ تَامٍ ، أَلْقَتْ ذَنْبَهَا عَلَيْهِ ، وَقَالَتْ لِرُجُوعِهَا : «مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِيكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (2) .

ثمَّ لَمَّا تَنَاهَتْ فِي مَحَبَّتِهِ ، أَقْرَبَتْ بِالذَّنْبِ عَلَى نَفْسِهَا فَقَالَتْ : الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ . فَالْتَنَاهِي فِي الْحَبِّ يُوجِبُ هَتَكَ السُّتْرِ ، وَقِلَّةَ الْمَبَالَاةِ بِظُهُورِ السَّرِّ . وَقَدْ قِيلَ :
لِيَقْبُلَ مَنْ شَاءَ مَا شَاءَ فَإِنِّي لَا أُبَالِي (3)

وقول الرازي عند تفسيره لقوله تعالى : وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ؟ (4) .

«هذا سؤال . والسؤال إنما يكون لطلب العلم ، وهو على الله محال . فما الفائدة فيه ؟

والجواب أن من أراد أن يُظهر من الشيء الحقيقير شيئاً شريفاً فإنه يأخذه ويعرضه على الحاضرين ويقول لهم : ما هذا ؟ فيقولون هو كذا . ثمَّ إنَّه بعد إظهار صفتة البارزة فيه ، يقول لهم :

(1) يوسف : 51 .

(2) يوسف : 25 .

(3) لطائف الإشارات . ج : 3 / 189 .

(4) طه : 17 .

خذوا منه كذا وكذا . فالله تعالى ، لما أراد أن يُظهر من العصا تلك الآيات الشريفة ، كإقلابها حيّة ، وضربه بها البحر حتى انقلب ، والحجر حتى انفجر منه الماء ، عرّضه أولاً على موسى : فكأنّه قال له : يا موسى هل تعرف حقيقة هذا الذي بيديك ؟ فهو خشبة لا تضرّ ولا تنفع ، ولكنها تنقلب ثعبانا عظيما . فيكون بهذا الطريق قد نبّه العقول الى كمال قدرته ، ونهاية عظّمته ، حيث أظهر هذه الآيات العظيمة من أهون الأشياء عنده

ومن ناحية أخرى ، فإنه لما تكلم معه أولاً بكلام الألوهية ، وتحيّر موسى ، تكلم معه بكلام البشر لإزالة لتلك الحيرة . والشكّة فيه : أنّه لما غلبت الدهشة على موسى أراد ربّ العزة إزالتها ، فسأله عن العصا (1) «

وقوله عند تفسيره لقوله تعالى :

« قَالَ : خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى » (2) .

«لَمَّا نودي موسى وخصّ بتلك الكرامات العظيمة ، وعلم أنّه مبعوث من عند الله تعالى إلى الخلق ، فلم يخاف ؟

والجواب من وجوه : أحدها : أنّ ذلك الخوف كان من نفرة الطبع ، لأنه عليه السلام ما شاهد مثل ذلك قط . وأيضا فهذه الأشياء معلومة بدلائل العقول . وعند الفزع الشديد ، قد يذهل الإنسان عنها . قال الشيخ أبو القاسم الأنصاري رحمه الله تعالى :

(1) مفاتيح الغيب . ج : 22 / 25 .

(2) طه : 21 .

وذلك الخوف من أقوى الدلائل على صدقه في النبوة ، لأن السّاحر يعلم أنّ الذي أتى به تمويه ، فلا يخافه ألبتّة » (1) .

كما نجد مثل هذه الإشارات النفسيّة في تفسير أبي السعود :
(إرشاد العقل السليم) ومن ذلك مثلا قوله في تفسير هذه الآية :

(وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ إِن كَانِ كَابِرَ عَلَيْهِمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ . فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْهِمْ غَمَّةً) (2) .

(....) وفيه من تقرير ما سبق من أنّ الكلّ لله سبحانه ، واختصاص العزّة به تعالى ، وانتفاء الحزن والخوف عن أوليائه قاطبة ، وتشجيع النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، وحمله على عدم المبالاة بهم وبأقوالهم وأفعالهم .

«ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْهِمْ غَمَّةً» أي مستور ، من : غَمَةٌ : إذا ستره ، بلّ مكشوفاً مشهوراً تجاهروني به . فإنّ السرّ إنّما يُبصار إليه لسدّ باب تدارك الخلاص بالهرب أو نحوه .
فحيث استحال ذلك في حقّي لم يكن للسرّ وجه .

وإنما خاطبهم عليه السلام ، بذلك إظهاراً لعدم المبالاة بهم ، وأنهم لن يجادوا إليه سبيلاً وثقة بالله سبحانه ، وبما وعده من عصمته وكلاءته (3)

(1) مفاتيح الغيب • ج : 22 / 29 •

(2) يونس : 71 •

(3) محمد أبو السعود : إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم •

ج : 2 / 341 •

وأكثر ما يظهر الجانب النفسي من القرآن في قصصه ، لأنّ حظ القلب فيه عظيم . والقلب هو الذي تُشرق عليه الحقيقة . قال تعالى : « وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ، وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ . إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ . وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (1) »

قال ابن القيم : « وهذا الإسماع أحصى من إسماع الحجّة والتبليغ . فإنّ ذلك حاصل لهم ، وبه قامت الحجّة عليهم . لكن ذلك اسماع الآذان ، وهذا إسماع القلوب . فإن الكلام له لفظ ومعنى . وله نسبة إلى الأذن والقلب . وتعلّق بهما . فسماعُ لفظه حظُّ الأذن ، وسماع حقيقة معناه حظُّ القلب . فإِنَّه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود الذي هو حظُّ القلب . وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظُّ الأذن في قوله :

« مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَأَهَيَّأَهُمْ لِقَابُهُمْ (2) »

وهذا السّماع لا يفيد السّامع إلاّ قيام الحجّة عليه . وأمّا مقصود السّماع وثمرته والمطلوب منه ، فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه ، بل يخرج السّامع قائلاً للحاضر معه : « مَاذَا قَالَ أَنِفًا؟ أَوْلَيْتِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ » (3)

فمرتبة السماع مدارها على إيصال المقصود إلى القلب ، ويترتب على هذا السّماع القبول والإجابة (4)

I فاطر- : 53

(2) الأنبياء : 2

(3) محمد : 16

(4) التفسير القيم : 43 - 44

قال تعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ . أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ
الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ؟) (1) .

ومن هنا قسم الغزالي علوم القرآن الى قسمين : علم
الصدف والقشر ، وجعل من مشمولاته علم التفسير الظاهر
وعلم اللبّاب ، وجعل من مشمولاته علم قصص الأولين (2) .

ولا شك أنّه يشير بذلك إلى ما للقصص من أهميّة في إيقاظ
الشعور ، وإحياء القلب بالتدبّر والاعتبار .

وعند المتصوّفة يكاد يطفى الجانب النفسي في تفسير
القصة القرآنيّة على سائر الجوانب الأخرى ، ولكن من هذه
التفاسير ما يُستساغ ، كلطائف الاشارات للقشيري ؛ وقد سبق
ذكر أمثلة منه . وتفسير القرآن العظيم للتستري ، الذي كثيرا ما تأتي
معانيه الباطنيّة مقبولة لا يعارضها شرع أو عقل . ومن ذلك مثلا قوله
في تفسير آية من قصة رؤيا إبراهيم «وَقَدَّيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ» (3)

« إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أحبّ ولده بطبع البشرية تداركه من
الله فضله وعصمته ، حتى أمره بذبحه ، اذ لم يكن المراد منه تحصيل
الذبح ، وانما كان المقصود تخليص السرّ من حبّ غيره بأبلغ الأسباب .
فلما خلس السرّ له ورجع عن عادة الطّبع فداه بذبح عظيم » (4)

(1) يونس : 42 .

(2) جواهر القرآن : 21 - 31 .

(3) الصافات : 107 .

(4) تفسير القرآن العظيم : 120 .

وقد أنكر ابن تيمية - فيما نقل عنه ابن القيم - التزعات الصوفية الباطنية فقال :

(..... وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات : «حدثني قلبي عن ربي» فصحيح أن قلبه حدثه ، ولكن عن شيطانه أو عن ربه ؟

ومحدث هذه الأمة (1) - الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : «إنه كان في الأمم قبلكم محدثون . فإن يكن في هذه الأمة فعمّر ابن الخطاب» (2) - لم يكن يقول ذلك .

فقد كتب كاتبه يوماً : (هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب فقال : لا . امحُه ، واكتب : هذا ما رأى عمر الخطاب . فان كان صواباً فمن الله . وإن كان خطأ فمن عمر ، والله منه بريء) فهذا قول المحدث بشهادة الرسول . وأنت ترى الاتحادي والحلولي والإباحي الشطّاح مجاهرٌ بالقحة والفرية يقول : حدثني قلبي عن ربي . فانظر الى ما بين القائلين والمرتبين والقوليين والحالين !

فلم يُحوج الله الأمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم بكمال رسالته إلى محدث ولا ملهَم ، ولا صاحب كشف ولا منام) (3)

(1) المحدث بفتح الدال : من يحدث في سره وقلبه بالشئ فيكون كما يحدث به .

(2) رواه البخاري ومسلم .

(3) ابن القيم الجوزية : التفسير القيم : 39 - 40 .

ومن الناحية النفسية فإنّ التجربة الباطنية للصوفيّة وإن كانت شعوريّة وجدانية إلاّ أنّ الشعور فيها لا يرتبط بالإدراك الحسي ، و لا يخضع للقوانين النفسية المتعارفة . لذلك فإنّه ليس من الموضوعية الاعتماد على ما زخرت به تفاسير المتصوفة لقصص القرآن من نواح سيكولوجية ناشئة عن مشاعر خاصة لا تتجاوز أصحابها .

وإذا نحن استقصينا عوامل التأثير النفسي في القصص القرآني ، أدركنا ما فيها من تنوع اقتضاه تفاوت الناس في أخلاقهم وإرادتهم وأعمالهم ، وما بين بعض العوامل من تقابل اقتضته الطبيعة الازدواجية في النفس من حبّ وبغض ، وأمن وخوف ، ورجاء وبأس ، وخيال وحس ، وميل ونفور ، وقوّة وضعف .

يقول ابن القيم في تفسيره لقوله تعالى : «وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ» (1)

«ولمّا كانت هذه الآية مشتملة على جميع مقامات الإيمان والإحسان ، وهي الحبّ والخوف والرجاء عقبها بقوله : «إنّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ» لأنّ مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة ، كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الإحسان : (أنّ تعبّد الله كأنك تراه) (2)

وأعجب ما في هذه الازدواجية المتقابلة في الاتّجاه ، هو الترابط القائم بينها في الكيان البشري ، وكأنّها أوتاد تشدّه وتحفظ توازنه (3)

(1) الاعراف : 56 .

(2) التفسير القيم : 256 .

(3) دراسات في النفس الانسانية : 72 .

ومن أشدّ هذه العوامل ظهوراً وتأثيراً :

(1) الحضور الإلهي :

يمتاز القرآن عن سائر الكتب السماوية بقدسيّة فريدة ، وهي أنّه إلهي في لفظه ومعناه ، بمعنى أنّ الله سبحانه هو المتكلّم به والمُشَيء له دون سواه كما سبق بيان ذلك في الفصل الأول من قسم البحث النظري (1) . لذلك فإنّنا نجد في القصص القرآنيّ قداسة الحضور الإلهي بهذا الاعتبار .

كما نجد في هذا القصص مظهراً آخر تتجلّى فيه قدسيّة الحضور ، وهو ما يرد فيه من خفايا الأسرار التي لا يتسنّى لأحد أن يعلمها سوى الله الذي يحيط علماً بما تُخفي الصدور ، وتهمس الشفاه .

فمَن يسمع غيرُ الله صوتَ يونس وهو ينادي في ظلمة الليل وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ؟

«لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» (2)
وصوت زكرياء .

«إِذْ نَادَى رَبَّهُ : رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ
الْوَارِثِينَ» (3)

(1) انظر صفحة : 80

(2) الانبياء : 87 .

(3) : الانبياء : 89 .

وقول مريم لما جاءها المخاض إلى جذع النخلة :
 «يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نِسِيًّا مَنْسِيًّا» (1)
 وقول فرعون وهو يصارع لجاج الأمواج الصاخبة :

«آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ
 وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ» (2)

وما أروع أن يكشف لنا الخالق بنفسه عن حجب الأسرار ، فيسمعنا
 أحاديث النفوس وخطرات الضمائر في مواقف تثير الشعور بالجلال
 والرهبة ، والإحساس الجليّ بأنّ كلّ الخلائق في قبضته ، وتحت سلطانه .

ومين صور الحضور الالهي في القصص تدخّل الخالق في
 حدائه بإسناد الفعل فيها إليه مباشرة سواء في مقام الامتنان
 بِنعمه ، كقوله تعالى في معرض التذكير بما أنعم على بني إسرائيل :

«وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ
 فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ» (3) .

وقوله في نجاة إبراهيم من كيد المشركين :

«قَالُوا : ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ . فَأَرَادُوا
 بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ» (4)

أم في مقام التحذير من غضبه ، كقوله تعالى في عذاب عاد :

-
- (1) مريم : 23 .
 - (2) يونس : 90 .
 - (3) البقرة : 50 .
 - (4) الصافات : 97 - 98 .

«إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ . تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ» (1) .
وفي عذاب ثمود :

« إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَضِرِ » (2)

ثم انظر كيف يتحوّل السياق فجأة أثناء العرض لقصة ثمود من حكاية تكذيبهم لنبيهم في ظاير التاريخ إلى تهديد الخالق لهم بما سينكشف من حقيقة أمرهم يوم القيامة ، وكأنما الأحداث جارية تُعرض على الأنظار .

« كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ . فَتَقَالُوا : أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ ؟ إِنَّا إِذْنُ لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ . أَأَلْقِيَا الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ؟ بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ . سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَن الْكَذَابُ الْأَشْرُ ؟ » (3)

وهكذا فإنّ من المؤثرات التي تثير أعظم الأحاسيس الدينية في قلب المؤمن شعوره بأنّ الله ذا السلطان الأعلى هو الذي يقصّ هذه الأنباء ، ويكشف عما خفي من أسرارها .

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِينَ الْغَافِلِينَ (4)

- (1) القمر : 12 - 20 •
(2) القمر : 31 •
(3) القمر : 23 - 26 •
(4) يوسف : 3 •

(2) القدر :

ثمَّ إنَّ شعور الإنسان بقوة غيبية تتدخل في توجيه الأحداث نحو وجهة معينة ، وتؤثّر على نتائجها التي كثيرا ما تأتي على خلاف ما حسب الناس وقدّروا ، أو على غير ما عرفوا ، هو عنصر هامّ من عناصر التأثير في هذا القمص الذي يملأ الإحساس رهبة ورغبة ، باعتبار أنّ مصدره هو مصدر القدرة المطلقة ، والإرادة النافذة في مجرى تلك الأحداث .

ولهذا الإحساس صداه البعيد في النفس . ذلك أنّ القدر الخفيّ الذي يُسيّر الأحداث الواردة فيه هو قوة عظيمة كامنة في أسرار الغيب ، ولكشها واعية عادلة لِمَا تنجلي عنه في عَالَمِ الشهادة من عناية الله بالمخلصين الأخيار وإن كانوا ضعفاء ، ونقمة ومكره بالمُبتلين الأشرار وإن كانوا أشدّاء أقوياء .

ولاريسب أن هذه النتائج والعواقب يطمئنّ إليها المؤمنون ، فيزدادون بالله وبحكمته وعدله إيمانا ، ويفزع لها الجاحدون ، والمُعرضون ، فيزدادون حيرة ، ويستحوذ عليهم الخوف والهلع :

فأهل الكهف - وهم فتية تبيّن لهم الحق في بيثة يسودها الظلم والكفر - آمنوا بالله وعبدوه ، وهجروا الشرك وأهله . ولمّا انكشف أمرهم لم يروا سبيلا للنجاة إلاّ أن يفرّوا إلى الله بدينهم ، ويهجروا أهلهم وديارهم ، ويلجأوا إلى كهف يستروحون فيه رحمة الله ، عسى أن يهيء لهم من أمرهم رشداً . فيضرب الله على آذانهم في الكهف عدّة سنين ، وينامون نومة طويلة ، تحرسهم

عين الله التي لا تنام ، وتكلؤهم عنايته التي لا تتخلى عن المستضعفين المستجيرين (1) .

ويوسف عليه السلام يكيد له إخوته ، ولكن القدر يسير بالأحداث في اتجاهه معاكس ، فتحفظه العناية من التردّي في الجُب ، ومن الفتنة بالإغراء ، ومن الهلاك في السجن ، لتبوّئه عرش الملّك ، وتكشف نوايا إخوته ، وغلبة القدر فيما كادوا له .

« وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ . وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » (2) .

وأصحاب الجنة (البستان) يضيّقون ذرعا بحقّ المساكين في ثمارها ، فيعقدون النية على جنيتها في وقت مبكر لا يأتي المساكين في مثله ، فيتعقبهم القدر . ويجري من ورائهم ليلاً . فلما أصبحوا وجدوها قد احترقت (3)

وفرعون الطاغية الذي كان يذبح أبناء بني إسرائيل ، يلاقي الموت على يد موسى ، فيقوده اليه غرقاً ، وهو الذي حملته الأقدار إليه رضيعاً ، فصرف الله عنه شرّه وبأسه (4)

ألم يكن القدر في مثل هذه الأحداث قوّة روحية للمؤمنين تثبتهم أمام قوى الشرّ والظلم مهما كان الصّراع عنيفاً ، لاعتقادهم بفوز الخير ، وانتصار الحق في النهاية ؟

(1) الكهف : 65 .

(2) يوسف : 21 .

(3) القلم : 17 - 23 .

(4) القصص : 3 - 42 .

« إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » (1)
« وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ
الْمَنْصُورُونَ . وَإِن جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » (2) .

وهذا الصِّراع بين قوى الخير والشر هو مصدر ألم الدنيا
بما يشيع في النفوس من نور وظلمة ، وصلاح وفساد ، وفزع
وأمن ، وتفاؤل وتشاؤم .

والقصص القرآني يفيد أن كل قوة على الأرض إما أن
تكون مهتدية بهدي الله ، مستمدة من نهجه وهداه ، وإذن فهي
حق ينبغي أن تساند . وإما أن تكون ضالّة منحرفة عن الله ، خارجة عن
نهجه ، مستكبرة على هداه ، فهي باطل ينبغي أن تجاهد (3).

ومن شأن أهل الباطل والأهواء أن يتصامموا عن دعوات
الحق الواضحة ، ملتجئين لعنادهم حيلة دفاعية كالتبرير
والاسقاط والتعويض

وواجبُ أهل الحق أن يعرفوا أن عدواتهم للحق ناشئة من
نفوسهم . وليست ناشئة من انعدام الحجج المقنعة التي تبيّن الحق
وتميّزه من الباطل بأدلّته وشواهده ، بحيث يصير مشهودا للقلب
كشهود العين للمرثيات .

(1) غافر : 51 •

(2) الصافات : 171 - 173 •

(3) التوبة : 115 •

قال ابن القيم : (وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه . فلا يُضِلُّ أحداً أو يعذِّبه إلاّ بعد وصوله إليها .

قال الله تعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ (1) .

فهذا الاضلال عقوبة منه لهم حين بين لهم ، فلم يقبلوا ما بينه لهم ، ولم يعملوا به . فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى . وما أضلّ الله سبحانه أحدا قط إلاّ بعد هذا البيان .

وإذا عرفت هذا عرفت سرّ القدر ، وزالت عنك شكوك كثيرة ، وشبهات في هذا الباب ، وعلمت حكمة الله في إضلاله من يُضِلُّه من عباده

والقرآن يصرّح بهذا في غير موضع ، كقوله تعالى : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ » (2) فالأول : كفر عناد ، والثاني : كفر طبع .

وقوله : « وَتَقَلَّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ ، وَتَنذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » (3) فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم ، فلم يهتدوا له .

فتأمل هذا الموضع حقّ التأمل ، فإنه موضع عظيم . قال تعالى : « وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ (4) .

(I) التوبة : 115

(2) الصف : 5

(3) الأنعام : 110

(4) فصلت : 17

فهذا هُدًى بعد البيان والدلالة . وهو شرط لا موجب .
 فإن لم يقترن به هُدى آخر بعده ، لم يحصل به كمال الاهتداء ،
 وهو هُدى التوفيق والإلهام (1) .

قال الله تعالى :

« وَقَالَ مُوسَى : رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ
 زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . رَبَّنَا لِيَصِلُوا عَن
 سَبِيلِكَ . رَبَّنَا اطْمِسْ عَنَّا أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ ،
 فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » (2) .

فهذا الشدُّ على القلب هو الصدُّ والمنع . كما قال ابن عباس :
 والمعنى : اطبعُ عليها حتى لا تلين ولا تشرح للإيمان . وهو
 مطابق لما في التوراة ، أن الله قال لموسى : « اذهب إلى فرعون
 فإنني سأقسي قلبه ، فلا يؤمن حتى تظهر آياتي وعجائبي بمصر » .

وهذا الشدُّ من كمال عدل الرب سبحانه في أعدائه ، جعله
 عقوبة لهم على كفرهم وإعراضهم ، كعقوبته لهم بالمصائب .
 وهل جزاء السيئة إلا السيئة ؟ . ولهذا فهو حسن منه وقبيح منهم .
 فإنه عدلٌ منه وحكمة ، وهو ظلمٌ منهم وسفه . فالقضاء والقدر
 فعلٌ عادلٍ حكيم ، يضع الخير والشر في أليق المواضع (3) .

(1) التفسير القيم : 42 .

(2) يونس : 88 .

(3) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل : 97 .

وهكذا فإنّ القدرَ الذي يسيطر على أحداث القصص القرآني يثير الدهشة والرّوعة بخوارقٍ تدخّله السريع أحياناً ، ويبعث على التأمّل والاعتبار بحكمة تدبيره للأُمور ، وتصريفه للأحداث والانتهاه بها إلى نتيجة حاسمة تتجلّى فيها قوّة الحقّ وعدل السماء .

(3) الترهيب والترغيب

لأنّكاد تخلو قصّة في القرآن من ترهيب يثير الخوف، أو ترغيب يبعث على الرجاء . فهما قوتان في الإنسان ، لا يستقيم أمره إلاّ بهما معاً .

قال الغزالي : «لا يقود الى قرب الرحمن إلاّ أزيمة الرجاء ، ولا يصدّ عن نار الجحيم إلاّ سياط التخويف» (1) .

فإنّ الإنسان بطبعه يخاف أن يُصاب بمكروه يتوقّعه ، أو يُحرّم ممّا يتمتّع به أو يطالبه . وهو في الآن نفسه يرجو الأمن والنعيم ، وكلّ ما فيه راحته وسعاده . فيسعى جاهداً ليدفع عن نفسه الألّم ، ويجعل لها اللذّة .

فبالخوف والرجاء يرسمان أهدافه واتّجاهه في الحياة ، ويحدّدان سلوكه ومشاعره وأفكاره . فعلى قدر ما يخاف ونوع ما يخاف ، وعلى قدر ما يرجو ونوع ما يرجو ، يتخذ لنفسه منهج حياته ، ويوفّق بين سلوكه وبين ما يرجو ويخاف (2)

(1) محمد جمال الدين القاسمي : موعظة المؤمنين من احياء علوم الدين :

• 330

(2) منهج التربية الاسلامية : 156 •

وفي كليهما ناحية إيجابية وأخرى سلبية . أو بالأحرى :
جانب نفع ، وجانب ضرر . فإذا انقلب الخوف الى هواجس
وأوهام . ومن حذر وحيطة إلى هلع ورعب ، دون أن يكون له
مثير صحيح ، أو سبب حقيقي ، آل إلى عقدة نفسية تستدعي العلاج .
وإذا التزم الحدود السوية وسيطر عليه العقل ، أصبح من أعظم
القوى للإبقاء على النفس ، وتوجيه السلوك وجهة مرضية .

ومن هنا يصحّ القول بأنّ الخوف إحدى القوى النفسية
التي تعمل على البناء أو الهدم في تكوين الشخصية (1) .

وكذلك يقال في الرجاء ، قال تعالى : « وَلَا تُفْسِدُوا
فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ، وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، (2)

وقال صلى الله عليه وسلم : «الأحمق من أتبع نفسه هواها
وتمنى على الله الجنة» (3) .

وفي قصة آدم يعطي الله الاطمئنان الكامل له ولذريته في
مقابل ما تحدّثه كلمة «اهبطوا» من خوف سوء المنقلب ، وما
ثيره من رعب .

فالمهتدون بهداية الله لا يخافون ممّا هو آت ، ولا
يجزعون على مافات . لأنّ اتباع الهدى يسهّل عليهم طريق

(I) انظر : مجالات علم النفس : مصطفى فهمي . مجلد : I / 318 - 319

والعقل الباطن وعلاقته بالامراض النفسية : (ت) عباس حافظ :

• 153 - 160

(2) الأعراف : 56 .

(3) رواه مسلم .

اكتساب الخير ، ويُعدّهم لسعادة الدارين (1)

«قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا . فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى .
فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (2) .

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى :

«الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ
لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ» (3)

ذلك لأنّ سنَدَ المؤمن قويّ . والقوة التي يلجأ إليها لا يعزب
عنها شيء في الأرض ولا في السماء . فهو إذا ابتلي بما يُخيف
فإنّما ليكمل نفسه ويصلحها بمزيد اليقظة والحذر والمراقبة .
إذ من ثمرات خوف الله تقواه .

وما أخذ الله آلَ فرعون بالجذب وضيق المعيشة الا ليتذكروا
ضعفهم أمام قوة الله ، وعجز مَلِكِهِم أمام الجبار ، ولعلّهم
إذا تذكروا اعتبروا واتّعظوا فرجعوا عن ظلمهم لبني إسرائيل ،
وأجابوا دعوة موسى عليه السلام . فإنّ الخوف شدّة . والشدائد
من شأنها أن تُرَقِّق القلوب ، وتهدّب الطباع ، وتوجّه الأنفس
إلى رضی الله والتضرّع له دون غيره ، إذ المعهود أن يكون الناس
في الشدائد أَلْيَنَ نفوسا ، وأشدّ لله خضوعا . لذلك ابتلاههم الله

(1) المنار : ج : I / 285 .

(2) البقرة : 38 .

(3) الأنعام : 82 .

بالجذب والقحط حتى غاض النيل ، فقلت ثمراتهم :

«وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» (1) .

وأشدّ النَّاس حيرة واضطرابا في الحياة غير المؤمنين . فهم في خوف دائم ممّا لا يُخيف ، لانهم يعلّقون حياتهم وكلّ ما يجري عليهم فيها بالظروف والصّدف .

يقول جيمس في كتابه (الكون الغامض) :

(ونحن إذ نقف على أرضنا نحاول أن نكشف عن طبيعة الكون الذي يحيط بموطننا في الفضاء والزمن ، وعن الغرض من وجوده ، نحسّ بما يشبه الذعر والهلع . وكيف لا يكون الكون مخيفا مرعبا ، وهذه أبعاده هائلة لا تستطيع عقولنا إدراك مداها ، ويتضاءل إلى جانبها تاريخ الإنسان؟ وأخوف ما فيه أنّه لا يُعنى - كما يبدو - بحياةٍ مثل حياتنا . كأن عواطفنا ومطامعنا وأعمالنا وفنوننا وأدياننا كلها غريبة عن نظامه وخطته . وقد يكون من الحق أن نقول : بينه وبين حياتنا عداً قوياً هذا هو الكون الذي أَلقت بنا فيه الظروف .

وإذا لم يكن ظهورنا حدث بسبب غلطة وقعت فيه ، فلا أقلّ من أن يكون نتيجة لِمَا يَصِحّ أن يوصف بحقّ أنّه مصادفة) (2) .

(1) الأعراف : I30 .

(2) انظر : في ظلال القرآن . ج : 8 / I48 .

أما المؤمن فانه ليدرك ما بين الكون والإنسان من صلوات
ووشائج ، ويحس يد الله في كل ما حوله . فلا يشعر بالخوف
والضياع ، ولكن بالطمأنينة والأنس إلى هذا الكون البديع ،
وبالرهبة والجلال لخالقه المبدع . فيلتقي الفن بالعقيدة ،
والمتعة الحسيّة بالمتعة الروحيّة .

وكذلك تبدو آثار الإيمان في التصوّرات والمشاعر :

فالمؤمن يخاف الله وحده ، ولا يخاف سواه من مخلوقاته ،
وإن راعته عظمتها أو قوتها . لأنّ التدبير والتقدير بيده سبحانه :

وقد يقال : إنّ الخوف حاصل على كل حال وإن اختلف
مصدره . فلما ذا لا يسود الأمن والإطمئنان أرجاء النفس ، ويختفي
الإرهاب والترويع ، فيتحرّر الإنسان من الخوف مهما كان
المصدر الذي يأتي منه ؟

والجواب أنّ الخوف من الله فريد من نوعه . فأخوف الناس
لربّهم أعرفهم بجلاله وقوته . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :
«أنا أخوفكم لله» (1) .

وروي عن أنس رضي الله عنه قال : خطب رسول الله صلى
الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط . فقال : «لو تعلمون
ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» (2)

(1) رواه مسلم .

(2) رواه البخاري ومسلم .

فمخافة الله بهذا الاعتبار فضيلة ، لانها ثمرة العلم والمعرفة ، وكل من تخافه تتحاماها وتقرّ منه إلاّ الله ، فان خوفه فرار إليه واحتماء به . ولذلك قال الله لموسى لما فرّ هاربا من عصاه وقد رآها تهتزّ كأنها جانّ :

«يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ» (1)

وقال له : «يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ» (2)

بينما هو سبحانه يحذّر أهل القرى السّادريين في الغفلة ، أولئك الذين يعيشون في دعة وأمن ، ولا تذكرهم آياته بخشيته :

«أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ؟ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ. أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ» (3) .

وقديما قيل : «من قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار ، فسييله أن يعالج بسمع الأخبار والآثار» (4)

وإذا نحن استعرضنا ما قصّه القرآن من أخبار الأولين ، لاحظنا انه يحمل في جملته بواعث الخوف أكثر من بواعث

(1) النمل : 10

(2) القصص : 31

(3) الاعراف : 97 - 98

(4) موعظة المؤمنين : 333

الأمن ، بحيث إنَّ الترهيب أكثر من الترغيب . فوجد فيه البلاء المعجَّل ، والإبادة الجماعية لبعض أقوام الرِّسل بالطوفان ، والعواصف ، والصواعق ، والخسف ، والأخذ بالسَّنين ، ونحو ذلك مما يثَّ الرِّعب في القلوب ، والاعتقاد بفساد معظم البشر . وهي نظرة قد تدعو إلى التشاؤم أكثر مما تبعث على التفاؤل .

فما السِّرُّ في ذلك ؟

لقد اقتضت حكمة الله أن يُبتلى البشر بالشهوة والغضب ، والحبِّ والبغض ولوازهما : كالفسق والعصيان والغفلة والنسيان ، والإعراض والظلم والتقليد ؛ وأن يتلى بعدوّه الذي لا يألوه خبَلاً ولا يغفل عنه ، وبزينة الحياة الدنيا ؛ وبالهوى . فأرسل الله إليه رسله ، وأنزل كتبه ، وبيّن له مواقع رضاه وغضبه ، وأنَّ النعيم لا يُدرَك بالنعيم ، وأنَّ أعظم اللذات محجوب بأنواع المكاره . فلم تقو عقول الكثيرين على إشار الآجل المنتظر بعد فناء الدنيا على هذا العاجل الملموس ، بل لم يتسع خيالهم إلى تصوّر نشر جديد بعد ظلمة القبر وفناء الجسد ، وأننا سنموت كما ننام ، ونُبعث كما نستيقظ ..

قال شدّاد بن الأسود الليثي من قصيد يرثي به مشركي قريش يوم بدر ، وكان أسلم ثم ارتدّ :

يُخَبِّرُنَا الرَّسُولُ بِأَنْ سَنَحْيَا فَكَيْفَ حَيَاةُ أَصْدَاءِ وَهَامِ (1)

(I) ابن هشام : السيرة : 530 - 531 .

وفي هذا المعنى يقول شاعر جاهلي :

حياةٌ تُثمّ موتٌ تُثمّ بَعَثٌ حديثُ خُرَافَةٍ يَبَأُ أمَّ عَمْرٍو (1)

وقالوا بلسان الحال والمقال :

« لا نبيع ذرّةً منقودة بدرّة موعودة»

«خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به» .

« أناس يقضون عيش النعيم ونحن نحال على الآخرة

فإن لم يكن مثلما يزعمون فتلك اذن كسرّة خاسرة» .

وليس من شك في أن توقّف إيمان سحرّة فرعون على رؤيتهم لعصا موسى تتلقّف عصيهم ، صريح في الدلالة على غلبة منطق الحسّ على منطق العقل ، والتصوّر المادّي على التصوّر الرّوحي (2) وإذن فليس من الميسور أن يتغلّب كلّ البشر أو معظمهم على مثل تلك المشبّطات والمغريات ، ويستجيبون لنداءات السماء ، ولرسالات الأنبياء ، دون أن تُثار فيهم غريزة الخوف والرّهبة ، أكثر من غريزة الرّجاء والرغبة . لأنّ غريزة الخوف تكاد تكون (لا شعورية) لاتصالها بغرائز الدّفاع عن الذات ، وحبّ البقاء ، وتجنّب المكروه . فهي أبلغ اثرا في النفس ، وخاصّة عند توقّع بلاء عاجل

(1) بطرس البستاني : دائرة المعارف : ج : 7 / 357 •

(2) محمد حسين هيكل : حياة محمد : 570 •

بخلاف غريزة الرجاء ، فإنما تُثار غالبا لدفع اليأس ،
وتجديد الأمل ، وإثارة التطلع لغد مشرق ، ومستقبل سعيد

قال تعالى مخاطبا نبيّه صلى الله عليه وسلم :

«وإن تَطِيعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ
اللهِ» (1) .

وقال : «أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ؟ أَفَأَنْتَ
تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ؟ أَمْ تَحْسِبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ
أَوْ يَعْقِلُونَ ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا» (2)

فلقد كانت حياة الأقوام والأمم التي سبقت لإبراهيم عليه
السلام أشبه بحياة الإنسان في طفولته أو صباه ، غير قادرة على
أن تستدلّ على وجود الله من النّظر في ملكوت السموات والأرض ،
لأنّ عقولهم أضعف من ان تنفذ إلى ما وراء القريب الواضح من
المحسوسات . ومن هنا نجد في قصص الرّسل السابقين وعدا
بشواب الدّنيا لمن آمن واستغفر ، ووعيدا بالعقاب في الدّنيا
لمن كفر واستكبر

لذلك وعدّ نوح قومه بخيرات شتى يُعَدّقها الله تعالى عليهم من
الأموال والبنين والأمطار الغزيرة التي تخصب بها أرضهم ،
وتنبت حدائقهم ، وتجري أنهارهم اذا هم آمنوا به واستغفروه.

(1) الأنعام : 116 .

(2) الفرقان : 43 - 44 .

«فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ
السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ،
وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (1) ۝

كما جاء الوعد بالخيرات في الدنيا على لسان هود لقومه :

«وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ
السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ» (2)

فقد وعدهم الله بالجزاء على الإيمان والاستغفار والتوبة أن
يرزقهم الغيث لأنهم أصحاب زروع وبساتين ، وهم في أشد الحاجة
إلى الماء . ووعدهم أن يزيدهم قوة الى قوتهم ، لأنهم كانوا
مِدْلِينَ بشدتهم وبأسهم ، وكان لهذه الدعوة والوعد أثرهما في
نفوس المؤمنين في كل زمان ومكان .

روي عن الحسن بن علي أنه وفد على معاوية ، فلما خرج
تبعه أحد الحجاج فقال له : إني رجل ذو مال ولا يولد لي . فعلمني
شيئا لعل الله يرزقني . فقال له : عليك بالاستغفار . فكان يكثُر
الاستغفار . فولد له بنون . فلما علم بذلك معاوية قال للحاجب :
هلا سألت الحسن دليلاً على ما أشار عليك به ؟ ثم لقي الحاجب
الحسن ثانية ، فسأله . فقال له الحسن : ألم تسمع قول هود عليه السلام :

• (1) نوح : 9 - 12

• (2) هود : 52

« وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ .. » وقول نوح عليه السلام : « وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ » (1) !

وسلّط الله عذابه في الدنيا على سبيل ، وهم طائفة يعيشون في أرض خصبة باليمن بين واديين ، بكلّ منهما جنة ، احدهما عن يمين البلاد ، وهي مأرب . والأخرى عن شمالها . ولكنهم كفروا ربّهم وبطروا نعمته ، وضلّوا عن سواء السبيل . فأرسل الله على سدّ مأرب سيلاً دمره ، فأجدبت بلادهم ، وارتحلوا عنها ، حتى صاروا مضرب الأمثال في التشتت . فقيل : تفرّقوا أيدي سبيل (2)

قال تعالى : « لَقَدْ كَانَ لِسَبِيلٍ فِيهِ مَسَاكِينُهُمْ آيَةٌ ؛ جَنَّاتٍ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُّوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ . بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ، وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ . ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا . وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكَفُورُ ؟ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ، سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ . فَقَالُوا : رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا . وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » (3) .

(1) محمد أحمد الحوفى : مع القرآن الكريم : 215 •

(2) المصدر السابق : 280 •

(3) سبا : 15 - 19 •

وإذا كانت الدعوات السماوية تخلّت عن الإبادة الجماعية للمكذّبين من أقوام الأنبياء فإنّها ما تخلّت عن التأديب العاجل لمن انتهكوا الحرمات ، وزاغوا وانحرفوا ، وعاثوا فسادا في الأرض .

لذلك فإن الإنذار والتخويف في قصص القرآن لسبباً ليساً مقصودين على المعاصرين للدعوة المحمّدية ، بل إن آثارهما باقية خالدة على مدى الأزمان والأجيال ، لا في جزاء مؤجّل في الآخرة فقط ، بل وفي جزاء دنيويّ ينال الأفراد أو المجتمعات وفقاً لسن الله الحكيمة التي لا تبدّل . وهذا الجزاء يختلف ويتنوّع ، وقد يكون ظاهراً وقد يكون خفياً .

قال تعالى : « فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى » (1)

فلا معنى إذن لقول من يحادّ الله ورسوله في هذا العصر فيزعم مثلاً : أن الشرك بالله موجود ، وتأليه الطبيعة والمادّة منتشر ، والإعراض التامّ عن الأديان السماوية عامّ ، ومع ذلك فلا عذاب في الدنيا ولا نكال ولا استئصال . فعلى هؤلاء أن يبحثوا عن أسباب التحوّل في حياة الأفراد والمجتمعات : من عزّ إلى ذلّ ، ومن غنى إلى فقر ، ومن أمن إلى خوف ، أو العكس ، ليدركوا أنّ الله لم يترك الكون سدى ، ولم يتخلّ في الدنيا بعد انتهاء الرسائل السماوية عن مثوبة المحسنين ، وعقوبة المسيئين .

(I) طه : I24 .

قال تعالى : كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَاتَاهُمُ الْعَذَابُ
مِن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا . وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» (1)

(4) معرفة السياق والمناسبة

ومما يُعين على فهم القصة القرآنية فهما دقيقا ، ويجعل
تأثيرها في النفس أعمق :

(1) معرفة السياق الذي عُرِضت فيه ، سواء في السورة ، أو
في الآيات التي سبقت القصة ومهدت لها ، أو الآيات اللاحقة التي
أعقبها

فقصة أصحاب الجنة (2) (الستان) عُرِضت في سياق تكذيب
المشركين للرسول ، واتهامهم إياه بالجنون ، ولا سيما كبراء
قريش ، المعتزون بأموالهم وأولادهم ، وعلى رأسهم الوليد بن
المغيرة الذي كان إذا تَلَّى القرآن قال : أساطير الأولين !
وقد وصفه القرآن بعيوب لم يوصف بمثلها أحد ؛ فأنحق به
عارا لا يُمحَى . فقال فيه :

«وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ، هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ ،
مَنْعٍ لِلنَّخِيرِ ، مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ، عَتِلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ أَنْ
كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ : أَسَاطِيرُ
الْأُولِينَ . سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرطومِ» (3)

(1) الزمر : 25 - 26

(2) القلم : 17 - 33

(3) القلم : 10 - 16

فأشعرهم القرآن بأنّ ما بين أيديهم من أموال وبنين إنّما هو ابتلاء لهم من الله . وقد يسلبهم ما وهب ، كما سلب أصحاب هذه الجنة .

ويبدو أنّ هذه القصة المنتزعة من واقع بيئتهم ، كانت ذاتة بينهم مشهورة ، ولكن الجديد في سياقها أن تكشف عن فعل الله وقدرته ، وسخرية القدر بالكيد البشري . وقد جاء في التعقيب عليها تحذير المشركين مما هو أكبر من ابتلاء الدنيا بحقّ المال ، وهو عذاب الآخرة :

« كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » (1)

ومن خلال هذه السورة عموما وقصتها خصوصا نلاحظ ملامح البيئة التي كانت تواجهها الدعوة الإسلامية ، والتي لا تخلو من سذاجة وبدائية في التصور والتفكير والمشاعر ، كما تُبين ملامح تلك الفترة ، وهي الضعف والقلة والمعاناة والشدة .

فستروح من إيراد هذه القصة مواساة الرسول صلى الله عليه وسلم وتثبته (2)

فإدراكنا لمثل هذه الحقائق يضعنا في إطار القصة ، وينقلنا إلى جوّها ، ويجعل عباراتها أكثر شفافية عما تهدف إليه .

(2) : معرفة المناسبة التي عرضت فيها القصة ، وتشمل أسباب القصة ذاتها ، أو الناحية التاريخية المرتبطة بنزول القرآن ، وهي التي يعبر عنها بأسباب النزول .

(1) القلم : 33 .

(2) في ظلال القرآن . ج : 29 / 43 .

فإن قصة موسى والعبد الصالح ما كانت ليُفهم على حقيقتها لولا الحديث النبوي الذي أوضح السبب الداعي لحمل موسى على أن يلتقي بهذا الرجل الذي كان يَعلم من الغيب ما لا يعلمه هو ، رغم أنه لم يُعرف بالنبوة .

وقد أقحم العامة في هذه القصة أشياء غريبة ، وربما كان بعضها من موحيات سبب اللقاء الذي بينه الحديث النبوي .

ونحن عندما نتلو هذه الآيات فإن آفاق فهمنا تتسع ولا شك ، متى عرفنا سبب نزولها .

قال تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب . ثم قال له : كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ، فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . إن هذا لَهُوَ القصصُ الحق . وما من إله إلا الله . وإن الله لَهُوَ العزيزُ الحكيمُ » (1)

وسبب نزولها ما أخرجه ابن سعد في الطبقات ، قال :

« قدم على النبي صلى الله عليه وسلم أسقف نجران والعاقب . فعرض عليهما الإسلام . فقالا : إنا كنا مسلمين قبلك . قال : كذبتما . إنه منع منكما الإسلام ثلاث : قولكما . اتخذ الله ولدا ،

(I) آل عمران : 59 - 62 .

وأكلكما لحم الخنزير ، وسجودكما للصنم . قالا : فمن أبو عيسى ؟
 فما درى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يردّ عليهما ، حتى أنزل
 الله : « إن مثلك عيسى عند الله...إلى قوله : « وإن الله ليهو
 العزيز الحكيم »

فدعاهما إلى الملاعنة ، فأبيا ، وأقرأ بالجزية ورجعا (1)

وإذا كانت معرفة جوّ القصيدة مثلا ، والظروف التي نظمت خلالها
 تُعين على الفهم ، وتُسعف بالذوق ، وتواكب الشرح الأدبي ،
 فإن معرفة قصة الآية ، والأسباب التي اقتضت نزولها أعون على
 دقة الفهم ، وأدنى إلى استلهاهم أرجح التأويل ، وأصحّ التفسير (2)
 فالمناسبة إذن تُعين على فهم الآية ، وهي قرينة لبيان الحكم ،
 اذ ليس الدين تعليما فحسب ، بل هو تربية أيضا . واعتماد المناسبة
 من أفضل الطرق التربوية . لذلك كان الصحابة حريصين على معرفة
 مناسبة النزول في معناها العام .

فقد روي أن عمر قال يوما لأصحاب النبي صلى الله عليه
 وسلم : فيم هم يرون هذه الآية نزلت ؟ :

« أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ
 الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضُعْفَاءُ ، فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ .
 كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ » (3)

- (1) السيوطي : لباب النقول في أسباب النزول : 46 .
 (2) صبحي صالح : مباحث في علوم القرآن : 129 .
 (3) البقرة : 266 .

« قالوا : الله أعلم . فغضب عمر . وقال : قولوا نعلمُ أولاً نعلمُ . فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين . فقال عمر : قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك . قال ابن عباس : ضُربت مثلاً لعمل . قال عمر : أيّ عمل ؟ قال : لعمل رجل عمل بطاعة الله ، ثمّ بعث الله له الشيطان ، فعمل بالمعاصي حتى أحرق أعماله (1)

المجانبُ الانفعالي والعاطفي

الانفعال : تجربة عابرة يمرّ بها الإنسان عند ما يكون الدافع قوياً ، والاستجابات منفعلة . أمّا العاطفة فهي : عبارة عن اتجاه وجداني نحو موضوع معين . وتُكتسب بالخبرة والتعلّم ، وتتكوّن تدريجياً بعد أن مرّت خلال تجارب وأعمال عدّة . فهي إذن استعداد نفسي ينشأ عن تركيز مجموعة من الانفعالات حول موضوع ما . ومن أهمّ العوامل التي تساعد على تكوين العواطف : التكرار والإيحاء ، الإقتران (2)

ولقصص القرآن أثر بليغ في توجيه العقيدة والسلوك منشوة شعور انفعالي دافع ، أو عامل وجداني مؤثر .

فتأثير بعض القصص الذي يصف ما نزل بالمكذّبين لرسولهم من أهوال العذاب أنّه يُحدث شعوراً بالخوف من عاقبة العصيان

(1) رواه البخاري .

(2) مصطفى فهمي : الصحة النفسية : 279 - 282 .

وهذا الشعور الانفعالي بالخوف هو الذي دفع إلى الإسلام « جبير بن مطعم » لما سمع الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ في صلاة الفجر قوله تعالى : « إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَّا لَهُ مِنْ دَافِعٍ » (1) وقد قال في ذلك : خشيت أن يدركني العذاب فأسلمت (2)

وهو الذي دفع بعنبة بن ربيعة أيضا لما سمع الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ : « فَلِإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ : أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثَمُودَ » (3) إلى أن يمسك على فمه ويناشده أن يسكت مخافة أن ينزل عليه العذاب (4)

وهذا الشعور بالخوف من العقاب الالهي يتجدد في نفس المؤمن كلما أثارت انفعاله قصة من قصص القرآن أو آية من آيات الله فالشريّ المسرف على نفسه ، الذي أطغاه المال فنسى ربه واحتقر الفقراء ، وبغى ، وقادته الشهوات إلى الفسوق والعصيان ، قد يُحسّ الرجفة والخوف عندما يسمع قصة قارون مثلا أو قصة صاحب الجنّتين ، وذلك لِمَا يجد من بعض وجوه الشّبّه بينه وبينهما . وقد يكون خوفه مدعاة لتوبته واستقامته ، ورجوعه إلى الجادة ، وتكوين عاطفة حبّ الخير والبرّ في نفسه ، وإيمانه بأن الترفّ ظاهرة سيئة ، تنمو معه جرائم العفن الخلقي ، ومفاسد الحياة .

(1) الطور : 6 - 7 .

(2) الباقلائي : اعجاز القرآن : 38 .

(3) السجدة : 12

(4) النسي : ج . 4 / 90 .

هذه بعض أمثلة لانعكاسات القصص القرآني وتأثيرها على النفس ، وإثارة نوع من الانفعال فيها . وهناك ناحية أخرى فيه تتمثل في تصويره للانفعالات النفسية بالتعبير أو بالحوار .

كما في خوف موسى من عصاه لما رآها تهتز كأنها جانّ ، فولّى مدبراً ولم يعقب . وقد سكن الله روعه فقال له : « يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ » (1) .

وكما في غضب موسى لما عاد من المناجاة ووجد بني إسرائيل عاكفين على عبادة العجل .

قَالَ : « بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ، أَعْجَلْتُمُ أَمْرَ رَبِّكُمْ ؟ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ » (2)

وفي غضب فرعون لما قال السحرة : « آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ » : قَالَ : أَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ . إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ، وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ » (3)

وقصص القرآن مليء بما يُذكي العواطف ويزكي النفوس ، ويذكر الإنسان بفقره وحاجته وضعفه وعجزه أمام عظمة الله

(1) النمل : 10 .

(2) الأعراف : 150 .

(3) الشعراء : 46 - 47 .

المحيط بكل شيء ، فيمتلئ قلبه بوجع الهيبة والجلال والخشية ،
سواء تذكر معصية يخشى عقابها ، أو طاعة يرجو ثوابها .

ومن هذه المشاعر تتولد العواطف الدينية بتكرار ما يحمل
هذا القصد من مبادئ أخلاقية ، وقيم روحية .

وقد أفردنا للتكرار فصلا خاصا في القسم النظري ، لمآله
من دور في إحياء الشعور ، وترسيخ العواطف الدينية التي لها تأثير
في الاعتقاد والسلوك وتكوين الشخصية

ومن عوامل تكوين هذه العاطفة :

الإيحاء :

فمن أهم الوسائل التي تحقق الصلّة بين أفراد المجتمع قابليّة
كلّ شخص للإيحاء عندما يكون مندمجا في المجتمع . وتفاوت
هذه القابليّة حسب الأشخاص ، وفي الشخص الواحد تبعاً لمستوى
نشاطه الذهني ، وحالته الانفعاليّة .

ومن مظاهر الإيحاء : القابليّة لسرعة التصديق ، والمشاركة
الوجدانية ، والمحاكاة (1)

« وكثيرا ما يظهر أثر الإيحاء بالمحاكاة في تكوين العواطف
الاجتماعية كالتدين والوطنية . فإن أمثال تلك العواطف إنّما تنشأ

(I) يوسف مراد : مبادئ علم النفس العام : 195 - 108

في أحضان المجتمعات حينما يشبّ الفرد ، فيجد قومه وقد سيطرت عليهم عاطفة دينية خاصّة ، فينساق في تيارهم ، ويدين بما يدينون به ، ويقلّدهم في كلّ مظهر من مظاهره ، ثمّ لا يلبث أن يؤدي به إبحاؤهم له ومحاكاته لهم ، إلى أن يصدر عنه مثل ذلك تحت تأثير عاطفة خادّة لا تقلّ صدقا ولا رقة عن عواطفهم » (1)

ويبدو أنّ ما تمنّاه بعض الناس من قوم قارون لما خرج عليهم في زبنته ، وقد بهرهم ما شاهدوا ، وفتنهم ما رأوا ، إنّما كان مبعث هذه الأمانى في نفوسهم التأثير الإيحائي . وهذا شأن عامّة الناس .

« فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا : يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ . إِنَّهُ لَكَدُورٌ حَظٌّ عَظِيمٌ » (2)

ولكنّ أهل العلم والتقى من قومه لم تغرّبهم هذه المظاهر الخادعة ، لأنّ لهم شخصياتهم المتماسكة بالعلم والإيمان . فلم يؤثر في نفوسهم هذا الإيحاء كما حكى ذلك عنهم القرآن : « وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ : وَيَلَيْكُمُ ! ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْتَقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ » (3)

(1) مصطفى فهمي : في علم النفس : 108 •

(2) القصص : 79 •

(3) القصص : 80 •

فالتأثير الإيجابي إذن سلاح ذو حدين . فقد يكون خيراً إذا كوّن العواطف الصالحة . وقد يكون شراً إذا كوّن العواطف السيئة .

وإيمان أهل الأديان برسالات الأنبياء بعد موتهم ، إنما حصل عن طريق الإيحاء أكثر من أيّ طريق آخر . وهو أمر يدعو إلى العجب من قوة تأثير هذا العامل العاطفي وشدة نفاذه . حتى أنه ليحمل الأفراد على الإيمان بصُحف مكتوبة ، لأنّ المجتمع آمن بها .

رُوي أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال يوماً لأصحابه : « أيّ المؤمنين أعجب إليكم ؟ قالوا : الملائكة . قال : وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربّهم ؟ قالوا : فالأنبياء . قال : وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ؟ قالوا : فنحن ! قال : وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماننا قوم يجيئون بعدكم يجدون صحُفاً يؤمنون بما فيها » (3)

وها هم قوم يونس كذبوا رسولهم في تضامن ، ثم آمنوا بالله في تضامن أيضاً لما رأى بعضهم علامات العذاب تُنذر بشرّ قريب فكان للإيحاء دوره في الحالين .

« فَلَسَوْلا كَانَتْ قَرِيْبَةً آمَنْتَ فَتَفَعَّلَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ » (4)

(1) رواه البخارى :

(2) يونس : 98 .

وما تأثير الوراثة والتقليد إلاّ ضرب من الإيحاء . ولذلك
 قال نوح عليه السلام في دعائه على قومه :
 « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا » (1)

كما أنّ من أهمّ العوامل في تكوين عاطفة حول موضوع
 ذي صلة بموضوع آخر سبق أن تكوّنت لدى الشخص عاطفة
 مماثلة نحوه (2) :

الاقتران :

وهو من قوانين التّداعي لوجود حالتين نفسيّتين معا في الشعور
 تُذكر إحداهما بالأخرى . فرؤية الدّار تُذكر بمن فيها . ورؤيا
 الغيوم تُذكر بالمطر . والنفوس من الحرب وبغض ماأسبها يتولّد
 عنهما عاطفة الميل إلى السّلم ، وحبّ الخير للنّاس جميعا

ونجد في القصص القرآني من المؤثّرات النفسية هذا الاقتران .
 فقد جعل القرآن من وسائل العظمة والاعتبار مشاهدة
 آثار المُبطلين الذين كفروا ، فأخذهم الله بذنوبهم .

فإنّ رؤية هذه المساكن وهي خاوية على عروشها تُذكر
 بمن كانوا فيها ، وتذكر بالله الذي أبادهم رغم ما كانت لهم

(1) نوح : 28 - 29 .

(2) في علم النفس : 109 .

من قوّة و صوّلته . وقد كانت ديار عاد و ثمود و لوط من الأماكن التي تمرّ بها قوافل التجار من مكة . ولذلك نعى عليهم القرآن غفلتهم حين قال :

« أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ : ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاكْفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ . إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ » (1)

يقول علماء النفس : إنّ الترابط - وهو ربط شيء بآخر - هو الطريقة الوحيدة لتذكّر أيّ شيء مهما كان . والتذكّر سبيلٌ لتحريك العقل . وإذا تحرك العقل بالنظر أو القياس أو الاستقراء ، فقد يتحرك القلب بالإيمان ، والوجدان باليقين .

قال تعالى « وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنْ الْقُرَى ، وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » (2)

ثمّ إنّ عقولنا تعتمد على الرؤية كثيرا ، لأن انطباعات النظر تثبت . فنحن نستطيع في معظم الأحيان أن نتذكّر وجه الشخص عند عجزنا عن تذكّر اسمه . إنّ الأعصاب التي توصل بين العين والمخ أكبر من تلك التي توصل بين الأذن والمخ . ولدى الصينيين مثل مأثور : « إنّ رؤية الشيء مرّة ، خيرٌ من سماعه ألف مرّة » (3)

(1) غافر : 21 - 22 •

(2) الأحقاف : 27 •

(3) التأثير في الجماهير عن طريق الخطابة (ت) عزت صالح ورفيقه : 64 •

وفي قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَّ رَبُّكَ بِعَادٍ » (1) خطابٌ للرسول صلى الله عليه وسلم ولكل من يحصل له التأثير والاعتبار بالرؤية لتلك المدينة ومعالمها الباقية . والاستفهام في الآية يثير اليقظة والانتباه .

فلاحظ حينئذ أن قصص القرآن يثير انفعال الرهبة أو الخوف ، أو العجب ، أو الاعجاب ، أو الاستياء ، أو نحو ذلك بطرق شتى من المثيرات والمنبهات ، ويعمل على تحويل تلك الانفعالات العابرة إلى عواطف ثابتة بواسطة التكرار والإيحاء والاقتران وغيرها من الوسائل التعليمية التربوية الناجعة التي ظهر أثرها في الرسول صلى الله عليه وسلم . فإن اصفرار وجهه الكريم كلما رأى سحابا ، وخوفه الشديد الذي يجعله يذرع المكان غاديا رائحا ، دليل على استجابته كليًا لمّا ورد في قصة قوم عاد الذي خرجوا فرحين لمّا شاموا سحابا ، فقالوا : « هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا » (2) فكان ما استعجلوه : « رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ » ، تُدمرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا » (3)

وهكذا فإن القرآن وقصصه بالخصوص تحولٌ بمحمد صلى الله عليه وسلم إلى تجربة حياة تتجسّم في عمل ، وتمثّل في شعور وإذا نحن بحثنا في مدى تأثير القصص القرآني عاطفيًا لمسنا صدى ذلك في القصص الإسلامي قديمه وحديثه من خلال

(1) الفجر : 6 .

(2) الأحقاف : 23 .

(3) الأحقاف : 24 .

الظواهر التي يستبين فيها الإيمان بالقضاء والقدر ، والاستسلام إلى سلطان القوة الأزليّة ، والاتجاه إلى تطبيق قاعدة القصص في الدنيا ، والاعتقاد في عدالة السماء (1) . ومن ذلك مثلاً ما نجده في بعض القصص العربي : أن كلّ مظلوم متصّف من ظالمه ، وكلّ شرير مخفق ، صائر إلى بوار . لأنّ للخير جزاء الخير ، وللشرّ عاقبة الشر . ومن وراء الغيب قوة قاهرة تنتقم ، وعين ساهرة تثار ، والشواب والعقاب في هذه الحياة الدنيا كلاهما يأتي معجلاً . وهو صدقٌ لمّا نجده في كثير من القصص القرآني .

الاقناع

يؤلف قصص القرآن على اختلاف أنواعه ومقاصده وحدة في العقيدة قوامها : تجربة شعورية دينية يطمئن إليها الفكر . وهي حقيقة سيكولوجية لا بدّ من اعتبارها في نظرنا إلى هذا القصص ، حتى الذي اقترنت وقائعه بخوارق أو أشياء غيبية غير مألوفة : كما حضار عرش بلقيس في قصة سليمان . (النمل : 38 - 42) ، وإحياء الميت في قصة بقرة بني إسرائيل . (البقرة : 71 - 73) ، وكآية البعث في قصة إبراهيم . (البقرة : 260)

فإذا فُحصت هذه الوقائع وأمثالها بعين تنظر إلى الوجود نظرة شاملة ، فإنّها تكشف عن إرادة تجري على سنن تشير العقل للنظر ، لا ليبحث عن المؤثرات الطبيعية للأشياء في عالم الغيب ، فإن ذلك يتجاوزه ، ولكن ليبحث فيما وراء تلك الوقائع ، وما تدلّ

(I) محمود تيمور : دراسات في القصة والمسرح : 84 - 85 .

عليه ، ومآلها من انعكاسات في النفس على طريقة التنبيه والإيقاظ لمواجهة موضوع الفكر والإيمان ، قصد التوصل إلى إدراك الحقائق التي يعرضها القرآن على الفكر الإنساني الطبيعي المتحرر ، لا الفكر المقيّد بالقوالب النظرية المصطنعة ، والقضايا الفلسفية الموضوعية (1)

فالأسلوب المنطقي الذي نراه جافاً مجرداً عند المتكلمين والفلاسفة يمتزج في القرآن الكريم بالأسلوب العاطفي المثير ، دون أن يكون ذلك على حساب أدلته وبراهينه . فهو يخاطب الإنسان ويثيره عن طريق قضايا ومشكلاته ، ليحرك تطلّعه إلى معرفة الحقيقة ذات الصلة بحياته الحاضرة ، ومصيره البعيد . وهو يدعو إلى النظر في الكون لاستنباط سننه ، وللاهتمام إلى الإيمان بخالقه . وكلّ هذه الدعوات موجّهة إلى قواه العاقلة ، ليكون إيمانه عن تأمّل وتدبّر ، لا عن تقليدٍ لمّا وجد عليه آباءه ، من غير نظر ولا تمحيص .

وقد يقال إذا كان في القصص القرآني ما هو فوق العقل ، فكيف يفهم بدون عقل ؟

يقول فتحي رضوان : « إنني لو خيّر بين ديني وعقلي لآثرتُ عقلي . لأنني قد أصبح به متديّناً . لكنني لو فقدته فسأفقد ديني معه . لأنّ الدين أسقط الخطاب عن المجانين » (2)

(1) انظر : تاريخ الفلسفة في الاسلام : 68 - 70 .

(2) الفكر الاسلامي والتطور : 12 .

والحقّ أنّ القرآن إذ يقدّم في قصصه للعقل شواهد الألوهية الخالقة ، وأدلة القدرة المطلقة ، فليس لتعجيزه وتعطيله ، بل لإثارة ملاحظته حتى لا ينظر إليها بعين غيره . فإنّ الملاحظة التأملية تنشيء الفكرة ، والفكرة تهيب التجربة ، وتقود من الأثر إلى المؤثر ، ومن التدبير إلى المدبّر . فهو لم يخضع في إقناع العقل إلى قواعد علمية مقررة جامدة كمنطق أرسطو .

أمّا ما جاء فيه موافقا لبعض أقيسة المنطق في المحاجة ، كالذي استخلصه الغزالي في (القسطاس المستقيم) فليس دليلا على أنّ القرآن يخضع في حججه إلى القواعد التي اصطلح على وضعها علماء المنطق ، لأنه غير مطّرد . فهو شبيه بما قد يقال : إنّ في القرآن شعرا ، لوجود ما يصلح ان يكون بيتا من الشعر أو نصف بيت في أوزانه وتفعيلاته .

ووجهة الغزالي في ذلك أنّ مُعطيات الحسّ والتجربة والتواتر يمكنها أن تتحوّل وتصبح معارف ضرورية ومقدمات صالحة للاستعمال في البراهين . ويتحقّق ذلك بفضل نشاط عقل الإنسان وتفكيره ، لاستخراج الأصول الضرورية وتأليفها تأليفاً تتوفر فيه شروط البرهان (1)

ولتطبيق هذا الرأي وّضع بعض حجج القرآن في أقيسه منطقيّة . ومن ذلك ما ورد في معرض التنديد بمنكّرات أهل الكتاب وادعاءاتهم الباطلة : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ » .

(I) القسطاس المستقيم : 17 - 18

قُلْ : فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ؟ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ « (1)

وذلك أنهم ادّعوا أنهم أبناء الله . فعلم الله تعالى نبيه محمداً عليه السلام إظهارَ خطئهم بالقسطاس المستقيم . فقال : « قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ؟ » .

(وكمآلُ صورة هذا الميزان : أن البين لا يعذبون . وأنتم معذبون . فإذا لستم أبناء . فهما أصلان

أما أنّ البين لا يعذبون ، فيُعرف بالتجربة ، وأما أنتم معذبون ، فيعرف بالمشاهدة . ويلزم منها ضرورة نفي البتوة) (2)

وإخضاع بعض حجج القرآن إلى مثل هذه الموازين لا يخلو من تعسف ، لأنّ أكثر الأدلّة التي يقيمها جليّةٌ تسبق إلى الأفهام من أوّل النظر ، بحيث يدركها كلّ الناس . فهو ينظم المسلّمات البديهية ، ويرتبها ، ليتوصّل منها إلى تقرير الحقيقة التي تُفحم الخصم ، وتوضّح معالم الحقّ ، بأسلوب يفيض بيانا وإشراقا . كما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام ، وهو يبيّن لقومه أنّ شأن الإله أن يضرّ وينفع . فإذا لم يدفع عن نفسه الضّرّ والأذى ، فهو أبعد من أن يدفع ذلك عن غيره . فهو إذن لا يستحقّ عبادة ولا تقديسا .

(I) المائة : 20 •

(2) القسطاس المستقيم : 56 - 57 •

قَالَ : « أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ؟ أُوْفٌ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ » (1)

يقول إقبال : « ظل الغزالي على الجملة تلميذا لأرسطو في المنطق ، ووضع في كتابه "القسطاس" بعض حجج القرآن في أقيسة منطقية أرسطائية . وفاته أن في سورة الشعراء قضية تقرر أن العقاب عاقبة المكذبين للأنبياء ، وأن هذه القضية قامت على أساس السرد البسيط لأمثلة من أخبار الأولين » (2) .

وقصص القرآن مزيج من العقيدة والمعرفة ، ومن العاطفة والفكر ، والحق والجمال . فهو لم ينس حظ العقل من حكمة وعبرة ، ولاحظ القلب من ترقيق وتحذير . كل ذلك ليجعل بذور العقيدة التي يدعو إليها ضاربة في أعماق النفس ، لأن هدفه الأول أن يصنع رجالا ، لا أن يُلقي مواعظ ، وأن يصوغ ضمائر ، لا أن يسرد وقائع ، وأن يبني أمة ، لا أن يُقيم فلسفة (3) . وقد بينا هذه الحقيقة في مقدمة الفصل الخامس من قسم البحث النظري .

لذلك فإن القرآن لا يستحسن الكليات المجردة ، بل يعنى دائما بالمشخص المعين الذي لم تضعه الفلسفة موضع الاعتبار إلا حديثا بعد ظهور النظرية النسبية (4)

(1) الأنبياء : 66 .

(2) تجديد التفكير الديني ٠٠٠ 147 .

(3) محمد الغزالي : نظرات في القرآن 157 .

(4) تجديد التفكير الديني ٠٠٠ 94 .

فهو يربط الأحداث بالسّنن ، ليجعل إدراك الأمور بالاعتماد على أصول قارّة ، حتى ليتسنى للذهن في كثير من الأحيان أن يغتبط بما ينجرّ عن تلك الاحداث من هزيمة أو انتصار ، وعقاب أو ثواب ، ونقمة أو عناية إلهية ، لأنه كان نتيجة حتمية لحوادث مماثلة : كما في قصص قارون وفرعون .

قال تعالى : « كَذَّبَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ » (1)

كما هو يربط الصلّة بين الوجدان عن طريق الإحساس والشعور الباطني والذوق الجمالي ، وبين الفكر عن طريق الحواس .

وكثيرا ما يتخذ مادته وبرهانه من مشاهد الكون ، كما في قصة إبراهيم وهو يبحث عن الله في ملكوته (2) . فإن فيها امتزاجا بين الإحساس والمشاهدة ، وانتقلا منطقيا من أفول الكواكب إلى حاجتها إلى خالق يبدّل ولا يتبدّل ، ويقدر لها هذه السنّة التي تخضع لها ، وهي الأفول .

وكما في قصة موسى وهو يحاور فرعون في آيات الله في الكون على سبيل الاستدلال العقلي الحرّ بأنّ الذي أمر بالدعوة إليه إنّما هو خالق تلك الآيات (3) .

(1) الانفال : 55 .

(2) الانعام : 75 - 79 .

(3) طه : 49 - 56 .

وكما في قصة نوح وهو يدعو قومه إلى التأمل في عالم الأرض
والسما ، وما فيهما من آيات القدرة المبدعة (1)

إنّ العقيدة الدينيّة إذا استقرّت ورسخت في الوجدان تصبح
في يوم ما غنيّة عن المدد الفكري بقدر ما تحتاج إلى المدد
العاطفي . ذلك أنّ التحوّل عن الدين لا يسير بسرعة التقدّم
العلمي (2)

والآراء العلمية تغزو - أوّل ما تغزو - عقل المرء ، ولا
تتغلغل في كيانه الانفعالي إلاّ بعد وقت طويل .

فقد يحدث أنّ مثقفا يقتنع بنظرية فلسفية أو علمية تصادم
عقيدته ، فيدين بهذه النظرية ، ويبقى مع ذلك على إيمانه بما
يعتقد . وقد يقبل هذا التناقض حتى تصبح النظرية الجديدة
يقينا : ، وحينئذ ينبذ كل عقيدة تُناقضها .

ويدلّ تاريخ الفكر الإنساني على أنّ التحرّر من الدين
لم يكن يأتي مع التحرر الفكري ، بل في أعقابه . وما ذلك
إلاّ لأنّ الشّعور الديني متغلغل في حياة المتدين ، وجذوره متشبّثة
بأعماق نفسه (3)

وإذا لم يوجد في قصص القرآن ما يصادم الحقائق المنطقيّة
المسلّم بها ، فلاّنه لم يبنّ أحكامه واستنتاجاته على آراء فلسفيّة ،

(1) نوح : 15 - 20 .

(2) تجديد التفكير الديني في الاسلام : 94 .

(3) انظر : تطور الشّعور الديني عند الطفل والمراهق : 300 .

أو نظريات علمية قد تتطور بتطور الزمان ، أو يكشف التقدم العلمي عن فسادها . فهو لم يُعرض لخاصة أهل العلم والفكر ، بل للناس كافة قصد هدايتهم . فكان لا بد أن يخاطب عقولهم جميعا على اختلاف مستوياتها . لذلك كان ينعى على كل مجتمع تسيطر عليه معتقدات تلقاها بالوراثة والتقليد عن غير علم ولا نظر ، ويرفض كل ما يبرر التمسك بتلك المعتقدات :

« سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ . كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا . قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ؟ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ » (1)

يقول علماء الاجتماع : لا يكون التفكير منطقيا إلا إذا كان اجتماعيا . ولكن علماء النفس قلبوا نظريتهم ، فقالوا : لا تكون الحياة الاجتماعية سليمة كاملة إلا إذا استندت إلى التفكير المنطقي . وقد أيدت التجربة صحة نظريتهم التي سبق أن قررها القرآن بمثل قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ . قَالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا . أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ » (2)

(1) الانعام : 148

(2) البقرة : 169

ومع هذا فلا ينبغي أن يتجاهل أحد ما في القرآن من ضروب الاستدلال القائم على البحث عن العسل ، طبق قواعد الفكر الملزمة ، ومن التنبيه المستمر على النظر العقلي في الكون ، وعلى التدبّر في بناء العوالم ؛ ومن إشارات كونية ونفسية من شأنها أن توصل بالضرورة العقلية إلى الغاية منه . وهي إنشاء وجهة نظر عن الذات الإلهية وعن الإنسان والكون والحياة (1)

فإبراهيم عليه السلام يجادل (نمرود) الذي آتاه الله الملك فادّعى الربوبية ، وزعم أنه يُحيي بالعبث من حَكَم عليه بالقتل ، ويُميت من شاء قتله . وفي ذلك تلبيس على العامة ، لأنهم لا يدركون معنى الإحياء الذي نسبه إبراهيم إلى الله وحده ، وهو : إنشاء الحياة في جميع العوالم الحية من نبات وحيوان وإنسان ، ولا معنى الإمامة التي يختص بها الله ، وهي : قطع مدد الحياة عنها .

والعقل وإن أدرك مظاهر الحياة والموت في الأحياء والأموات ، فهو عاجز عن إدراك حقيقة الحياة والموت .

لذلك حاجه إبراهيم بوجه آخر في سنة كونية ظاهرة يشترك كل الناس في فهمها . وهي أن يصير طلوع الشمس من المغرب ، إن كان رباً كما يزعم .

وكان هو وأهل مملكته اشتهروا بالتنجيم . وحركة الكواكب من المغرب إلى المشرق معلومة لديهم (2) فتحداه بالواقع الذي

(1) تاريخ الفلسفة في الاسلام : 69 .

(2) النسفي . ج : 1 / 130 .

لا يقبل الجدال ، فأدركته الحيرة من نصوص الحجّة وسطوعها ، ولم يستطع أن يقول مثلاً : فليأت ربك بالشمس من المغرب ، لأنّه كان يدّعي الربوبية لنفسه ، ولا يعترف بها لغيره

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ . إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ . قَالَ : أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ . قَالَ إِبْرَاهِيمُ : فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ ، فَأَنْتَ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ . فَسَبَّهَ الَّذِي كَفَرَ . وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ » (1)

وفي هذا دليل على بطلان رأي القائلين بدمّ الجدال والمناظرة في العقيدة الدينية إطلاقاً ، مستدلّين على ذلك بمثل قوله تعالى :

« وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » (2)

وهذه الآية إنّما تبيّن وجه الجدال المذموم مع المعاند للحقّ الذي يكابر في الحجّة بعد ظهورها ، كهؤلاء الذين أشارت إليهم الآية .

ومثلهم أولئك الذين يستعملون في الجدال طرقاً ملتوية قصد المغالطة وتبرير أعمالهم بكل الوسائل ، كأهل الوثنيّة

(1) البقرة : 257

(2) الشورى : 14

« وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يُصُدُّونَ .
 وَقَالُوا : أَلِيهِتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ؟ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ،
 بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ . إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ،
 وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ » (1)

أما الجدل الذي يبين مسالك الحق ، وينير سبيل المعرفة ،
 وينتهي بالضال الذي لم يتلبس بإصرار أو تعصب أو عناد إلى الرشد ،
 فقد أمر به القرآن ، وحث عليه بمثل قوله تعالى :

« ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ،
 وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ
 عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » (2) .

فهذه الآية توجب الجدل ، وتعرف بأدابه من الرفق
 والبيان والتزام الحق ، والرجوع إلى ما أيدته الحجّة القاطعة .

وروي عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ لما أتى الله عليه وسلم قال :
 « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألستكم » (3) .

وحاجّ ابن عباس الخوارج بأمر من علي ، فما أنكر
 أحد من الصحابة الجدل في طلب الحق . فلا معنى لمن جاء
 بعدهم » (4) .

(1) الزحرف : 57 - 59 .

(2) النحل : 125 .

(3) رواه احمد .

(4) الاحكام في اصول الاحكام : ج : I / 27 .

قال السيوطي : « اشتمل القرآن العظيم على جميع أنواع البراهين والأدلة ، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير تُبنى من كليّات المعلومات العقلية والسمعية إلاّ وكتاب الله قد نطق به ، لكن أوردته على عادة العرب دون دقائق طُرق المتكلّمين ، وذلك لأمرين :

أحدهما بسبب ما قاله « وما أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » .

والثاني أن الذي يميل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجّة بالجميل من الكلام . فإنّ من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحطّ إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلاّ الأقلّون . فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجلى صورة ليفهم العامة من جليتها ما يقنعهم ، ويأزمهم الحجّة ، ويفهم الخواصّ من أنبائها ما يرابي على ما أدركه الخطباء » (1) .

وفي القرآن ما يدلّ على أنّه كان في بلاد العرب ميلّ مختلفة ، ولأصحابها شيء من التفكير فيما يتصل بالألوهية والبعث

فكان لا بدّ للقرآن من أن يقول كلمته الفاصلة فيما كانوا يختلفون فيه ، وأن يبيّن الحقّ فيما عليه النّاس من اعتقادات ، وأن يجادل المخالفين فيما أراد أن يقرّر من اعتقادات جديدة (2)

(1) الاتقان في علوم القرآن : ج : 2 / 135 .

(2) محمد يوسف موسى : القرآن والفلسفة : II .

فمنهم من كان لا يرى علّة لوجود العالم سوى الطبع المُحييي والدهر المُفني ويسمّيهما الشهرستاني (معطّلة العرب) ، إذ أنكرت عقولهم الخالقَ والبعثَ ، فكأنّهم عطّلوها ، ولم يتفتّحوا بها (1) وهم الذين يحكي عنهم القرآن :

« وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ، وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » (2)

ومنهم من آمن بالله وأنكر الرسالة والبعث

أخرج الحاكم وصحّحه عن ابن عباس قال :

« جاء العاص بن وائل إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعظم حائل ففتته ، وقال ساخرا : يا محمد أيبعث هذا بعد ما أريم ؟ قال : نعم ! يبعث الله هذا ، ثمّ يُميتك ثمّ يُحييك ، ثمّ يُدخلك نار جهنم ، فنزلت الآيات » (3)

« أَوْلَسَمَ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ . قَالَ : مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » (4)

(1) انظر : الملل والنحل : للشهرستاني . ج : 2 / 432 .

(2) الجاثية : 24 .

(3) لباب النقول في اسباب النزول : 187 .

(4) يس : 77 - 79 .

لذلك تناول القرآن في عدة قصص التدليل على ما سيكون بعد الموت من بعث وحساب : كقصة إحياء قتيل بني إسرائيل (البقرة : 71 - 72) ، وقصة الرجل الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها (البقرة : 258) ، وقصة أهل الكهف (الكهف : 9 - 26) .

فكان في عرض مثل هذه الوقائع العجيبة دليل على قدرة الله على البعث

ومن الأدلة التي استعملها القرآن في هذه القضية قياس الغائب على الشاهد بأمثلة حسنة في نشأة الإنسان الأولى ، وفي الطبيعة ، كما في قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرِّ فِيهِ الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ . وَمِنكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّى ، وَمِنكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا . وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ، فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِيَانٍ لِّلَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَيَّ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ » (1)

(I) الحج : 5 .

ومن أوضح الأدلة العقلية في قصص القرآن على وجود الله وقدرته على الفعل ما أبقاه الله من آثار عقوبات أهل الشرك وآثار ديارهم ، وما أبقاه من نصر أهل التوحيد وإعزازهم ، وجعل العاقبة لهم .

فقال في قوم لوط : « إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ . وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » (1) .

وقال فيهم وفي آثار قريتهم لمكذّبي محمد صلى الله عليه وسلم :

« وَإِنكُم لَتَمُوتُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْنِعِينَ وَبِاللَّيْلِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ » (2)

واعتبارُ الفكر بمثل ذلك ، يتقله من الدليل إلى المدلول ، ومن الملزوم إلى لازمه . ومن أقرّ بوجود الله وآمن بصفاته وأفعاله ، واطمأنّ إلى عدالته في الأرض . أيقن أنه لا يسدع المفتريين عليه دون أن يأخذهم بذنوبهم في الدنيا ، لأنه يعلم كيف يتقولون عليه . أفلا تراه كيف يُخبر أن كماله يأبى أن يتركهم وشأنهم ، بل لا بدّ أن يجعلهم عبرة لعباده كما جرت بذلك سنته .

فهو يقول لمن اتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكذب على الله :

(1) العنكبوت : 34 - 35 .

(2) الصافات : 137 - 138 .

« وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ،
 ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ، فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » (1)
 ولذلك كان جواب هود عليه السلام لقومه لما قالوا له :
 « يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ » (2)

« قَال : إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ
 مِنْ دُونِهِ . فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ . إِنِّي
 تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ . مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ
 بِنَاصِيَتِهَا . إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (3)

فكانت بيئته من أوضح البيئات ، لأنه أشهد الله على صدقه ،
 وعلى براءته من دينهم وآلهتهم . ثم قرّر دعوته أحسن
 تقرير ، وبين أن ربه وربهم الذي نواصيهم بيده هو وليه
 القائم بنصره وتأيدته ، وأنه سبحانه على صراط مستقيم ،
 فلا يخذل من آمن به وتوكل عليه ، ولا يئس أعداءه به ،
 ولا يكون معهم عليه » (4) .

ومن الأدلة العقلية القياس الواضح بالمثال ، كما في قوله تعالى :

« إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ،
 ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (5)

(1) الحاقة : 44 - 45

(2) هود : 53

(3) هود : 54 - 55

(4) مدارج السالكين . ج : 300/3

(5) آل عمران : 59

فقد ساق القرآن هذا المشكل للذين أنكروا أن يكون عيسى بشرا ، معللين ذلك بأن خلقه لم يكن وفق السنن الطبيعية
ويذكر الطَّبْرِي أن رهطا من أهل نجران قدموا على النبيء
صلّى الله عليه وسلّم . فقالوا له :

« مالِكَ تذكّر صاحبنا ؟ فقال : من هو ؟ قالوا : هو الله ، نزل
من مُلكه فدخل في جوف مريم ، ثمّ خرج منها فأرانا قدرته
وأمره . فهل رأيتَ قط إنسانا خلق من غير أب ؟ . » (1)

ولو كان لهؤلاء دليل عقلي على استحالة ذلك عند الله لكانوا
معدورين ، ولكن لا دليل لهم إلاّ أن هذا غير معتاد . وهم
دوما يرون من شؤون الطبيعة والكون ما لم يكن معتادا . وكلّ
ما لا يعرفون له سببا يعبّرون عنه بفلتات الطبيعة ، في حين أن
الأسباب الظاهرة المعروفة ليست واجبة وجوبا عقليا مطّردا .

لذلك لا يجوز أن ننكر وقوع ما لم يُعرف له سبب ظاهر
لاحتمال ان يكون له سبب آخر خفي لم يقف الإنسان عليه .
وأىّ دليل إيجابي يعتمدّه هؤلاء في تأليه عيسى سوى أنّه
ليس له أب ، ولكن له أمّ . فهل لله أمّ ؟

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ
مَرْيَمَ . وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي
وَرَبَّكُمْ . إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ

وَمَا أَوَاهُ النَّارُ . وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ . وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌُ وَاحِدٌ . وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ ؟ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ . انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ، ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ » (1) .

فقد أقامت هذه الآيات دليلين على بطلان ما يزعمونه من تأليه عيسى عليه السلام ، وهم أنفسهم مختلفون في فكرة حلول الله في جسد المسيح ، وفي نظرية اللاهوت والناسوت اختلافاً أدى بهم زماً طويلاً إلى التقاتل . وبطلان عقيدة التثليث والأقانيم الثلاثة وما فيها من غموض وتعقيد (2)

فالدليل الأول يعتمد على حقيقة نقلها القرآن من التاريخ وهي : أن عيسى كان يدعو بني إسرائيل إلى عبادة الله ربّه وربّهم ، ويحدّثهم من الإشراف به .

والدليل الثاني أن عيسى وأمه كانا يأكلان الطعام . والأكل من خصائص الإنسان والحيوان فبطل أن يكون إليها .

فأين سهولة العقيدة التي دعا إليها القرآن وقصصه من غموض سائر العقائد الأخرى ؟

(1) المائة : 74 - 77

(2) انظر : الجانب الالهي من التفكير الاسلامي : لمحمد البهي : 99 - 100 .

يقول لوبون (Le Bon) : « لا شيء أكثر وضوحاً وأقل غموضاً من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد ، وبمساواة جميع الناس أمام الله . والإسلام من أكثر الأديان ملاءمة للعقل والعلم . وإنك إذا اجتمعت بأيّ مسلم رأيتَه يعرف ماذا يجب عليه أن يعتقد ، على عكس النصرانيّ الذي لا يستطيع حديثاً عن الاستحالة والتثليث وما شابههما من الغوامض إلاّ أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل » (1)

وهكذا كان القصص القرآني يدفع إلى التفكير بما جاء فيه من قضايا ، وجاء به من حلول لمشاكل الألوهية والنبوة والقدر والبعث والإنسان . فهدى إلى المعرفة التي يؤمن بها القلب قبل العقل ، لأنّ العقل قد لا يصل إليها وحده .

الإبداع الفنيّ

إذا كانت معالم الأصالة الفنيّة تبرز في القصّة على قدر ما تتضح الفكرة الأساسيّة لها ، وعلى قدر اتصالها بالإنسان في جوهره وحقيقته بأسلوب جذاب ، وصيغ للتعبير موحية في طرافة وإمتاع وصدق ، فإنّ إبداع الفنّ في القصّة القرآنيّة - على إيجازها - يبدو جلياً في وحدة موضوعها وطريقة عرضها للأحداث في مشاهد حيّة ، وأسلوب إدارتها للحوار بما يصوّر المعاني الذهنيّة ، وينمّ عن الحالات النفسيّة ، وحسن اختيارها للموقف المثير لتوجيه القلب للعبرة .

(I) حضارة العرب : 158 - 159 .

وليست وظيفة الفن إلا أن يخاق شيئاً حياً نابضاً يؤثر في النفس والفكر .

يقول سيد قطب : « إن التعبير القرآني يتناول القصة بريشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرضها فتستحيل القصة حادثاً يقع ، ومشهداً يجري ، لا قصة تُروى ، ولا حادثاً قد مضى » (1) .

فلم يكن الإبداع في القصص القرآني حاصلًا من ناحية اللفظ والمعنى فقط ، ولكن في منهجه الفريد ونظمه الوحيد الذي لو حاول أحد تقليده لبدا كلامه مقتضباً مضطرباً لا يستقيم مع أسلوب الكتابة . وإلا فكيف يمكن للأداء البشري أن يعبر على طريقة الأداء القرآني في استحضار المشاهد ، والتعبير الموجه ، وكأنّ المشهد حاضر ، (2) كما في مثل هذا الموضع من سورة يونس :

« وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا ، حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ . قَالَ : آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » وإلى هنا هي قصة تُحكى .

ثمّ يعقبها مباشرة خطاب موجه في مشهد حاضر :
« الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً »

(1) التصوير الفني في القرآن : 156 .

(2) في ظلال القرآن : ج : II / 154 .

ثم يعود الأداء للتعقيب على المشهد الحاضر :

« وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ » (1) .

وليس الكشف عما تضمنته من تشابه ومجازات ، واستعارات وكنایات بكاف وحده لإبراز مواطن الجمال فيه . إذ ليست قيمة الاثر الفني في جماله الشكلي ، بل وفي سحره البياني ، وتأثيره النفسي ، وبما يحمل من قيم روحية ، واتجاهات جديدة في الحياة .

والدين والفن كلاهما يضيء من مشكاة واحدة ، هي ذلك القبس العلوي الذي يملأ القلب سكينه وصفاء وإيماناً .

وليس مصدر الجمال في الفن إلا ذلك الشعور بالسمو الذي يغمر نفس الإنسان عند اتصاله بالأثر الفني . ومن أجل ذلك كان لا بد للفن أن يكون مثل الدين قائماً على قواعد الأخلاق (2)

وأما السحر البياني فإنه لا يؤثر إلا في من وقفوا على أسرار اللغة ودقائقها ، وأحاطوا بفنون القول فيها ، وأرهف الذوق حسهم .

لذلك جعل الله سماع المشركين من العرب إلى القرآن - وهم أهل الذوق البياني - حجة عليهم . فقال موجهها نبيه صلى الله عليه وسلم :

« وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ » (3) .

(1) يونس : 90 - 92 .

(2) توفيق الحكيم : فن الادب : 76 .

(3) التوبة : 6 .

ثم إن روعة القصة القرآنية ، لم تكن في جدة موضوعها . فقد تكون ذائعة عند العرب ، معروفة في أوساطهم : كقصة أصحاب الفيل ، ولكن روعتها في الأضواء التي سلطتها على وقائعها ، وفي الروح الجديدة التي اقتحمت بها القلوب ، وفي الآفاق الفسيحة التي فتحت عليها للمعرفة نوافذ .

ففي سورة الكهف تغلب العنصر القصصي ، إذ هو يمثل إحدى وسبعين آية من مائة وعشر : قصة أهل الكهف ، وقصة صاحب الجنتين ، وإشارة إلى قصة آدم وإبليس ، وقصة موسى والعبد الصالح ، وقصة ذي القرنين .

ومحور هذا القصص هو محور السورة كلها . وهو توضيح المنهج السليم للنظر والفكر ، على أساس أن وراء الحسّ عوالم غير منظورة ، وأن وراء الظواهر خفايا وأسراراً ، وليس الوجود مرتبطاً دائماً بمداركنا ، ولا بالقواعد التي استنبطناها من تجاربنا ومشاهداتنا . كما أن الحقيقة لا ترتبط بالقيم الزائلة من الأموال والبنين ، وإنما القيم الانسانية الصادقة ما ارتبط بميزان العقيدة . وكفى بهذا شعوراً باللامتناهي ، يُطلِّق للفكر وللخيال الحرية في مجالتهما المثمرة . وكلما تعمق إحساس الانسان في ملكوت الله وعظمته وخفي أسراره ازداد إيماناً بالله وبقدرته الباهرة .

وفي سورة مريم يستغرق القصص أيضاً نحو ثلثيها . فتحسّ الألفاظ فيها تليق تارة وتشتدّ أخرى ، وجرس الألفاظ والفواصل يختلف إيقاعه الموسيقي باختلاف الجو والموضوع .

وأكثر الفواصل في قصص هذه السورة تنتهي بياء ممدودة
رخيّة : (سويّا - حفيّا - نجيّا -) .

أمّا المواضع التي تقتضي الشدّة والعنف فتجيء فيها الفاصلة
مشدّدة : (مدّا - هدّا - أزا) (1)

إنّ الفاصلة القرآنيّة تردّ وهي تحمل شحنتين في آن واحد :
شحنة من الوقع الموسيقي ، وشحنة من المعنى المتمم للآية .
والمعنى هو الذي يتحكّم في نوع الفاصلة ، ثمّ يأتي النغم
الموسيقي متممًا للرّوعة التي يميّز بها أسلوب القرآن .

وبعض الدارسين تغيب عن أذهانهم العلاقة بين الآية القرآنية ونهايتها ،
فيتوهّمون أنّ الحديث في الآية حول فكرة ، وتأتي الفاصلة بفكرة
أخرى ، لأنهم لا يجدون ارتباطًا بين الأولى والثانية ، أو بين المقدّمة
والنتيجة . ولو تأمّلوا لوجدوا هذا الانسجام بين الفكرة التي
تحملها الآية ، والخاتمة التي تنتهي بالفاصلة .

اقرأ قوله تعالى مثلاً على لسان عيسى عليه السلام عندما
يسأله ربّه يوم القيامة .

« أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوا مِنِّي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ
اللَّهِ ؟ » (2) . فيُجيب فيما يجب : « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ .
وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (3)

(1) الباقلاني : اعجاز القرآن : 38 .

(2) انظر : في ظلال القرآن : ج : 16 / 25 .

(3) المائدة : 116 .

فقد تتساءل عندما تقرأ هذه الآية : لماذا لم تنته بقوله مثلا :
وان تغفر لهم فإنك أنت (الغفور) الرحيم . مع أن السياق يوحى
بالغفران ؟ ولكنك إن أمعنت النظر وجدت أن الذي استحق العذاب
لا يستطيع أن يغفر له إلا من كانت سلطته أعلى السلطات ، وقوته
أعظم القوى ، وعزته فوق كل عزة . ومن كان كذلك وجب
أن يكون متصفا بالحكمة التي يساندها العقل والمنطق السليم ،
وينأى عنها الحمق والتسرّع والظلم والتهور . وإذا جاءت الفاصلة
بالعزة مقترنة بالحكمة ، فلأن القادر على العقاب عزيز دائما .
ولكن ليس كل عزيز عادلا . فكس من ملوك وحكام ورؤساء ،
ومن بيدهم سلطان على الناس في هذه الدنيا ملكوا العزة ،
إلا أنهم فقدوا الحكمة التي يسندها العدل والعقل والسلوك
المستقيم ! أفلا تجد عندئذ أن ربط الحكمة بالعزة تعبير
رائع ، وتصوير جامع ، وبيان قاطع لخالق عزيز حكيم . ؟

والحق أنه ما انتهت آية إلا بفاصلة ملائمة كل الملائمة
لمعناها ، مستقرة في مكانها ، غير نافرة ولا قلقة ، ولكن
الأفهام قد تتضاءل عن إدراك سرها .

والعربي في عهد نزول القرآن كان له من الذوق المرهف ما
يدرك به مكانة الفاصلة وموقعها . وما تتركب منه ، بل وما ينبغي أن
تكون عليه . فقد روت الاخبار ان أعرابيا سمع قارئاً يتلو :

« فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاعَلِمُوا

أَنَّ اللَّهَ (غَفُورٌ رَّحِيمٌ) » (1) . فقال : إن كان هذا كلام الله فلا .

(1) البقرة : 209 .

إنّ الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلزل ، لأنّه إغراء عليه ،
وعاد القارئ لينظر ، فوجد الآية انتهت بقوله تعالى :
« فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ (عَزِيزٌ حَكِيمٌ) » (1) .

فالفاصلة القرآنية كالقافية الشعرية ، وتزيد على القافية
بشحنة المعنى ، ووفرة النغم ، وسعة الحركة الحرّة .

ولتأمل دقّة القرآن في استخدامه للألفاظ ، وحسن
اختيارها في مواقعها . فقد جاء على لسان السحرة الذين
آمنوا بموسى رغم ما أوعدهم به فرعون من عقاب شديد :
« رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا » (2) .

فإنّ ما يثيره لفظ "أفْرِغْ" وما يوحي به من لين ورفق
وطمأنينة يحسّها من هداً جسمه بما يُلقَى عليه . وهذه الرّاحة
تشبهها تلك الرّاحة النفسيّة التي ينالها من مُنِح الصّبر الجميل .
فإذا جاء إلى العذاب استخدم لفظ "صَبَّ" . فقال : « فَصَبَّ
عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوَاطِعَ عَذَابٍ » (3) وهي مؤذنة بالشدّة والقوّة معا .
وقد يجسّم القرآن المعنى ، ويهبّ للجُماد العقل والحياة ،
زيادة في تصوير المعنى وتمثيله للنفس .

ومن أروع التجسيم قوله تعالى :
« وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ » (4)

(1) بكرى شيخ امين : التعبير الفنى فى القرآن : 201 - 203 .

(2) الأعراف : 126 .

(3) الفجر : 14 .

(4) الأعراف : 154 .

ألاّ تحسّ الغضب هنا وكأنه كائن حيّ يدفع موسى إلى لانفعال والثورة ، ثمّ يسكت ويكفّ عن دفعه (1)

وهكذا فإنّ للألفاظ أطيافاً وظلالاً وأصداء في النفس ، كما أنّ لجرسها إيقاعاً في الأذن .

والكلمات في التعبير ، كالألوان في الرّسوم ، والأنغام في الموسيقى . وإن شئت فاقرأ ما ورد في القرآن من دعاء زكرياء وإيقاعه الغنائي ، ودعاء إبراهيم وأصوات ألفاظه المتقطّعة المتهدّجة ، ودعاء نوح المجلجل المديد . فهي كلها في سمّوها وحرارتها كأنها أناشيد السماء .

وإنّ اختلاف صيغ التعبير وأساليبه في القصص على الخصوص من إيجاز وإسهاب وإجمال وتفصيل ، ولين وعنف ، ليُفرض على الباحثين في وجوه الإبداع أن يعرفوا مقامات الكلام ، وما تمليه طبيعة الموقف وظروفه .

فهذه إشارات سريعة تُعرّض فيها قصّة فرعون وقومه لما أصروا على تكذيبهم لموسى .

« وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَتْنَا بِهَا ، فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ » (2) فيبتليهم الله بآيات من العذاب .

« وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا : يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ . لَئِن كَشَفْتَنَا عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ، وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ

(1) التعبير الفني في القرآن : 197 .

(2) الأعراف : 132 .

الرَّجَزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُشُونَ . فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ » (1) .

فالسباق يختصر في حادث الإغراق ، ولا يفصل خطواته ، كما فصلها في مواضع أخرى من السور ، لأن الجوّ هنا جوّ الأخذ الحاسم بعد الإمهال الطويل ، والانذار الشديد ، فلا داعي إذن للتفصيل . إنّ الحسم السريع هنا كحلول العذاب السريع ، أوقع في النفس ، وأرهب للحس .

وهذا القصص لشدة إيجازه وإحكامه ، تكاد كلماته تتحوّل رموزاً تنطوي كل كلمة منها على معان كثيرة . لذلك فإنّ الفهم الدقيق لإيحاءات القرآن وإشاراتّه تستدعي يقظة متواصلة في قراءته ، وفكراً واعياً لتدبر مراميّه ، وحساً مرهفاً لتذوّق معانيه . تأمّل هذه الآية وما للكلماتها من أبعاد ، وكيف كانت مصدراً لإيجاد كلّ هذه المعاني التي تحتملها !

« وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ : امْرَأَةٌ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا . إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » (2)

قال ابن قيمّ الجوزية : « هذا الكلام متضمن لوجوه من المكر أحدها : قولهنّ : امْرَأَةٌ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا » ولم يسمّوها باسمها ، بل ذكروها بالوصف الذي ينادى عليها

(1) الأعراف : 134 - 136 .

(2) يوسف : 30 .

بقبيح فعلها بكونها ذات بعل . فصدور الفاحشة من ذات الزوج أقبح من صدورها ممن لا زوج لها .

الثاني : أن زوجها عزيز مصر ، ورئيسها ، وكبيرها . وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها .

الثالث : أن الذي تراوده مملوك لا حر . وذلك أبلغ في القبح .

الرابع : أنه فتاها الذي تراوده هو في بيتها ، وتحت كنفها . فحكمه حكم أهل البيت ، بخلاف من تطلب ذلك من الأجنبي البعيد .

والخامس : أنها هي المرأودة الطالبة .

السادس : أنها قد بلغ بها عشقها له كل مبلغ ، حتى وصل حبها له إلى شغاف قلبها .

السابع : أن في ضمن هذا : أنه أعف منها وأبر وأوفى ، حيث كانت هي المرأودة الطالبة ، وهو الممتنع ، عفاها . كرما . حياء وهذا غاية الذم لها .

الثامن أنهم أنين بفعل المرأودة بصيغة المستقبل الدالة على الاستمرار الوقوع حالا واستقبالا ، وأن هذا شأنها ، ولم يقلن : راودت فتاها . وفرق بين قولك : فلان أكرم ضيفا وفلان يكرم الضيف ويطعم الطعام ، ويحمل الكل . فإن هذا يدل على أن هذا شأنه وعادته .

التاسع : قولهن "إنا لنراها في ضلال مبين" أي إنا لنستببح منها ذلك غاية الاستبباح . فنسبنا الاستبباح

إليها . ومن شأنهن مساعدة بعضهن بعضا على الهوى ، ولا يكدرن يرين ذلك قبيحا ، كما يساعد الرجال بعضهم بعضا على ذلك . فحيث استقبحن منها ذلك ، كان هذا دليلا على أنه من أقبح الأمور ، وأنه مما لا ينبغي أن تساعد عليه ، ولا يحسن معاونتها عليه .

العاشر : أتهن جمعن لها في هذا الكلام واللوم بين العشق المفرط ، والطلب المفرط . فلم تقتصد في حبها ، ولا في طلبها .

أمّا العشق فقولهن "قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا" أي وصل حبه إلى شغاف قلبها .

وأما الطلب المفرط فقولهن "تُرَاوِدُ فَتَاهَا" . والمرادة : الطلب مرة بعد مرة . فنسبوا إلى شدة العشق ، وشدة الحرص على الفاحشة

فلما سمعت بهذا المكر هيأت لهن مكرًا أبلغ منه ، لأنها قابلت مكرهن القوليّ بهذا المكر الفعليّ (1)

ومثل هذا في إيجازه المحكم ، وغزارة معانيه ، قوله تعالى على لسان شعيب ، وهو يدعو قومه إلى الله ، ويعرفهم بقدرته وحكمته وعدله :

«إِنَّ رَبِّيَ عَلَيَّ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» (2) .

فصراطه الذي هو سبحانه عليه ، ما يقتضيه حمده وكماله ومجابه من قول الحقّ وفعله...

(1) التفسير القيم : 314 - 315 .

(2) هود : 56 .

قال ابن قيّم : « وكونه سبحانه على صراط مستقيم يقتضي أنّه لا يقول إلاّ الحقّ ، ولا يأمر إلاّ بالعدل ، ولا يفعل إلاّ ما هو مصلحة ورحمة وحكمة وعدل . فهو على الحقّ في أقواله وأفعاله . فلا يقتضي على العبد بما يكون ظالماً له به ، ولا يأخذه بغير ذنبه ، ولا يفعل قطّ ما لا يُحمّد عليه ، ويثنى به عليه ، بل ما يكون له فيه العواقب الحميدة ، والغايات المطلوبة ، فإنّ كونه على صراط مستقيم ، يأبى ذلك كلّّه » (1)

فهذه المعاني كلّها تضمّنتها جملة واحدة .

ثمّ إنّ بلاغة الكلام ليست في تطبيق قواعد البلاغة المعروفة كجمال صياغة التعبير ، وحسن اختيار الألفاظ فقط ، فكم من كلام حسن السبك ، جميل التعبير ، فصيح اللفظ ، سليم من الاخطاء ، ولكنه لا يثير في نفوسنا شعوراً ، ولا يحرك عاطفة !

وإنّما البلاغة أن يبلّغ بها المتكلّم ما يريد إلى نفس السامع بإصابة موضع الإقناع من عقله ، والتأثير من وجدانه .

وبعبارة أوجز : ما نجد من أثر الكلام في نفوسنا . وقد سبق الجرجاني إلى تقرير هذه الحقيقة لمّا ربط بلاغة الكلام بتأثيره في النفس (2)

قال صلّى الله عليه وسلم : «إنّ من البيان لسحرا» (3)

لذلك عدّ علم البيان شعبة من علم النفس (4)

(1) اعلام الموقعين عن رب العالمين . ج : I / I62 .

(2) اسرار البلاغة : 98 .

(3) رواه أحمد وأصحاب السنن .

(4) المنار . ج : I / 292 .

وفي قوله تعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم :
« وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا » (1) تعبيرٌ مصورٌ ،
وكأنما القول يُودَع مباشرة في الأنفس ، ويستقر في القلوب

وأرى أن تأثير البلاغة في النفوس إنما هو تأثير الإبداع
الفنّي فيها ، وهو التأثير السيكولوجي ذاته . ومن طبيعة الفنّ
أنّه لا ينحصر في قواعد ، ولا يطّرد في أقيسة ، رغم ما قام به
أعلام البلاغة وأيمّة النّقد من محاولات التّأصيل والتّقنين والاستنباط .

فكم من روائع تجاوزت القواعد التي اصطَلحوا عليها ،
والضوابط التي وضعوها ! فكيف بفنّ الخالق الذي أبدع هذا
الكون ، وخلق الإنسان في أحسن تقويم ؟

فإخضاع كلامه لمقاييس الفنّ التي اصطَلح على وضعها البشر ضرب
من العنت ، لأنه سبحانه لا ينظر إلى الأشياء نظرة الإنسان ، ولا تقوُّده
العواطف ، فتدفعه إلى القول ، ولكنه ابتدع في هذا القرآن الحكيم منطقهُ ،
كما ابتدع فنّه ، وهو مع ذلك لم يخرج عن المدارك البشرية
فهما وذوقا ، وإنّ أعجزها الإتيان بمثله ، أو محاكاته .

وكذلك الطبيعة ، فهي وإن كانت من خلق الله وإبداعه ،
فإنّ الإعجاب بجمالها وبديع اتساقها يملأ قلوبنا .

فمعرفة مكانة القرآن من البلاغة لا يُحكمها من الوجهة
الفنّية والذوقية إلاّ من أوتي حظًا عظيمًا من مختار كلام البلغاء
نظما ونثرا ، حتى صار ملكة له وذوقا . وعندئذ يدرك معنى
قوله صلى الله عليه وسلم :

(1) النساء : 62 .

« فضل كلام الله على سائر الكلام ، كفضل الله على خلقه » (1) .

وإنما يدرك أسرار تأثير القرآن في الأمة العربية أولئك الذين كانوا حين أنزل الله القرآن عبدة البيان . وقد سمعنا بمن استخف بأوثانهم ، ولم نسمع قط بأحد منهم استخف ببيانهم (2)

وفي عرض هذا الموقف الرهيب لحادثة الطوفان التي تُعَدُّ من أعظم الأحداث في تاريخ الإنسانية ، والتي لم تُبق إلا على القليل من البشر ، وهم من آمن من ذرية نوح كما يشير القرآن :
« وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » (3) . مثل من أمثلة التصوير القرآني في القصة ، وإبراز الحقيقة النفسية الكامنة فيها .

« وهول هذه الفاجعة إنما يقاس بمداه في النفس بين الوالد والمولود ، كما يُقاس بمداه في الطبيعة ، والموج يطغى على الذرى بعد الوديان . إنهما لمتكافئان في الطبيعة الصامتة ، وفي نفس الإنسان . وتلك سمة بارزة في تصوير القرآن » (4) ، لأن الحياة في الفن ، كما هي تشخيص لما يقع في العالم الخارجي من أحداث ، هي في الآن نفسه تصوير لما يقع في العالم الداخلي من شعور نحو تلك الأحداث !...

«وهي تجرِّي بهم في موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه وكان في معزل : يا بني اركب معنا ، ولا

(1) رواه الدارمي في سننه .

(2) محمود شاكر : مقدمة الظاهرة القرآنية : 45 .

(3) الصافات : 77 .

(4) في ظلال القرآن . ج : 65/12 .

تَسْكُنُ مَعَ الْكَافِرِينَ . قَالَ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ . قَالَ : لَا عَصِيمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ . وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ » (1) .

إنّ المعاني الكثيرة التي أدتّهما هاتان الآيتان رغم قلّة الألفاظ فيهما جديرة بالنظر والاعتبار :

– فقد رَسَمَتْ صورة لسفينة تغالب لُجَجِج الأمواج وليس لها مرفأ تقصده . أو اتّجاه تريده ، واليابسة تغرق في الطوفان . والقرآن حين يشبّه محسوسا بمحسوس كتشبيهه للأمواج بالجبال في هذه الآية ، فإنّما يرمي إلى رسم الصورة كما تُحسّسها النفس . فهذه الجبال تصوّرها للعين هذه الأمواج الضخمة ، كما تُصوّر لنا ما يُحسّ ركاب هذه السفينة من فزع (2)

– وترجمت عن عاطفة الأبوة الرحيمة المتمثلة في إحساس نوح نحو فلذة كبده ، وحرصه الشديّد على إنقاذه من الكفر والغرق ، وهو أشدّ الناس إدراكا لحقيقة الهول .

– وأبانت عن موقف الابن العاق ، ونفسه المغرورة العنيدة ، واعتداده بقدرته على النجاة ، دون أن يردّه الرعب إلى الله ، فيخاف بطشه . لأنّه يعتقد الهلاك من الماء ، لا من الله . ويرى النجاة في الاعتصام بالجبل ، لا في الاعتصام برحمة الله .

(1) هود : 41 - 43 •

(2) التعبير الفني في القرآن : 192 •

— وأثارت السبيل إلى حقيقة يستخلصها كل من استوقفته العبرة ، وهي أن صلة القرابة والدم لا تُغني من الله شيئا .

فهى واهية بالنسبة لصلة العقيدة ، وقرابة الإيمان التي تربط بين القلوب . إنها العروة الوثقى بين الله والناس

وإذا نحن بحثنا عن عوامل التأثير الفنّي أو السيكولوجي في الآيتين لاحظنا أن الظاهرة الأولى فيهما هي الإتساق البديع بين الأحداث وصورها التعبيريّة .

فيما نتشخص مشهد السفينة وهي تجري بين أمواج كالجبال ، والطوفان يطغى فيغمر اليابسة ، إذا بنا نُمسك أنفاسنا لنُصغي إلى الحوار المؤثر بين أب تفجّرت في قلبه عاطفة الحنان . وابن لجّ به العناد ، فأصرّ على الباطل والضلال ؛ إذ يفاجئنا التعبير الخاطف بانقطاع الصوت لاقتحام الموج ، « وكأنّ حيلولة الموج بين الاثنين جاءت رحمةً بقلب نوح ، إذ حجبت بصره عن ذلك المصير الذي طالما تهيّبته » (1) .

وهنا تتجلّى قوة الله وعظمته بأخذه أمّة في سرعة مفرجة ، عبّرت عنها الآية الثانية بإيجاز محكم ، وتصوير للهول لا يقلّ عن الهول نفسه روعةً وسرعة :

« وقِيلَ : يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ، وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي !
وغيضَ الماءُ ، وقُضِيَ الأَمْرُ ، واستوتَ على الجُودِي . وقِيلَ :
بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » (2) .

(1) محمد المجدوب : قصص وعبر : 37 .

(2) هود : 43 .

ألم يكن في مخاطبة الأرض والسماء ما يُشعر بعظيم قدرته ،
وسرعة مُضيّ أمره ، ونفاذ تدييره ؟

يزيد التعبير روعة في الآية هذا التعاقب الزمني السريع
بلا مُهلة أو انقطاع لأفعال متتالية صيغت للمجهول ، حتى
لنخال أن الكون كلّهُ اصداء تردّد أمر الله لتتفيذ مشيئته العليا .
وهي ظاهرة في القرآن تكاد تطرد عند وصف العذاب ، وخاصة
أهوال القيامة ، كما في هذه الآية :

« فَإِذَا نَفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً ، وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ
وَالجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً » (1)

وتهدأ العاصفة ، ويخيم السكون ، ويتمشى الاستقرار كذلك
في الألفاظ ، وفي إيقاعها في الأذن والنفس . وتستيقظ في نفس
نوح لهفة الوالد المفجوع ، فينادي ربّه ، ويجري بينهما حواراً
تبرز منه هذه الحقيقة (2)

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ . فَقَالَ : رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنِ أَهْلِي ،
وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ

فكانت آيات الحوار حلقة ربطت بين الظواهر والبواطن ،
بين الحدّث ومؤثّراته بذلك الخيط النفسي الذي ضمّ شتات الخوطة ،
وجعل منها وحدة معنوية ، ومبدأ لا يتغيّر مع الزمان ، تمثّل
واضحاً في مثل قوله تعالى : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا

(1) الحاقة : I2 - I3 .

(2) انظر : في ظلال القرآن . ج 40/12 .

أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَا قُرْبَى مِنْ
بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . وَمَا كَانَ
اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ .
فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ » (1) .

وهكذا نلاحظ أن ما عُرض من قصة نوح في تلك المشاهد
كان تأثيره من ناحيتين :

ناحية الإبداع البياني الحاصل من طريقة القرآن في أداء
المعاني . وهي إبراز الحالات النفسية في صورة حسية ، لا مجرد
التعبير عنها في صورة تجريدية ؛ وتصوير المشاهد الطبيعية
بالتخييل الحسي المفعم بالحيوية والحركة ، لا مجرد وصفها بالألفاظ .

وناحية الشعور العام الصادر عن الإحساس . والاحساس البشري
فلما يختلف بين إنسان وإنسان ، كما يختلف الذوق . بحيث
لو نقلت معاني تلك الآيات إلى لغة أخرى بدقّة وإحكام لكان
لها تأثير في الشعور ، شعور الإنسان أيّاً كان .

ويجدر التنبيه هنا إلى أن عوامل التأثير في القصة القرآنية
تختلف من قصة إلى أخرى ، بل تختلف في القصة الواحدة التي
تكرّر عرضها في عدة سور ، وذلك لتجدد الأسلوب في الأداء
تجدداً يمدد المشاعر بنشاط لا يفتر .

فهذا عرض جديد لقصة نوح في سورة القمر . وقد سقت لإنذار المعرضين عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بما أصاب قوم نوح - أول المكذبين برسالات السماء - من نكال وعذاب .

وهي في هذه السورة الحلقة الأولى من خمس حلقات جسّمت كلها مصارع قوم نوح وعاد وئود ولوط وفرعون في جوّ مفزع رهيب .

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ، وَقَالُوا : مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ . فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ . فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَيَّ أَمْرًا قَدَرًا . وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِّرَ . تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا . وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ . فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنَذُرٍ ؟ » (1) .

وأخصّ ما يمتاز به أسلوب العرض هنا : الإيجاز البليغ ، والإيقاع الموسيقيّ السريع . ولاشكّ أنّ للرتنين الصوتي أثره القويّ في تصوير الحادثة ، شأن القصص الذي نزل في الفترة الأولى للدعوة . فقد كان يعتمد على الإيجاز والموسيقى اللفظية الأخاذة ، وإبراز الحوادث ليزلزل المشركين من موقف العناد .

وقد ذكر الله قصة نوح وما كان من قومه في عشر سور .

وهذا التكرار الذي نلاحظه للقصة الواحدة ، والذي تناولنا الحديث عنه في الفصل الثالث من قسم البحث النظري ، مقصود

في القرآن . لأنه ليس الغرض من عرض القصة القرآنية تعليم التاريخ منها ، بل بناء الأفكار والمشاعر عليها في شتى المناسبات ، وبمختلف الأساليب .

ولا شك أن ذكر جانب من القصة في سورة لم يُذكر في سورة أخرى أثناء عرضها لتلك القصة نفسها ، هو من سمات المنهج القرآني في القصة باقتصارها على موطن العبرة منها . واختلاف المناسبات التي تُعرض فيها يسمح بإعادة ذكرها أو ذكر حلقة منها بأسلوب يلائم تلك المناسبة . وهو ميدان فسيح للتصوير الفني والقياس التعبيري . وتفنن القرآن في المعاني باختلاف طرق أدائها وأساليب عرضها هو من آيات إعجازه البياني .

ورغم تكرار قصة نوح في القرآن نحو عشر مرات ، فإنها في جميعها ألغت ذكر تفاصيل وجزئيات قد تُحوّل الشعور إلى غير الاتجاه المقصود ، لأنه لم يتعلق غرض ديني بذكرها . ومن ذلك مثلاً : هل كان الطوفان عاماً أو خاصاً ؟ وماهيّة التنور الذي فار بإذن الله . ومن هم الذين أفلتتهم السفينة مع نوح ؟ وكم يوم بقوا فيها ؟ وأين هبطوا ؟ وكم بقي الماء غامراً للأرض ؟.

كما أنه لم يتحدث عن المُغرقين ولا عن مجهودهم ومحاولاتهم ، ولا عمّا لقوا من الألم في أنفسهم ، ولا عمّا أحسّوا من الندم ، لإعراضهم عن نوح ودعوته (1) .

(I) طه حسين : مرآة الاسلام : 168 .

فمثل هذه الأسئلة قد يُثيرها الفكر ، ولكن القرآن لم يُجِبَ على واحد منها ، لأنّ من شأنه الإعراض عن التفاصيل التاريخية التي تبعد بالذهن عن الهدف المرسوم ، وهو الاعتبار .

وكثيرا ما يترك بين مشاهد القصة "فجوات" كما يسميها "سيد قطب" ولا يصحّ أن نسميها "ثلمات" أو "ثغرات" كما يسميها "قولدتزيهر" لما تُوهِم هذه العبارة من خلل في بناء القصة القرآنية يجب تداركه ، أو نقص يجب إتمامه وهذه الفجوات ينفذ منها إلى ملكة التخيل شعاع من جمال الفنّ ، فيثيرها ويُفسح المجال للخيال ، كي ينطلق حراً فيتصوّر ما يشاء .

الفصل الرابع

نظرات في قصة يوسف

يذكر بعض المفسرين أن اليهود قالوا لكبراء المشركين :
سلُّوا محمداً : لِمَ انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ، وعن
قصة يوسف ؟ (1) .

فنزلت السّورة تروي هذه القصة التي هي أطول قصص
القرآن ، إذ تعدّد فيها الشخصيات ، وتتلوّن الأحداث ، ويجري
فيها الحوار ليّننا رقيقاً ، وتوزّع فيها عناصر القصة توزيعاً يتطلّب
الفنّ القصصي . فهي موزّعة بمقدار ، تظهر وتختفي حسب
الظروف الطبيعية ، وحسبما يحيط بالأشخاص من أحداث (2) .

وقد بُنيت بناءً محكّماً من حيث وحدة الموضوع وإحكام التصميم ،
وتساوق المعاني . اشترك فيها الفنّ والاحساس ، فجاءت ثريّة
بالألوان والسّمات ، لأنها جمعت من عناصر القصة ما تفرّق في غيرها
من قصص القرآن . وجاء ترتيبها للأحداث في تناسق وتسلسل :

فالمشاهد تستقل بك - وهي تُعرض - من صورة إلى صورة ،
ومن حركة إلى حركة ، حتّى تأتي عليها جميعاً ، وقد ارتسمت
في مخيلتك حقيقة حيّة بفضل ما فيها من قيسم أخلاقية ،
عُرّضت بأسلوب فنيّ مؤثّر

(1) انظر : الكشاف ج : I / 455 .

(2) الفن القصصي في القرآن الكريم : 314 .

وخيِّط الأحداث فيها - على ما بينها من اختلاف في الدوافع والمقاصد ، وتباعد في الزمان والمكان - تُمْسِكُ به العناية الالهية من البداية إلى النهاية . فقد بدأت القصة برؤيا يوسف في عالم الغيب ، وختمت بتحقيق رؤياه في عالم الشهادة .

بَيِّنَدَ أن تلك الأحداث التي كان فيها للتربية وللعواطف والغرائز دور فعّال ، وانعكاسات نفسية أثرت على مواقف الأشخاص وسلوكهم هي ليست كالأحداث المبالغ فيها أو المفتعلة ، التي كثيرا ما نجدوها في القصص التاريخية الذي يقصّه الإنسان ، ويصبغه بألوان من خياله ، قد تُخرجه عن واقعه التاريخي ، بل وعن طبائع الأشياء ، ويُملي على الأشخاص مواقف تفضي بهم إلى النهاية التي رَسَمَ خَطَّتَهَا من قبل . ولكنّ الأحداث في هذه القصة القرآنية تمثّل صراعا حقيقيا بين الخير والشرّ ، والفضيلة والرديلة ، وصوت الحقّ ومغريات الهوى ؛ في اختيار حرّ ، وإرادة متحرّرة يُفسّح فيها المجال للإنسان فيما يأتي ويدع من أعمال يصحبها شعور بيقظة العقل ، وإحساس الميل ، ومراقبة الضمير ، وما ينتج عن ذلك من مسؤولية شرّف الله بها الإنسان وبنى عليها تكليفه وابتلاءه وجزاءه ، ممّا لا يتأتّى مع استعباد الإرادة .

قال تعالى في حديث قدسي : « يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أَوْفِيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيُحْمَدِ اللَّهَ عَلَيْهِ . وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » (1) .

(I) رواه مسلم .

ولو أن الإنسان أمين على شخصية حرة أخذ تبعيتها
على عاتقه ، لمّا كان أيّ معنى لقول العزيز لامرأته :
« واستغفيري لذنبك » (يوسف : 29)

ولا لقول يوسف عليه السلام : « وما أبرئُ نفسي إنَّ النفسَ
لأمّارةٌ بالسوءِ » (الآية : 53)

ولا لقول إخوة يوسف : « يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ،
إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ » (الآية : 97) .

وما التجاء امرأة العزيز إلى إحضار النسوة اللاتي عدلنها
في حبها لفتاها ، وأنكرن عليها ذلك في مجالسهن الخاصة ،
وأمر يوسف بالخروج عليهن فجأة ، إلا لتبرير سلوكها بما
لا يستطيعن إنكاره من حسنه الرائع ، وهو ما يسمّى في
علم النفس (بالتبرير)

والتبرير ليس معناه أن تكون تصرفات الفرد معقولة ،
ولكن معناه : أن نبرّر سلوكنا ، حتى يبدو في نظرنا معقولا .
وهو حيلة دفاعية ، لأنّه يمكن الفرد من تجنب الاعتراف
بما يدفعه إلى سلوكه غير المعقول من دوافع غير مقبولة (1) .

وأما قول يوسف : « رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي
إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ
مِنَ الْجَاهِلِينَ » (الآية : 33) .

(I) مصطفى فهمي : الدوافع النفسية : I58 - I59 .

فلا يدلّ على أنّه عليه السّلام فاقدٌ للإرادة والعزم على مجاهدة نفسه فيما يدهمها من خطر غواية المرأة وفتنتها ، ولكنها مقامات الأنبياء في التجائهم إلى الله في كلّ آن ، لأنّهم أعرف النّاس به ، وهو الذي تولّى رعايتهم وتربيتهم ؛ وفي خوفهم حتى من خطرات قلوبهم ، وميل نفوسهم . وكيف لا يخاف الفتنة والصّبوة ، ونظرات هذه العاشقة التي تأويه بيتها تلمس مواطن الإثارة لتجد مكانا خاليا من قلبه ؟ إنّ من أقوى التأثير شعور الرّجل بحبّ المرأة آياه ، كما قالت عليّة بنت المهدي :

« نَحْبِبُ فإِنَّ الحُبَّ داعيةُ الحُبِّ » (1)

سبر الأحداث في الفضّة

إذا نحن تأملنا في أحداث هذه القصة رأيناها تسير سيرا طبيعيا وفق سنن الحياة . فقد اتفق إخوة يوسف على بغضه ، لأنّه كان في اعتقادهم أحبّ إلى أبيهم منهم . ودبروا له مكيدة كي يخلو لهم وجه أبيهم . وأنجزوا خطتهم للتخلص منه ، لأنهم أحكموا تنفيذها .

وراودت امرأة العزيز يوسف عن نفسه لأنها افتنت بحسه فأحبته ، وليس لها ما يردعها من خوف زوجها عن خيانتها ، لأنّها تملك قيادته كما يشاء هواها ، شأن ربّات القصور المترفات اللاتي أفسدت طباعهن الحضارة والحريّة والفراغ . وكادت له لما رفض أن يستجيب ، لأنّ لها من نفاذ الكلمة ، ومن السلطان على زوجها ما مكّنها من الانتقام ، رغم ما عرف زوجها من آيات صدقه.

(I) المنار . ج : 12 / 296 .

ثمّ أخرجته من السجن ، واستخلصه لنفسه وأولاه ، لأنّه أيقن ببراءته ممّا نُسب إليه ؛ وبحصافة عقله ، وإصابة فهمه لمّا عبّر له رؤياه .

واستطاع يوسف أن يحتجز عنده شقيقه الذي طال شوقه إليه عندما جاءه إخوته يكتالون ، لأنّه عرف كيف يحتال على إخوته بما يقطع حجّتهم ، ويجعلهم أمام الأمر الواقع .

وهكذا كان تعليل هذه النتائج للأحداث تعليلاً يقبله العقل ، لارتباط الأسباب فيها بمسبباتها ارتباطاً طبيعياً

ولكنّ الذي قد يثير الاستغراب ما انتهت إليه بعض أحداث القصة من نتائج غير لازمة لها عادة ، ولا تفسّرها الأسباب العادية ولا الصدفة ، وإنّما تفسّرها العناية الإلهية بيوسف وأبيه اللذين اصطفاهما الله بالنبوة .

ومن ذلك خروج يوسف من الجُبّ سليماً مُعافى ، وكأنّ يداً خفيّة تلقّفته وهو يهوي فيه ، ورجوع البصر إلى يعقوب لما جاءه البشير ، وألقى على وجهه قميص يوسف ، وكان قد فقد بصره من إدمان البكاء عليه . ولكنّ الإيمان هو الذي يدفع هذا الاستغراب ، ويزرع في القلب اليقين والثقة بالله والاطمئنان إلى عدله وحكمته ، والاعتقاد بأنّ القدر ليس الاّ مشيئة الله التي لا تُخالف سننه . وتلك السنن هي التي تجري الأحداث بمقتضاها ، وتُفضي إلى نتائجها : « سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » (1) .

(1) الأحزاب : 62

إلاّ أننا قد نتوصّل إلى معرفة تلك السنن ، وقد تقصر عقولنا عن إدراكها . بل من العلماء من يذهب إلى أنّ الخوارق في معجزات الأنبياء تجري حسب سنن إلهية لا نملك تفسيرها ، فنعتبرها خارقة للمألوف والعادة لما خفي علينا من أسبابها المؤثّرة بالإرادة العليا .

الجانب النفسي في القصة

قصة يوسف في القرآن هي قصة الشخصية والأحداث معا . فهي لا تسجّل واقعا فحسب ، ولكنها تنتصر للقيم الإنسانية الجديرة بالخلود . إنها تنتصر للإيمان ، للصبر ، للعفاف ، للأمانة ، للإخلاص ...

وقد أبرزت صراع النفس أملا في الحظوة ، أو إشباعا لظمأ الحب . وقام بالأدوار فيها شخصيات متباينة في السن ، وفي المكانة الاجتماعيّة . ولكلّ منها طابعها الخاص وفق التربية والتجارب التي مرّت بكل منها : كالبراءة ، والحسد ، والعلم ، والحكمة . (1) فكانت لذلك كلّه مطمح أنظار الكتاب والشعراء قديما وحديثا ، ومنبعا ثرا يستوحون منه ، كما قال جلّ شأنه :

« لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلسَّائِلِينَ » (الآية : 8)

فهذه زوجة شاعر لم تصدّق دموعه حين رآته يبكي ، فشبهتها بقميص يوسف لما جاء به إخوته ، وعليه دم كذب

(I) أحمد ماهر البقرى : يوسف في القرآن : I23 - I24 •

جُفُونُكَ وَالِدُثْمُوعَ تَجْمُولَ فِيهَا وَقَلْبُكَ لَيْسَ بِالْقَلْبِ الْكَثِيبِ
 نَظِيرَ قَمِيصِ يَوْسُفَ يَوْمَ جَاءُوا عَلَى لِبَاتِهِ بِدَمٍ كَذُوبٍ (1)
 وهذا جلال الدين الرومي يكتب بالفارسية قصة يوسف
 الصّديّق ، وضيفه الصّديّق (2) .

يقول فيها الضيف ليوسف عليه السلام : « لقد قطعتُ رحاب
 الآفاق بحثاً وتنقيباً ، وطوّفتُ في أقطار المشرق والمغرب ، فلم
 أعثر على الهدية اللاتقة بك . فكنوز الخير كلّها لديك ...
 وكيف أحمل الذهب إلى المنجم ، والتّممر إلى هجر ، واللؤلؤ
 إلى بحر عُمان ؟ إنّ كلّ الجواهر والنفائس ملء خزانتك . وهذا
 قلبي ملك يمينك ، ورهن طاعتك ، أمّا حسنك فليس لرّوعته مثيل .
 - قال يوسف : كأنني بك قادم ، وأنت فارغ اليد بعد رحلتك
 الشاقّة وجهدك الجهيد .

- قال الصّديّق : إنّي وقد أعيانني العصور على الهدية الجديرة
 بمقامك ، أحضرت إليك مرآة لتري فيها وجهك الجميل .

إن الشّمس شمعة السماء ، وأنت شمس المحاسن كلّها ،
 وإنّي أهديت هذه المرآة لتذكّرني كلّما رأيت وجهك . وإذن
 فقد أهديتُ إليك أنوارك ، وقدمتُ إليك محاسنك
 وهكذا فإنّ الدّارس لهذه القصة في القرآن يستطيع أن
 يبرز شحنات نفسيّة من أبطال القصة ، ومن بعض كلماتها وإشاراتها .

(1) أبو منصور الثعالبي : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : 40 .
 (2) تعريب : الشاوي شعلان : منبر الاسلام . صفر سنة 1390 هـ

فنحن نلاحظ كلمة الصبر مثلا ، كانت دائما على لسان يعقوب ، والاستعاذة من الظلم على لسان يوسف ، وتوكيد الأيمان على لسان إخوته . كما نلاحظ أن في الامكان وضع عناوين لبعض السلوك الذي فرط من شخصياتها : كالتبرير والإسقاط والكذب والغيرة ، والقلق ، والاحساس بالذنب (1) ونحو ذلك من الحيل اللاشعورية التي يلجأ إليها الإنسان في معاملاته النفسية ، والتي يسميها علم النفس آليات عقلية ، يغالب بها المرء إحباطه وقلقه وتوتره النَّاشيء عن فشله ، وهو يحاول تحقيق رغباته .

فإخوة يوسف مثلا ظلوا ضحايا الكبت الذي عانوه ، كي يخفوا رغبتهم في التخلص من يوسف ، حتى يخلو لهم حبّ أبيهم ، ولكنهم كانوا يفشلون في إخفائها وكبتها ، بل كثيرا ما تبدوا فيما يصدر عنهم من مواقف أو كلمات ضدّ يوسف ، ممّا جعل يعقوب يشكّ في حسن نواياهم عند ما دعوا يوسف أن يلعب معهم . فقال لهم :

« وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ » (الآية : 13).

وكان من نتيجة هذا الكبت ومعاناته أن انحرفوا بتفكيرهم... فكلّ ما كان يهتمهم تحقيقه هو أن يحولوا بين يوسف وأبيه ، فاتفقوا على قتله ، وتلطّيح قميصه بالدم ، وادّعاء أن الذئب أكله لمّا ذهبوا يتسابقون وتركوه عند متاعهم...

ولكنّ التلفيق كان واضحا ، لأنّ القميص لم يكن ممزقا بآثار أسنان الذئب ؛ ممّا جعل يعقوب

(I) يوسف في القرآن : 157 .

لا يصدقهم . ولهذا كان يدعوهم دائما إلى أن يتقصوا آثار
أخيهم ! ولو أنه صدقهم في دعواهم لما أصرّ على أن يقتفوا آثاره .

وقد وقعوا في حالة (التبرير) كما يفعل المذنب ، إذ يعمد
إلى تفسير سلوكه ليبيّن لنفسه وللناس أنّ لسلوكه هذا أسبابا
معقولة . فهم يقولون : « يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ، وَتَرَكَنَا
يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ، فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ، وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ
لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ » (الآية : 17) .

وإذا كان "الإسقاط" هو حيلة يُسقط بها المرء نقائصه
وعيوبه على الآخرين..... ويهمّه بالدرجة الأولى أن يُلصقها
بمن يظنّ أنه ينافسه مباشرة : كالزوج الذي يخون زوجته ،
ثمّ يتهمها بالخيانة . إذا كان هذا هو مفهوم الإسقاط في علم
النفوس ، فإنّ القرآن الكريم روى ذلك عن إخوة يوسف ، حينما
دسّ يوسف صاع الملك في متاع أخيه ، وألقى القبض عليه بتهمة
السّرقة ليستبقيه ، دون أن يكشف لهم عن شخصيته (1) . إذ تقول
الآية الكريمة على لسانهم :

« إِنِّي سَرَّيْتُ فَفَقَدْتُ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » (الآية : 77) .

ولو استقصينا لوجدنا في السّورة آيات أخرى تتحدّث في
بساطة عن أدقّ النظريات لعلم النفس الحديث

(1) عبد المنعم الجداوى : من كتاب : القرآن نظرية عصرية جديدة : 221 .

الأحلام في القصة

ونجد في هذه السورة عنصرا آخر يتصل بعالم النفس والغيب . فقد تضمنت أربع رؤى ، وهي :

ما قصة يوسف على أبيه وهو صبي (1) ، وكانّ القصة تأويل لهذه الرؤيا ، ولما تنبأ به يعقوب من ورائها .

وما قصة الفتيان من رؤياهما على يوسف في السجن (2)

وما قصة الملك من رؤياه على حاشيته (3) .

وكانت تنبؤات يوسف فيما عبّره من هذه الرؤى كلّها صادقة ، لِمَا علّمه الله من تأويل :

«وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِمَّن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» (4).

ولعلماء النفس بحوث ودراسات في موضوع الأحلام ، وقد حاولوا أن يجدوا لها تفسيراً يسير على منهج علمي ، ولكن آراءهم في ذلك اختلفت وتضاربت . فمنهم من يرى أنها صور من اللاشعور البدائي . ومنهم من يرى أنها "تعويضية" . وآخرون يرون أنها تقوم بوظيفة لإعداد الحياة ، إذ أنّ الأمر كلّه لا يعدو أنّ القوم يحلمون ، لأنّهم يلتمسون في الحلم حلولاً يسيرون على هديها في نشاطهم المقبل .

(1) الآية : 4 .

(2) الآيات : 36 - 42 .

(3) الآيات : 42 - 49 .

(4) الآية : 6 .

فالأحلام ترجع في الحقيقة إلى أحد نوعين :

إمّا شعوري : وهو ما يشغل النفس من مشاكل في واقع الحياة ،

وإمّا لا شعوري : وهو ما رسب في النفس من رغبات مكبوتة ؛
فيتخذ العقل الباطن من الأحلام متنفساً لهذا الكبت الذي يقع
في اليقظة . ولكننا نجد الرؤى التي قصّتها علينا القرآن لا تندرج
تحت هذين النوعين ، وإنّما هي تمثّل نوعاً ثالثاً مستقلاً بذاته ، لم
يشأ علماء النفس أن يُقرّوه ، وهو اكتشاف الغيب ، والتنبؤ بالمستقبل .

روي أنّ الشاعر الاغريقي سيمونيدس (Simonide) اعترّم
السفر بحراً ، فرأى في النوم ما يحذّره من ركوب البحر ،
فعدل عن الارتحال . بينما جميع رفاقه لاقوا حتفهم في تلك
الرحلة . وسمع الناس نبأ ذلك الحلم ، فتناقلوه خلقاً عن سلف
عصوراً طويلة . وزادهم إيماناً بما في الحلم من أمور تكشف
عن حجب المستقبل .

لكن أدلر (Adler) يفسّر تلك القصة فيقول :

« إنّّه يحتمل أنّ صاحبنا الشاعر لم يكن صادق الرغبة في القيام
بتلك الرحلة خوفاً من أهوال البحر وأخطاره . فلمّا دنت ساعة
الرحيل كان يعتصر ذهنه لالتماس سبب يبرّر تردّده وإشفاقه من
الارتحال ، حتّى لا يتهم بالجين . فكان لذلك صداه في النوم .

فليس لحلمه من قيمة إلاّ أنّ الصدفة التي أدت إلى تحقّقه
بلغت من الروعة حداً أبقى أثرها في عقول الناس زمناً طويلاً.....
ولو أنّ السفينة لم تغرق لمّا سمعنا نبأ رؤياه ، لأنّ العقل لا

يولع إلا بما يعثه على الحيرة والتطلع ، ولا يشده إلا الحديث
عن الحكمة المخبوءة بين السماء والأرض » (1)

فرؤيا يوسف التي أفصحت رموزها في مستقبل أمره عن
واقع غيبي يتحقق ، ليست حديثا للنفس عما يشغلها ، لأنه عليه السلام
ما كان يدور بخلده حين رأى رؤياه أن مستقبلا كهذا ينتظره . وليس
تفريجا عن كبت يحس به ، لأن ذلك لا يكون لمن هو عادة في مثل سنه .

وكثير من الناس رأوا في منامهم ما سيحدث لهم في اليقظة
فحصل لهم بذلك اليقين بأن النفس مدركة للغيب في النوم .

وقد بين ابن خلدون : أن النفس إذا خفت عنها شواغل
الحس وموانعه بالنوم تتعرض إلى معرفة ما تشوق إليه في
عالم الحق ، فتدرك في بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر
بالمطلوب . ولذلك جعل الله الرؤيا من المبشرات (2) .

قال صلى الله عليه وسلم : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات ،
قيل : وما المبشرات يا رسول الله ؟ قال : الرؤيا الصالحة » (3) .
وفي رواية : « أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا » .

ويرى الغزالي أن أدلة العقل وحدها لا تكفي لإثبات نبوة
نبي . ويقول : إنما نعرف النبي أو العارف الذي يتلقى علمه
من الله بأمر آخر . فإن الله أعطانا نموذجا من خصائص النبوة
شاهده في نفوسنا . ويعني بذلك ما يراه النائم من أسرار الغيب (4)

(1) اسحق رمزي : علم النفس الفردي : I32 - I34 .

(2) المقدمة : I80 .

(3) رواه البخاري .

(4) المنقذ من الضلال : 24 - 26 .

بين القرآن والعهد العتيق

الابتكار في القصة ليس في خلق موضوع جديد لم يسبق إليه . فقد يكون الموضوع مألوفا لدى الناس أو لدى طائفة منهم ، ولكن بما يُشيع فيه الفن من آيات إبداعه ، ويسكب فيه من رُوحه . إذ : « ليس الفن في الهيكل ، بل في الثوب الجديد الذي يلبسه الفنان للهيكل القديم » (1)

فموضوع قصة يوسف - وإن لم يكن جديداً عند أهل الكتاب - هو من أنباء الغيب بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم : « ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ » (2) .

ولكن عند المقارنة يتضح الفرق بين القرآن والعهد العتيق ، سواء في المدخل إلى هذه القصة ، أو في أسلوب عرض الأحداث ، أو في الأحداث نفسها .

فالقرآن يضع القصة في إطار ديني تنفيذ منه أشعة روحية إلى النفس ببيان العبرة الاخلاقية والتربوية التي من أجلها أنزل الله القصة كما سيأتي بيان ذلك .

أما الأحداث فيها ، فهي مرتبة ترتيباً منطقياً تجري في تناسق وتسلسل ، ونتائجها مبنية على مقدمات يتقبلها العقل ويطمئن إليها

(1) توفيق الحكيم : فن الأدب : 13 •

(2) يوسف : 102 •

إنه يحرك المشاهد ، ويدير الحوار في صدق وحرارة ،
فيبرز سمات النبوة في يعقوب بقدر ما يبرز صفات الأبوة
فيه ، ويعرف بيوسف كنبي اجتباه الله ، وآتاه العلم والحكمة ،
ليعمل جاهدا على تخليص النفوس من آفات الباطل وأوشاب
الشرك ، وحماتها من غائلة المجاعة .

ويمثل بامرأة العزيز المرأة التي يغلبها الهوى ، فسد عليها
منافذ الحكمة ، ثم يستيقظ فيها الضمير بوخز الندم ، فتقر
بخطيئتها ، وتقا عن ذنبها ، وتثوب إلى رشدتها .

أما العهد العتيق فقد وضع القصة في إطار عائلي ، يحمل
طابع السرد التاريخي المجرد ، دون أن يشير كالقرآن إلى
ما وراء الأحداث من عظمات بالغة ، فيجعل منها صورا حية
للإنسان ، حين يطغى عليه الحسد ، فيكيد لأخيه ، وينصب له شراك
الشر ، وينكئ به ؛ وحين يأخذه الهوى ، فيدفع به إلى مهاوي
السوء ؛ ولكنه في النهاية يتعثر ، فيفتضح أمره ، وتكشف حقيقته .

ثم تصور هذه الأحداث الجانب المقابل ، فتبرز شرف
الإنسان وسمو نفسه حين يستنير بنور الله ، ويتسلح بالإيمان ؛
فيكون طيب السيرة ، نبيل المقاصد ، صبورا في الملمات ،
لا ييأس من رحمة الله ، ولا تغير طباعه الإحسان والشدايد ، لإيمانه
بأن الحق قوة لا تقهرها نزوات الأهواء ، ولا صولة البغي ،
وأن الله لن يتخلى عن نصرته من يلتجئ إليه مخلصا مهما طال الأمد .

وإذا تعرض "العهد العتيق" إلى بعض الغيبات ، فإنه ليسير
الدهشة والاستغراب أكثر مما يذكي الإيمان ، ويحبي ما بالنفوس
من نوازع الخير ؛ وذلك لما أتى به من تشابهه مادية غامضة

تصدم الوجدان ، وتدعّ العقل في حيرة . ومن ذلك مثلاً ما جاء في سفر التكوين عن رؤيا يعقوب عليه السلام :

« ورأى حلماً . وإذا سلّم منصوبة على الأرض ، ورأسها يمسّ السماء . وملائكة الله صاعدة نازلة عليها ، وهو ذا الربُّ واقف عليها فقال : أنا الربُّ إلهُ إبراهيم أبيك وإله إسحق » (1)

ولعلّ من المفيد أن نشير بإيجاز إلى أهمّ النقاط الفنيّة والنفسية في قصة يوسف بمقارنة بعض مشاهدتها بين القرآن والعهد العتيق ، ليتّضح لنا ما بينهما من فروق في الشكل والمضمون (2)

ويبدأ الخلاف في هذه القصة بين القرآن والعهد العتيق برؤيا يوسف .

العهد العتيق

سفر التكوين :

(7) رأيتُ كأنّنا نحزم حزماً في الصحراء ، فإذا حزمتي وقفتُ ثمّ انتصبت فأحاطت بحيزمكم وسجدتُ لحزمتي .

القرآن

سورة يوسف

(3) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقِصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ .

(1) **العهد العتيق** : سفر التكوين : فصل 28 فقرة I2 و I3 - (ترجمة الآباء اليسوعيين بيروت 1882) . وهو المصدر الذي اعتمدناه في هذه القصة .

(2) انظر : **الظاهرة القرآنية** : لمالك بن نبي . صفحة : 240 وما بعدها .

4) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ :
يَا أَبَتِ ! إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ
كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ .

5) قَالَ : يَا بَنِيَّ لَا تَقْضُصْ
رُؤْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا
لَكَ كَيْدًا . إِنَّ الشَّيْطَانَ
لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

ساجدة لي

10) وَإِذْ قَصَّ عَلَى أَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ
زَجْرَهُ أَبُوهُ ، وَقَالَ لَهُ : مَا
هَذَا الْحَلْمُ الَّذِي رَأَيْتَهُ ؟ ، أَتَرَانَا
نَجِيءٌ أَنَا وَأُمَّكَ وَإِخْوَتُكَ
فَنَسْجِدُ لَكَ إِلَى الْأَرْضِ ؟

إنَّا لا نجد في القرآن إلاّ رؤيا واحدة ، ولا نجد ما يبرّر
هذا الزجر ، أو يفسّر الاستفهام الإنكاري الذي جاء في رواية
“العهد العتيق” على لسان يعقوب ، وهو النبي الأب الذي ما ينبغي
لمثله أن يحسد أحدا من أبنائه على ما سيمنّ الله به عليه من
منزلة سامية ، ومقام رفيع ، ولاسيما يوسف أحبّ بنيه إليه...:

بل لقد كانت هذه الرؤيا بشرى له ، يتلألاء وميضها أمامه في أحلك أوقات حياته ، فيربط قلبه بشعاع من الأمل والثقة في عدل الله ورحمته . بل لعلّه يتمثلها صابرا محتسبا في حزنه الكئيب ، مثل ما كان يوسف يتمثلها في سجنه الرهيب .

وفي موقف تأمر إخوة يوسف عليه ، يذكر العهد العتيق :

أن يوسف هو الذي ذهب إلى إخوته ليتفقّد سلامتهم بأمر من أبيه . ويذكر القرآن :

أن إخوته احتالوا على أبيهم حتى يرسله معهم ، رجاء أن ينالوا منه ، ويحولوا بينه وبين ملازمته لوالده ،

ولكن رؤيا يوسف جعلت يعقوب يخشى عليه من إخوته ، فيحدّره من إخبارهم برؤياه . ويقتضي ذلك أن يمنعه من الخروج معهم . بينما نجد في العهد العتيق ، كأنّه أرسل بنفسه الفريسة لمن يتلهّف عليها . وهذا يتنافى والترتيب المنطقي لسياق القصة .

ومن ناحية أخرى فليس في القرآن ما يدلّ على أن يوسف خالف نصح أبيه ، وقصّ على إخوته ما رأى ، حتى يقولوا له : « أعلّك تسلّط علينا ؟ فيكيدوا له من أجل ذلك ، كما يُستفاد من العهد العتيق .

العهد العتيق

(12) ومضى إخوته ليرعوا أغنام أبيهم عند شكيم .

القرآن

11) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ؟

(13) فقال إسرائيل (1) ليوسف
: إن إخوتك يرعون عند شكيم .
هَلُمَّ ابعثك اليوم . قال : ها أنذا .
(14) فقال له : امضِ فتنفقد
سلامة إخوتك ، وسلامة
الغنم ، واثني بالخبر.....

(18) فلما رأوه عن بُعدٍ قبل أن
يقرب منهم ائتمروا عليه
(19) فقال بعضهم لبعض : ها
هو صاحب الأحلام مقبل .

(12) أَرْسِلْنَاهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعِ
وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .

(13) قَالَ : إِنِّي لَسُحْزِنُئِي
أَنْ تَذَهَبُوا بِهِ . وَأَخَافُ أَنْ
يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ
غَافِلُونَ .

(14) قَالُوا : لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ
وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ

(15) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا
أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَاتِ الْعُجْبِ
وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ
بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

ويزداد الاختلاف بين الروایتين اتساعا وعمقا في وصف حالة
يعقوب ، لما بلغه نبأ الفجيعة ، ووقوع المحذور بفقد أعزّ ولد عليه .

فالقرآن يَصوِّر لنا صدق تنبؤه بما رآه من أبنائه ، وربّما
كشف له الغيب عن مكروه سيحصل ، ولكن الحاذر لا يمنع القدر .
فلم يجد بدءاً من الاستسلام للقضاء ، حتى انجلى الغيب عن مأساة

(I) إسرائيل : لقب على يعقوب . وأصله كلمة عبرانية تشير الى اختصاص
يعقوب بجانب الله .

اعتصم فيها بالتجلد ، ولاذ بالصبر الجميل ، مَفزَعِ الْمُتَّقِينَ ،
 ومَوَثِلِ الْمُؤْمِنِينَ . ومن أَوْلَى بالصَّبْرِ من الأنبياء صفوة خلق الله ؟
 أمّا العهد العتيق فقد صور لنا يعقوب في صورة مفزعة من الهلع
 والجزع لا تليق بمقام من اصطفاه الله بالنبوة ، ومن ينظر إلى
 الغيب ببصيرة نافذة .

أليس هو القائل : « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ،
 وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا
 مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ، وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ . إِنَّهُ لَا
 يَيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (الآية : 87) .

فلم يكن ثباته في محنة ابتلائه . ولم يكن رجاءه الذي لم
 ينقطع ، وصبره الذي لم ينفذ ، وصلته بربه التي لم تفتقر ، إلا
 عنوانا على اليقين ، وترجمانا على الإيمان ، رغم فزعه إلى
 الله بالشكوى مما ألمَّ به من حزن . والدموع التي يذرفها إنما
 هي استجابة لداعى العاطفة البشرية .

العهد العتيق

القرآن

وبعثوا بالقميص الموشى ،
 فأنفذوه إلى أبيهم ، وقالوا :
 وجدنا هذا ، قميصُ ابنك هو ؟
 33 فأتته وقال : قميصُ ابني !
 وحشُّ ضارٍ أكله ! افترس

16 (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً
 يَبْكُونَ
 17 قَالُوا : يَا أَبَانَا إِنَّا
 ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ
 عِنْدَ مَتَاعِنَا ، فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ،

يوسف افتراسا !

وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا
صَادِقِينَ .

(34) ومزق يعقوب ثيابه ،
و شد مسحاً على حقوقه ، وناح
على ابنه أياما كثيرة .

(18) وجاءوا على قميصه
بدم كذب . قَالَ : بل سَوَّلْتَ
لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْراً . فَصَبْرٌ
جَمِيلٌ . وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَيَّ
مَا تَصِفُونَ .

(35) وقام جميع بنيه وبناته
يعزونه ، فأبى أن يتعزى وقال :
لاني أنزل إلى ابني نائحا
إلى الجحيم .

فالقرآن يبين أن دموع إخوة يوسف مفتعلة ، ولم يقولوا
لأبيهم : « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا » إلا لارتباكهم وشعورهم
بأن أباهم لا يصدق دعواهم .

وكان مما يدل على كذبهم أنهم قدموا جميع الشواهد
التي تبرئهم من العدوان في رباطة جأش دون أن يصيبهم ما يُصيب
الذاهل من أسي وحيرة في مثل هذه الفاجعة . وقد أحس يعقوب بأن
في الأمر سرا ، فقال لهم : « بَلْ سَوَّلْتَ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْراً » .

ولكنه لم يشأ أن يرميهم صراحة بالكذب والخيانة ، وهم
أولاده جميعا ، لأن الأمر لم يبلغ عنده بعد مبلغ اليقين .

وكلّ ذلك مخالف لما جاء في العهد العتيق . وهو انخداع يعقوب وانطلاء حيلة أبنائه عليه .

ومن مواطن الاختلاف : ما أشار إليه القرآن عندما راودت امرأة العزيز يوسف عن نفسه لمحاولة إغرائه . وقد قدّدت قميصه من خلف وهو يتخلّص بالفرار ، ممّا أقام الدليل على براءته . كما شهيد بذلك شاهدٌ من أهلها .

بينما يذكر العهد العتيق أنّه ترك قميصه عندها لما أمسكت به ، فتركه بيدها وفرّ هاربا إلى الخارج .

العهد العتيق

(7) وكان بعد هذه الأمور أن امرأة مولاه طمحت عينها إلى يوسف وقالت : ضاجعني .

(8) فأبى ، وقال لامرأة مولاه : هو ذا مولاي لا يعرف معي شيئا ممّا في البيت ، وجميع ما هو له جعلته في يدي .

(9) وليس في هذا البيت شيء فوق يدي ، ولم يمسك عنّي شيئا غيرك ، لأنك

القرآن

(23) وَرَأَوْدَتُهُ لِي فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ، وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ ، وَقَالَتْ : هَيْتَ لَكَ ! قَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ ! إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ . إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ .

(24) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ، لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ .

كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ .

زَوْجَتِهِ ، فَكَيْفَ أَصْنَعُ هَذِهِ
السَّيِّئَةَ الْعَظِيمَةَ ، وَأَخْطِئُ إِلَى
اللَّهِ ؟

(10) وَكَلَّمْتُهُ يَوْمًا بَعْدَ آخِرِ ،
فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهَا أَنْ يَنَامَ بِجَانِبِهَا
لِيَكُونَ مَعَهَا .

(11) فَاتَّفَقَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ أَنَّهُ
دَخَلَ الْبَيْتَ لِيَتَعَاطَى أَمْرَهُ ، وَلَمْ
يَكُنْ فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ .

(12) فَأَمْسَكَتْ بِثُوبِهِ قَائِلَةٌ : ضَاجِعْنِي
فَتَرَكَ رِدَاءَهُ بِيَدِهَا ، وَفَرَّ هَارِبًا
إِلَى الْخَارِجِ .

(13) فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ تَرَكَ
رِدَاءَهُ بِيَدِهَا وَهَرَبَ خَارِجًا .

(25) وَاسْتَبَقْنَا الْبَابَ وَقَدَدْتُ
قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ، وَالْفَيْسَا
سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ . قَالَتْ :
مَا جِزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا
إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

(26) قَالَ : هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنِ
نَفْسِي . وَشَهِدَ شَهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا
إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ
فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ .

(27) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ
مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ
الصَّادِقِينَ .

(28) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ
مِنْ دُبُرٍ قَالَ : إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنْ
إِنْ كَيْدِكُنْ عَظِيمٌ .

(29) يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا ،
وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكَ كُنْتِ
مِنَ الْخَاطِئِينَ .

(30) وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ :
امْرَأَةٌ الْعَرَبِيَّةِ تُرَوِّدُ فَتَاهَا عَنْ
نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا . إِنَّا
لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

31) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ
أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ
مُتَّكِنًا ، وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ
مِنْهُنَّ سَكِينًا ، وَقَالَتْ أَخْرِجِي
عَلَيْهِنَّ . فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ
وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ : حَمَاشَ
لِلَّهِ ! مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا
إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ .

32) قَالَتْ : فَذَلِكُنَّ الَّذِي
لُمْتُنِّي فِيهِ . وَتَوَدَّدَتْ
عَنْ نَفْسِهِ فَنَاسْتَعْصَمَ . وَلَتُنَّ
لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لِيَسْجَنَنَّ
وَلِيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاعِرِينَ .

33) قَالَ : رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ
إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .
وَالْأَنْتَ صَرَفْتَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ
إِلَيْهِنَّ وَأَكُنُّ مِنَ الْجَاهِلِينَ .

34) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ
فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

35) ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا
رَأَوْا الْآيَاتِ لِيَسْجَنَنَّهُ
حَتَّىٰ حِينٍ .

14) صاحتُ بأهل بيتها ، وقالت
لهنَّ : انظروا كيف جاءنا برجل
عبراني ليتلاعب بنا ؟ أتاني
ليضاجعني . فصرختُ بصوت عالٍ .

15) فلما سمعني قد رفعتُ صوتي
وصرختُ ، ترك رداءه بجانبني ،
وفرَّ هاربا إلى الخارج .

16) ووضعتُ رداءه بجانبها
حتى قدم مولاه إلى بيته

17) فكلَّمته بمثل هذا الكلام
وقالت : أتاني العبد العبراني الذي
جتنا به ليتلاعب بي

18) وكان عندما رفعتُ صوتي :
وصرختُ أنْ ترك رداءه بجانبني ،
وهرب خارجا .

19) فلما سمع مولاه كلام
امراته الذي أخبرته به . قالت : كذا
صنع بي عبدك ! فاستشاط عليه غضبا

20) فأخذ يوسف مولاه وأودعه
الحصن حيث كان سجناء الملك
مقيدين . فكان هناك في الحصن .

ففي القرآن يدين الزوج زوجته لما ثبت لديه براءة يوسف ،
بينما في العهد العتيق يغضب عليه ، ويؤدعه السجن . وفي القرآن
يشيع الخبر بين نساء المدينة فتجمعهن امرأة العزيز في بيتها ،
وتأمر يوسف بالخروج عليهن ، ليرين جماله حتى يكففن عن
تعنيفها في حبها . ولكن العهد العتيق لم يذكر شيئا من ذلك .

ويحسن أن نقف قليلا عند هذا المشهد الذي صورّه القرآن
لنرى كيف تلتقي روعة الدين بجمال الفن ؟

لقد كان عرضا بديعا يضرب مثلا حيا في الدعوة إلى الاستقامة ،
والتدرع بالإيمان في غياهب الضلال التي تزيغ فيها القلوب ، والاهتداء
بنور اليقين في متاهات الفتنة التي تهاوى فيها الإرادة ، حتى تنتصر
الفضيلة على الرذيلة ، والوفاء على الخيانة ، والتماسك على الانحلال .

ولكنها دعوة ضمنية تنساب إلى المشاعر في يسر ، وقد كانت
فيها الكلمات تصور المشاهد ، وتعبّر عن الأحاسيس . كما
كانت اللّمحات والإشارات فيها أبلغ تأثيرا من الخطب الوعظية الطويلة .

فعبارة "هَيْتَ لَكَ" وإن لم تكن متداولة في الاستعمال ،
لكنّ السياق القرآني أبان عمّا تدلّ عليه من دعوة مشينة ،
إنها كناية ، تُرَبِّي على إفصاح ، وتلميح أفصح دلالة من تصريح ،
مع تنزّه عمّا يُستهجن ذكره .

وتُقابلها من ناحية ردّ الفعل عبارة "مَعَاذَ اللَّهِ" فهي هنا تفيد
معارضة الاستجابة لداعية الهوى والغواية ، كأشدّ ما تكون

المعارضة إباءً ، لأنها ثمرة الأيمان . وإيمان الأنبياء معرفة بالله وخشية منه . وكلّما ازداد المؤمن بالله معرفة ازداد منه خشية . وممّا يجدر التنبيه إليه أنّ القرآن لم يُخف ما تنزع إليه الطبيعة الماديّة للانسان . فكلاهما همّ بالآخر . ولا يُعتبر ذلك زلّة من يوسف ؛ لأنّ ما يعتري الإنسان من ميل نفسي بغير اختياره وكسبه ، لا يدخل تحت طائلة التكليف ، حتى يبرز بالعزم والفعل ، لأنّ فضل الاستقامة في الأديان السماوية ليس في قتل الغرائز ، بل في التحكم فيها بمجاهدة النفس ، والتغلّب على النزوات .

لذلك لم تكن الزلّة إلاّ من امرأة العزيز . لأنّها عزمت على ما همّت به . أمّا يوسف عليه السلام فقد عصمه الله بما أراه من برهانه (1) ، لإحسانه وإخلاصه فكانت صلته بالسماء أقوى من صلته بالارض ، رغم تهافت المرأة عليه وهو في سنّ المراهقة ، ورغم أنه شبّ في جوّ القصور .

كما أنّ القرآن لم يُخف من هذا المشهد جانب الصورة المقابلة . وهي المتمثّلة في استبداد الهوى برشد امرأة تنعم بين أحضان الترف والعزّ والسلطان وناهيك افتتاناً بجمال عبدها وخدامها ، أنّها خرجت عن طبع أنوثتها في ادّلالها وتمنّعها ، ونزلت عن كبريائها وسلطانها . ولكنه يعتزّ عليها بالديانة والأمانة ، والترفّع عن الخيانة (2) .

(1) انظر : لطائف الاشارات : للقمي . ج : 3 / 178 .

(2) المنار . ج : 12 / 278 .

قال ابن مسعود : « المرأة حباله الشيطان ، والشباب شعبة من الجنون ، وخير ما يُلقى في القلب اليقين » (1) .

ومجاهدة النفس خير واق من السوء والفحشاء ، وخير وسيلة لبلوغ القمم ، واحتضان المشل العليا . فإن يوسف عليه السلام قد سُجن ظلما . ولإخلاصه وأمانته لم ييأس حتى يكفر بالقيم التي يؤمن بها ، فيرتمي بين أحضان الرذيلة والإثم اتقاءً لغضب سيّدته عليه ، بل آثر السجن وعذابه على حياة التّرف والإثم .

وهكذا فإن الآيتين "23-24" وهما في منتهى الإيجاز تُلَقِّنان في حرارة من خلال عرضهما لهذه الحادثة أسمى المبادئ الأخلاقية . وما ذاك إلاّ لأنّ المعاني سُبكت فيها ونضدت بطريقة فنيّة ترك الخواطر تنساب حرّة في إطار الخطوط العامّة التي رسمتها .

والتداعي الحرّ هو من أثر الفنّ الذي يملك من القوّة ما يخضع إليه كلّ فكرة ، كما أن الاحساس الفنّي يُحدث في النفوس انفعالات ، ويؤسّر العواطف ، ويشدّها إليه .

وأين بلاغة القرآن وإحكام إيجازه ، وجمال أسلوبه وقوّة تأثيره ، ممّا حكاه العهد القديم عن نفس المشهد الذي عرضته الآيتان ؟

ويُبتلى يوسف في محتته الثالثة والأخيرة ، فيدخل السجن — رغم ما رأوا من براءته — مُدّة لم يحدّدوا زمنها ، لأنّ غرضهم أن ينسى الناس قصّته مع امرأة العزيز . هذه القصة التي لاكتنّها الألسن كثيرا في الأوساط الشعبيّة آنذاك .

(I) الجاحظ : البيان والتبيين . ج : 2 / 56 .

وإذا عجز رجال البيوتات عن صيانة بيوتهم ونسائهم ، فإنهم
 ليسوا بعاجزين عن سجن فتى بريء ، كلُّ جريمته أنه لم يستجب ،
 وأن امرأة من الوسط الرأقي قد فُتنت به وشهّرت بحبه .

ويكاد القرآن والعهد العتيق يتفقان في عرضهما لأحداث
 هذا المشهد ، لكن التوراة تستغرق أكثر من القرآن في تفاصيل
 رؤيا السجينين ، بينما ينفرد القرآن بذكر دعوة يوسف وهو
 في السجن إلى توحيد الله ، وبثّ العقيدة الصحيحة .

ويظهرُ جلياً في هذه الدعوة لطف مدخله إلى النفوس ،
 وسيرهُ خطوة خطوة في رفق وتؤدة . قال : « لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ
 تُرَزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا » (آية 37)
 ثم يتوغّلُ في قلوبهما أكثر ، ويُفصح عن دعوته ، ويكشف عن
 فساد اعتقادهما واعتقاد قومهما بعد ذلك التمهيد الطويل (1) :
 « يَا صَاحِبِي السِّجْنِ آرْبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ
 الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » (آية : 39) .

وفي هذه المحنة تتجلّى نعمة الله على يوسف بإظهار دلائل
 نبوته بما علّمه ربه من تعبير الرؤيا ، وبما أطلعه من أسرار غيبه .

العهد العتيق

الفصل الأربعون :

(1) وكان بعد هذه الأمور : أن
 ساقى ملك مصر والخباز أجراً
 إلى سيدهما ملك مصر

القرآن

(36) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ .
 قَالَا أَحَدُهُمَا : إِنِّيَ أَرَانِي -
 أَعْصِرُ خَمْرًا . وَقَالَ الْآخَرُ :
 إِنِّيَ أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي

(I) في ظلال القرآن ج : 12 / 110 - 113 •

خَبِزًا تَأْكُلُ. الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِثًا
 بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ
 (37) قَالَ : لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ
 تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ
 قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا . ذَالِكُمَا
 مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي . إِنِّي تَرَكْتُ
 مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ
 بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ

(38) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي
 إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ،
 مَا كَانُوا لِنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ
 شَيْءٍ . ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ
 عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ، وَلَكِنَّ
 أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ .

(39) يَا صَاحِبِي السَّجْنِ
 أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ
 اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ .

(40) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ
 إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
 وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا
 مِنْ سُلْطَانٍ . إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا
 لِلَّهِ . أَمَرَ الْأَنْتِ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ .

(2) فسخط فرعون على خصيّه :
 رئيس السقاة ، ورئيس الخبازين .

(3) وجعلهما في حبس بيت
 رئيس الشرطة في الحصن حيث
 كان يوسف مسجوناً .

(4) فوكل رئيس الشرط بهما
 يوسف . فاهتم بهما . وأقاما
 مدة في السجن .

(5) فرأيا حلما في ليلة واحدة .

(6) فدخل عليهما يوسف
 بالغداة . فإذا هما قلقان :

(7) فسألها وقال : ما بال
 وجوهكما مكتبنة اليوم ؟

(8) فقالا له : رأينا حلما ،

وليس لنا من يعبره . فقال لهما
 يوسف : أليس الله علّمني التعبير؟
 قصا علي !

(9) فقصّ رئيس السقاة حلمه
 على يوسف ، وقال له : رأيت
 كأنّ جفنة كرم بين يديّ

(10) وفي الجفنة ثلاثة قضبان ،
 وكأنيّ بها أفرعت وصارت عينا

ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

14) يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَّا
أَحَدُكُمْمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا .
وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُضَلَبُ فَتَأْكُلُ
الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ . قُضِيَ الْأَمْرُ
الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ .

11) وكانت كأس فرعون في
يدي . فأخذت العنب وعصرته
في كأس فرعون ، وناولت
الكأس لفرعون .

12) فقال له يوسف : هذا
تعبيره : الثلاثة قضبان هي ثلاثة
أيام .

13) بعد ثلاثة أيام يرفع
فرعون رأسك ، ويردك إلى
منزلتك ، ويتناول فرعون كأسه
كالعادة الأولى حين كنت ساقية .

14) إنما إذا جاء أمرك
فاذكري في نفسك ، واصنع
إلى رحمة ، وأجري ذكرى لدى
فرعون ، وأخرجني من هذا البيت

15) لأنني قد خُطفت من أرض
العبرانيين . وها هنا طرْحوني
أيضا في هذا الجُبِّ ، من غير
أن أفعل شيئا .

16) ولما رأى رئيس الخبازين

أنه قد عبّر له بخير ، قال
ليوسف : رأيت أنا أيضا في حلم :
كانّ ثلاث سلال حواري علي
رأسي .

(17) وفي السلّة العليا من جميع
طعام فرعون ممّا يصنعه
الخبّاز ، والطيّرُ تأكله من السلّة
من فوق رأسي .

(18) فأجابَ يوسف وقال له :
هذا تعبيره : الثلاث السّلال
هي ثلاثة أيام .

(19) بعد ثلاثة أيام يتزع فرعونُ
رأسك عن بدنك ، ويعلقك
على خشبة ، فتأكل الطير لحمك .

ويمانّ الله على نبيّه يوسف جزاء صبره بعد ان لبث في السجن
بضع سنين ، فيُرى ملكُ مصر رؤيا حيرته ، ويطلب تأويلها
من الكهنة ، ولكنهم عجزوا ، وإذا بساقيه يتذكّر وصية يوسف
إذ كان معه في السجن ، بأن يذكّره عند سيّده ويتمّ ذلك ، ويرسله
الملك إليه وهو في السجن ليعبّر له الرؤيا . ولما تبين للملك براءته
من كلّ ما اتّهم به ، وتبين له مدى علمه في تأويل الأحلام ،
وقع في نفسه احترامه وحبّه ، فأخرجه من السّجن ، لا ليُطلق
سراحه فحسب ، بل وليكرمه ويجعله بمكان المستشار والصدّيق .
ولما أيقن يوسف أنّ سلوكه الحميد صار مبعث الثقة فيه والاطمئنان

إليه ، والحرص على استرضائه ؛ رأى أن يصدع برغبته لدينه . فطلب إليه أن يستعمله على خزائن مصر . أي : كوزير للمالية . ولم يكن قصده الأثرة والانتهازية ، بل لينهض بالواجب في أشدّ أوقات الأزمة ؛ شعورا منه بأنه أقدر النَّاس على إنقاذ مصر من أزمة المجاعة التي ستحلّ بها في سِنِي الجذب حسب تأويله لرؤيا الملك ، ودعوة النَّاس في البلاد إلى نبذ الأوثان وعبادة الله الواحد القهَّار . وهكذا تكفَّل يوسف بحياة النَّاس المادية بما اخترنه لأقواتهم في سنوات الجذب ، وبحياتهم الروحية ، بما بثه في نفوسهم من عقيدة التوحيد .

وهذا ما ينبغي أن يكون لصاحب الدّعوة من يقظة في انتهاز الفرص السّانحة حين يتهيأ الأُنس إليه ، والثقة به ؛ فلا يترك المجال لغيره ممّن يرغب في الولاية ، وهو لا يستطيع أن يتحكّم في عواطفه ، أو لا يحسن التصرف ، أو ينحاز إلى فئة دون أخرى ، فيكون التطاحن من أجل الخبز ، أو نحو ذلك ممّا يعود على مصر بأنكى أنواع البلاء .

يُروى أنه قيل ليوسف : لِمَ تجوع وانت على خزائن الارض ؟ فقال : أخشى أن أشبع ، فأُنسى الجائع . ولعلّ هذا ما يبرّر طلب يوسف إلى الملك أن يوليه مصر . ولكن العهد العتيق يذكر أن فرعون مصر هو الذي عرض عليه الولاية ، كما هو ينفرد بذكر جزئيات ثانوية لم ترد في القرآن ، وتتعلّق بمراسم التولية في ذلك العهد .

القرآن

45) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ
أَسْتَمْتَلِكُهُ لِنَفْسِي . فَلَمَّا
كَلَّمَهُ ، قَالَ : إِنَّكَ لِتَمُوتُ لَدَيْنَا
مَكِينٌ أُمِينٌ .

55) قَالَ : اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ
الْأَرْضِ ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ .

56) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ
فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ
يَشَاءُ . نُنْصِبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ
نَشَاءُ ، وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

العهد العتيق

14) وقال فرعون ليوسف :
انظر ! قد أقمتك على أرض
مصر .

24) ونزع فرعونُ خاتمه من
يده وجعله في يد يوسف ، وألبسه
ثياب خز ، وجعل طوقاً من
الذهب في عنقه .

43) وأركبه مركبته الثانية
ونادوا أمامه : اركعوا ، وأقامه
على جميع أرض مصر .

ويفاجئنا العهد العتيق بصورة غريبة عندما يدخل عليه إخوته فيعرفهم
دون أن يعرفوه . فقد ذكر أنه وصفهم بالتجسس ، وحبسهم
ثلاثة أيام ؛ ثم أطلق سبيلهم ، واستبقى أخاهم شمعون ، وقيده برأى
منهم ، حتى يعودوا إليه ، ومعهم أخوهم الصغير (بنيامين) .

وهذا التهديد من يوسف إن حملناه محمل الجد ، فلا بد
من القول بأنه يحمل حقداً دفيناً على إخوته وهو ما يجب أن يُبرأ منه .

أمّا القرآن ، فقد ذكر أن يوسف أكرم وفادتهم ، وردّ إليهم
ما دفعوه من ثمن دون أن يُشعرهم ، رجاء أن يُغريهم هذا بإحضار
شقيقه ، وهددهم بلطف إن لم يأتوا به . ولم يردّ شيء
مماً ورد في العهد العتيق من إساءته لإخوته ، إذ أن ذلك لا يتفق

والصورة التي رسمها القرآن وأبرز معالمها لشخصية يوسف ، وما اتّسمت به من حلم وإخلاص وبرّ ، وهو الذي علّمه ربّه وأحسن هدايته وطهر قلبه من الحسد (1) . فقال منوّها بشأنه : « كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ » (الآية : 24) .

ألم يقل لإخوته لما رجعوا إليه وذكرهم بما فعلوا ؟
 « لَا تَشْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهَوَ
 أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » (الآية : 92) .

العهد العتيق

(7) ولما رأى يوسف إخوته عرفهم ، فنكر لهم وكلمهم بجفاء ، وقال لهم :
 من أين قدمتم ؟ قالوا : من أرض كنعان لنبتاع طعاما .
 (8) وعرف يوسف إخوته ، وأما هم فلم يعرفوه .
 (9) فقال لهم : أنتم جواسيس ، وإنما جئتم لتجسسوا ثغور الأرض

القرآن

(58) وَجَاءَ إِخْوَتَهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ .
 (59) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ . أَأَلَا تَرُونَ أَنِّي أَفِي الْكَوْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ؟
 (60) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ .

- 61) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ .
- 62) وَقَالَ: لَفَيْتِهِمْ: اجْعَلُوا بَضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .
- 17) فجعلهم في الحبس ثلاثة أيام
- 24) فتحول عنهم وبكى . ثم عاد إليهم . وخطبهم وأخذ من بينهم شمعون ، فقيده بمشهدهم

وهكذا فإن المتأمل في هذه القصة يدرك بعد المقارنة انفراد القرآن العظيم بالإيجاز البليغ في عرض أحداثها ، وإبراز المعالم الروحية فيها ، مثل تبشير يوسف عن طريق الوحي لما ألقاه إخوته في الجُبِّ ، بأن الله سيخلصه مما هو فيه ، وسينبئهم بما فعلوا .

ومثل قول يعقوب لما اشتد به الأسى : « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ . وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (الآية : 86).

الفصل الخامس

الجانب التربوي في قصص القرآن

أثر القصص في العقيدة والسلوك :

قصص القرآن متناسق في منهجه التربوي مع منهج القرآن . فهو تطبيق بالمثال الحي لهذا المنهج المتكامل . ذلك أن القرآن بقصصه ومواعظه وتوجيهاته العقائدية والتشريعية وحدة متناسقة ، وإن تنوعت طرقه في التبليغ والتعليم قصد الإمعان في التأثير ، وتجديد نشاط النفس يتجدد انتقاله في السورة الواحدة من غرض إلى آخر ، مع ارتباط وثيق بالمحور العام الذي يجمع تلك الأغراض على اختلافها .

سُئلت عائشة عن خلق رسول الله صلى عليه وسلم . فقالت : « كان خلقه القرآن » . فكان بحق مثلاً أعلى في الأخلاق القرآنية ، وأسوة حسنة في الاهتداء بهدي القرآن ، والعمل بتعاليمه وتوجيهاته . قال تعالى :

«لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ (1)

فالآية تشير الى مذهب جليل في الأخلاق . وهو مذهب القدوة والمثّل ، وتهيب بكل من يتولّى شأنًا عامًّا من شؤون الناس أن يأخذ نفسه أو لا بما يطالب الناس أن يأخذوا أنفسهم به ،

(I) الأحزاب : 21 .

حتى يكونوا قدوة لغيرهم ، فيرى الناس في مرآة النفوس الكبيرة صورا طيبة يعملون على مثالها . فالأمثلة العالية تنتقل بين الناس ، ويلتزمها الجيل بعد الجيل . (1) وكما كان الأنبياء قدوة للرسول ، فهم جميعا قدوة للناس : «لَقَدْ كُنَّا لَكُمْ فِيهِمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ» (2)

وقد دللت التجربة التربوية على أن أشد المواعظ الدينية نفاذا إلى القلوب ما عُرض في أسلوب قصصي يحمل على المشاركة الوجدانية للأشخاص ، والتأثر بالأحداث ، والانفعال بالمواقف .

ومن هنا كانت الوسائل والأهداف ترتبط في مناهج التربية ارتباطا متينا . فبحيوية العرض في القصة الموجهة ، وقوة التخيل والتصوير فيها ، وتهيئة اللحظة الحاسمة التي تبلغ فيها حرارة الانفعال النفسي درجة الانصهار - مثلما يلاحظ ذلك في القصة القرآنية - يحصل من التأثير بالتوجيه التربوي مالا يحصل عند إقحام ذلك التوجيه على النفس وهي في راحتها واسترخائها ، أو في انطلاقها وتحسرها .

ويتضح ما لقصص القرآن من تأثير في إشاعة العقيدة والإيمان أننا نجد أثره في العواطف الدينية التي بثها في قلوب المؤمنين ، والتي صارت توجه سلوكهم ، ويصدر عنها معظم دوافعهم اللاشعورية نحو الخير والفضيلة ، كما قال أحد علماء

(1) ابراهيم سلامة : خلق ودين : 78 .

(2) المتحنة : 6 .

التربية : (إنّ التربية فنّ يمكن من إدخال الشعوري في اللاشعوري مصدر القرارات السريعة) (1)

فكلم علماء قبي الطبيعة ازدادوا إيماناً بقوة الله وبمشيئته في الأحداث الكونية التي أصيب بثلاثها في القرون الخالية أقواماً أعرضوا وصدوا عن الهدى ، وذلك بما تضمنه بعض القصص القرآني من تفسير لأسبابها ، وتوجيهات دينية لا تقاوم بواعثها ، فأصبحوا هم وغيرهم من المؤمنين يعتبرون بما يقع من جوائح وأحداث كونية مريعة ، كالفيضانات ، وشدة القيض مع انجاس الغيث .

ولا يستبعدون أن تكون نُذراً من الله الذي له في ما يجري من نظام الأسباب مشيئة وحكمة ، بهما تتهيأ الظروف لتلك الأسباب الطبيعية ، لا كما يعتقد الماديون بأنها نتيجة تفاعل قسري لذرات المادة ، فيبنون آراءهم ومعتقداتهم على النواميس الطبيعية وحدها ، أو تسلسل الحوادث الدهرية ، أو محض الصدفة . ولكن المؤمنين تذكروهم بربهم ، فيتوبون إليه ، ويستغفرونه ، ويهرعون إليه منيبين ضارعين كمي يرحمهم ويعفو عنهم تأسياً بما ورد في القرآن حكاية عن قول نوح لقومه :

«فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا» (2)

(1) روح التربية (ت) طه حسين : المقدمة : 4 .

(2) نوح II - I3 .

وبما ورد حكايةً عن قول هود لقومه :

«وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ
السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ، وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ
وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (1)»

ففي قصص القرآن إذن تربية دينية لها أثر عميق في النفوس
مصدرها : عقيدة تضم الخالق والإنسان والكون ، وتقوم على أساس
أن كل خلق كريم هو في ذلك الشعور الباطني ، وهو الإيمان
بالله الذي جعل الكون معرضا رائعا تتجلى فيه حقيقة الألوهية
بآثارها ، وتملا جوانب الإنسانية بآياتها .

وفي القرآن إشارة عابرة لقصة قوم يونس الذين كاد يحلّ
بهم العذاب كما حلّ بمن سبقهم من أقوام الرسل . ولم يُرفع
عنهم وينجوا منه إلاّ بالإيمان : «فَلَوْلَا كُنَّا لَمَنَّا قَرِيْبَةً آمَنَتْ
فَنَعَمَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ
عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ» (2)
فالإيمان بالله شهادة قائمة للإنسان بأنه ذوعقل يميّز الخير من الشر ،
ويفرّق بين الحقّ والباطل . فهو بهذا العقل عرف الله ، ومن ثمّ
عرف الأعمال الصالحة فسعى إليها .

أمّا من لم يفتح له عقله طريقا إلى الله فقد عمي عن الحقيقة
الكبرى ، وضل الطريق إليها . فكيف يمكن أن يهتدي إلى حقّ بعد
هذا ؟ وكيف يتعرّف إلى خير بعد أن حاد عن الطريق الموجه إليه ؟ (3)

(1) هود 52 .

(2) يونس : 98 .

(3) عبد الكريم الخطيب : التعريف بالاسلام : 230 .

فالله تعالى يقول : «مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ
كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ
عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا» (1)

والحقيقة التي يؤكدتها القصص القرآني أن موازين القيم
والأخلاق مرتبطة بميزان الله . فالكفر ظلمة وضلال . والإيمان
نور وهداية . فلا إصلاح بغير عقيدة ، ولا تربية بغير إيمان
«وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ» (2) .

وقد عجز لوط عليه السلام عن اجتثاث ما تمكّن من نفوس
قومه من منكرات لأن منشأها عقدة الكفر .

ويفيد التحليل النفسي للعادات الفاسدة أنها تبطل وتزول
بمجرد اقتلاع العقدة ، مثلما يزول المفعول الكهربائي بانقطاع
التيار (3)

لذلك أقام القصص القرآني منهجه التربوي على العقيدة ، فجعل
منها منطلقاً إلى عالم الحسن أولاً ، لأن الاتجاه التجريبي مرحلة
لا غنى عنها في حياة الإنسان الروحية

«قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ، كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ» (4)

(1) إبراهيم : 18 .

(2) النور : 39 .

(3) انظر : علم النفس والأخلاق . ج . I - أهادفيلد . (ت) محمد عبد

الحميد أبو العزم : 64 .

(4) الروم : 41 .

والاعتبار بآثار الحوادث الكونية التي عُدَّ بها المبطلون هو طريق الإيمان بالله، والعمل الصالح في رضاه .

ثم إلى عالم الغيب ثانيا بما أودع الله في الإنسان من الشعور بسلطة غبية تسيّر الأكوان ، وإليها ينسب كل ما لا يعرف له سببا ، وبها يحتمى من لأهوال عند الشدائد .

فهذه العقيدة تبعث في نفسه الاطمئنان الذي يضمن لها الهدوء والاتزان في الأفعال والسلوك ، ويُبعد عنها الخوف من المجهول ، ويوجهها الوجهة الصحيحة دون أن تشبث بالتعويضات ، أو التأويلات .

وفي القرآن يُذكر الإيمان متبوعا في الغالب بعمل الصالحات كنتيجة حتمية له . لأن الإيمان ليس في الحقيقة مجرد شعور عن علم ومعرفة ، ولكنه تكليف للإنسان في صلته بربه ، وتدبيره لنفسه ، وعلاقته بغيره .

وقد سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامة الإيمان فقال : اذا ساءتْكَ سيئتُكَ ، وسرتْكَ حسنتُكَ ، فأنت مؤمن» (1)

وقال : «إذا أراد الله بالعبد خيرا جعل له واعظا من نفسه»(2) إذ لا شيء يستطيع أن يؤثر من الخارج بتأثير الإيمان من الداخل . فكل قوّة تتلاشى أمام قوته .

وقد أثبت بعض علماء النفس أنّ الذين يُقدمون على الانتحار لا يؤمنون بالله ، أو تُزرع الإيمان من قلوبهم بتأثير اليأس من رحمة الله التي لا تضيق بأحد من خلقه .

(1) رواه احمد في مسنده .

(2) رواه الديلمي في مسند الفردوس .

والدّارس للقصّة القرآنية يُدرك الدور العظيم الذي قامت به في تربية العقيدة وتعهدها وتنميتها ، إذ ليست الغاية من التربية سوى تكوين العواطف الصّالحة ، ولكن هذه العواطف لا تصبح أساسا للخلق الكريسم إلاّ إذا تحوّلت إلى اتّجاهات يكون ينبوعها الدائم هو العقيدة ، مصدر الإيمان والخير والأمن .

ولقد واجه إبراهيم قومته الجاحدين المشركين بحجة ألهمه الله إياها ، وهي أنّ من يخلص لله لا يخاف منّ دونه . فهو أحقّ بالاطمئنان والأمن من الملحد والمشرک :

« وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ، وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا . فَآيُ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ، أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (1) »

وفي قصة آدم حكى القرآن عن إبليس قوله في إغوائه للإنسان :

« قَالَ : فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ » (2)

(1) الأنعام : 82 - 83

(2) الأعراف : 15 - 16

وفي هذا التعبير تصوير حركي مشخّص لصدّ إبليس البشر عن الهدى بالحيلولة بينهم وبين صراط الله المستقيم ، وهو الإيمان وما يتبعه من الأعمال الصالحة .

فكان تحذير القرآن لهم وتنبههم إلى الاعتصام بالإيمان والحيلة من فتنة الشيطان الذي يأتيهم من نُقْط الضعف فيهم ومِنْ مداخل الشهوة :

« يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا . إِنَّهُ يَرَآكُم هُوَ وَقَبِيلُهُ مِمَّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ . إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » (1)

وفي قصة ابني آدم يتجلّى أثر الإيمان والتقوى في قول هابيل لأخيه قابيل لما توعدّه بالقتل :

« لَسِنٌ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ، مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ . إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ » (2)

ومن هنا كان جلّ القصص القرآني يهدف إلى غرس عقيدة التوحيد ، ويدعو إلى التصديق بالرسالة المحمدية ، وبرسالات الأنبياء قبلها ، حتى يعتزّ المؤمنون بالحقّ وحده ، ويصبروا على الأذى في سبيل إعلاء كلمته

(1) الأعراف : 36 .

(2) المائدة : 28 .

وقد أكّدتْ بعض الدّراسات التّربويّة ، والأبحاث النفسيّة أنّ الإيمان بالله وقاية وعلاج من الأمراض النفسيّة ، والاضطرابات العصبيّة ، والانحرافات الخلقية التي تنشأ من عوامل القلق ، والتوتّر العصبي ، والخوف ؛ وأنّ من أهمّ أسباب الأمراض العضويّة ، الحالة العامّة التي يسيطر عليها الجهاز العصبي ، والحالة النفسيّة . وقد أصبح العلاج النفسيّ عن طريق الإيمان من وسائل الطبّ .

يقول وليم جيمس (W. James) : «إن أعظم علاج للقلق هو الإيمان» (1)

وأهمّ خاصيّة للعقيدة الإسلاميّة أنها منشئة ، تدفع بالحياة إلى التجديد والنموّ والترقيّ ، وبالطاقات البشريّة إلى الإنشاء والانطلاق والارتقاء . فتملأ فراغ النفس والحياة بالشعور والعمل ؛ ولا تترك مجالاً للقلق والحيرة ، ولا للشذوذ والانحراف ، ولا للضياع والخوف ؛ لأنّها عقيدة تقوم على الحسّ والتجربة والعقل ، كما هي تقوم على الفطرة والوجدان والغيب . وفيها ما يكفل للفرد الصّحة النفسيّة التي عرفها الدكتور مصطفى فهمي :

«بقادرة الفرد على التّوافق مع نفسه ومع المجتمع الذي يعيش فيه . وهذا يؤديّ به إلى التّمتع بحياة خالية من الاضطرابات ، مليئة بالتحمّس ، ويتّسم الفرد وفقاً لهذا المفهوم بالرّضى عن الذات ، فلا يسلك سله كما شادا ، بل يسلك سلوكاً معقولاً يبدل

(I) عبد الرزاق نوفل . بين الدين والعلم : 60 .

على اتزانه الانفعالي والعاطفي والعقلي في ظلّ مختلف المجالات ،
وتحت تأثير جميع الظروف» . (1)

وإذا لم يكن للعقيدة أثر في أخلاق الانسان وسلوكه وصحته النفسية ،
فذلك دليل على أنها مزيفة ، وصاحبها ممن يدعون الإيمان قولاً لا
عملاً ، دون أن يمسّ قلوبهم ، ولا كان له سلطان على
أرواحهم . وإذا قاموا بعبادات موروثية ، فهي صورة بلا روح ؛
لأنهم مشغولون عن الله وعن عظمته وجلاله .

« وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ ،
وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا .
وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ » (2)

فالإيمان الصحيح هو صاحب السلطان الأعلى على القلب والإرادة
التي تحرك الأعضاء في الأعمال . فإن نازعه في سلطانه طائف من
الهوى ، فإنه لا يلبث أن يقهره » (3) .

« إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ
تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » (4)

(1) الصحة النفسية : 16 .

(2) المنار . ج : 1 / 339 .

(3) البقرة : 7 - 8 .

(4) الأعراف : 201 .

تربية الأنبياء

البحث في هذا الموضوع يشمل ناحيتين :

الأولى : تربية الله لأبيائه وإعدادهم لأعباء الرسالة

والثانية : تربية الأنبياء لمن بُعثوا إليهم من الأمم بالقول

والفعل والقُدوة . ولكل منهما صداه في قصص القرآن

الناحية الأولى : يصور بعض القصص القرآني ما أكرم

الله به رسله من عناية ، وما أحاطهم به من رعاية لتوجيههم وتربيتهم تربية تُعدّهم للنهوض بتبليغ الرسالات السماوية ومجابهة قوى الشر والطغيان في الأرض . فابتلاهم بشتىّ البلايا والمحن ، ولكن لا ليكلهم إلى نفوسهم ، ولا ليدعهم لضعفهم كبشّر بل ليقوّي عزائهم بالشّدائد ، ويمنّ عليهم بمغفرته ورضوانه ومحبّته ، وبما أنعم عليهم من نعم الخلق والتربية والهداية والاصطفاء ، ويُحيي فيهم الشعور بالضعف أمام قوّته ، وبالذلّة أمام عزّته ، وبالحاجة أمام غناه ، وبالرجاء في استجابة الدعاء .

فكان من أثر هذه التّربية الرّوحية في نفوسهم أن صاروا

عنوان الأمانة والصدق والنّزاهة ، ومثال الإخلاص لله والعمل في

سبيله دون طمع أو منفعة شخصيّة في الدنّيّا .

وقد حكى القرآن عن أنبيائه نوح وهود وصالح ولوط

وشعيب قولا واحدا صدر عن كلّ منهم حين بُعث في قوميه :

« إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . .
 وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ . إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ
 الْعَالَمِينَ » (1)

وما ذاك إلا للإشعار بهذه الوحدة السماوية التي تجمع بين
 الأنبياء جميعا على صعيد عقيدة التوحيد ، وتوحيدهم شعورا
 وعملا وحركة ، رغم اختلاف أزمانهم . كما صار عنوان
 الرُّبُوبِيَّة شعارهم في دعوتهم لأمتهم ، وفي دعائهم لربهم (2)
 فإبراهيم يقول في دعوة قومه إلى الله :

« اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ، ذَلِكَكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 تَعْلَمُونَ » (3)

ويقول في دعائه :

« رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ
 نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ . رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ
 فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ
 رَحِيمٌ . رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي
 زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ . رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ
 فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ، وَارْزُقْهُمْ

(1) الشعراء : 105 - 108 •

(2) انظر : تفسير القرآن الكريم للشيخ محمود شلتوت : 408 •

(3) العنكبوت : 15 •

مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ . رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي
وَمَا نُعْلِنُ . وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا
فِي السَّمَاءِ » (1)

ويوسف يقول في دعوة قومه إلى الله :

« إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ . مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ .
ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ . وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ » (2)

ويقول في دعائه :

« رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ ، فَاطِيرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . أَنْتَ وَلِيِّي فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ : تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » (3)

فهم على اتصال دائم بربهم في السراء والضراء ، يدعون له
قيادتهم ، ويعلمون خضوعهم لمشيئته . فشعب يهدده قومه :

• (1) إبراهيم : 37 - 40

• (2) يوسف : 37 - 38

• (3) يوسف : IOI

« لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا
أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا » (1)

فيجيبهم :

« قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ
بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا . وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا
أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا » (2)

فهو ينكر ما طلبوا إليه من العودة هو ومن آمن معه إلى ملّة
قومه . ويعارضها بشدة ، ولكنه يفوض الأمر لله في ما سيكون
من أمره وأمر المؤمنين معه . لأن المشيئة بيده سبحانه ؛ وذلك
متهى الأدب مع الله .

وهم إذ دعوا ربهم - وهم أعرف الناس بسننه في خلقه -
لا يطمعون في غير مطمع ، ولا يتركون الأخذ بالأسباب الطبيعية ،
ولا يتواكلون ؛ ولكنهم يتوكلون على الله فيما يقصدون من طلب
هدايته وتوفيقهم إلى الأسباب التي جرت سنته بان تحصل بها
المرغائب ، وتتحقق الغايات .

وما دعاؤهم لإفزع قلوبهم ، وشعورهم بالحاجة إلى معونته

فهو مظهر من مظاهر إيمانهم وعبادتهم كما قال الرسول
صلى الله عليه وسلم : «الدعاء هو العبادة» . وكما قال أيضا :

(1) الاعراف : 87

(2) الاعراف : 88

(مَثَلُ الَّذِي يَذْكَرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكَرُهُ ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ) (1)

قال تعالى : «وَكَايٌ مِّنْ نَّبِيٍِّّ قُتِلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ . فَمِمَّا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا . وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ . وَمِمَّا كَانَ قَوْلُهُمْ «إِلَّا أَنْ قَالُوا : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» (2)

ولمَّا برز المؤمنون في جيش طالوت ، وكان معهم داود عليه السلام لمقاتلة الملك الطاغية جالوت وجنوده :

« قَالُوا : رَبَّنَا أفرغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ » (3)

«ولا شك أن الدعاء والتوجه إلى الله تعالى في مثل هذه الحال مما يزيد المؤمن المجاهد قوة وعزيمة ومصابرة . ولذلك يقرر علماء النفس والأخلاق بأن المؤمنين أشد صبرا وثباتا في القتال من الجاحدين » (4)

(1) الحديثان رواهما البخاري .

(2) آل عمران : 146 - 147 .

(3) البقرة : 250 - 251 .

(4) المنار . ج : 4 / 172 .

« فاذا اتخذت الأمة الوسائل التي أمرت بها ودعت ربها أن يثبتها ويتم لها ما ليس في وسعها من أسباب النصر ، فإن الله يستجيب لها » (1)

وليؤكد الخالق دوام الصلة بينه وبين أنبيائه ، كانت أجل الصفات التي ينعتهم بها هي صفة العبودية له سبحانه .

« وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ » (2)

« وَأَذْكَرُ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ » (3)

« وَأَذْكَرُ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي

الأيدي والأبصار » (4)

وهذه الصلة الالهية هي خير ما يستمدون منه القوة والثبات في الحق ، والقدرة على مقاومة الصعاب ، واقتحام الأخطار ، والصبر على تحمل الأذى في الدعوة ، واستعداد الألم الجسمي والنفسي في سبيل الله .

والألم كما قيل : يهذب النفوس ، ويفجر ينابيع الخير ، ويرهف الحساسة ، ويغرس الرحمة التي تُنسَم ظلالها على الضعاف والمكروبين في ساعات العسرة والضيق .

ومن ناحية أخرى فإن الله يعلم أن أنبياءه لن يلقوا الطريق معبدا لنشر تعاليمهم وغرسها في النفوس ، وتنبه أقوامهم إلى ما هم

(1) النار : ج : 3 / 53 •

(2) ص : 29 •

(3) ص : 40 •

(4) ص : 44 •

فيه من عناية وضلال ، والمسّاس بمعتقداتهم وبمعبوداتهم المقدّسة عندهم ؛ بل سيجدون عاصفة من الاستنكار ، ويلقون الأمرين . فكان من الحكمة أن يقوّي نفوسهم بشتى المحن ، وأن يعيشوا ألوانا من التجارب القاسية التي تزيدهم خبرة واسعة في الحياة ، حتى يجتازوا في بطولة وثبات امتحان الدّعوة الذي يُعدّ أوّل برهان يقدمه الأنبياء على إيمانهم وصدقهم . إذ لا يثبت على المحنة ، ولا يقوى على مغالبة الاضطهاد إلاّ من كان صادقا أميناً ، مؤمناً بما يدعوا إليه .

وقصص الأنبياء في القرآن لم تُهمّل ذكرها امتحناً به ، مثل قصص يونس وأيوب وداود وموسى عليهم السلام .

ولعلّ قصّة إرسال موسى تكشف لنا عن بعض جوانب الأسلوب الإلهي في تربية رسّله وإعدادهم للمهامّ العظام .

فقبّل أن يذهب موسى بأمر ربّه لمواجهة ملك قويّ جبّار ، وخوض معركة خطيرة . قبل أن يتصدّى للأحداث الجسام مع فرعون ومع قومه بنى إسرائيل الذين أدلّتهم الاستعباد الطويل ، وأفسد فطرتهم وأخلاقهم ، يهيئه ربّه نفسياً لهذه المهمّة ؛ فيكرمه بمناجاته الطويلة في الفلاة ، ويؤنسه بندائه باسمه ، ويجيبه إلى سؤاله ، ويقضي حاجته ، ويعرض عليه قصّة حياته ، ليعرفه كيف إنّه صنّع على عين الله ، وألقى عليه محبة منه ، إذ يتمّ تدبيره بإلهام أمّه أن تضع وليدها في التابوت ، وتقذف به في البحر ليفعل الله به ما يشاء ، ولا تمتدّ إليه يد فرعون الذي كان يأمر أتباعه بأن يذبحوا أطفال بنى إسرائيل ، ولكن

قدّر الله هيأله الحياة في بيت فرعون ، وقد كان السموت ينتظره فيه . فتكون نجاته بإلقائه بين يديه ، ولا حارس له سوى عين الله التي كانت ترعاه في كل خطاه . ثم يجعبه بأمة مرة أخرى كي ترضعه بإشارة من أخته إلى آل فرعون لما رفض الوليد كلّ المرضعات .

ولما شبّ في القصر ابتلاه ربّه بالخوف والغربة عن الأهل فرارا من القصاص بسبب قتله المصري الذي كان قصد مجرد دفعه عن الإسرائيلي لما استنجد به ، فيغتمّ لذلك ، ويهديه الله الى الاستغفار ، فيشرح صدره للرحيل .

ثم يدربّه على الخشونة وشطف العيش ، فيمتحنه بالخدمة ورعي الغنم في أهل مدين ، وهو الذي تربّي في قصر فرعون حيث التّرف والمتاع والزينة ، ثم يزوّده بأيّتين من آياته كحجّة على صدقه في رسالته ، وهما العصا واليد ، بعد أن بيّن له عنايته به وهو رضيع وصغير وشابّ ؛ وبدلّ شعوره بالذنب القديم ، إلى شعور بالرّضى والتّكريم ، وخلق في نفسه القدرة على مواجهة الصراع والمخاوف . وعندئذ يأمره بالذهاب هو وأخوه إلى فرعون ، لإطلاق بني إسرائيل كي يعيدهم إلى عقيدة التوحيد . فلم يعد موسى يخشى أيّ شرّ ، وقد عرف كيف نجّاه الله ممّا هو أشدّ في ظروف أسوء وأعنف ! فما يكون من فرعون ؟ وما يستطيع أن يفعل ، والله مع موسى وأخيه يسمع ويرى ؟ « لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا ، أَسْمَعُ وَأَرَى »

وقد وضّح الخالق لهما موضوع الرّسالة التي كُلفا بتبليغها إلى فرعون . وما ينبغي أن يقولوا في هذا الموقف .

وهكذا ألقى الله الظمأنينه والسكينة في قلب موسى وأخيه
ودبر لهما الأمر (1) .

فلتأمل هذه القصة التي عرض القرآن فيها نموذجاً ربيعاً من
أساليب التربية الإلهية للرسول :

«وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِيهِ :
امْكُثُوا . إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ
أَوْ أَجْدُ عَلَيَّ النَّارَ هُدًى . فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى :
إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ! فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ
طُوًى . وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . إِنَّنِي
أَنَا اللَّهُ . لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي . وَأَقِمِ الصَّلَاةَ
لِذِكْرِي . إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا ، لِتُجْزَى
كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى . فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ
بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى . وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى .
قَالَ : هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَی غَنَمِي ،
وَلِي فِيهَا مَارَبٌ أُخْرَى . قَالَ : أَلْقِهَا يَا مُوسَى !
فَأَلْقَاهَا . فَبِإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى . قَالَ : خُذْهَا وَلَا تَخَفْ
سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى . وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ
تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى ، لِتُزِيلَ عَنْكَ مِنَ
آيَاتِنَا الْكِبْرَى . اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى .
قَالَ : رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ، وَاحْلُلْ

(1) انظر : شرح القصة بأكثر تفصيل في « مفاتيح الغيب » ج . 14/22 - 61

عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي ، وَاجْعَلْ لِّي زَيرًا
مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَحَبِي . اشدُّدْ بِهِ أَزْرِي ، وَأَشْرِكْهُ
فِي أَمْرِي ، كَسِي نُسْبَحَكَ كَثِيرًا وَنَذَرَكَ كَثِيرًا .
إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا . قَالَ : قَدْ أُوتِيْتَ سُؤْلَكَ
يَا مُوسَى . وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى . إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى
أُمَّكَ مَا يُوحَى ، أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي
الْيَمِّ . فَلْيُلْقِهِ اليمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوْلَهُ
وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي . وَلِتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي
إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ : هَلْ آدُلُكُمْ عَلَيَّ مِنْ يَكْفُلُهُ ؟
فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمَّكَ كَسِي تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَوَقَّلتَ
نَفْسًا فَفَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا . فَلَبِثْتَ سِنِينَ
فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ، ثُمَّ جِئْتَ عَلَيَّ قَدَرٍ يَا مُوسَى . وَاصْطَنَعْتُكَ
لِنَفْسِي . اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي .
اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهُ
يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى . قَالَا : رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ
عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى . قَالَ : لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ
أَسْمَعُ وَأَرَى . فَأَتِيَاهُ فَقُولَا : إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ
مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ . قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ
مِّنْ رَبِّكَ . وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ اتَّبَعَ الْهُدَى . إِنَّا قَدْ أَوْحَيْنَا
إِلَيْنَا أَنَّ الْعِبَادَ عَلَيَّ مِنْ كَذَبٍ وَتَوَلَّى (1)

(I) طه : 8 - 47 .

الناحية الثانية :

تربية الأنبياء لأقوامهم بتوجيهاتهم وسيرتهم حتى يكونوا للمؤمنين بهديهم والعاملين بإرشادهم المثل الأعلى الصادق وإذا كان الفنّان يرى مثله الأعلى في «الجمال» ، والفيلسوف في «الحقيقة» ، والأخلاقي في «الخير» ؛ فإنّ النبيء يرى مثله الأعلى في «الله» ، وأتباعه يرونه في «نبيهم» ؛ لأنّ مهمة الرسل لم تكن مقصورة على تبليغ شرائع الله ، وعلى أن يكونوا أمثلة حية في تنفيذها وتطبيقها على أنفسهم ؛ بل وأن يكونوا أيضا قدوة للناس في إقامة العدل والحق ، وتسخير القوى والمواهب لإسعاد الخلق .

فهم رسل أديان ، ولكنهم مع ذلك مؤسّسو حضارة واجتماع ، وأسلوب جديد في الحياة ، يُعرف في العقيدة بالتوحيد والوحدة ، وفي الاجتماع باحترام الإنسانية والمساواة بين أفرادها ، وفي الأخلاق بمراقبة الضمير والأمانة وحسن المعاملة (1) فهم على اتّفاقهم على اصول العقيدة يعنون عناية خاصة بالأمراض الخلقية والاجتماعية المنتشرة في أقوامهم .

فوجد نبيّ الله إبراهيم يهتم كثيرا للتوحيد ومحاربة الشرك ، حتى ليُخيّل لمن يقرأ قصّته مع قوميه في القرآن الكريم ، أنّه لم يُبعث إلاّ بالتوحيد ، وذلك لتفشّي الوثنيّة في عهده ، وفتنة الناس بالأصنام . ولذلك اشتهر بأنه شيخ الموحّدين

(I) ابو الحسن على الندوى : النبوة والانبياء في ضوء القرآن : 19 و 93 •

ونجد نبيّ الله لوطا يُعنى بمحاربة الفاحشة التي فشت في قومه حتى أَلِفوها ، وأصبح التنزّه عنها في نظرهم جرما

ونجد نبيّ الله شعيبا يدعو القوم بعد توحيد الله إلى أن يُوفوا الكيل ، ويزنوا بالقسطاس المستقيم ، لأن مرض الغشّ والتدليس كان شائعا فيهم

لذلك جعل الله الرسل بشرا لا ملائكة ، كي يكونوا نماذج للكمال الإنساني ، وجعل لهم من الغرائز البشريّة ما لسائر البشر ، ولكنهم كانوا حكماء في استخدامهما . فلم يقتلوا غرائزهم ، ولم يمتوا شهواتهم ، بل حكموا فيها عقولهم وضمائرهم ، فضبطوها وسيطروا عليها ، وساروا بها وفق ما أراد الله منها ، ونهجوا بها المنهج الذي بلغ بهم غاية الكمال الروحي والجسماني (1)

« وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » (2)

« مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ . انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤفَكُونَ (3) »

(1) امين دويدار : صور من حياة الرسول : 625 - 626 •

(2) الفرقان : 20 •

(3) المائدة : 77 •

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ
أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً» (1)

وقد علمنا الرسل بما حكى القرآن عن سيرتهم في
قصصهم أن المثل العليا لا تتحقق إلا بتحقيق الذات والسعادة .
فتحقق الذات هو قانون الحياة الذي لا يسمح بأي كبت ضد
القطرة السليمة ، كنبذ بعض الغرائز باسم الزهد أو الدين :
مثل غريزة الجنس في الزواج ، وغريزة الغضب والمقاتلة في
الدفاع عن النفس أو الحق أو المعتقد . لأن مثل هذا الكبت
يؤدّي إلى صراع بين الروح والجسد ، فتظل النفس منقسمة .
ولا سعادة مع الصراع والتشتت .

وقد لاحظ « ب . جانان » (P. Janet) أن أغلب طرق
العلاج النفسي يكون بإرجاع التوازن بين مختلف القوى النفسية
للإنسان (2)

والتوازن في الكيان البشري إنما يكون بالدخول إليه من
منافذه الثلاثة : الروح والعقل والجسم ، ويربطها بعضها ببعض ،
وتوجيهها وجهة سليمة (3) .

ولما كان إقناع الجماعة والتأثير على نفوسهم يتوقفان
على إدراك المشاعر القائمة بها ، فإن الأنبياء ولّدوا في البيئة

(1) الرعد : 39 .

(2) La médecine Psychologique. P : 180.

(3) انظر : منهج التربية الاسلامية : 154 .

التي بُعثوا فيها ، وليسوا بالغرباء عنها . بل كان معظمهم يؤمن بما تؤمن به البيئة ، كما قال يوسف : إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ « (1)

فلم تكن مناهضتها برفض معتقداتها التي تأصلت فيها أجيالا ، وعاداتها التي غدت جزءا من كياناتها ، وتهيتها لتقبل معتقد جديد ، وتربية جديدة ممّا يكفي فيه دور التلقين الجامد . بل إنّ ذلك يحتاج إلى مؤثرات عظيمة زيادة على المعجزات .

لأن معجزات الرسل وإن كثرت وعظمت ليست ملزمة بالإيمان ولا مفضية إليه حتما . وإنما يكون الإيمان باستعداد المدعوّ إليه ، بالإضافة إلى حسن بيان الداعي .

ولذلك كان من أمر عيسى عليه السلام أنّه لمّا أحسنّ من من قومه بنى إسرائيل الكفرّ والعناد والمقاومة بالإبذاء رغم ما أراهم من آيات الله ، توجه إلى البحث عن أهل الاستعداد النفسي الذين لا يتأخرون عن نصرته في دعوته (2)

« فَلَمَّا أَحْسَنَ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ : مَنْ أَنْصَارِيَّ

إِلَى اللَّهِ ؟ (3)

(1) يوسف : 37 •

(2) المنار . ج : 3 / 3II •

(3) آل عمران : 52 •

وإذن فلا بد أن يكون الأنبياء مزودين في هذه المعركة بمعرفة دقيقة للنفس ومسابرها . وللتربية وأساليبها الملائمة لبيئتهم وعصرهم .

وهذه حقيقة نلمسها في تحاور الأنبياء مع أقوامهم . جاء في دعوة شعيب لقومه وهو يجهد في إقناعهم وهدايتهم :
« وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ فِيكُمْ مَلَائِكَةً وَلَا أَنُودِيَ الَّذِينَ يَهُودُؤُا بِمَا كَفَرُوا وَلَا أَنُودِيَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَىٰ لِغُلَامِكُمْ فِي الْأَسْمَاءِ وَلِذُنُورِكُمْ عَلَيْكُمْ كَيْتَابٌ يُرِيدُ أَنْ يَهْدِيكُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (1)

ولا شك أنهم يعرضون على أقوامهم من قصص الأولين وصفحات الماضين ما يخدم دعوتهم ، لأنها من أقوى وسائل التربية في الأمم . فهي نور يضيء السبيل للسير في الطريق السوي وذلك بما توحى به من أسباب القوة والتمكين ، أو أسباب الوهن والفناء .

وفي القرآن ما يدل على ذلك ، كقوله تعالى حكاية عن هود :
«وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً» (2)

وحكاية عن صالح : «وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ» (3)

(1) هود : 88 .

(2) الاعراف : 68 .

(3) الاعراف : 78 .

وحكاية عن شعيب : «وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ . وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ» (1)

«وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَاَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ» (2)

وقوله تعالى : «وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقَرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا . وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ» (3)
فكل أمة يضرب لها الأمثال بمن سبقها من الأمم للتربية والاعتبار..

وفي مثل قوله تعالى :

«وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» (4)

تربية اجتماعية تقتضي أن الجماعة مسؤولة عن أفرادها ، وأن عليها أن تتعهد منهم كل من يبدو عليه الانحراف والانحلال ، حتى تجعل منه عضوا عاملا في حياة الجماعة بصدق وإخلاص .

ومن هنا كان من التعاليم الالهية التي حث عليها الأنبياء ونفذوها : التواصي بالحق . والأمر بالمعروف ، والنهي من المنكر ؛ باعتبارها من المبادئ الأساسية التي يشاد عليها صرح الحياة الاجتماعية (5) .

(1) هود : 89

(2) هود : 85

(3) الفرقان : 38 - 39

(4) الانفال : 25

(5) انظر : تفسير القرآن الكريم : محمود شلتوت : 647 - 648 .

«لُعِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ . ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ . لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » (1)

وجاء على لسان المؤمن من آل فرعون :

« يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ؟ » (2)

ومن عوامل تأثير الأنبياء أن كل نبي كان مثلاً أعلى وقدوة حسنة للذين أرسل إليهم . وكان يمكن أن يكون قدوة لمن جاء بعده أيضاً لو عرف التاريخ حياته وسيرته على الوجه الأكمل . ولكن القصص القرآني لا يخلو من إشارات بعيدة المدى إلى ما جباهم الله به من كريم السجايا ، وحميد الفعال .

فقد كان إبراهيم مثلاً يُحتذى في الحلم والرفقة :

« إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ » (3)

« فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي . وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (4)

كما كان يوسف خيراً قدوة في العفو وكظم الغيظ . فقد قال لإخوته رغم ما ألحقوا به من أذى وشر :

(1) المائدة : 80 - 81 .

(2) غافر : 29 .

(3) هود : 74 .

(4) إبراهيم : 38 .

« لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْنِكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » (1)

وإذا ذكر القرآن في قصص أنبيائه ما أكرمهم به من الرضى والنصر وقبول الدعاء والغلبة على الأعداء ، فإنه يعقبه بذكر ما يشجعه أتباعهم على الاقتداء بهم والتأسي بأخلاقهم .

فيقول عن أيوب : «رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ» (2)
ويقول عن يونس : «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ» (3)

ويقول عن لوط : نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (4)

ويقول في معرض الامتنان على يوسف :

« وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ . نُنْصِبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ . وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » (5)

وقال يوسف معللاً لإكرام الله له :

« قَال : أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أُخِي ! قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ۚ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » (6)

(1) يوسف : 91 •

(2) الانبياء : 84 •

(3) الانبياء : 88 •

(4) القمر : 35 •

(5) يوسف : 56 •

(6) يوسف : 90 •

مسالك التربية في قصص القرآن

للمنهج التربوي في القصص القرآني مسالك عديدة تلتقي كلها عند نقطة واحدة ؛ هي الايمان الذي هو سموّ بالنفس ، واتّصال بالحقيقة ، وتجربة حياة متجدّدة ، وتكوين للشخصية المتزنة التي تعمل جميع طاقاتها الجسميّة والفكرية والروحية في اعتدال وتوازن ؛ لأن لصاحبها قوة منظّمة لا ندفاعاته الفطرية ، ومهذبّة لغرائزه الحيوانية ، وموجّهة إياه نحو المثل العليا .

وتلك هي الشخصية المتكاملة كما يسمّيها علماء التربية .
«وهي التي يتسم سلوكها وتصرفاتها ودوافعها بالاتزان الانفعالي» (1)

إنّ الشخص المتكامل من يدرك النواحي المختلفة التي تواجهه ، ثم يربط بين هذه النواحي ومالديه من خبرة سابقة تصلح لتكييف الاستجابة تكييفاً ملائماً .

وأهمّ القدرات التي تساعد على تحقيق التكامل : القدرة على التمييز ، والقدرة على الكفّ الإرادي وضبط النفس (2)

(1) مصطفى فهمي : الصحة النفسية : 281 .

(2) يوسف مراد : مبادئ علم النفس : 395 - 396 .

ولعلّ أبلغ وسائل التربية القرآنية توجيهها وتعليمها ، وأوفرها خبرات وتجارب وعواطف دينية ، قصصه الموجّه الهادف ؛ لأنّ تأثيره بالمثل ، وإقناعه بالواقع .

ألم يكن يوسف في حكمة تصرفاته ، ورشاد مواقفه ، وهو في خضمّ المآزق والمغريات التي تتيه فيها العقول مثلاً الشخصية المستقيمة المتكاملة التي بقيت على مدار التاريخ عنوان العفة مع الجمال ، والاستقامة مع الذكاء ، والمرونة مع الحزم ؟

ثم ألم نجد في قصة ابني آدم هابيل وقابيل شخصيتين متقابلتين : أولاهما تمثّل الشخصية المتكاملة بالتوازن واستقامتها وسلامة فطرتها . وثانيتها تمثّل الشخصية المختلّة التوازن بانحرافها وعجزها عن ضبط النفس تجاه دوافع الحسد ؟

أمّا مسالك التربية في هذا القصص فهي متنوّعة بحسب المقام . لأن القرآن لا يعرض قصصه لمجرد المتاع الفنيّ ، ولكن ليواجه بها حالة معينة ، ويحقق بها غرضاً مقصوداً .

وأهمّها ما جاء مساوقاً لعناصره الثلاثة : الأحداث ، والشخصية ، والحوار .

فالتربية بالأحداث : تُعرف بقوة تأثيرها ، وشدة سيطرتها على النفس والفكر ، لأنها تثير الانتباه الذي يجمع الفاعليّة النفسيّة حول ظاهرةٍ ما ،

عن طريق الحسّ ، إن كانت هذه الظاهرة خارجية ، أو عن طريق التأمل ، إن كانت داخلية . وفي القرآن إشارات إلى أحداث توجّه الى الحسّ والتأمل معاً ، كما في هذه الآية :

« وَلَقَدْ أَنْتَوْا عَلَيَّ الْقَرْيَةَ الَّتِي أَنْطَرْتُ مَطَرًا سَوًّا .
أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ؟ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجِعُونَ نَشُورًا (1) .

كما تثير بعض الأحداث الخوف الرّادع من العقاب المُسائل ، وخوف المهابة والعظمة والجلال . وكلاهما ليس من نوع الخوف الذي يبعث على التشاؤم ، أو يسلب الثقة في النفس ، والاطمئنان في الحياة . بل إنّه ممّا يبعث على الإيمان بقوة الله القاهرة ، والشعور بمُراقبة البواعث والدوافع ، وما ينجّم عن تلك المراقبة من انتهاج سبيل الفوز والنجاة .

عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربّه جلّ وعلا ، قال : «وعزّتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين . إذا خافني في الدنيا أمّنته يوم القيامة . وإذا أمّنتني في الدنيا أخفّتهُ في الآخرة (2)»

ولم تسيطر العواطف الدينية قديما على المجتمعات البدائية واللاهوتية إلاّ بتأثير الخوف من أحداث الكون الهائلة ، وتأثير القوى الخفية .

(1) الفرقان : 40 .

(2) رواه بن حبان في صحيحه .

ولمّا كان أكثر أحداث القصص القرآني غير عاديّ ، فإن بعضها كالشعلة التي يصدر عنها الضوء ، فتنير بأشعتها ما تقع عليه . وهذه النقط التي يصيبها شعاع النفس هي المراكز التي تلتقي عندها العاطفة الدينية وتجتمع . لذلك كان ما سلّط على الأمم الخالية من أحداث وسيلة للتأثير على من لا ترتدع نفسه ، ولا يرتجف قلبه ، ولا يهتزّ وجدانه بغير المخاوف :

« فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ : أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ . قَالُوا : لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا : مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ؟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ . وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَيَّ الْهُدَىٰ ، فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْفِرُونَ (1) »

ففي هذه الأحداث عبرة تهزّ المتكبرين بمصارع أمثالهم ؛ حتى أن عبّبة ابن ربيعة لمّا استمع إلى هذه الآيات من الرسول صلّى

(I) فصلت : 12 - 16 .

الله عليه وسلم أمسك على فمه ، وناشده أن يكفّ عن التلاوة .
ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قبريش ، واحتبس عنهم . ثم لما
حدثوه في هذا قال : «قد علمتم أن محمّدا إذا قال شيئا لم
يكذب ، فخشيت أن ينزل بكس العذاب .

إن عتبة يعلم أن وعده صلى الله عليه وسلم من وعد ربّه ، وأنه
الصادق في نذيره صدقه في تبشيريه ، وذلك من دواعي رهبته وخوفه .

فاذا كانت هذه صورة من وقع الإنذار بالأحداث على
قلب لم يؤمن ، فكيف بوقعه على قلوب المؤمنين ؟

وهذه حادثة خسف مريعة كانت النهاية المحتومة لمصير
قارون الذي فتنه المال ، فنسي مصدر النعمة ، وبغى وظلم ،
وعاث فسادا في الأرض ، كانت في الآن نفسه عبرة لطائفة من
معاصريه الذين جرفتهم الفتنة ، وأغوتهم زينة الحياة التي كان
يخرج فيها قارون على قومه ، فتمنّوا أن يؤتوا مثل ما أُوتى
من ثروة ، ولكنهم أمّا شاهدوا هول مصرعه ندموا على ما
تمنّوه ، وحمدوا الله أن لم يستجب لهم ، إذ أدركه أن الثراء ليس
آية على رضى الله ، « وأن وراء هذه المظاهر الفاتنة ما هو أسمى ،
وهو معرفة حق الله في نعمه ، وأنّ للبغى من سوء العواقب ما
يجدر بالعاقل أن يقدره ، وأن يُدخله في حسابه» (1) .

«فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ . فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ
يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ .

(1) مع القرآن الكريم : 120 .

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ :
 وَيَكَانُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ،
 لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخُسِيفَ بِنَا . وَيَكَانُ لَهُ لَا يَفْلِحُ
 الْكَافِرُونَ » (1)

وليست هذه القصة دعوة ضمنية إلى ترك الحياة ، أو الزهد فيها ، ولكنها تربية للمؤمنين على فهم قيم الحياة على وجهها الصحيح ، وتحذير لهم من أن تُفسد نفوسهم نعمة الغنى ، فتصدّهم عن الإيمان ؛ حتى إذا رأوا أنفسهم يوماً في عسر وضيق ، وشرار الناس في سعة واستعلاء ، فلا تذهب أنفسهم على الدنيا حسرات ، بل عليهم ان يوجهوا قلوبهم الى ما يدخره الله للمخلصين من عباده ، فلا يخطوا بين قيسم الأرض ، وقيسم السماء.

وفي حادثة يونس عليه السلام درس للمؤمن بأنّ العبادة في حالة الرخاء مدعاة للنجاة في حالة الكرب .

أما نسيانُ الله في حال الرخاء والإعراض عن هديه ، فإنّ ذلك يكون سبباً في عدم استجابة الله له عند الشدة (2)

روى ابن عباس أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له :
 «.... إني مُعلّمك كلمات : احفظ الله يحفظك . احفظ الله تجده تُجاهك .
 اعرف الله في الرخاء يعرفك في الشدة (3)

(1) القصص : 81 - 82 •

(2) عفيف عبد الفتاح طيارة : مع الانبياء في القرآن الكريم : 309 •

(3) رواه البخاري ومسلم

وقد أخبرنا الله عن يونس أنه كان من المسيحين قبل أن يلتقمه الحوت ، وأن تسيحه كان سبب نجاته من بطن الحوت .

وفي أحداث عاد يبين القرآن أن من أسباب هلاكهم :

(1) أنهم غرّتهم قوتهم فاستكبروا وعتوا

«فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ

وَقَالُوا : مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ » (1)

(2) أنهم كانوا منقادين لجابرة يستعبدونهم ويذيقونهم

ألوان العذاب ، ويسخرونهم لمآربهم

« وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ

وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُؤَلٍ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا

لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ » (2)

وفي عرض هذه الأحداث متبوعة بتائجها الوخيمة دعوة

يُطَلِّقُهَا الْقُرْآنُ إِلَى الْأُمَمِ وَالِدُولِ كَمَا لَا يَحْمِلُهَا اعْتِزَالُهَا

بِقُوَّتِهَا عَلَى أَنْ تَتَكَبَّرَ طَرِيقَ الْحَقِّ . وَبَعْضُ الدُّوَلِ الْكَبِيرِ رُكْبَهَا

غُرُورُ الْعِلْمِ وَالشَّرَاءِ وَالقُوَّةُ ، فَاسْتَغْلَتْ ثُرُواتِ الشُّعُوبِ الضَّعِيفَةِ ،

وَتَسَلَّطَتْ عَلَيْهَا بِالْقَهْرِ ، وَسَلَّكَتْ فِي قَهْرِهَا وَالسَّيْطِرَةَ عَلَيْهَا كَلَّ

الطَّرِيقِ الدُّنْيَا ، مِنَ التَّأْيِيدِ الْمَطْلُوقِ لِلصَّهْيُونِيَّةِ الْمُعْتَدِيَّةِ ، وَمَدَّهَا

بِالرُّجَالِ وَالْعِتَادِ ، وَإِشْعَالَ الْفِتَنِ ، وَشَرَاءِ الضَّمَائِرِ ، وَتَفْرِيقِ

(I) فصلت : 15 - 16 •

(2) هود : 59

الجماعات في سبيل مغانمها ومصالحها الاستعمارية . ولسان حالها يقول ما قال قبلهم عاد . «مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟»

ودعوةٌ يطلقها القرآن دأوية على أسماع أتباعه ، ليتحرروا من سلطان كل متسلط غاشم ، ومن كل معاند لا يقرّ بحق . (1) فلقد هلكت عاد مشيعةً باللعة في الدنيا والآخرة ، لانقيادهم للجنابرة . وكذلك مصير كل شعب يستهين بكرامته ولا يضحّي من أجلها بما يجب ، لأن الإيمان يُسبغ على النفس الكرامة وإباء الضيم .

هذه نماذج من تربية القرآن في ظل الأحداث ، وهي تربية تجريبية واقعية تقم على الإحساس بمعية الله ، وتأثيره في مجرى تلك الأحداث على أساس العدل . فهو سبحانه يسمع عبده ويجيب دعاءه دون حاجة إلى شفيع أو وسيط ، والنفس لا تقتنع بالمعرفة وحدها ، بل تتشوّف إلى المشاهدة والتجربة حيث تكون القلوب مهيأة للتأثر ، متفتحة للتوجيه .

وفي مثل حادثة خولّة بنت ثعلبة تركيزٌ لهذه المعرفة ، وشهود لحقيقة الصلّة وواقع الإجابة .

فقد شهد المؤمنون في المدينة كيف تتدخل السماء في شؤونهم اليومية ، وكيف سمع الله لامرأة فقيرة محزونة ، وكيف استجاب دعائها وأنزل فيها قرآنا (2) أعطها حقّها ، وردّ عليها زوجها وولدها (3)

(1) مع الأنبياء في القرآن الكريم : 99 - 100 .

(2) المجادلة : 1 .

(3) منهج القرآن في التربية : 335 .

هكذا جاءت أحداث القصص القرآني صالحة للسير مع كل نفس ، موجّهة لكل جيل ، وذلك لتشابه الأحداث وتمثيل النفوس ومن عوامل التأثير بهذا النهج من التريفة أن جُسل الأحداث في القرآن جاءت كنتيجة حتمية للشّواب أو العقاب العاجلين في الدنيا. ومن ذا الذي لا يشاق إلى ثواب عاجل قريب يُنعِم الله به عليه في ماله ، أوفي عرضه ، أوفي صحته ، أوفي أمنه ، أوفي عقله ، أوفي سمعته ، أوفي أبنائه ، أوفي أعماله ، زيادة على ما في الآخرة من ثواب ؟

قال الله تعالى : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ (1) »

وَمَنْ ذَا الَّذِي لَا يَخْشَى عِقَابَ اللَّهِ يَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، فيصيب شيئا مما يعتز به ويسعى من أجله زيادة على ما في الآخرة من عقاب ؟ (2)

قال تعالى : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . وَلَكِنَّ كَذَبُوا ، فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ؟ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ

(1) المائدة : 65 - 66 .

(2) مع القرآن الكريم : 206 .

يَأْتِيهِمْ بِأَسْنَا ضُحَىٰ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ؟ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ
اللَّهِ ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ» (1)

فما أروع أن نجد في القصص شخصيات مثالية كالأنبياء ،
جعل منهم القرآن نماذج إنسانية عالية ، ولكن ذلك لم يمنعه
من الإشارة الى ما يُلسم ببعضهم أحيانا من لحظات الضعف البشري
دون مداراة ، رغم ثنائه عليهم وتمجيدهم بما هم أهل له ، خروجا
منه عن المعنى الضيق لمفهوم «الاخلاق» ، وتجنباً لأيّ تزوير في
عَرَض الشخصية الرفيعة التي كاد بعض الناس يؤلّهونها ،
أويتخذون منها مثلاً أعلى هو الى الخيال أقرب منه الى الحقيقة ، صنيع
بعضهم في مثل شخصية عيسى عليه السلام ، وعلي كرم الله وجهه .
ولنما يشير القرآن في سرعة خاطفة الى بعض نقاط الضعف فيهم
رغم كمالاتهم ، ليعرض النفس البشرية كما هي في قوتها
وضعفها ، حتى يرتفع بها الى أسنى الرتب بتصوير القدرة
الكامنة فيها على السموات ، واستنهاضها من العثرة ، حتى تسترجع
سريعا المكانة التي أعدها الله للإنسان في الأرض وفي السماء
إذا هو اتبع سبيل الهدى (2) .

وفي قصة دواد عليه السلام ما يوضح هذه الحقيقة :

(1) الأعراف : 96 - 99 .

(2) انظر : العدالة الاجتماعية في الاسلام ، لسيد قطب : 280 - 281 .

« وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأَ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ،
 إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا : لَا تَخَفْ !
 خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ، فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ
 وَلَا تَشْطِطْ ، وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ . إِنَّ هَذَا أَخِي ،
 لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْمَةً . وَلِي نَعْمَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَقَالَ :
 أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ . قَالَ : لَقَدْ ظَلَمَكَ
 بِسُؤَالِ نَعْمَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ . وَإِنْ كَثِيرًا مِمَّنْ خَلَطَاءِ
 لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ . وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ
 فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ . فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ
 وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ . يَا دَاوُدُ إِنَّا
 جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ
 وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ . إِنَّ الَّذِينَ
 يَظْلِمُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا
 يَوْمَ الْحِسَابِ (2)

فالقصاص القرآني لا يقف على الأخطاء أو نقاط الضعف
 ليجعل منها بطولات كالقصاص البشري ، وخاصة في مشاعر الحب
 ومغامراته .

ونجد في الأدب الأوربي من يعرض خطيئة آدم على أنها
 مفخرة له وبطولة منه ، لأن لحظة العصيان هي اللحظة التي حقق

فيها كيانه ، وأصبح سيّد نفسه . وهي اللحظة التي أصبح فيها القوة المسيطرة الفعّالة . ولتذهب إلى الأبد تلك الجنة التي كان فيها آدم ، فإنّها لا تساوي شيئاً لآداء تحقيق الإنسان لكيانه وذاتيّته ، واختياره لمصيره بنفسه في حريّة وإرادة .

وهي فكرة متأثرة بأساطير اليونان القديمة التي تصوّر الصراع الدائم بين البشر والآلهة ، وتمنّى انتصار البشر على الآلهة الظالمين الطغاة .

والحقيقة أنّ الطريق لإثبات الذات ليس في الانحراف والعصيان . إذ لم يكن في طاعة الله والامتثال لأوامره ونواهيه انعدام الشخصية وزوال الذاتيّة .

فالإنسان لا يُثبت وجوده بالانحراف عن الجادة ، والعناد مع الحق إلّا في حالة الضعف والمرض والهبوط . أمّا في حالته السويّة ، حالة الصحة والارتفاع ، فإنه يجد ذاته في مستواها الرفيع حين يطيع دوافع الخير والهدى والصّعود (1) ...

فأيّوب عليه السلام امتحنه ربّه بزوال ماله ، وموت ولده ومعاناة المرض في جسمه ، فصبر وشكر ، ووفّاه أجره في الدنيا والآخرة . فكانت شخصيته قدوة حسنة للمؤمنين الذين إذا مسّهم ضررٌ ذكروا أيّوب فصبروا كما صبر ، ولجأوا إلى الله بالضّراعة والدّعاء كما لجأ ؛ ليكشف عنهم الضّرر ، وينالوا خيرا ممّا فقدوا

(I) انظر : منهج التربية الاسلامية : 243 - 244 .

«وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (1) .

وهود عليه السلام يُجَلِّي من خلال دعوة قومه إلى الحق ، ما ينبغي أن يكون عليه كلّ مصلح من مثابرة ومصابرة ، للتغلب على العقبات . فهو في توكله على ربّه يرسم طريق النصر الذي وعد الله به عباده المخلصين رغم ما يلقونه من عناء ، وإن طال الأمد ، واشتدّ الكرب .

تأمل قوله : «فَكَيِّدُونِي جَمِيعًا» فهو يريد أن يُلقي في أسمعهم أنه لا يبالي بكيدهم مجتمعين ، ولا يخاف أذاهم على الرغم أنهم الأقوياء الأكثرون . وتلك سِمة من سمات أصحاب العقيدة الذين غمر الإيمان قلوبهم ، وسيطر حبّ الإصلاح على مشاعرهم . فلا رهبة ولا وجل من أنصار الباطل . وللمؤمنين من عقيدتهم ما يستهلون به كل خطر .

فَسِرُّ هذه الجرأة في هود أنه متوكّل على ربّه (2) هذا التوكّل الأصيل الذي يسبغ على النفس اليقين والصبر ، ويقضي في الآن نفسه تحقيق أوامر الله في إعداد ما ليس منه بدّ مع بذل الجهد ، وذلك وفقا لمشيئة الله في إطار السنن التي أرادها ، وأمر الناس أن يتبعوها .

(1) الأنبياء : 83 - 84 .

(2) مع الأنبياء في القرآن الكريم : 100 .

ثم إن قومه يتهمونه بأنه أصابه سوء في عقله ، فترفق في خطابهم ، ويواجههم بغير ما واجهوه به :

« إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ . قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ ، وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ بِهِ . فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ . مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا . إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (1)

وفي ذلك كله عبرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ليتعلموا كيف تكون الأخلاق العالية ، وكيف يكون الصفح الجميل ، ومقابلة الإساءة بالإحسان ، حتى يهتدوا بهدى الأنبياء الذين جاهدوا في الله حق جهاده دون أن يكون لهم بئاعث مادي ، أو غرض دنيوي . وبهذه المثل العليا التي رتبها الله رسوله عليها بلغ صلى الله عليه وسلم ما بلغ من كمال وسمو ، فقال الله منوهاً بشأنه :

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ . وَلَوْ كُنْتَ فَضًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ . فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ . فَلِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ . إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ » (2)

(1) هود : 54 - 56 •

(2) آل عمران : 159 •

وأما التريية بالحوار فأكثر ما تكون في القصص الطويلة التي تتسع للجدال . والقرآن يختار من هذا الجدال لقطات من الأقوال الموحية ، فيصوغها في عبارات موجزة بليغة ، تفيض حكمة ورشدا فيما يجري على السنة الهداة ودعاة الحق الذين يسلكون في الحوار مسلك الحكماء ، أو ضلالا وزيفا فيما تنضح به القلوب المريضة والنفوس المنحرفة .

وقد يعقب على تلك الأقوال بتزكية الحق وتأبيده ، ودحض الباطل وتفنيده ؛ كما جاء في جدل فرعون ورجل مؤمن من آله يواجهه هو وقومه بالحق في شجاعة وثبات .

« وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرِّحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ
 الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى اللَّهِ مُوسَى . وَإِنِّي لأَظُنُّهُ
 كَذَابًا . وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ، وَصَدَّ عَنِ
 السَّبِيلِ . وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ . وَقَالَ الَّذِي آمَنَ : يَا
 قَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ
 الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ . مَنْ
 عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا . وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا
 مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ
 الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ . وَيَا قَوْمِ مَالِي
 أَدْعُكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ؟ تَدْعُونَنِي
 لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَأَنَا

أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ؟؟ لَا جَرَمَ أَنْ مَا تَدْعُونَنِي
إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ .
وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ، وَأَنْ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ
النَّارِ . فَسَتَذَكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ . وَأَفْوُضُ أَمْرِي
إِلَى اللَّهِ . إِنَّ اللَّهَ بِصَيْرُ بِالْعِبَادِ . فَوَقَّاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا
مَكَرُوا . وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (1)

فالقرآن إذ يُفسح في قصصه مجال القول لخصوم الحق
ودعاة الفتنة ، فإنما ليكشف عن زيغهم وضلالهم ، ولينبه إلى
فساد رأيهم وباطل قولهم ، كما ورد على لسان السامريّ - وقد
صاغ ابنى اسرائيل عجلا من حليّ يُسْمَعُ له خوار، ليعبدوه أثناء
غياب موسى في معاد التواراة - أن موسى نسي ربّه هنا ، وذهب
يطلبه :

« فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ . فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً
جَسَداً لَهُ خُورٌ . فَقَالُوا : هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى .
فَنَسِيَ . أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ، وَلَا يَمْلِكُ
لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ؟ » (2)

• (1) غافر : 36 - 45 .

• (2) طه : 87 - 89 .

« وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ . أَلْسَمُ يَسْرُونَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْتَدِيهِمْ سَبِيلًا ؟ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ » (1)

ونلاحظ أن الحوار الموجّه إلى الحقّ في القصص القرآني يعتمد على المنطق العقلي أكثر من اعتماده على الاستهواء العاطفي ، لأنّ أرقى درجات الإيمان، وأزكى وسائل التربية ما قام على النظر والتدبّر .

وقد أورد ابن حزم القول مفصّلاً في كتابه : «الاحكام في فصول الاحكام» تحت عنوان « باب في اثبات حجج العقول» ردّاً على من قال : لا يُعلم شيء إلاّ بالخبر ، وهم جمهور أهل السنّة . «فبطل أن يُعلم صحّة الخبر بنفسه ، إذ لا فرق بين صورة الحقّ منه وصورة الباطل ، فلا بد من دليل يفرّق بينهما . وليس ذلك إلاّ بحجّة العقل المفرّقة بين الحقّ والباطل (2) .

وفي بعض الحوار إرشادٌ لطرق المحاجّة والمناقشة وبيان الحقّ ، وإرشاد إلى الخلق الكريم والأدب العالي

فهود عليه السلام يدعو قومه إلى توحيد الله ، وإلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم فيقولون له : «إِنَّا لَنَسْرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَنظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ» فيردّ عليهم بقوله :

(1) الأعراف : II8 .

(2) انظر : الاحكام في اصول الاحكام : ج I / I3 - I4 .

«يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ، وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ
 الْعَالَمِينَ أَلْبَغْتِكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ
 أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ
 مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ . وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ
 مِّن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصُطَةً .
 فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (1)

فقد قابل سفاقتهم بحلمه ، وطيشهم برصانته ، وضلالهم
 بإسداء خالص النصح لهم . وإنّ هذا ليهدى إلى التخلّق بالحلم
 وكظم الغيظ ، ومقابلة الاساءة بالصفح والتسامح ، وخاصة في
 مجادلة الخصم .

علاج الذنب بالتوبة

اهمّ وسائل التربية القرآنية لوقاية النفس من آفات الزيف والانحراف تتمثل في التحذير من غواية الشيطان وغرور الباطل ، والتنفير من مغريات الهوى وفتنة الدنيا . دون اللجوء الى قتل الغرائز أو قهر النفس بالزهد في طبيبات الحياة ولذاتها المشروعة ، أو نحو ذلك مما يُسلم الانسان سلوكا معينًا لا يتفق وطبيعته البشرية ، أو يُقصيه عن بيئته وذاته كبشر قبل كل شيء .

«قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟ قُلْ هِيَ لِلذَّيْنِ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . قُلْ : إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (1)

وخير إسوة في الاعتدال والتخلّق بأخلاق القرآن وآدابه محمد صلى الله عليه وسلم . فهو يقول :

(I) الأعراف : 30 - 31 •

«على العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن تكون له ساعات : ساعة يناجى فيها ربّه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها في صنع الله . وساعة يدخل فيها لحاجته من المطعم والمشرب . وعلى العاقل ألاّ يكون ظاعنا إلا لثلاث : تزوّد لمعاد ، أو عمل لمعاش ، أولذة في غير محرّم» (1) .

ومن الوسائل الوقائية النفسيّة في القرآن وقصصه :
الترهيب من العقاب ، والترغيب في الشواب .

والخوف والرجاء كلاهما يقوّي إرادة الإنسان في الترفع على ضعفه ونزواته . ولقد كان أقلّ تدريب للإنسان الأول في العجّة هو تجنّب المحظور عليه ، لتقوية هذه الإرادة وإبرازها في مواجهة الإغراء والضعف . ولئن فشل في التجربة الأولى ، فإنّها بقيت رصيذا له ولذريته من بعده . لياخذوا منها درسا ينفعهم في مواجهة قوى الشر والفساد، دون أن يحملوا تبعّة الخطيئة الأولى ووزرها

وهذه الحقيقة في التصور الإسلامي تنقذ كاهل البشريّة من أسطورة الخطيئة الموروثة التي تقوم عليها التصورات المسيحيّة . والتي يقوم عليها في الكنائس ركام الطقوس فوق ما يقوم عليها من أساطير خطيئة آدم التي تلازم البشريّة كاللّعة المسلّطة على الرّقاب ، حتى يتمثل الإله في صورة ابن الانسان و«المسيح» يصلب ، ويحتمل العذاب للتكفير عن هذه الخطيئة ومن ثمّ يكتب الغفران لمن يتحد بالمسيح الذي كفر بدمه عن خطيئة آدم التي ورثتها البشريّة .

(I) رواه الحاكم وابن حبان في صحيحه .

إنّ الأمر في التصوّر الإسلامي أيسر من هذا وأوضح

لقد نسي آدم وأخطأ ، وتاب واستغفر ، فقبل الله توبته وغفر له ، وانتهى أمر تلك الخطيئة الأولى ولم يبق منها إلاّ رصيد التجربة الذي يعين الجنس البشريّ في صراعه الطويل المدى (1) .

ونقل ابن القيم الجوزية عن طائفة من العلماء : «أنّ التوبة من أحبّ القُربات إلى الله ، لأنّ فيها من الدّلّ والانسكاس والخضوع له سبحانه ما هو أحبّ إليه من طاعات كثيرة وقد كان داود عليه السلام بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة . ففي الحديث « ان الله يُحبّ العبد المُتُمتّن التوّاب » (2)

وفي الأثر الإسرائيلي : يارب ! أين أجذك ؟ قال : عند المنكسرة قلوبهم من أجلي » (3) .

وأورد ابن القيم بعض المواجيد الصوفية حول قصة آدم ، ومن ذلك :

«قيل باسان الحال في قصة آدم وخروجه من الجنة بذنبه : يا آدم إنّما ابتليتُك بالذنب لأنّي أحبّ أنْ أُظهر فضلي وجرودي وكرمي على من عصاني . يا آدم إنّ عَصَمْتُكَ وعصمت بنيتك من الذنوب فعلمتني من أجود بعفوي ومغفرتني وتوبتني ، وأنا التوّاب الرحيم ؟ يا آدم لم أخرجك منها نفيّاً لك عنها ، بل لتعود . يا آدم ذنب تدلّ به لدينا أحبّ اليها من طاعة تدلّ بها علينا

(1) انظر : في ظلال القرآن . ج : 8 / 152 - 153 .

(2) رواه احمد في مسنده .

(3) مدارج السالكين ٠٠٠ ج : 1 / 164 - 165 .

«يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب .
فمن علم أنني ذو قدرة على المغفرة غفرت له ولا أبالي» (1) .

لئن كانت هذه خطرات وجدانية ، أو شطحات صوفية
ليست لها ضوابط ، فإننا إذا سبرنا تأثير التوبة من الناحية
السيكولوجية أدركنا أنها أنجع علاج نفسي يُريح الإنسان من
آلام الشعور بالذنب ، ويخلصه من الاضطرابات العصبية الناتجة
عن هذا الشعور كلما غلبته على أمره ثورة شهوة أو سورة
غضب لم تؤدّ إلى قتل النفس التي حرم الله إلاّ بالحق . فهي
رحمة لمن نسي ثم تذكر ، وغوى ثم تبصر ، وأذنب ثم استغفر :

« وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ
إِلَّا اللَّهُ ؟ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ .
أُولَٰئِكَ جَزَاءُ هُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (2)

فليست التوبة إذن إلاّ وسيلة لمراقبة النفس وعلاجها لانخرام
توازنها تحت وطأة الخطيئة ، وصيانة لها من اليأس الذي
قديودي بها إلى الانهيار . فيها يعيد الانسان تماسكه ، ويستأنف نشاطه
وسيره على نهج قويم ، لأنّ مما يزيد في حيرته وآلامه
النفسية شعوره بالإثم .

(1) المصدر السابق : ج : I / 166 - 167 .

(2) آل عمران : 135 - 136 .

وفي قصة داود عليه السلام درسٌ بليغ في الحرص على محاسبة النفس وكبح جماحها عندما يخطر لها خاطر السوء . والله تعالى يحاسب على ما تضره الأنفس كما قال جل ثناؤه « وَإِنْ تَبُدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ » (1) : وهذا أسلوب حكيم من أساليب القرآن لإصلاح النفوس . فإنّ خاطرات السوء إذا تُركت بدون علاج أضرت بالسُّلوك وانعكست على الأفعال كما قال عثمان بن عفان رضي الله عنه : ما أسرت أحدٌ سريرة إلاّ أبدأها الله على صفحات وجهه وقلّبات لسانه (2)

ويحاول بعض المذنبين الذين لا تربطهم بالله صلة الدّين والعقيدة طردَ القلق والألم النفسي بطرق تزيد المشكل تعقيدا . فالبعض يتناول الخمر أو المخدّرات ، والبعض الآخر يحاول النسيان بالأكل والملذّات الجنسية أو غيرها . ولكن أغلب هذه الطرق تزيد في الاضطراب ، لأنها ترفع التوتر الجسمي والنفسي وتُحدث التعب (3)

وذكر الدكتور ج . بورسبي حالة شاب كان كان يشعر دائما بهمٍ وحزن . فكان يقاوم آلامه النفسية بواسطة الخمر ، إلى أن أصيب جسماً وانقلب اضطرابه العصبي إلى أعراض لأمراض مختلفة (4)

(1) البقرة : 284 .

(2) مع الانبياء في القرآن الكريم : 299 - 300 .

(3) أبو مدين الشافعي : الاطمئنان النفسي : 46 .

(4) Le Déséquilibre Psychique. P : 88

وهكذا تتجلى حكمة القرآن في علاجه للانحرافات النفسية والخطايا بفتح باب التوبة لمن شاء الرجوع إلى الجادة بصدق وعزم . وقد ضرب لنا أبلغ الأمثال بآدم وداود ويونس وموسى عليهم السلام . رغم أن الأنبياء قيادات روحية وفكرية اصطفاهم الله من الشأة الأولى وتخيّرهما من معادن أرقى : فهم ليسوا كسائر الناس ، وإن كانوا من تراب الأرض مثلنا على حد قول المتنبي : (1)

فَإِنَّ تَفَقُّقَ الْأَنْفَامِ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ
فجاء في توبة آدم : « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى : ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى » (2)

وفي استغاثه يونس : « وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ . فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ . إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ » (3) .

وفي استغفار موسى : « قَالَ : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ، فَاغْفِرْ لِي ، فَغَفَرَ لَهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » (4)

(1) محمد الغزالي : الجانب العاطفي من الاسلام : 192 .

(2) طه : 121 - 122 .

(3) الأنبياء : 87 - 88 .

(4) القصص : 16 .

فقد دلّت هذه الآيات على أنّ الاستغفار من الذنب ، أو الاستغاثة بالله عند الشدّة الحاصلة بالذنب هي عين التوبة التي لا يستغني عنها مؤمن حتى الأنبياء ، فإنّهم اعتذروا لله مقرّين بخطاياهم . وقد قيل : خير الناس أكثرهم شعورا بالخطيئة .

أمّا الاعتذار بالقدر أو حمل الذنب عليه ، فهو فرار من المسؤولية ، ومخاصمة لله ، واحتجاج عليه . وقد أخذ بعض المفسّرين بطواهر الآيات والأحاديث الدّاعية الى التوبة ، والمرغبة فيها ، فبنوا على ذلك أنّ في الحثّ عليها إغضاء عن المعصية التي يعقبها ندم ، بدعوى أنّ الاستمرار في الطاعة ، والشعور بقوة الثبات ، والتغلب على الهوى ممّا يحمل على الغرور والعجب ، ولكن من يدري فربّما ؟ فتتح لك بابُ التوبة الطاعة ، وما فتّح لك بابَ القبول . وربّما قضي عليك بالذنب فكان سبب الوصول . فإن قيل : ربّ معصية أو رثت ذلّاً وانكسارا ، خيراً من طاعة أو رثت عزّاً واستكباراً . قلنا : إن الذنب بمثابة السّم ، والتوبة ترياقه . والاستقامة هي الصّحة . ولا يلزم أن يشوبها دائماً عجب أو غرور . وصحة مستمرة خير من صحة يتخلّلها مرض قد يطول أو يستمرّ فيؤدى إلى الهلاك (1)

والحقيقة أنّ الرقيب الذي هو الضّمير القائم على الأخلاق ، والذي هو في صراع متواصل مع الرغبات المكبوتة المنافية لها ليس دائماً قوة فائزة منتصرة . وقد عرف الأخلاقيون هذه الحقيقة فاتجهت جهودهم الى تقوية الضوابط الأخلاقية الواقية ، ولكنهم شعروا في الوقت نفسه أنّ الرقيب قد يبلغ

(1) ابن القيم الجوزية : مدارج السالكين : ج : I / 163 .

حدًا شديدًا من الضغط لدوافع الإنسان وكتبها ، حتى يقع فريسة
لأمراض عصبية مختلفة ، بدلا من أن يزداد مناعة خلقيّة .

فالتوبة بهذا الاعتبار دليل ضمنيّ على ضرورة
التجوء إلى التنفيس بعض الشيء عن تلك الدوافع في ظروف
استثنائية ، بدلا من الاشتداد في ضغطها وكبحها . وهي في الآن نفسه
بلسم لآلام لدغ الذنب الذي قد يتطور إلى قلق نفسيّ مريع . بل
قد يمرض الإنسان تكفيرا للذات عمّا جت (1)

ولكن يجب اعتبار أن بعض الآثام لا تكفرها التوبة
لتعلقها بحق الإنسان ، كما تدلّ على ذلك قصة هابيل وقابيل (2) .
كما يجب اعتبار أن من شروط قبول التوبة الندم السريع ،
والإقلاع عن الذنب .

«إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ
ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن مِّن قَرِيبٍ ، فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ
السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ : إِنِّي
تُبْتُ الْآنَ ، وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ» (3)

لذلك لم يقبل الله توبة فرعون حين أدركه الغرق ، لأنّه لم
يعد يملك النجاة ، ففقد الإرادة والاختيار وحرية التصرف :

(1) محمد كامل النحاس : سيكولوجية الضمير : 14 •

(2) المائدة : 27 - 31 •

(3) النساء : 17 - 18 •

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ
وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ :
آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ،
وَأَنَا مِنَ الْمُنْكَرِينَ . آ لَآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ . فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ
خَلْفَكَ آيَةً . وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ» (1)

فلا مبرر إذن لإبطاء أو انتظار . فالله سبحانه كما قال
رسوله صلى الله عليه وسلم : «يسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ،
ويسط يده بالنهار ، ليتوب مسيء الليل» (2) .

فعلى المؤمن أن يجدد نفسه ، وأن يعيد تنظيم حياته ، وأن يستأنف
دوما مع ربه علاقة أفضل ، وعملا أكمل ، وعهدا يُجرى على فمه وقلبه
هذا الدعاء المحمدي : (3)

« اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ . خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ ،
وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ . أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتَ . أَبُوءُ
لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ . وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ
إِلَّا أَنْتَ » (4) .

(1) يونس : 90 - 92 .

(2) رواه مسلم .

(3) انظر الجانب العاطفي من الاسلام : 204 .

(4) رواه البخاري .

فهرس الآيات

(2) سورة البقرة

- 8/7 - ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر 552
 32/29 - وإذ قال ربك للملائكة 412
 39/35 - وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة 103
 39/37 - فاما يأتينكم منى هدى 377
 47 - يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم 209
 48 - واتقوا يوما لا تجرى نفس عن نفس شيئا 210
 50 - وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم 437
 55 - وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك 212
 60/58 - وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية 98
 74/65 - وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم 292
 75 - أفنتطمعون أن يؤمنوا لكم 126
 79 - وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة 373
 83 - وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل 351
 86 - وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب 81
 88 - وقالوا قلوبنا غلف 372
 90 - وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله 213 - 119
 95/94 - قل إن كانت لكم الدار الآخرة 211
 112/111 - وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا 211
 118 - وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله 217
 124 - وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات 194
 129 - ربنا وابعث فيهم رسولا منهم 118
 140 - تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم 386
 147 - والكل وجهة هو موليها 388
 166/164 - إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا 389
 169 - وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله 476 - 390
 209 - فان زلتم من بعد ما جاءكم البينات 493

- 214 - وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه
 251/246 - ألم تر إلى الملا من بنى إسرائيل
 251/250 - قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا
 257 - ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه
 259 - أو كالى مر على قرية وهى خاوية على عروشها
 260 - وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى
 84 - وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم ..

(3) سورة آل عمران

- II - كنتم خير أمة أخرجت للناس
 22 - إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيئين
 37 - كلما دخل عليها زكرياء المحراب
 38 - هنالك دعا زكرياء ربه
 41/38 - قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة
 40 - قال رب أنى يكون لى غلام
 44 - وما كنت لديهم إذ يختصمون
 52 - فلما أحس عيسى منهم الكفر
 59 - إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم
 62 - إن هذا لهو القصص الحق
 67/66 - ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا
 68 - وقالت اليهود عزيز ابن الله
 120/II8 - يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة
 136/135 - والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم
 137 - قد خلت من قبلكم سنن
 140 - وتلك الأيام نداولها بين الناس
 147/146 - وكأى من نبيىء قتل معه ربيون كثير ..
 159 - فيما رحمة من الله لنت لهم
 185 - كل نفس ذائقة الموت
 198/196 - لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ..

(4) سورة النساء

- 18/17 - إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء ..
 28 - يريد الله أن يخفف عنكم
 58/57 - وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم ..

- 62 - وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً 500
 81 - أفلا يتدبرون القرآن 146
 III - ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه 386
 II3 - وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة 83
 I71 - يا أهل الكتاب لا تغفلوا فى دينكم 228

(5) سورة المائدة

- I2 - ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل 279
 I8 - وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله 211
 20 - وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله 210 - 201
 31/27 - واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق 596
 28 - لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى 550
 48 - وأنزلنا إليك الكتاب بالحق 84
 66/65 - ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا 579
 77/74 - لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح .. 487
 77 - ما المسيح ابن مريم إلا رسول 564
 81/80 - لمن الذين كفروا من بنى إسرائيل 569
 III - وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى 242
 II5/II2 - إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم 240
 II8/II6 - وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم 492 - 232

(6) سورة الأنعام

- 9 - ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً 216
 26 - ومنهم من يستمع إليك 162
 35/34 - ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا 312
 35 - قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون 335
 51 - ولا أقول لكم عندى خزائن الله 337
 52 - ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى .. 315
 54 - وكذلك فتنا بعضهم ببعض 395
 79/75 - وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات 260 - 225
 82 - وكيف أخاف ما أشركتم 446
 90/87 - وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه 231
 110 - ونقلب أفئدتهم وأبصارهم 442
 116 - وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك 452

- 124 - الله أعلم حيث يجعل رسالاته 366
 132/131 - يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل .. 397
 148 - سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا 476
 164 - ولا تكسب كل نفس إلا عليها 102

(7) سورة الأعراف

- 10 - ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معاش 101
 17/12 - قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك 413
 16/15 - قال فيما أغويتنى لأقعدن لهم 549
 22/18 - فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة 400
 26 - يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان 550 - 137
 31/30 - قل من حرم زينة الله التى أخرجت لعباده 589
 34 - ولكل أمة أجل 190
 56 - وادعوه خوفا وطمعا 435 - 445
 59/58 - لقد أرسلنا نوحا إلى قومه 142
 68/65 - قال يا قوم ليس بى سفاهة 588
 68 - واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح 567
 73 - وإلى ثمود أخاهم صالحا 416
 86 - ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها 185
 87 - قال المملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك 419 - 556
 88 - قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم 556
 99/96 - ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم 580
 98/97 - أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا .. 449
 123/122 - قال أأمنتم به قبل أن أذن لكم 370
 126 - وقال المملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه .. 154 - 370
 130 - ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين 447
 132 - وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها .. 495
 135/134 - ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى .. 249 - 496
 154/148 - واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم .. 367 - 587
 151/150 - ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا .. 96
 154 - ولما سكنت عن موسى الغضب أخذ الألواح .. 494
 172 - وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم 396 - 245
 176 - فاقصص القصص لعلهم يتفكرون 85

- I85 - أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض .. 260
 I95/I94 - إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم 128
 20I - إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان 552

(8) سورة الأنفال

- 25 - واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلمو منكم خاصة 33I - 568
 30 - وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك 124
 3I - وإذا تنلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا 162
 32 - وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك 205
 38 - قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم 202
 53 - ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم 199
 55 - كدأب آل فرعون والذين من قبلهم 474
 68/67 - ما كان لنبيء أن يكون له أسرى حتى يثخن 82

(9) سورة التوبة

- 6 - وإن أحد من المشركين استجارك فأجره 490
 3I - اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله 384
 II5 - وما كان الله ليضل أقواماً بعد إذ هداهم 442
 II8 - وعلى الثلاثة الذين خلفوا 269

(10) سورة يونس

- I2 - وإذا مس الإنسان الضر دعانا 378
 22/20 - وإذا أذقتنا الناس رحمة من بعد ضراء 249
 42 - ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم .. 433
 70 - واتل عليهم نبأ نوح 3I6
 73 - فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك 3I6
 78 - قالوا أجهتتنا لثلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا 2I4
 88 - وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملاه زينة 443
 90 - آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل 437
 90 - وجاوزنا بنى إسرائيل البحر 490 - 597
 92 - فالיום ننجيك بيدنا لتكون لمن خلفك آية 224
 98 - فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها 546

(II) سورة هود

- IO - وما آمن معه إلا قليل 393
 I2 - فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك 334

- 27/25 - لقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين
 27 - قال الملأ الذين كفروا من قومه
 30/29 - وما أنا بطارد الذين آمنوا
 34/31 - ولا أقول لكم عندى خزائن الله
 33/32 - قالوا يا نوح قد جادلتنا
 43/41 - وهى تجرى بهم فى موج كالجبال
 43 - وقيل يا أرض ابلعى ماءك
 46/45 - ونادى نوح ربه
 49 - تلك من أبناء الغيب نوحىها إليك
 52 - ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه
 53 - قالوا يا هود ما جئتنا ببينة
 55/54 - قال إنى أشهد الله وأشهدوا أنى برىء ..
 56 - إن ربي على صراط مستقيم
 59/58 - وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم
 62 - أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا
 75/68 - ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى
 70 - فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ..
 74 - إن إبراهيم لحليم أواه منيب
 83/77 - ولما جاءت رسلنا لوطا سييء بهم
 95/83 - وإلى مدين أخاهم شعيبا
 85 - واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم
 87 - أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا
 90/89 - ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى
 91 - قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول
 99/96 - ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين
 102 - فلولا كان من القرون من قبلكم
 119 - وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به

(12) سورة يوسف

- 3 - نحن نقص عليك أحسن قصص
 6 - وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل
 18/16 - وجاءوا أباهم عشاء يبكون
 21 - وقال الذين اشتراه من مصر لامراته
 97 - 440

408	28/23 - وراودته التي هو في بيتها
429 - 404	25 - واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر
405	29 - يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك
415 - 404	32/30 - وقال نسوة في المدينة
402	32 - فلما رأيته أكبرته وقطعن أيديهن
415 - 408	33 - رب السجن أحب إلى مما يدعونني إليه
566 - 555	37 - إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله
428	50 - وقال الملك اتنوني به
429 - 406	53/51 - قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف
387	53 - وما أبرئ نفسي • إن النفس لأمارة بالسوء
570	56 - وكذلك مكنا ليوسف في الأرض
396	87 - يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه
570	90 - قال أنا يوسف وهذا أخى
570	92 - قال لا تثريب عليكم اليوم
555	101 - رب قد آتيتنى من الملك
521	102 - ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك
394	103 - وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين
336 - 130	110 - حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا
244 - 221 - 149	111 - لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب

(13) سورة البرعد

215	6 - ويستعجلونك بالسبيئة قبل الحسنة
197	8 - وكل شىء عنده بمقدار
180	11 - إن الله لا يغير ما بقوم
179	13 - ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء
565	39 - ولقد أرسلنا رسلا من قبلك

(14) سورة إبراهيم

217	13 - وقال الذين كفروا لرسلمهم
547	18 - مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد
174	22 - وقال الشيطان لما قضى الأمر
393 - 379	36 - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها
555	40/37 - رب اجعل هذا البلد آمنا
569	38 - فمن تبعنى فإنه منى

(15) سورة الحجر

- 56 - قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون 397
85 - وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما 263

(16) سورة النحل

- 4 - خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين 379
18/10 - هو الذى أنزل من السماء ماء لكم 381
35 - وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا .. 418
76 - وضرب الله مثلا رجلين 386
109 - ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر 64
122/120 - إن إبراهيم كان أمة 364
125 - ادع إلى سبيل ربك بالحكمة 480

(17) سورة الاسراء

- 11 - ويدعو الانسان بالشكر دعاءه بالخير 380
17/16 - وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها .. 207
59 - وما منعنا أن نرسل بالآيات 217 - 202 - 138
59 - وآتينا ثمود الناقة مبصرة 329
70 - ولقد كرمنا بنى آدم 393 - 216
77/76 - وإن كادوا ليستفزونك من الأرض 218
84 - قل كل يعمل على شاكلته 388
89 - ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن 114
93/90 - وقالوا لن نؤمن لك 330
95/94 - وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى 215
101 - ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات 370 - 217

(18) سورة الكهف

- 8/7 - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها 78
29/9 - أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم 348
13 - نحن نقص عليك نبأهم بالحق 85
18/17 - وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم 90
23 - فلا تمار فيهم إلا مرءا ظاهرا 339
24 - ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا 338
25 - ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين 97
26 - الله أعلم بما لبثوا 339

- 257 واضرب لهم مثلا رجلين 42/32
 379 ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل 53
 357 - 172 وإذ قال موسى لفتهاه 81/59
 172 هل أتبعك على أن تعلمني 66
 338 ويسألونك عن ذى القرنين 82

(19) سورة مريم

- 108 - 106 قال رب إنى وهن العظم منى 7
 403 واذكر فى الكتاب مريم 20/15
 350 قالت إنى أعوذ بالرحمن منك 18
 437 - 350 قالت يا ليتنى مت قبل هذا 23
 240 فأتت به قومها تحمله 33/27
 363 واذكر فى الكتاب إبراهيم 48/40
 419 أرأغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم 46

(20) سورة طه

- 563 - 337 وهل أتاك حديث موسى 47/8
 429 وما تلك بيمينك يا موسى 17
 430 قال خذها ولا تخف 21
 416 فاستياها فقولا إنا رسولا ربك 47/45
 262 قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه 54/48
 586 فكذلك ألقى السامرى 89/87
 379 - 136 ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى 124/115
 101 فوسوس إليه الشيطان 120
 594 وعصى آدم ربه فغوى 122/121

(21) سورة الأنبياء

- 432 ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث 2
 381 - 207 وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة 15/11
 132 وما أرسلنا قبلك من رسول إلا يوحي إليه 25
 380 خلق الانسان من عجل 36
 130 ولقد استهزىء برسول من قبلك 41
 38 ثم أرسلنا رسالنا تترى 44
 414 وتالله لا أكيدن أصناتمكم 57
 226 فجعلهم جنادا إلا كبيرا لهم 58

- 76/66 - قال أنتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم .. 473 - I31
 79/67 - قالوا حرقوه وانصروا آلهتهم 354 - 203
 75/74 - ولوطا آتيناه حكما وعلما 94
 84/82 - وأيوب إذ نادى ربه 583 - 284
 84 - رحمة من عندنا وذكرى للعابدين 570
 87 - لا إله إلا أنت سبحانك 594 - 436
 88 - فاستجبنا له ونجيناه من الغم 570
 89 - وذكرياء إذ نادى ربه 436
 98 - إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم .. 479
 105 - والقدر كتبنا فى الزبور من بعد الذكر 196

(22) سورة الحج

- 5 - يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث 483
 42/39 - وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح .. 336

(23) سورة المؤمنون

- 25/23 - ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه 143
 52/51 - يا أيها الرسل كلوا من الطيبات 204 - I35

(24) سورة النور

- 39 - ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور 547

(25) سورة الفرقان

- 2 - وخلق كل شىء فقدره تقديرا 178
 6/4 - وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك 162 - 67
 20 - وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون 564
 36/35 - ولقد آتينا موسى الكتاب 140
 39/38 - وعادا وثمودا وأصحاب الرس 568
 40 - ولقد أتوا على القرية التى أمطرت 573
 44/43 - أرايت من اتخذ إلهه هواه 452

(26) سورة الشعراء

- 51/9 - وإذ نادى ربك موسى 92
 17/16 - فأتيتا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين 212
 18/17 - قال ألم نربك فينا وليدا 418
 24/23 - قال فرعون وما رب العالمين 224
 29 - قال لئن اتخذت إلهها غيرى 371 - 224

- 51/50 - قالوا لا ضير إننا إلى ربنا منقلبون 125
 66/63 - فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر 345
 82/69 - واتل عليهم نبأ إبراهيم 417
 74 - قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون 214
 191/105 - كذبت قوم نوح المرسلين 135
 138/132 - واتقوا الذي أهدمكم بما تعلمون 424
 159 - وإن ربك لهو العزيز الرحيم 333
 167 - قالوا لئن لم تنته يا لوط الشكلون من المخرجين 218
 187/186 - وما أنت إلا بشر مثلنا 215

(27) سورة النمل

- 10 - يا موسى لا تخف 449
 16 - وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير 170 - 280
 25/17 - وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس .. 164
 28/20 - وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدى 413
 40/29 - قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلى كتاب 288
 43 - وصدّها ما كانت تعبد من دون الله 169
 76 - إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل 227

(28) سورة القصص

- 5/3 - إن فرعون علا في الأرض 154 - 352
 8/6 - وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه 96
 10 - وأصبح فرّاد أم موسى فارغاً 403
 11 - وقالت لأخته قصيه 85 - 403
 18/14 - ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها 368
 16 - قال رب إنني ظلمت نفسي 594
 20/19 - وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى 124
 27/23 - ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس 267
 24 - قال رب إنني لما أنزلت إلي من خير فقير 415
 30 - فلما أتاها نودي من شاطئ الوادئ الأيمن .. 349
 31 - يا موسى أقبل ولا تخف 449
 38 - يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري 385
 46/44 - ولما كنت بجانب الغربي إذ قضينا 226
 45 - لتندبر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك III

- 48 - فلما جاءهم الحق من عندنا 373
 59 - وكم أهلكتنا من قرية بطرت معيشتها 273
 75 - إن قارون كان من قوم موسى 385
 78 - ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا 82
 82/81 - فخسفنا به وبداره الأرض 576
 83 - تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا 359

(29) سورة العنكبوت

- 10 - أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين 310
 15 - وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله 554
 27 - ووهبنا له إسحاق ويعقوب 117
 34 - إنا منزلون على أهل هذه القرية 484
 36/40 - وإلى مدين أخاهم شعيبا 132
 38/40 - وعادا وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم 274
 43 - وتلك الأمثال نضربها للناس 246

(30) سورة الروم

- 9 - أو لم يسيروا في الأرض فينظروا 220
 41 - قل سيروا في الأرض فانظروا 547

(32) سورة السجدة

- 23 - ولقد آتينا موسى الكتاب 66

(33) سورة الأحزاب

- 6 - كان ذلك في الكتاب مسطورا 163
 21 - لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة 543
 38 - وكان أمر الله قدرا مقدورا 178
 62 - سنة الله في الذين خلوا من قبل 513

(34) سورة سبأ

- 13 - وقليل من عبادي الشكور 393
 15 - لقد كان لسبأ في مساكنهم آية 222
 35/34 - وما أرسلنا في قرية من نذير 206

(36) سورة يس

- 13/27 - واضرب لهم مثلا أصحاب القرية 158
 28/29 - وما أنزلنا على قومه 159
 30 - يا حسرة على العباد 324

- 380 ألم أعهد إليكم يا بنى آدم 61/59
 482 - 382 أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة 78/77

(37) سورة الصافات

- 121 وجعلنا ذريته هم الباقين 83/76
 225 فنظر نظرة فى النجوم فقال إني سقيم .. 89/88
 437 قالوا ابنوا له بنيانا 98/97
 362 فلما بلغ معه السعى III/102
 433 وفديناه بديع عظيم 107
 483 - 123 وإنكم لتمرون عليهم مصبحين 139/138
 441 ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين .. 173/171

(38) سورة ص

- III أجعل الآلهة إلها واحدا 4
 581 - 413 وهل أتاك نبأ الخصم 23/20
 558 ووهبنا داود سليمان 29
 283 واذكر عبدنا أيوب 42/41
 558 واذكر عبدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب 44
 376 إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين 70

(39) سورة الزمر

- 321 الله نزل أحسن الحديث 33
 396 قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم 50

(40) سورة غافر

- 314 أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله 28
 326 وقال رجل مؤمن من آل فرعون 33/28
 569 يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض .. 29
 587 - 371 وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا 37/36
 159 إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا 51
 120 ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا 77
 221 سنة الله التى قد خلت فى عباده 85

(41) سورة فصلت

- 574 فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة 12
 256 فأما عاد فاستكبروا فى الأرض 15/14
 333 وأما ثمود فهديناهم 16

- 42 - وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل 159
- 43 - ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك .. 43
- 50 - وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه .. 379
- 53 - سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم 258
- (42) سورة الشورى**
- II - شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا 84
- I4 - والذين يحاجون فى الله من بعدما استجيب له 478
- 52 - وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا 81
- (43) سورة الزخرف**
- I4 - وجعلوا له من عباده جزءا 479
- 30 - وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل 272
- 56/50 - ونادى فرعون فى قومه 271 - 3II
- 59/57 - فاستخف قومه فأطاعوه 390
- 59/57 - ولما ضرب ابن مريم مثلا 480
- (45) سورة الجاثية**
- 6 - تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق 169
- 24 - وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا 482
- (46) سورة الأحقاف**
- 26 - ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه 247
- 32 - ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض 330
- (47) سورة محمد**
- 16 - ماذا قال أنفا 432
- (49) سورة الحجرات**
- 6 - يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ 219
- 13 - يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى 210 - 375
- 14 - قالت الأعراب آمنا 114
- (51) سورة الذاريات**
- 5/4 - إنما توعدون لصادق 141
- 21 - وفى أنفسكم أفلا تبصرون 265
- 26 وبشرناه بغلام عليم 400
- 40/38 - وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون 140
- 53/52 - كذلك ما أتى الذين من قبلهم 325

(52) سورة الطور

34 - فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين 140

(53) سورة النجم

39/36 - أم لم ينبأ بما في صحف موسى 102

41/39 - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى 378

(54) سورة القمر

7/6 - فتول عنهم يوم يدعو الداعي 78

16/9 - كذبت قبلهم قوم نوح 506

20/12 - إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا 438

26/23 - كذبت ثمود بالنذر 438

31 - إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة 438

35 - نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر 570

(57) سورة الحديد

19 - اعلّموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو 383

(60) سورة الممتحنة

6 - لقد كان لكم فيهم إسوة حسنة 544

(61) سورة الصف

5 - فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم 442

(62) سورة الجمعة

6 - قل يا أيها الذين هادوا 212

(66) سورة التحريم

10 - ضرب الله مثلا للذين كفروا 402

11 - وضرب الله مثلا للذين آمنوا 401

(67) سورة الملك

9/8 - كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها 78

14 - ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير 266

(68) سورة القلم

4 - وإنك لعلی خلق عظیم 56

50/48 - فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت 380

(69) سورة الحاقة

8/4 - كذبت ثمود وعاد بالقارعة 94

13/12 - فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة 504

485 45/44 - ولو تقول علينا بعض الأقاويل

(71) سورة نوح

- 350 7 - وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم
545 I3/II - فقللت استغفروا ربكم إنه كان غفارا
26I 20/I3 - ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات ..
I0I I7 - والله أنبتكم من الأرض نباتا

(73) سورة المزمّل

- I38 I4 - إنا أرسلنا إليك رسولا

(75) سورة القيامة

- 388 I - لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة

(76) سورة الانسان

- 378 3/2 - إنا خلقنا الانسان من نطفة
8I 28 - نحن خلقناهم وشددنا أسرهم

(77) سورة المرسلات

- 382 20 - ألم نخلقكم من ماء مهين

(79) سورة النازعات

- 370 24/20 - فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى

(80) سورة عبس

- 382 20/I7 - قتل الانسان ما أكفره

(81) سورة التكوير

- I20 27 - إن هو إلا ذكر للعالمين

(86) سورة الطارق

- 382 8/5 - فلينظر الانسان مم خلق

(89) سورة الفجر

- 9I I4/6 - ألم تر كيف فعل ربك
494 I4 - فصب عليهم ربك سوط عذاب

(90) سورة البلد

4 - لقد خلقنا الانسان في كبد 377

(91) سورة الشمس

8/7 - ونفس وما سواها فألهمها 387

17 - كذبت ثمود بطغواها 348

(96) سورة العلق

5 - علم الانسان ما لم يعلم 377

7/6 - كلا إن الانسان ليطغى 379

(100) سورة العاديات

8/6 - إن الانسان لربه لكنود 379

فهرس الأحاديث

445	الأحمق من أتبع نفسه هواها
121	أربعة من العرب
197	إذا أراد الله إسعاد أمة
548	إذا أراد الله بالعبد خيرا
548	إذا ساءتلك سيئتلك
520	أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا
299	انظروا إلى البر
276	أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب
448	أنا أخوفكم لله
84	إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق
499	إن من البيان لسحرا
171	إن موسى قام خطيبا
434	إنه كان فى الأمم قبلكم محدثون
345	إنى أقول كما قال أخى يوسف
576	إنى معلمك كلمات • احفظ الله يحفظك
465	أى المؤمنين أعجب إليكم
277	بلغوا عنى ولو آية
314	بينما رسول الله يصلى
480	جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم
254	الخلق كلهم عيال الله
128	دخل النبىء صلى الله عليه وسلم مكة
556	الدعاء هو العبادة

501 فضل كلام الله على سائر الكلام
342 كان ملك
213 كان صلى الله عليه وسلم يقول في مرضه
458 كذبتما إنه منع الأسلام ثلاث
373 كلكم من آدم
197 كما تكونوا
346 لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا
277 لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم
340 لا يكسفان لموت أحد
345 لقد أودى موسى
520 لم يبق من النبوة
597 اللهم أنت ربي
448 لو تعلمون ما أعلم
213 ما زلت أجد ألم الطعام
61 ما من نبي إلا أوتى من الآيات
346 ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب
557 مثل الذى يذكر ربه
482 نعم • يبعث الله هذا
341 وددنا أن موسى صبر
573 وعزتى وجلالى
597 يبسط يده بالليل
345 يرحم الله لوطا
510 يا عبادى إنما هي أعمالكم

فہرست اسماء الانبیاء

آدم :

175 - 174 - 173 - 136 - 120 - 118 - 105 - 104 - 103 - 101 - 100
549 - 491 - 485 - 445 - 399 - 393 - 386 - 379 - 373 - 361 - 302
594 - 591 - 590 - 582 581

إبراهيم :

183 - 181 - 148 - 146 - 145 - 131 - 118 - 117 - 102 - 99 - 84
260 - 238 - 237 - 231 - 230 - 226 - 225 - 214 - 203 - 194
364 - 363 - 362 - 361 - 360 - 354 - 345 - 336 - 297 - 279
469 - 437 - 433 - 419 - 417 - 415 - 414 - 400 - 366 - 365
555 - 554 - 549 - 523 - 505 - 495 - 478 - 477 - 474 - 472
569 - 563 - 558

إسحاق :

555 - 523 - 401 - 400 - 364 - 238 - 237 - 231 - 145 - 117
558

إسماعيل :

238 - 237 - 231 - 146 - 111

أيوب :

583 - 582 - 570 - 559 - 558 - 284 - 283 - 231 - 127

داود :

580 - 569 - 559 - 558 - 557 - 413 - 337 - 280 - 231 - 230 - 193
594 - 593 - 591 - 581

زكرياء :

495 - 436 - 231 - 182 - 120 - 109 - 108 - 107 - 106 - 105

سليمان :

280 - 279 - 231 - 230 - 171 - 170 - 169 - 168 - 165 - 164
558 - 469 - 361 - 302 - 290 - 289 - 288 - 287 - 286

شعيب :

188 - 187 - 186 - 185 - 184 - 136 - 135 - 132 - 121 - 118
568 - 567 - 564 - 556 - 553 - 498 - 419 - 418 - 267 - 215

صالح :

420 - 416 - 331 - 329 - 328 - 327 - 187 - 134 - 121 - 118 - 74
568 - 567 - 553

عيسى (يسوع - المسيح) :

153 105 - 84 - 83 - 80 - 71 - 70 - 57
236 - 234 - 233 - 232 - 231 - 228 - 157
279 - 243 - 241 - 240 - 239 - 238 - 237
485 - 479 - 459 - 458 - 384 - 302 - 280
580 - 569 - 566 - 564 - 492 - 487 - 486
590

لوط :

203 - 187 - 136 - 135 - 131 - 118 - 99 - 95 - 94 - 89 - 88 - 87
402 - 401 - 366 - 364 - 361 - 345 - 336 - 231 - 229 - 218 - 216
568 - 564 - 553 - 547 - 485 - 420

محمد :

70 - 67 - 66 - 65 - 64 - 63 - 62 - 61 - 60 - 55 - 54 - 53 - 52 - 50
161 - 153 - 130 - 124 - 123 - 118 - 117 - 111 - 84 - 75 - 73
293 - 250 - 243 - 238 - 226 - 215 - 213 - 209 - 208 - 206 - 186
472 - 468 - 397 - 340 - 338 - 337 - 334 - 322 - 315 - 301 - 300
589 - 575 - 509 - 506 - 482

موسی :

117 - 102 - 100 - 98 - 96 - 92 - 83 - 80 - 73 - 70 - 69 - 68 - 66
145 - 144 - 141 - 140 - 132 - 127 - 126 - 125 - 124 - 123 - 118
208 - 201 - 200 - 192 - 184 - 181 - 172 - 171 - 167 - 154 - 151
262 - 249 - 226 - 225 - 224 - 223 - 218 - 217 - 214 - 212 - 210
292 - 291 - 279 - 276 - 274 - 272 - 271 - 270 - 269 - 268 - 267
348 - 345 - 341 - 337 - 336 - 325 - 313 - 302 - 299 - 297 - 296
369 - 368 - 367 - 366 - 360 - 357 - 354 - 353 - 352 - 350 - 349
440 - 430 - 418 - 417 - 416 - 415 - 401 - 373 - 372 - 371 - 370
560 - 559 - 495 - 491 - 474 - 462 - 458 - 451 - 449 - 446 - 442
594 - 587 - 586 - 585 - 582 - 562 - 561

نوح :

203 - 143 - 142 - 136 - 135 - 134 - 131 - 121 - 120 - 118 - 95
326 - 316 - 315 - 280 - 261 - 231 - 229 - 215 - 207 - 205 - 204
452 - 431 - 420 - 412 - 402 - 397 - 393 - 350 - 340 - 337 - 336

553 - 545 - 506 - 505 - 504 - 503 - 502 - 501 - 495 - 475 - 466
588 - 568 - 567

هارون :

462 - 416 - 370 - 367 - 231 - 230 - 212 - 193 - 140 - 96 - 93
562

هود :

546 - 485 - 453 - 420 - 359 - 257 - 187 - 145 - 134 - 121 - 118
587 - 583 - 568 - 567

يحيى (يوحنا) :

231 - 120 - 108 - 107 - 105

يعقوب :

516 - 513 - 509 - 396 - 364 - 231 - 230 - 160 - 117 - 109 - 106
558 - 555 - 542 - 529 - 528 - 527 - 526 - 525 - 524 - 523 - 522

يوسف :

406 - 405 - 403 - 396 - 349 - 348 - 345 - 279 - 231 - 161 - 160
511 - 509 - 440 - 429 - 428 - 415 - 414 - 410 - 409 - 408 - 407
523 - 522 - 521 - 520 - 518 - 517 - 516 - 515 - 514 - 513 - 512
534 - 533 - 532 - 531 - 530 - 529 - 528 - 527 - 526 - 525 - 524
570 - 569 - 566 - 555 - 542 - 541 - 540 - 539 - 538 - 536 - 535
572

يونس :

577 - 576 - 570 - 559 - 546 - 489 - 465 - 436 - 341 - 315 - 231
594

فهرس الأعلام

- ١ -

- | | |
|-------------------------------|---------------------------------|
| الأفرع : 25I | آدم = فهرس الأنبياء |
| إقليدس : 165 | آزر : 4I9 |
| البارقليط : 7I | الآلوسى : 305 - 303 - 279 |
| إليزابات : 107 | إبراهيم = فهرس الأنبياء |
| إمام الحرمين : 146 | إبراهيم بن محمد : 340 |
| امرؤ القيس : 79 | إبليس : 302 - 174 - 173 - 120 - |
| أمون - رع : 225 | 36I - 4I3 - 49I - 549 - 550 |
| أمية بن أبى الصلت : 74 - 75 - | أبى بن كعب : 17I - 357 |
| 77 - 78 - 79 | أحمد : 7I - 238 - 223 |
| أنس : 448 - 480 | إخوان الصفاء : 129 |
| أنكساغوراس : 263 | أدلو : 5I9 |
| أهل الكهف : 89 - 97 - 118 - | أرسطو : 19I - 235 - 473 |
| 270 - 338 - 339 - 439 - 483 - | إسحاق = فهرس الأنبياء |
| 49I | أبو إسحاق النسبى : 197 |
| الأوس : 127 | الاسكندر : 399 |
| أوفيسست كنت : 177 - 178 | إسماعيل = فهرس الأنبياء |
| أيوب = فهرس الأنبياء | أصحاب الأخدود : 100 - 322 - |
| | 342 |
| | أصحاب الأيكة : 135 - 184 - 259 |
| | أصحاب الرس : 259 |
| | أصحاب الفيل : 322 - 347 - 49I |
| | أصحاب القرية : 156 |
| | الأعشى : 286 |
| | الاغريق : 320 |
| | الأفغانى : 287 - 288 - 29I |
| | الأقباط : 210 |

- ب -

- البابليون : 210 - 226
- باسكال : 114
- الباقلانى : 64
- بحيرى : 62
- البخارى : 65 - 71 - 127 - 212
- برنيا : 236 - 237 - 239
- بشرفارس : 72

- ج -

- جابر بن عبد الله : 276
الجاحظ : 241 - 285
جالوت : 192 - 193 - 194 - 557
جبريل : 76
جبير بن مطعم : 461
جديس : 285 - 317
الجرجاني : 499
جعفر ابن أبي طالب : 243
جلال الدين الرومي : 515
أبو جهل : 205
جورج بورسي : 593
جيمس : 425 - 426 - 447

- ح -

- ابن أبي حاتم : 227
حام : 229
ابن حبان : 121
الحداد : 64 - 70 - 73 - 149 -
150 - 152
ابن حزم : 587
الحسن بن علي : 453
ابن حنبل : 282
حنا زكرياء : 73

- خ -

- خباب : 251
خديجة : 53 - 62 - 65 - 315 -
الخزرج : 127 - 241
خزاعة : 127
الخطيب الاسكافي : 143
الخطيب الشربيني : 280
ابن خلدون : 200 - 208 - 275 -

بطرس : 72

- أبو طالب : 125
بطليموس : 121 - 223
أبو بكر : 125 - 302 - 314
بولس : 234 - 235 - 236 - 237
بلقيس : 165 - 169 - 279 - 287 -
290 - 469
بلاشير : 66
بلال الحبشي : 66 - 125
بنيامين : 540
بوتيفار : 50
بولس : 234 - 235 - 236 - 237
البيروني : 153
بيكاسو : 175
البيهقي : 197

- ت -

- تبع : 285
التستري : 433
التفتزاني : 304
تميم الداري : 278
تور أندريه : 76
توسدال : 79
تولوسوي : 248
ابن تيمية : 323 - 434

- ث -

- ثمود : 74 - 91 - 94 - 121 -
122 - 132 - 134 - 135 - 138 -
187 - 214 - 217 - 223 - 259 -
274 - 285 - 286 - 322 - 326 -
327 - 328 - 329 - 330 - 332 -
333 - 348 - 416 - 424 - 438 -
442 - 461 - 467 - 568 - 574

- 394 - 520 خلف الله محمد : I27 - I46 -
 148 - I49 - I61 - I66 - I67 -
 I73 - 401 خولة بنت ثعلبة : 578
- د -
 داود (النبيء) = فهرس الأنبياء
 درمنقام : 62 - 63
 دروزة : I51 - I53
 دوركهايم : 425
 ديكاارت : I89
 الديللم : 241
 الديلمي : I97
- ذ -
 أبو ذر : I21
 ذو القرنين : 338 - 491
- ر -
 الرازي : I45 - I65 - I66 - I74 -
 243 - 285 - 392 - 428 - 429
 الرافضة : I71
 أبو رجاء العطاردي : I27
 الرومان : 320 - 399
- ز -
 الزركشي : I42
 زكرياء (النبيء) = فهرس الأنبياء
 الزمخشري : I44 - 245
 زهير : 286
 زيد : 76
- س -
 سارة : I48 - 230
 سام : 229
- السامري : 586
 سبا : 222 - 322 - 454
 سبويه : I65
 أبو سفيان : 206
 سقراط : 265
 ابن سعد : 459
 سعديا الفيومي : 72
 أبو السعود : 431
 سلطان محمد الخراساني : 300
 سلمان الفارسي : 66 - 251
 سليمان (النبيء) = فهرس الأنبياء
 سمية : I25
 سنمار : 318
 سواع : I21
 سيمونيد : 519
 السيوطي : I42 - 304 - 481
 سيد قطب : 489 - 508
- ش -
 شاول : 229
 شداد بن الأسود : 450
 شدياق : 72
 شعيب (النبيء) = فهرس الأنبياء
 شمعون : 281 - 450 - 542
 الشهرستاني : 482
 شو : 223
 شيخو : 77
- ص -
 صالح (النبيء) = فهرس الأنبياء
 الاصطخري : 223
 ابن الصلاح : 304

عبد الوهاب النجار : 223
عتبة بن ربيعة : 461 - 575
عثمان : 278
عرافي : 356
عروة بن الزبير : 213 - 314
عزيز : 160
ابن العسال : 72
ابن عطاء الله : 304
عقبة بن معيط :
عكرمة : 146
علي : 278 - 300 - 301 - 480 -
580
علية بنت المهدي : 512
عمار بن ياسر : 125
عمر : 278 - 302 - 322 - 459 -
460
عمران : 184
عمرو بن قميئة : 285
عمرو بن يربوع : 318
عمون : 229
عوج بن عنق : 279 - 280
عون بن عبد الله : 321
عيسى (المسيح) = فهرس الأنبياء
عيينة بن حصن : 251 - 315
- غ -
غب : 224
الغزالي : 72 - 302 - 433 - 444 -
471 - 473 - 520
عشترت : 230
- ف -
فتحى رضوان : 470
الفرس : 50 - 320

صهيب الرومي : 66 - 125 - 251 -
342
الصهيونية : 577
- ط -
أبو طالب : 62 - 315
طالوت : 191 - 192 - 193 - 196 -
229 - 557
طه حسين : 75
الطبري * ابن جرير : 64 - 67 -
251 - 298 - 299 - 486
الطرطوشي : 279
طسم : 285 - 317
طنطاوي جوهرى : 296
- ع -
عائشة : 54 - 213 - 301 - 346 -
543
عاد : 91 - 94 - 121 - 122 -
132 - 134 - 135 - 247 - 257 -
259 - 274 - 285 - 286 - 322 -
326 - 328 - 359 - 416 - 424 -
434 - 461 - 468 - 567 - 568 -
574 - 577 - 578
العاص بن وائل : 482
أبو العالية : 227
ابن عباس : 73 - 156 - 185 -
276 - 460 - 480 - 482 - 576
العبد الصالح (الخضر) : 171 -
172 - 279 - 341 - 348 - 357 -
491
عبد الله بن سلام : 66 - 73
عبد الله بن عمرو بن العاص : 314
عبد الله بن مسعود : 125

فرعون : 69 - 91 - 92 - 93 -
 96 - 125 - 126 - 127 - 132 -
 138 - 140 - 141 - 151 - 153 -
 154 - 212 - 217 - 223 - 224 -
 225 - 230 - 249 - 262 - 271 -
 272 - 273 - 274 - 285 - 313 -
 314 - 325 - 326 - 352 - 353 -
 360 - 369 - 370 - 372 - 385 -
 390 - 401 - 416 - 418 - 437 -
 442 - 446 - 447 - 451 - 474 -
 489 - 495 - 536 - 537 - 539 -
 540 - 559 - 560 - 562 - 585 -
 596 - 597 -
 فرايد : 376
 فلورنوا : 57 - 426
 فوالتيبر : 206

- ك -

كاموش : 230
 ابن كثير : 298
 كرتشمير : 83
 الكسائي : 166
 كعب الاحبار : 66 - 280
 كعب بن مالك : 269
 كنانة : 127
 كنعان : 229

- ل -

لامنس : 74
 لحم : 127
 لوبا : 425
 لوط (النبىء) = فهرس الانبياء
 لوقا : 107 - 255
 لويس الحادى عشر : 178
 ليونار : 58

- م -

ماركس : 179
 المتنبي : 396 - 594
 محمد (رسول الله) = فهرس الانبياء
 محمد إقبال : 305 - 473
 محمد عبده : 145
 مجاهد : 128 - 281 - 146 - 240 -
 مجاهد : 128 - 281 - 146 - 240
 المجوس : 203 - 241

- ق -

قابيل : 550 - 572 - 596
 قارون : 132 - 274 - 359 - 384 -
 385 - 464 - 575
 أبو القاسم الانصارى : 430
 قاليبو : 58
 قنادة : 281
 ابن قتيبة : 428
 قدار بن سالف : 348
 قريش : 61 - 112 - 113 - 127 -
 250 - 272 - 313 - 334 - 338 -
 345 - 450
 قستاف : (لوبون) : 54 - 55 -
 392 - 398 - 488
 القشيري : 428 - 433
 قضاة : 127

- ه -

- هابيل : 550 - 572 - 596
هارباك : 54
هارون (النبي) = فهرس الأنبياء
هارون : 73 - 240
هامان : 96 - 132 - 154 - 274 -
371 - 585
هرقل : 206
أبو هريرة : 61 - 573
هلال بن أمية : 269
الهند : 320
هنرى مارو : 69
هود (النبي) = فهرس الأنبياء
هيرودس : 237
هيزنبارق : 180

- و -

- وال ديورانت : 226 - 235
وبار : 285
ود : 121
ورقة : 65 - 66 - 71 - 218
وليام جيمس : 355 - 551
الواليد بن المغيرة : 456
وهب : 281
ويلز : 51

- ي -

- يحيى (النبي) = فهرس الأنبياء
ياجوج وماجوج : 302
يافت : 229
يعقوب (النبي) = فهرس الأنبياء
يعوق : 121
يهودا : 230 - 239
يوحنا : 243
يوسف (النبي) = فهرس الأنبياء
يونس (النبي) = فهرس الأنبياء

- مدين : I21 - I22 - I32 - I83
184 - 186 - 187 - 188 - 189
214 - 227
مرارة بن الربيع : 269
مرقس : 236
مريم : 73 - 105 - 227 - 228
232 - 238 - 239 - 240 - 243
250 - 399 - 402 - 437 - 480
486 - 491
المسعودى : 318
ابن مسعود : 534
مصطفى فهمى : 551
معاوية : 453
المعرى (أبو العلاء) : 391 - 392 - 396

المقداد : 125

ملكوم : 230

موسى (الرسول) = فهرس الأنبياء

ميمون العجرى : 410

ميسرة : 62

- ن -

النجاشى : 243

ابن النديم : 73

نسر : 121

النسفى : 73 - 156 - 169 - 304

النضر بن الحارث : 338

النعمان بن امرىء القيس : 318

نمرود : 302 - 477

نوبل : 180

نوت : 223

نوح (النبي) = فهرس الأنبياء

النوى : 168

فهرس أسماء الأماكن

- ر -

رومة : 235

- س -

سببا : 289 - 288 - 168

سدوم : 223 - 123

سيناء : 200 - 62

- ش -

الشام : 165 - 123 - 122 - 62

509 - 223 - 184

- ط -

الطائف : 223

الطور : 227

- ع -

عرفات : 113

عمان : 515

- ق -

قبرص : 236

- ك -

الكعبة : 314 - 53

- ا -

أحد : 190

الأرض المقدسة : 417 - 201 - 200

إرم : 285 - 91

أنطاكية : 236 - 156

أورشليم (بيت المقدس) : 152 - 98

- ب -

بئر صالح : 331

باريس : 75

بحيرة لوط : 122

بدر : 82 - 78

بصرى : 62

بطن محسر : 347

- ت -

تبوك : 331 - 269 - 223 - 122

346

تيما : 223

- ح -

الحبشة : 65

الحجاز : 223 - 184 - 122 - 76

الحجر : 346 - 223

حراء : 66 - 55

حلب : 123

345 - 326
المدينة (يثرب) : 66 - 76 - 127 -
578

- ه -

هجر : 515

- و -

وادي القرى : 62 - 122 - 223

- ي -

اليمن : 127 - 222

- م -

مأرب : 222 - 318 - 454

مجمع البحرين : 172

مدائن صالح : 223

مدائن لوط : 223

مدين : 62 - 184 - 188 - 267 -

415

مصر : 97 - 184 - 226 - 230 -

271 - 371 - 497 - 509 - 539 -

540

مكة : 53 - 61 - 63 - 64 - 67 -

76 - 91 - 94 - 112 - 123 -

124 - 128 - 151 - 162 - 218 -

مراجع الاطروحة

القرآن الكريم
الكتاب المقدس

(ترجمة الآباء اليسوعيين)
(بيروت 1882)

الإنجيل الرسمية
إنجيل برنبا

كتب التفسير

إرشاد العقل السليم إلى هزايا القرآن الكريم

محمد بن محمد العمادى أبو السعود
(مصر 1828)

بيان السعادة فى مقامات العبادة

سلطان الخراسانى
(طهران 1314 هـ)

التحرير والتنوير

محمد الطاهر ابن عاشور
(الدار التونسية للنشر)

تفسير الجلالين

محمد المحلى وعبد الرحمن السيوطى
(مصر م. صبيح)

تفسير القرآن العظيم

سهل التستري
(مصر 1908)

تفسير القرآن الكريم

محمود شلتوت
(مصر 1960)

التفسير القيم

محمد بن قيم الجوزية
(مصر 1949)

التفسير المنير لمعالم التنزيل

محمد النووى الجاوى
(مصر 1960)

تنوير المقباس من تفسير ابن عباس

أبو طاهر الفيروزابادى
(مصر 1960)

جامع البيان عن تأويل آى القرآن

محمد بن جرير الطبرى
(مصر 1954)

الجامع لأحكام القرآن

أبو عبد الله محمد القرطبى
(مصر 1967)

الجواهر في تفسير القرآن

طنطاوى جوهرى

(مصر 1351 هـ)

روح المعانى

محمد الآلوسى

(مصر 1301 هـ)

عمدة التفسير

عماد الدين ابن كثير

(مصر 1956)

في ظلال القرآن

سيد قطب

(بيروت 1967)

الكشاف

محمود جار الله الزمخري

(مصر 1925)

لطائف الاشارات

عبد الكريم القشيري

(مصر م . دار الكتاب العربى)

مجمع البيان

أبو على الطبرسى

(بيروت 1956)

مفاتيح الغيب

فخر الدين الرازى - تحقيق « عبد الحميد »
(مصر 1932)

المنار

محمد عبده ومحمد رشيد رضا
(مصر 1967)

النسفى

عبد الله بن أحمد النسفى
(مصر م . دار إحياء الكتب العربية)

كتب الحديث

الجامع الصغير

عبد الرحمن السيوطى

صحيح البخارى

محمد بن إسماعيل البخارى

صحيح مسلم

مسلم بن الحجاج النيسابورى

كتاب الشفاء

أبو الفضل عياض اليعصبى

المنتخب من السنة

المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

مراجع مختلفة

- 1 -

- الألوسى - محمود شكرى
بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب
(ط 2 مصر I342 هـ)
- إخوان الصفا
رسائل إخوان الصفا
(مصر I928)
- الاسكافى - محمد الحطيب
درة التنزيل وغرة التأويل
(مصر I327 هـ)
- الاصطخرى - على بن سعيد
المسالك والممالك
(مصر I96I)
- الاسكندرى - أحمد ورفاقه
المفصل فى تاريخ الأدب العربى
(مصر النموذجية)
- الأفغانى - جمال الدين
الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى
(مصر دار الكتاب العربى)
- إقبال - محمد
التجديد الدينى فى التفكير الإسلامى
(ت : عباس محمود) (مصر I955)
- أمين - أحمد
فجر الإسلام
(مصر I950)
- أمين - بكرى شيخ
التعبير الفنى فى القرآن
(ط I بيروت)
- إيدل - ليون
القصة السيكلوجية (ت) محمود
السمره
(بيروت I959)

- ب -

- إعجاز القرآن الباقلائي - أبو بكر
(مصر 1954)
- دراسات في الشعر والمسرح بدوي - مصطفى
(مصر 1960)
- يوسف في القرآن البقري - أحمد ماهر
(الاسكندرية 1971)
- دائرة المعارف البستاني - بطرس
(بيروت 1876)
- الروائع البستاني - فؤاد أفرام
(بيروت 1955)
- المجاني الحديثة البستاني - فؤاد أفرام
(بيروت 1946)
- مقال في الانسان بنت الشاطيء - عائشة عبد الرحمن
(مصر 1969)
- الجانب الالهي من التفكير الاسلامي البهي - محمد
(القاهرة 1967)
- الدين والدولة من توجيه القرآن
الكريم البهي - محمد
(بيروت 1971)
- الآثار الباقية عن القرون الخالية البيروني - محمد بن أحمد
(ليبزنج 1923)

- ت -

- تهذيب المنطق التفتراني - سعد الدين
(مصر 1315 هـ)

تيمور - محمود
دراسات فى القصة والمسرح
(القاهرة م. النموذجية)

ابن تيمية - تقى الدين أحمد
الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح
(مصر 1905)

- ث -

الثعالبي - أبو منصور
ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب
(مصر 1965)

- ج -

المحافظ - عمرو بن بحر
البيان والتبيين
(القاهرة 1932)
المحافظ - عمرو بن بحر
رسالة فى الرد على النصارى (ضمن
3 رسائل أخرى)
(م. السلفية 1342 هـ)

جاد المولى - محمد أحمد وزملاؤه
قصص القرآن
(مصر 1946)

الجرجاني - عبد القاهر
أسرار البلاغة
(القاهرة 1925)

جمعة - محمد لطفى
ثورة الاسلام وبطل الأنبياء
(مصر 1959)

الجندي - أنور
الاسلام والثقافة العربية فى مواجهة
تحديات الاستعمار ...
(مصر م. الرسالة)

الجندي - درويش
الرمزية فى الأدب العربى
(مصر 1958)

جيمس - وليام
إرادة الاعتقاد (ت) محمود حب الله
(مصر 1946)

- ح -

الحبابي - محمد عزيز
الشخصانية الإسلامية
(مصر دار المعارف)

الحداد
القرآن والكتاب
(بيروت)

ابن حزم - علي
الاحكام فى أصول الأحكام
(مصر 1345 هـ)

ابن حزم - علي
الفصل فى الملل والأهواء والنحل
(مصر 1317 هـ)

حسين - طه
فى الأدب الجاهلى
(القاهرة 1958)

حسين - طه
مرآة الإسلام
(القاهرة 1966)

الحكيم - توفيق
أوديب
(القاهرة م. النموذجية)

الحكيم - توفيق
فن الأدب
(القاهرة م. النموذجية)

الحوفى - محمد أحمد
مع القرآن الكريم
(مصر 1972)

- خ -

الخطيب - عبد الكريم
التعريف بالإسلام
(القاهرة 1965)

- خطيب - عبد الكريم
(القاهرة 1969)
قضية الألوهية بين الفلاسفة والدين
- خطيب - عبد الكريم
(القاهرة 1965)
القصص القرآني في منطوقه ومفهومه
- خطيب - عبد الكريم
(القاهرة 1956)
المسيح في القرآن
- ابن خلدون - عبد الرحمن
(بيروت 1961)
المقدمة
- خلف الله - محمد أحمد
(القاهرة 1965)
الفن القصصي في القرآن الكريم
- خلاف - عبد المنعم
(مصر ط دار المعارف)
المادية الاسلامية وأبعادها

- د -

- الدراز - محمد عبد الله
(الكويت 1970)
النبا العظيم
- دروزة - محمد عزت
(لبنان م. العصرية)
القرآن المجيد
- دويدار - أمين
(مصر 1953)
صور من حياة الرسول
- دى بوار
(القاهرة 1957)
تاريخ الفلسفة في الاسلام
(ت) أبو ريده
- ديورانتي - وال
(مصر م. لجنة التأليف والترجمة والنشر)
قصة الحضارة (ت) محمد بدران
وزكي نجيب محفوظ

- ذ -

الذهبي - سيد محمد حسين
التفسير والمفسرون
(القاهرة 1961)

- ر -

راجح - أحمد عزت
أصول علم النفس
(الاسكندرية 1957)

رضا - محمد رشيد
الوحي المحمدي
(مصر 1948)

رضوان - فتحي
الفكر الاسلامي والتطور
(الكويت م. دار القلم)

رمزي - إسحاق
علم النفس الفردي
(مصر 1919)

- ز -

أبو زهرة - محمد
محاضرات في النصرانية
(القاهرة 1966)

أبو زهرة - محمد
المعجزة الكبرى - القران
(بيروت 1970)

- س -

سادلر
العقل الباطن وعلاقته بالأمراض
التفسيية (ت) عباس حافظ
(مصر 1946)

سالم - سيد عبد العزيز
دراسات في تاريخ العرب قبل الاسلام
(الاسكندرية 1968)

- التبيان فى شرح ديوان المتنبى السقا - مصطفى ورفيقاه
(القاهرة 1936)
- خلق ودين سلامة - إبراهيم
(مصر 1954)
- الأسس النفسية للإبداع الفنى فى
الشعر سويف - مصطفى
(مصر 1959)
- الاتقان فى علوم القرآن السيوطى - الجلال
(مصر 1935)
- لباب النقول فى أسباب النزول السيوطى - الجلال
(القاهرة 1954)

- ش -

- الاطمئنان النفسى الشافعى - أبو مدين
(القاهرة دار الفتوح للطباعة)
- إلى القرآن الكريم شلتوت - محمود
(مصر دار الهلال)
- الملل والنحل الشهرستانى - محمد
(مصر 1320 هـ)

- ص -

- مباحث فى علوم القرآن الصالح - صبغى
(بيروت 1969)
- علم النفس صالبا - جميل
(دمشق 1948)
- عن القرآن صبيح - محمد
(مصر 1939)

ابن الصلاح - أبو عمرو
(الهند 1357 هـ)
فتاوى ابن الصلاح

- ط -

- طبارة - عفيف عبد الفتاح
(بيروت م. دار الكتب)
مع الأنبياء في القرآن الكريم
- طبارة - عفيف عبد الفتاح
(بيروت م. دار الكتب)
اليهود في القرآن
- الطرطوشي - أبو بكر محمد بن الوليد
(تونس 1959)
الحوادث والبدع

- ع -

- ابن عاشور - محمد الطاهر
(تونس 1964)
أصول النظام الاجتماعي والدولي في
الاسلام
- ابن عاشور - محمد الفاضل
(ط I تونس 1966)
التفسير ورجاله
- عبد - محمد
(مصر 1372 هـ)
رسالة التوحيد
- العدوى - محمد أحمد
(مصر 1935)
دعوة الرسل الى الله تعالى
- عرجون - محمد الصادق
(جلة 1391 هـ)
سنن الله في المجتمع من خلال القرآن
- العقاد - عباس محمود
(مصر م. دار الشعب)
إسلاميات
- العقاد - عباس محمود
(بيروت 1969)
الانسان في القرآن

العقاد - عباس محمود
التفكير فريضة إسلامية
(الكويت م. دار القلم)

العقاد - عباس محمود
الفلسفة الإسلامية
(مصر 1947)

العقاد - عباس محمود
المرأة في القرآن
(بيروت 1969)

- غ -

غردية - لويس - و.ج. قنواني
فلسفة الفكر الديني بين الإسلام
والمسيحية (ت) صبحي الصالح
وزميله
(بيروت 1967)

الغزالي - أبو حامد
جواهر القرآن
(مصر 1329 هـ)

الغزالي - أبو حامد
فضائح الباطنية
(القاهرة 1964)

الغزالي - أبو حامد
القسطاس المستقيم
(بيروت 1959)

الغزالي - أبو حامد
المنتقد من الضلال
(مصر 1308 هـ)

الغزالي - محمد
الجانب العاطفي من الإسلام
(القاهرة 1962)

الغزالي - محمد
ركائز الإيمان بين الدين والعقل
(بيروت 1967)

الغزالي - محمد
نظرات في القرآن
(القاهرة 1961)

غلاب - محمد
المعرفة عند مفكرى المسلمين
(القاهرة 1969)

- ف -

- فهى - مصطفى
الدوافع النفسية
(مصر دار مصر للطباعة)
- فهى - مصطفى
الصحة النفسية
(ط 2 القاهرة 1955)
- فهى - مصطفى
فى علم النفس
(القاهرة 1970)
- فهى - مصطفى
مجالات علم النفس
(القاهرة 1955)
- الفيروزابادى - محمد بن يعقوب
القاموس المحيط
(القاهرة 1938)

- ق -

- القاسمى - محمد جمال الدين
موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين
(القاهرة م. دار العهد الجديد)
- قاسم - محمود
المنطق الحديث ومناهج البحث
(مصر 1968)
- ابن قتيبة - محمد بن عبد الله
تأويل مختلف الحديث
(القاهرة 1326 هـ)
- قطب - سيد
التصوير الفنى فى القرآن
(مصر 1966)
- قطب - سيد
العدالة الاجتماعية فى الاسلام
(القاهرة 1964)

- قطب - محمد
(الكويت م. دار القلم)
دراسات في النفس الانسانية
- قطب - محمد
(ط 2 دمشق)
منهج التربية الاسلامية
- فولد تزيهر - إجنسس
(مصر 1948)
العقيدة والشريعة في الاسلام
(ت) يوسف موسى وزميله
- فولد تزيهر - إجنسس
(مصر 1955)
مذاهب التفسير الاسلامي
(ت) عبد الحلیم النجار
- قيتس - آثر ، وغيره
(مصر 1954)
علم النفس التربوي
(ت) إبراهيم حافظ وزميله
- ابن القيم الجوزية - محمد
(مصر 1956)
إعلام الموقعين عن رب العالمين
- ابن القيم الجوزية - محمد
(مصر 1323 هـ)
شفاء الغليل في مسائل القضاء
والقدر والحكمة والتعليل
- ابن القيم الجوزية - محمد
(مصر 1331 هـ)
مدارج السالكين

- ك -

- ابن كثير - إسماعيل
(القاهرة 1928)
قصص الأنبياء
- كارينجي - ديل
(بيروت م. دار الفكر)
التأثير في الجماهير عن طريق الخطابة
(ت) عزت صالح ورفيقه

مصادر التاريخ

كاشف - سيدة إسماعيل
(القاهرة 1960)

- ل -

روح الاجتماع (ت) طه حسين

(مصر م. دار الهلال)

لوبون - قستاف

حضارة العرب (ت) عادل زعيتر

(مصر 1948)

لوبون - ف

- م -

العقيدة في القرآن الكريم (بحث
قصير)

(بيروت م. دار الفكر)

البارك - محمد

قصص وعبر

(جدة • المطبعة اليوسفية)

المجنوب - محمد

القرآن والقصة الحديثة

محمد كامل حسين
(بيروت 1970)

مبادئ علم النفس العام

مراد - يوسف
(القاهرة 1966)

السد

المسعدى - محمود
(تونس 1955)

مروج الذهب

علي بن الحسين
(القاهرة 1958)

تطور الشعور الديني عند الطفل
والمراهق

المليجي - عبد المنعم
(مصر 1955)

القرآن والفلسفة

موسى - محمد يوسف
(مصر 1966)

مجمع الأمثال

الميدانى - أحمد
(مصر 1910)

- ن -

الظاهرة القرآنية
(ت) عبد الصبور شاهين

ابن نبى - مالك
(ط 2 القاهرة 1961)

سيكولوجية الضمير

النحاس - محمد كامل
(مصر م. الاعتماد)

النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن

الندوى - أبو الحسن على
(بيروت 1387 هـ)

الفهرست

ابن النديم - محمد بن إسحاق
(م. الرحمانية 1348 هـ)

العقائد النسفية

النسفى - عبد الله بن أحمد
(مصر 1321)

قناطر الخيرات

النفوسى - أبو طاهر إسماعيل
(القاهرة 1965)

بين الدين والعلم

نوفل - عبد الرزاق
(القاهرة م. الاستقلال)

نهاية الأرب فى فنون الأدب

النويرى - شهاب الدين أحمد
(القاهرة م. كوستاتسوماس)

- ه -

السيرة النبوية

ابن هشام - أبو محمد عبد الملك
(ط 2 مصر 1955)

هودس - جوزاف
قيمة التاريخ
(ت) وهيبة الخازن ورفيقه
(بيروت م. دار مكتبة الحياة)
هيكل - محمد حسين
حياة محمد
(مصر 1952)

- 9 -

وافي - علي عبد الواحد
ابن خلدون منشئ علم الاجتماع
(مصر م. الرسالة)

- 5 -

اليعقوبي - أحمد بن إسحاق
تاريخ اليعقوبي
(النجف 1358 هـ)

مراجع اجنبية

- Blachère. R.** Le Problème de Mahomet
(P.U.F. Paris 1952)
- Brockolman. C.** Geschichte Par Arabischen Litte-
rature Supplément.
(Loyde - 1937)
- Borcl. J.** Le Déséquilibre Psychique
(P.U.F. Paris)
- Durkheim. E.** Les formes élémentaires de la vie
Religieuse.
(P.U.F. Paris 1968)
- Flournoy.** Les principes de la psychologie
religieuse
(extrait des Archives. Psyche. T. 2. n° 9) (Paris 1903)
- Guyant. M.J.** L'irréligion de l'avenir
Esquisse d'une Morale sans obligation ni sanction
(Paris 1885)
- Janet. P.** La médecine Psychologique
(Flammarion. Paris 1928)
- Loti. P.** Le Roman d'un enfant
(Paris 1890)
- Michaud. Guy.** La Doctrine Symboliste (T. IV)
(Paris 1947)
- Risler J.** La Civilisation Arabe
(Paris 1956)
- Sprenager. A.** Das Leben und die lehre des Mo-
hamed
(Berlin 1861)

استدراك لبعض الاخطاء المطبعية

الصفحة	الخطأ	الصواب
70	لأن لم يعرفها	لأنه لم يعرفها
97	للقائع التاريخية	للقائع التاريخية
176	أن فكوة	أن فكرة
249	فلما وقع عليهم	ولما وقع عليهم
(التعليق) 273	(I) الأنعام : 76	(I) القصص : 57
296	في تفاصيل	أو في تفاصيل
297	العزير	العزير
316	على عشيرته	على عشيرته
(التعليق) 371	(I) الشعراء : 29	(I) الشعراء : 27
» »	(3) غافر	(3) الزخرف
» »	(4) الزخرف	(4) غافر
» 388	(2) القيامة : (I)	(2) القيامة : 2I
401	على نقيض ذلك امرأة لوط	على نقيض ذلك امرأة نوح وامرأة لوط
(التعليق) 432	(I) فاطر : 35	(I) فاطر : 19
» 438	(I) القمر : I2 - 20	(I) القمر : I8 - 20
512	افتنت بحسه	افتنت بحبه
531	ليسجننه	ليسجننه
546	فنعها إيمانها	فنعها إيمانها
(التعليق) 550	(I) الأعراف : 36	(I) الأعراف : 26
551	الانطلاق والارتقاء	الانطلاق ولارتقاء
(التعليق) 552	(2) المنار	(2) البقرة
» »	(3) البقرة	(3) المنار
563	بين أفرادها	بين أفرادها
580	منه يصدون	منه يصدون
587	(I) الأعراف : I18	(I) الأعراف : I48

انتهى طبع هذا الكتاب
بالشركة التونسية لفنون الرسم

STAG

20 نهج المنجى سليم - تونس

فى شهر ديسمبر 1974
